

تَهْنِئَاتٌ

الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى

تأليف

أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري

الشافعي المصري المعروف بالشعراني

من أعيان علماء القرن العاشر الهجري

هذبه

محيي الدين الطعمي

ومعه

البرق الساطع الأرقى

في شرح ما أشكل من الطبقات الكبرى

لمحيي الدين الطعمي

عبد اللطيف

عبد الوهاب بن أحمد بن علي



الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ — ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٩ / ١٠٣٨٩

حقوق الطبع محفوظة

دار الروضة — للنشر والتوزيع

٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر
٢٥٩١٣٤٢٤ — ٢٥٠٦٦٨٨٤ فاكس : ٢٥٩٢٧٣٦٤

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم على السادة العارفين بعظيم تجلياته، وأسعدهم بمنازلاته، وأوقفهم على بساط حضراته، سبحانه لأحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وكماله وقده، سبحانه هيم السادة العارفين منذ أن خلقهم في ألسنت بريكم في عالم الذر المكين، فظلوا سكارى بحبه، ولهى بعشقه، هم أهل حضرته، وهم جلاس قريته.

هذا وأصلي وأسلم على علم الشهود، ومعدن الحقائق والسعود، عروس القيامة، وساقى الندامى، بكأس المدامة، في دار الكرامة، وعلى آله وصحبه الغر المحجلين.

وبعد

فلطالما شغلتي تراجم الأولياء، والاعتناء بسيرهم رداً من الدهر، وصنفت في ذلك الكثير من المصنفات التي لم يسبقني إليها أحد ممن قبلي ولا من أبناء دهري، وهو تجديد إلهي في ثوب جديد، والله عليه شهيد، ورسوله ومن صالح المؤمنين عديد.

ولقد سبق وأن هذبت الطبقات الكبرى للإمام الشعراي رحمته الله، وأخذ المسودة مني أحد الناشرين ووعدني بالطبع ولكنه مات ولم يطبع الكتاب.

وبعد مرور أعوام كثيرة عاودتني الفكرة، بتهذيب الكتاب مرة أخرى، فقامت بذلك وقمت بإجراء تعليقات نفيسة على مادة الكتاب، رأيتها له في غاية الأهمية.

ونحن نعرف قدر الكتاب وقدر مؤلفه الامام الكامل مولانا عبدالوهاب الشعراي، والذي هو من أهم أعلام الصوفية المتأخرين، وبذلت في الكتاب جهد

جهد المقل، وقمت بحذف ما لا يليق بمؤلفه، ولا بسير الأولياء والعارفين بالله، وما لا يليق بتراجم الصوفية.

ولقد ابتلي الله عزوجل الامام الشعراني بمن يدس عليه في كتبه كما تحدث هو بنفسه عن ذلك في كتبه، وهذه منة الله في كل من ظهر نجمه وسطع طالعاه، يلاقي من يحقد عليه ويدس له السم في العسل.

وفي الحقيقة ان الجزء الأول من الكتاب سلم من الدس، ولكن لم يسلم منه الجزء الثاني، والذي امتلأ بتراجم المعاصرين له من شيوخ الصوفية، ممن عاصرهم وممن كان قبله بقليل وقد وردت حكايات هي أقرب لقلة الأدب والخروج عن الدين، رأينا حذفها من الكتاب ، وإخراجه في ثوب قشيب يليق بالامام الشعراني رحمته الله قلت: ولعل هذه النسخة تكون أصح نسخة ظهرت لهذا الكتاب، بعد تنقيتها من الخزعبلات والترهات والمدسوسات.

وقد قمت بالتعليق على ما غمض من بعض الحكايات، وشرح بعض الكلمات والمصطلحات ، وتصحيح بعض أسامي الشيوخ، وسمينا هذا التعليق (البرق الساطع الأرقى في التعليق على الطبقات الكبرى).

والله الموفق

محيي الدين الطعمي

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال سيدنا ومولانا وقدوتنا إلى الله تعالى، الشيخ الإمام العالم العامل، العارف بالله تعالى، إمام المحققين، وقدوة العارفين، ومربي الفقراء والمريدين، بأقوى قواعد التمكين، فاتح أفضال غوامض معنويات إشارات المحققين، ومعبر رموز مجالات مشكلات العارفين، واسطة عقد السالكين، وريحانة وجود الواصلين الذي أقامته القدرة الإلهية، ورتبته العناية الربانية، واللطائف الرحمانية، وسلك الطريق الإلهية متبعاً للكتاب العزيز والسنة المحمدية، وتفقه حتى وصل إلى الغاية في مذهب السادة^(١) الشافعية، وفتح الله عليه بالافتتاحات الربانية أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن الشعراوي الأنصاري طاب ثراه وجعل قبره روضة من رياض الجنة ونفعنا به وببركات علومه وأسراره ونفحاته في الدنيا والآخرة آمين:

الحمد لله الذي خلع على أوليائه خلع إنعامه فهم بذلك له حامدون، واختصهم بمحبته، وأقامهم في خدمته فهم على صلاتهم يحافظون، ودعاهم إلى حضرته وأظهر فيها مراتبهم فالسابقون السابقون أولئك المقربون، وفتح لهم أبواب حضرته، ورفع عن قلوبهم حجاب بعده فهم بين يديه متأدبون، ولأطفهم بوده وأمنهم من إعراضه وصدده ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢)، ونور بصائرهم بفضله وطهر سرائرهم، وأطلعهم على السر المصون، وصانهم عن الأغيار، وسترهم عن أعين الفجار لأنهم عرائس ولا يرى العرائس

(١) وانظر في ذلك كتابه الميزان ترى فيه عجائب من اجتهادات الشيخ الفقيه ووزنه لكلام الأئمة الأربعة بميزان هو أغلى من الذهب والياقوت.

المجرمون، فإذا مر عليهم ولي من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٨)، فمنهم المنكر لكراماتهم، ومنهم المنقص لمقاماتهم، ومنهم الثالب لأعراضهم، ومنهم المعترضون يعترضون على أحوالهم، ويخوضون بجهلهم في مقالهم، وبهم يستهزئ بهم ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥)، فسبحان من قرب أقواما واصطفاهم لخدمته فهم على بابه لا يبرحون، وسبحان من جعلهم نجوما في سماء الولاية، وجعل أهل الأرض بهم يهتدون، وسبحان من أباحهم حضرة قربه والمنكرون عليهم عنها مبعدون؛ فالأولياء في جنة القرب متعمون، والمنكرون في نار الطرد والبعد معذبون ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة شهد بها الموقنون، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ عبده ورسوله النور المخزون والسر المصون، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره^(١) الغافلون .

ويعد :فهذا كتاب لخصت فيه طبقات جماعة من الأولياء الذي يقتدى بهم في طريق الله عز وجل من الصحابة والتابعين إلى آخر القرن التاسع وبعض العاشر، ومقصودي بتأليفه فقه طريق القوم في التصوف من آداب المقامات والأحوال لا غير، ولم أذكر من كلامهم إلا عيونه وجواهره دون ما شاركهم غيرهم فيه مما هو مسطور في كتب أئمة الشريعة، وكذلك لا أذكر من أحوالهم في بدايتهم إلا ما كان منشطا للمريدين كشدة الجوع والسهر ومحبة الخمول وعدم الشهرة، ونحو ذلك أو كان يدل على تعظيم الشريعة دفعا لمن يتوهم في القوم أنهم رفضوا شيئا من الشريعة حين تصوفوا كما صرح به ابن الجوزي في الغزالي بل في حق الجنيد، والشبلي، فقال في حقهم :ولعمري لقد طوى هؤلاء بساط الشريعة طياً ، فيا ليتهم لم يتصوفوا^(٢) .

(١) المفروض «ذكرك» حتى يتوحد الكلام بما قبله في لغة الخطاب.

(٢) قلت: الصحيح الا يعتمد على كلام ابن الجوزي في تجريح القوم وتقديمهم، لكونه مخلط فهو =

قلت: وكذلك قال لي جماعة من أهل عصري حين اجتمعت بالفقراء واشتغلت بطريقتهم، وهذا الذي التزمته من ذكر عيون كلامهم فقط ما أظن أن أحداً ممن ألف في طبقاتهم التزمه إنما يذكرون عنهم كل ما يجدونه من كلامهم، وأحوالهم، ولا يفرقون بين ما قالوه، أو وقع منهم في حال البداية، ولا بين ما وقع منهم في حال التوسط والنهاية، ومن فوائد تخصيص عيون كلامهم بالذكر تقريب الطريق على من صح له الاعتقاد فيهم، وأخذ كلامهم بالقبول فإن المرید الصادق هو من إذا سمع من شيخه كلاماً فعمل به علي وجه الجزم واليقين ساوى شيخه في المرتبة، وما بقي له على المرید زيادة إلا كونه هو المفيض عليه.

ومن هنا قالوا: بداية المرید نهاية شيخه فإن ما قاله الشيخ، أو فعله أو آخر عمره هو زبدة جميع مجاهداته طول عمره، وسلكت في هذه الطبقات نحو مسلك المحدثين، وهو أن ما كان من الحكايات والأقوال في الكتب المسندة كرسالة القشيري والحلية لأبي نعيم، وصرح صاحبه بصحة سنده أذكره بصيغة الجزم، وكذلك ما ذكره بعض المشايخ المكملين في سياق الاستدلال على أحكام الطريق أذكره بصيغة الجزم لأن استدلاله به دليل على صحة سنده عنده، وما خلا عن هذين الطريقين، فأذكره بصيغة التمريض^(١) كيحكى ويروى، ثم لا يخفى أن حكم ما في كتب القوم كعوارف المعارف، ونحوه حكم صحيح السند، فأذكره بصيغة الجزم كما يقول العلماء: قال في شرح المهذب كذا قال في شرح الروضة كذا ونحو ذلك وختمت هذه الطبقات بذكر نبذة صالحة من أحوال مشايخي الذين أدركتهم في القرن العاشر، وخدمتهم زماناً، أو زرتهم تبركاً في مشايخ السلف، وجميعهم من مشايخ مصر المحروسة وقراها.

= تارة ينتصر لهم في مواضع ويؤلف في حقهم بعض الكتب كصفوة الصفوة وتارة ينتقدهم في بعض كتبه كتلبیس إبلیس، ومن كان بهذا الوصف فهو غير أمين على نقد القوم.

(١) ورد هكذا في كثير من النسخ القديمة والمخطوطة والمطبوعة بهذا اللفظ والصواب (التمريض).

ثم اعلم يا أخي أن كل من طالع في هذا الكتاب على وجه الاعتقاد وسمع ما فيه فكأنه عاصر جميع الأولياء المذكورين فيه وسمع كلامهم وذلك لأن عدم الاجتماع بالشيخ لا يقدر في محبته وصحبته، فإننا نحب رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين والأئمة المهتدين وما رأيناهم ولا عاصرناهم، وقد انتفعنا بأقوالهم واقتدينا بأفعالهم كما هو مشاهد، فإن صورة المعتقدات إذا ظهرت وحصلت لا يحتاج إلى مشاهدة صورة الأشخاص^(١)، ثم إن من طالع مثل هذا الكتاب ولم يحصل عنده نهضة ولا شوق إلى طريق الله عز وجل فهو والأموات سواء والسلام.

وسميته **بلوآح الأنوار في طبقات الأخيار** وصدورته بمقدمة نافعة تزيد الناظر فيه اعتقاداً في هذه الطائفة، إلى اعتقاده، وتشير من طرف خفي إلى أن الإنكار على هذه الطائفة لم يزل عليهم في كل عصر، وذلك لعلو ذوق مقامهم على غالب العقول، ولكنهم لكمالهم لا يغيرون كما لا يتغيرون كما لا يتغير الجبل من نفخة الناموسة، فأكرم به من كتاب جمع مع صغر حجمه غالب فقه أهل الطريق، فهو في جميع نصوص أهل الطريق ومقلديهم، كالروضة في مذهب الشافعي رحمته الله جعله الله خالصاً لوجهه الكريم، ونفع به مؤلفه وكتابه وسامعه والناظر فيه إنه قريب مجيب إذا علمت ذلك، فأقول وبالله التوفيق:

مقدمة

في بيان أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة^(٢)، وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وبيان أنها لا تكون مذمومة، إلا إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، وأما إذا لم تخالف، فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم فمن شاء فليعمل به، ومن شاء تركه ونظير الفهم في ذلك الأفعال وما بقي باب للإنكار، إلا سوء الظن بهم وحملهم على آراء، وذلك لا^(١) ولذلك صرح بعض العارفين أن من أكثر من قراءة كتب سيدي محيي الدين بن عربي فتح عليه ووجد أثر ذلك في نفسه وربما وصل بغير شيخ، قلت: ولا يشترط في ذلك كتب سيدي محيي الدين بعينها بل قد يكون ذلك في كتب القوم عموماً.

(٢) قلت: هو قول الجنيد رحمه الله فقد ورد عنه أنه قال: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة.

يجوز شرعاً. ثم اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف، عبارة عن علم انقذ في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة^(١) فكل من علم بهما انقذ له من ذلك علوم، وأدب، وأسرار، وحقائق تعجز الألسن عنها، نظير ما انقذ لعلماء الشريعة من الأحكام، حين عملوا بما علموه من أحكامهم، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق، كما أن من جعل علم المعاني والبيان علماً مستقلاً، فقد صدق، ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق، لكنه لا يشرف على ذوق ان علم التصوف تفرع من عين الشريعة، إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية، ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم، وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات، ومندوبات، وآداباً ومحرمات ومكروهات^(٢)، وخلاف الأولى نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئاً لم تصرح الشريعة بوجوبه، أولى من إيجاب ولي الله تعالى حكماً في الطريق، لم تصرح الشريعة بوجوبه كما صرح بذلك اليافعي وغيره.

وإيضاح ذلك: أنهم كلهم عدول في الشرع، اختارهم الله عز وجل لدينه، فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة، ولكن أصل استغراب من لا له إمام بأهل الطريق أن علم التصوف من عين الشريعة، كونه لم يتبحر في علم الشريعة، ولذلك قال الجنيد رحمه الله تعالى: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة رداً على من توهم خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره.

وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل إلا من تبحر في
 (١) قلت: هو قول الجنيد رحمه الله فقد ورد عنه أنه قال: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة.
 (٢) والأمر كما قاله الشيخ في الطبقات الوسطى أن الرجل لا يكمل بحال من الأحوال حتى يستخرج جميع أحكام الشريعة من النقطة التي تحت الباء.

علم الشريعة، وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعمامها وناسخها ومنسوخها. وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها، وغير ذلك فكل صوفي فقيه ولا عكس وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم، وقال القشيري : لم يكن عصر في مدة الإسلام، وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ، وتواضعوا له، وتبركوا به ولولا مزية وخصوصية للقوم^(١) لكان الأمر بالعكس انتهى.

قلت: وكفينا للقوم مدحاً إذعان الإمام الشافعي رحمته الله لشيبان الراعي حين طلب الإمام أحمد بن حنبل أن يسأله عن نسي صلاة لا يدري أي صلاة هي، وإذعان الإمام أحمد بن حنبل لشيبان كذلك حين قال شيبان: هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزأؤه أن يؤدب.

وكذلك كفينا إذعان الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله لأبي حمزة البغدادي الصوفي رحمته الله، واعتقاده حين كان يرسل له دقائق المسائل ويقول: ما تقول في هذا يا صوفي كما سيأتي بيان ذلك في ترجمة أبي حمزة رحمته الله، فشيء يقف في فهمه الإمام أحمد ويعرفه أبو حمزة غاية المنقبة للقوم، كذلك كفينا إذعان أبي العباس بن سريج للجنيد حين حضره وقال: لا أدري ما يقول ولكن لكلامه صولة^(٢) ليست بصولة مبطل، وكذلك إذعان الإمام أبي عمران للشبلي حين امتحنه في مسائل من الحيز، وأفاده سبع مقالات لم تكن عند أبي عمران، وحكى الشيخ قطب الدين بن أيمن رحمته الله أن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله كان يحث ولده على الاجتماع بصوفية زمانه، ويقول: إنهم بلغوا في الإخلاص مقاماً لم تبلغه وقد أشبع القول في مدح القوم، وطريقهم الإمام القشيري في رسالته

(١) قلت: وكفى أنه لم يمادى أحد إنساناً من الصوفية إلا وجعله الله عبرة لأهل عصره، وجعله عبرة لمن يعتبر، وصيره مثلة من المثلات، وانظر إلى ابن تيمية لما نصب العدا للصوفية كيف انتهى به أمره إلى السجن وما أصابه من المحن بسبب إساءة أدبه، وانظر إلى فعل الأولياء والمجاذيب في القرن التاسع والعاشر بمن كان يعارضهم من الملوك والأمراء والقضاة، حتى كان أحدهم يبصق في وجه الغوري ويصفه ويقابل ذلك بالرضا.

(٢) أى لكلامه صولة إلهية.

والإمام عبد الله بن أسعد اليافعي في روض الرياحين، وغيرهما من أهل الطريق، وكتبهم كلها طافحة بذلك، وقد كان الإمام أبو تراب النخشي أحد رجال الطريق رحمته الله يقول: إذا ألف العبد الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقية في أولياء الله.

قلت: وسمعت شياخي ومولاي أبا يحيى زكريا الأنصاري شيخ الإسلام يقول: إذا لم يكن للفقيه علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم، فهو فقيه خاف^(١) وكنت أسمعه يقول كثيراً: الاعتقاد صبة، والانتقاد حرمان. انتهى.

وكان شيخنا الشيخ محمد المغربي الشاذلي رحمته الله يقول: اطلب طريق ساداتك من القوم وإن قلوا، وإياك وطريق الجاهلين بطريقهم وإن جلوا، وكفى شرفاً بعلم القوم قول موسى رحمته الله للخضر: ﴿هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦)، وهذا أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة، كما يجب طلب علم الشريعة وكل عن مقامه يتكلم. انتهى.

قلت: وقد رأيت رسالة أرسلها الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله للشيخ فخر الدين الرازي صاحب التفسير، يبين له فيها نقص درجته في العلم هذا والشيخ فخر الدين الرازي المذكور في العلماء الذين انتهت إليهم الرياسة في الاطلاع على العلوم من جملتها: اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم، حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ.

فإن من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ، فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلول عند أهل الله عز وجل، ومن قطع عمره في معرفة المحدثات وتفصيلها، فاته حظه من ربه عز وجل، لأن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفني الرجل عمره فيها، ولا يبلغ إلى حقيقتها، ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله عز وجل، لأوصلك إلى حضرة شهود الحق تعالى، فتأخذ عنه

(١) ورد في كثير من النسخ القديمة سواء المخطوطة أو المطبوعة خاف والصواب أنها جاف من الجفوة والجفاء.

العلم بالأمر من طريق الإلهام الصحيح، من غير تمب ولا نصب، ولا سهر، كما أخذ الخضر عليه السلام، فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود، لا عن نظر وفكر وظن وتخمين.

وكان الشيخ الكامل أبو يزيد البسطامي رحمته الله يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وينبغي لك يا أخي ألا تطلب من العلوم إلا ما تكمل به ذاتك، وينتقل معك حيث انتقلت، وليس ذلك إلا العلم بالله تعالى، من حيث الوهب والمشاهدة، فإن علمك بالطب مثلاً إنما يحتاج إليه في عالم الأسقام والأمراض، فإذا انتقلت إلى عالم ما فيه سقم، ولا مرض، فمن تداوى بذلك العلم شفى.

فقد علمت يا أخي أنه لا ينبغي للعاقل أن يأخذ من العلوم إلا ما ينتقل معه إلى البرزخ، دون ما يفارقه عند انتقاله إلى عالم الآخرة، وليس المنتقل معه إلا علمان فقط، العلم بالله عز وجل، والعلم بمواطن الآخرة، حتى لا ينكر التجليات الواقعة فيها، ولا يقول للحق إذا تجلى له نعوذ بالله منك كما ورد، فينبغي لك يا أخي الكشف عن هذين العلمين في هذه الدار لتجني ثمرة ذلك في تلك الدار، ولا تحمل من علوم هذه الدار، إلا ما تمس الحاجة إليه في طريق سيرك إلى الله عز وجل على مصطلح أهل الله عز وجل، وليس طريق الكشف عن هذين العلمين إلا بالخلوة، والرياضة، والمشاهدة، والجدب الإلهي، وكنت أريد أن أذكر لك يا أخي الخلوة وشروطها، وما يتجلى لك فيها على الترتيب شيئاً فشيئاً، لكن تمنني من ذلك الوقت، وأعني بالوقت من لا غوص له في أسرار الشريعة، ممن دأبهم الجدل حتى أنكروا كل ما جهلوا، وقيدهم التعصب، وحب الظهور، والرياسة، وأكل الدنيا بالدين عن الإذعان لأهل الله تعالى، والتسليم لهم. انتهى.

وقد حكى الشيخ محيي الدين بن العربي⁽¹⁾ في الفتوحات وغيرها: أن

(1) الصواب أنها ابن عربي يحذف (ال) التعريف، إذ ابن العربي هو أبو بكر بن العربي تلميذ الغزالي صاحب كتاب (أحكام القرآن) وهو من فقهاء المالكية.

طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان، والتقوى قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦) أي أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات، وأسرار الجبروت، وأنوار الملك، والملكوت وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢، ٣) والرزق نوعان روحاني وجسماني وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢) أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائط من العلوم الإلهية، ولذلك أضاف التعليم إلى اسم الله الذي هو دليل على الذات، وجامع للأسماء والأفعال والصفات، ثم قال ﷺ: فعليك يا أخي بالتصديق، والتسليم لهذه الطائفة، ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة أن ذلك إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن لظاهر الآية والحديث مفهوم بحسب الناس، وتفاوتهم في الفهم، فمن المفهوم ما جلب له الآية والحديث، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام آخر باطنة تفهم عند الآية أو الحديث لمن فتح الله تعالى عليه، إذ قد ورد في الحديث النبوي أن لكل آية ظاهراً وباطناً وحداً ومظلاً إلى سبعة أبطن، وإلى سبعين، فالظاهر هو المعقول والمقبول من العلوم النافعة، التي تكون بها الأعمال الصالحة والباطن هو المعارف الإلهية، والمطلع هو معنى يتحد فيه الظاهر والباطن والحد، فيكون طريقاً إلى الشهود الكلي الذاتي، فافهم يا أخي ولا يصدنك عن تلقي هذه المعاني الغربية عن فهم العلوم من هذه الطائفة الشريفة قول ذي جدل ومعارضة إن هذا إحالة لكلام الله تعالى، وكلام رسول الله ﷺ. فإنه ليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا لا معنى للآية الشريفة أو الحديث إلا هذا الذي قلناه، وهم لم يقولوا ذلك بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله تعالى في نفوسهم ما يفهمهم بفضله ويفتحة على قلوبهم برحمته ومنته.

ومعنى الفتح في كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوه كشف حجاب النفس أو

القلب، أو الروح، أو السر لما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب العزيز، والأحاديث الشريفة.

إذ الولي قط لا يأتي بشرع جديد، وإنما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب، والسنة الذي لم يكن يعرف لأحد قبله. ولذلك يستغريه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق^(١)، ويقول: هذا لم يقله أحد، على وجه الذم، وكان الأولى أخذه منه على وجه الاعتقاد واستفادته من قائله، ومن كان شأنه الإنكار لا ينتفع بأحد من أولياء عصره، وكفى بذلك خسراناً مبيناً، وربما يفهم المعترض من اللفظ ضد ما قصده لافظه، كما وقع لشخص من علماء بغداد أنه خرج يوماً إلى الجامع فسمع شخصاً من شربة الخمر ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صفار فإن الوقت ضاق عن الصفار

فخرج هائماً على وجهه للبراري إلى مكة، فلم يزل على ذلك الحال إلى أن مات، فما منع من سماع الأشعار، والتغزلات، إلا المحجوب الذي لم يفتح الله تعالى على عين فهم قلبه، إذ لو فتح الله تعالى على عين فهم قلبه، لنظر بصفاء الهمة، وسمع بثاقب الفهم، ونور المعرفة وأخذ الإشارة من معاني الغيب واتبع أحسن القول بحسب ما سبق إلى سره قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَبَابِ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨) قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله، ولقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق خصوصاً أهل الجدل فقل أن تجد منهم أحداً شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن لله تعالى أولياء وأصفياء موجودين، ولكن أين هم فلا تذكر لهم أحداً، إلا أخذ يدفعه، ويرد خصوصية الله

(١) بل نشأ من ذلك علم إنكار الأولياء على بعضهم البعض، وذلك أنه لا عزيز عند الحق تعالى سوى عزته هو، فيستحيل ولي بعينه أنه يعلم علوم كل الأولياء والمقربين، ومن هنا نشأ إنكار الأولياء على بعضهم البعض، وذلك لأن الحق سبحانه لم يتجلى بتجليين متشابهين في الوجود قط وإلا دل ذلك على عجزه، والألوهية لا نهاية لاختراعاتها السمرمية.

تعالى له، ويطلق اللسان بالاحتجاج، على كونه غير ولي لله تعالى وغاب عنه أن الولي لا يعرف صفاته إلا الأولياء، فمن أين لغير الولي نفي الولاية عن إنسان. ما ذاك إلا محض تعصب، كما نرى في زماننا هذا من إنكار ابن تيمية علينا^(١)، وعلى إخواننا من العارفين، فاحذر يا أخي ممن كان هذا وصفه وفر من مجالسته فرارك من السبع الضاري جعلنا الله وإياكم من المصدقين لأوليائه

(١) هذا ليعلم الناس أن عداوة ابن تيمية للصوفية هي عداوة قديمة، وليس كما يطلق البعض أن ابن تيمية كان له ميول صوفية، وأن في ضمن مجموع فتاويه بعض مجلدات في التصوف، فالحق أنه مخلط كابن الجوزي يمزج السم بالدسم ولا تعرف أين الحقيقة في كلامه، فتارة يقنعك أنه صوفي، وتارة يجزم لك أنه من أشد أعداء الصوفية قال الإمام الحصني في كتابه «دفع شبه من شبه وتمرد» صفحة ١٢٢ مانصه: وكان ابن تيمية ممن يعتقد ويفتى بأن شد الرحال إلى قبور الأنبياء حرام ولا تقصر فيه الصلاة، ويصرح في ذلك بقبر الخليل وقبر النبي ﷺ، وجاء بریدی من مصر باعتقاله على ذلك فاعتقل، وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن القيم وابن كثير، فاتفق أن ابن القيم سافر القدس الشريف ورقى على منبر في الحرم ووعظ وقال في أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة: ها أنا راجع ولا أزور الخليل، ثم جاء إلى نابلس وعمل مجلس وعظ وذكر المسألة بعينها حتى قال: إنه لا يزور قبر النبي ﷺ، فقام إليه الناس وأرادوا قتله فحماه منهم والى نابلس، فكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرفون صورة ما وقع منه فطلبه القاضى المالكي فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضى ابن مسلم الحنبلى وأسلم على يديه فقبل تويته وحكم بإسلامه وحقق دمه، ولما كان يوم الجمعة رابع شعبان جلس القاضى جلال الدين بعد العصر بالمدرسة العادلية وأحضر جماعة من جماعة ابن تيمية كانوا معتقلين في سجن الشرع فادعى على ابن كثير صاحب التاريخ أنه قال إن التوراة والإنجيل ما بدلا وإنهما بحالهما كما أنزلا وشهدوا عليه بذلك وثبت في وجهه فمزق في المجلس بالدرة وأخرج وطيف به ونودى عليه بما قاله ثم أحضر ابن القيم وادعى عليه بما قاله في القدس الشريف وفي نابلس فأنكر فقامت البيعة عليه فادب وحمل على جمل ثم أعيد إلى السجن، ولما كان يوم الأربعاء أحضر ابن القيم إلى مجلس شمس الدين المالكي وأرادوا ضرب عنقه فما كان جوابه إلا أن قال: إن القاضى الحنبلى حكم بحقن دمي وبإسلامي ويقبول تويتي فأعيد إلى الحبس إلى أن أحضر الحنبلى فأخبر بما قاله فأحضر وعزر وضرب بالدرة وأركب حماراً وطيف به في البلد والصالحية وردوه إلى الحبس ولم يزل هذا في أتباعه، وكان الشيخ زين الدين ابن رجب الحنبلى ممن يعتقد كفر ابن تيمية وله عليه الرد، وكان يقول بأعلى صوته في بعض المجالس: معذور السبكي - معنى في تكفيره - والحاصل أنه وأتباعه من الفلاة في التشبيه والتجسيم والازدراء بالنبي ﷺ ونفض الشيخين وإنكار الأبدال الذين خلفوا الأنبياء، ويكفى أنهم جرسوا ابن القيم وابن كثير وطيف بهما في البلد لفتواهم في مسألة الطلاق، انتهى كلام الحصني.

المؤمنين بكراماتهم بمنه وكرمه انتهى.

وحكى الموصلي في كتاب مناقب الأبرار عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه، أنه كان يقول: إياك ومجالسة القراء، فإنهم إن أحبوك وصفوك بما ليس فيك، فغطوا عليك عيوبك، وإن أبغضوك جرحوك بما ليس فيك، وقبله الناس منهم.

قال سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: وقد جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأصفياؤه أن يسلط عليهم الخلق في مبدأ أمرهم، وفي حال نهايتهم، كلما مالت قلوبهم لغير الله تعالى، ثم تكون الدولة، والنصرة لهم في آخر الأمر، إذا أقبلوا على الله تعالى كل الإقبال. انتهى. قلت: وذلك لأن المرید السالك يتعذر عليه الخلوص والسير إلى حضرة الله عز وجل مع ميله إلى الخلق، وركونه إلى اعتقادهم فيه، فإذا آذاه الناس، وذموه، ونقصوه، ورموه بالبهتان، والزور نصرت نفسه منهم، ولم يصر عنده ركون إليهم البتة، وهناك يصفو له الوقت مع ربه، ويصح له الإقبال عليه لعدم التفاته إلى وراء، فافهم ثم إذا رجعوا بعد انتهاء سيرهم إلى إرشاد الخلق يرجعون، وعليهم خلعة الحلم، والعفو، والستر، فتحملوا أذى الخلق، ورضوا عن الله تعالى في جميع ما يصدر عن عباده في حقهم فرفع الله بذلك قدرهم بين عباده، وكمل بذلك أنوارهم، وحقق بذلك ميراثهم للرسول في تحمل ما يرد عليهم من أذى الخلق، وظهر بذلك تفاوت مراتبهم، فإن الرجل يبتي على حسب دينه قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ (السجدة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُنَا﴾ (الأنعام: ٢٤) وذلك لأن الكمل لا يخلو أحدهم عن هذين الشهودين، إما أن يشهد الحق تعالى بقلبه، فهو مع الحق لا التفات له إلى عباده، وإما أن يشهد الخلق فيجدهم عبيد الله تعالى، فيكرمهم لسيدهم، وإن كان مصطلماً فلا كلام لنا معه لزوال تكليفه حال اصطلامه، فعلم أنه لا بد لمن اقتفى آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأولياء والعلماء أن يؤذى كما أودوا ويقال فيه البهتان والزور كما قيل فيهم ليصبر كما صبروا، ويتخلق

بالرحمة على الخلق ﷺ أجمعين.

وسمعت سيدي عليا الخواص ﷺ يقول: لو أن كمال الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفاً على إطباق الخلق على تصديقهم لكن الأولى بذلك رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، وقد صدقهم قوم، وهداهم الله بفضلهم، وحرّم آخرون، فأشقاهم الله تعالى بعدله^(١).

ولما كان الأولياء، والعلماء على أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام في مقام التأسّي بهم، انقسم الناس فيهم فريقين، فريق معتقد مصدق، وفريق منتقد مكذب، كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام ليحقق الله تعالى بذلك ميراثهم، فلا يصدقهم، ويعتقد صحة علومهم، وأسرارهم، إلا من أراد الله عز وجل أن يلحقه بهم ولو بعد حين، وأما المكذب لهم المنكر عليهم، فهو مطرود عن حضرتهم لا يزيده الله تعالى بذلك إلا بعداً، وإنما كان المعترف للأولياء، والعلماء بتخصيص الله تعالى لهم، وعنايته بهم، وأصطفائه لهم قليلاً من الناس لغلبة الجهل بطريقهم، واستيلاء الغفلة، وكراهة غالب الناس أن يكون لأحد شرف بمنزلة، أو اختصاص حسداً من عند أنفسهم، وقد نطق الكتاب العزيز بذلك في قوم نوح ﷺ فقال: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠) وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود: ١٧)، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧، يوسف: ٢١)، وقال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤) وغير ذلك من الآيات، وكان الشيخ محيي الدين ﷺ يقول: ومن أين لعامة الناس أن يعلموا أسرار الحق تعالى في خواص عباده من الأولياء، والعلماء، وشروق نوره في قلوبهم، ولذلك لم يجعلهم إلا مستورين عن غالب خلقه لجلالتهم عنده، ولو كانوا ظاهرين فيما بينهم، وأذاهم إنسان لكان قد بارز الله تعالى بالمحاربة، فأهلكه الله فكان سترهم عن الحق رحمة بالخلق، ومن ظهر من الأولياء للخلق، إنما يظهر لهم من حيث ظاهر

(١) قلت: ولذلك لم يكن الأنبياء معصومين من السنة الخلق، وإن كانوا معصومين من أن تصل إليهم أيديهم بأذى.

علمه ووجود دلالاته، وأما من حيث سر ولايته فهو باطن لم يزل، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله يقول : لكل ولي ستر أو أستار نظير السبعين حجاباً^(١) التي وردت في حق الحق تعالى، حيث إنه تعالى لم يعرف إلا من ورائها فكذلك الولي، فمنهم من يكون ستره بالأسباب، ومنهم من يكون ستره بظهور العزة، والسطوة، والقهر على حسب ما يتجلى الحق تعالى لقلبه، فيقول الناس حاشا أن يكون هذا ولياً لله تعالى، وهو في هذه النفس، وذلك لأن الحق تعالى إذا تجلى على قلب العبد بصفة القهر كان قهاراً، أو بصفة الانتقام كان منتقماً، أو بصفة الرحمة والشفقة كان مشفقاً رحيماً. وهكذا ثم لا يصحب ذلك الولي الذي ظهر بمظهر العز، والسطوة، والانتقام من المريدين إلا من محق الله تعالى نفسه وهواه، ولم يزل في كل عصر وأوان أولياء وعلماء تذل لهم ملوك الزمان، ويعاملونه بالسمع، والطاعة، والإذعان، ومنهم من يكون ستره بالاشتغال بالعلم بالظاهر والخمول على ظاهر النقول حتى لا تكاد تخرجه عن آحاد طلبة العلم القاصرين، ومنهم من يكون ستره بالمزاحمة على الدنيا، وتظاهره بحب الرياسة، والملابس الفاخرة، وهو على قدم عظيم في الباطن، ومنهم من يكون ستره كثرة التردد إلى الملوك، والأمراء، والأغنياء، وسؤالهم الدنيا، وطلبه الوظائف من تدريس، وخطابة، وإمامة، وعمالة، ونحو ذلك، فيقوم فيها بالعدل، ويتصرف في ذلك بالمعروف على الوجه الذي لا يهتدي إلى معرفته غيره من الأمراء والعمال، وآحاد الفقهاء، ثم لا يأكل هو من معلومها شيئاً، أو يأكل منه سد الرمق لا غير، فيقول القاصر في الضم والإدراك لو كان هذا ولياً لله عز وجل ما تردد إلى هؤلاء الأمراء، ولجلس في زاويته، أو بيته يشغل بالعلم، وعبادة ربه عز وجل ورحم الله تعالى الأولياء الذين كانوا، ونحو ذلك من أفاضل الجور، ولو استبرأ هذا القائل لدينه وعرضه لتوقف، وتبصر في أمر هؤلاء الأولياء، والعلماء قبل أن ينتقد عليهم فربما كان يتردد إليهم لكشف ضرر، أو خلاص مظلوم من سجن، أو قضاء حاجة لأحد من عباد الله العاجزين الذين لا يستطيعون توصيل

(١) قلت: وفي هذا دلالة على صعوبة معرفة الولي، كما قال شيخنا سيدي عبد المجيد الشريف رحمته الله: الولي الكامل غير موجود وإذا وجد لا يعرف.

حوائجهم إلى تلك الأمراء فيسألون في ذلك من يعتقد فيه من الأولياء، والعلماء فيجب عليهم الدخول لتلك المصالح، ويحرم عليهم التخلف عنهم لا سيما إن رأينا ذلك المتردد من الأولياء، والعلماء زاهداً فيما في أيديهم متعزراً بعز الإيمان وقت مجالستهم، أمراً لهم بالمعروف ناهياً لهم عن المنكر، لا يقبل هدية ممن شفع له عندهم، فإن هذا من المحسنين، ولا يجوز لأحد الاعتراض عليه بسبب ذلك.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص عليه السلام يقول: إذا علم الفقير من أمراء الجور أنهم يقبلون نصحه لهم، وشفاعته عندهم، وجب عليه صحبتهم، والدخول إليهم^(١)، وصاحب النور يعرف ما يأتي، وما يذر انتهى.

قلت: ومن الأولياء من يكون ستره قبوله من الخلق ما يعطونه له من الهدايا، والصدقات، ثم يخلط عليه من ماله، ويعلم الناس بأن ذلك كله من صدقات الناس الأجانب، ويمدح الناس الذين أعطوه بالكرم، ويوهم الناس أنه انتقص من ذلك المال لنفسه، وعياله من وراء الفقراء أشياء بنحو قوله من يقدر في هذا الزمان أن يأخذ مالاً، ويفرقه على الفقراء، ولا يحدث نفسه بانتقاص شيء منه، ولا يسعنا كلنا إلا العفو، ويكون مأكولاً مذموماً، وهذا من أكبر أخلاق الرجال الذين أخلصوا في معاملة الله عز وجل، فإنه لا يهتدي أحد إلى كماله الذي هو عليه في باطن الحال مع ظهور احتقاره في أعين الناس، واستهانتهم به، فإن الرجل إذا قبل من الخلق صغر في أعينهم ضرورة، كما أن من رد عليهم كبر في أعينهم، ولعل ذلك الراد إنما رد رياء، وسمعة واستئلافاً لقلوب الناس عليه ليتوجهوا إليه بالتعظيم، والتبجيل، ويطلقوا ألسنتهم فيه بالثناء الحسن، وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله: من طلب الحمد من الناس بتركه الأخذ منهم، فإنما يعبد نفسه، وهواه، وليس من الله في شيء.

قلت: ومعنى يعبد: يطيع، وكان يقول أيضاً: ينبغي لمن يخاف على نفسه من فتنة الرد أن يأخذ، ثم يعطيه سراً لمن يستحقه، ولا يأخذ هو لنفسه منه شيئاً، فإنه بذلك يأمن من الفتنة إن شاء الله تعالى.

(١) قلت: ليس كل فقير هذا حاله بل قد ينطبق هذا على بعضهم وقد لا ينطبق على البعض الآخر.

قال الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى: ومما يفتح باب قلة الاعتقاد في أولياء الله تعالى وقوع زلة ممن تزيأ بزيتهم، وانتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع ذلك من أكبر القواطع عن الله عز وجل وقد قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا﴾. وقال: ﴿وَلَا تَرِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾، فمن أين يلزم من إساءة واحد أن يكون جميع أهل حرفته كذلك؟ ما هذا إلا محض عناد وتعصب بباطل كما قال بعضهم في ذلك:

استتار الرجال في كل عصر تحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضر الهلال في حندس اللي ل سواد السحاب وهو جميل

قلت: ومن أشد حجاب عن معرفة أولياء الله عز وجل شهود المماثلة، والمشاكلة، وهو حجاب عظيم، وقد حجب الله به أكثر الأولين والآخرين كما قال تعالى حاكياً عن قوم: (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً)، يعني لم نر أحداً يوافق على ما يدعيه، وبأمرنا به، ونحو ذلك ولكن إذا أراد الله عز وجل أن يعرف عبداً من عبده بولي من أوليائه، ليأخذ عنه الأدب، ويقتدي به في الأخلاق طوى عنه شهود بشريته، وأشهده وجه الخصوصية^(١) فيه، فيعتقه بلا شك، ويحبه أشد المحبة، وأكثر الناس الذين يصحبون الأولياء لا يشهدون منهم إلا وجهه البشرية، فلذلك قل نفعهم، وعاشوا عمرهم كله معهم، ولم ينتفعوا منهم بشيء، وقد اقتضت الحكمة الإلهية عدم اتساق الخلق كلهم على الاعتقاد في واحد منهم، والإذعان له، وفي ذلك سر خفي لأنه لو كان الخلق كلهم مصدقين لذلك الولي لفاته أجر الصبر على تكذيب المكذبين له، ولو كانوا كلهم مكذبين له لفاته الشكر على تصديق المصدقين له، والمقتفين لآثاره، فأراد الحق تعالى بحسن اختياره لأوليائه أن يجعل الناس فيهم قسمين كما تقدم معتقد مصدق ومنتقد مكذب ليعبدوا

(١) قلت: وإنما كفر كثير من الناس بالأنبياء لشهودهم لبشريتهم دون خصوصيتهم، حتى قال بعض الوهابية ممن أساءوا الأدب مع حضرة النبي الأكرم ﷺ: إنك أنت إذا اجتهدت في العبادة صرت مثل محمد.

الله عز وجل فيمن صدقهم بالشكر، وفيمن كذبهم بالصبر إذ الإيمان نصفان نصف صبر، ونصف شكر.

وسمعت سيدي علياً الخواص عليه السلام يقول: النفس إذا مدحت اتسخت، وإذا ذمت نظفت، وكان عليه السلام يقول: إياك أن تصفى لقول منكر على أحد من طائفة العلماء أو الفقهاء فتسقط من عين رعاية الله عز وجل، وتستوجب المقت من الله عز وجل.

وكان الجنيد عليه السلام يقول: من قعد مع هؤلاء القوم، وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله تعالى منه نور الإيمان، قلت: ومراده نور الإيمان بذلك الكلام الذي خالفهم فيه لا نور سائر أنواع الإيمان كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر فافهم.

ونظير ذلك لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، أي بأن الله يراه حال الزنا وهكذا، وإنما نهى القوم عن المنازعة لأن علومهم مواجيد لا نقل فيها، ومن كان يخبر عما يعاين ويشاهد لا يجوز للسامع منازعته فيما أتى به، بل يجب عليه التصديق به إن كان مريداً، والتسليم له إن كان أجنبياً، فإن علوم القوم لا تقبل المنازعة لأنها وراثية نبوية⁽¹⁾، وفي الحديث: (عند نبي لا ينبغي التنازع) ونهى عليه السلام عن الجدال وقال في المجادل: (فليتبوا مقعده من النار).

وكان الشيخ محيي الدين عليه السلام يقول: أصل منازعة الناس في المعارف الإلهية، والإشارات الربانية كونها خارجة عن طور العقول، ومجيئها بفتة من غير نقل، ونظر، ومن غير طريق العقل فتتكرت على الناس من حيث طريقها، فأنكروها وجعلوها، ومن أنكر طريقاً من الطرق عادى أهلها ضرورة لاعتقاده فسادها، وفساد عقائد أهلها، وغاب عنه أن الإنكار من الوجود، والعقل يجب عليه أن يغير منكراً إنكاره ليخرج عن طور الجحود، فإن الأولياء، والعلماء العاملين، قد جلسوا مع الله عز وجل على حقيقة التصديق، والصدق، والتسليم،

(1) وذلك لأن العلوم المحمدية الإلهية لا تقبل المنازعة لكون علوم العقل لا تتدخل فيها بشيء من الأشياء قال الخضر لموسى عليه السلام: «إنك لن تستطيع معي صبراً».

والإخلاص، والوفاء بالعهود، وعلى مراقبة الأنفاس مع الله عز وجل حتى سلموا قيادهم إليه، وألقوا نفوسهم سلماً بين يديه، وتركوا الانتصار لنفوسهم في وقت من الأوقات حياءً من ربوبية ربهم عز وجل، واكتفاء بقيوميته عليهم، فقام لهم بما يقومون لأنفسهم بل أعظم، وكان تعالى هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: ولما علم الله عز وجل ما سيقال في هذه الطائفة على حسب ما سبق به العلم القديم، بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، فقضى على قوم أعرض عنهم بالشقاء، فنسبوا إليه زوجة، وولداً، وفقراً، وجعلوه مغلول اليدين، فإذا ضاق ذرع الولي، أو الصديق لأجل كلام قيل فيه من كفر، وزندقة، وسحر، وجنون، وغير ذلك نادته هواتف الحق في سره: الذي قيل فيك هو وصفك الأصلي لولا فضلي عليك، أما ترى إخوانك من بني آدم كيف وقعوا في جنابي، ونسبوا إلي ما لا ينبغي لي، فإن لم ينشرح لما قيل فيه، بل انقبض نادته هواتف الحق أيضاً أمالك بي أسوة، فقد قيل في ما لا يليق بجلالي، وقيل في حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي إخوانه من الأنبياء، والرسل ما لا يليق بمررتهم من السحر، والجنون، وأنهم لا يريدون بدعائهم إلى إلا الرياسة، والتفضيل عليهم، فانظروا أخي مداواة الحق جل وعلا لمحمد صلى الله عليه وسلم حين ضاق صدره من قول الكفار قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٨، ٩٩) فيجب عليك أيها الولي الاقتداء برسولك صلى الله عليه وسلم في ذلك، إذ هو طب إلهي، ودواء رباني، وهو مزيل لضيق الصدر الحاصل من أقوال الأغيار أهل الإنكار، والاعتزاز^(١)، وذلك لأن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق بكماله بالثناء عليه تعالى بالأمر السلبي، ونفي النقائص عن الجنب الإلهي كالتشبيه، والتحديد، وأما التحميد فهو الثناء على الله تعالى بما يليق بجماله، وجلاله، وهما مزيلان لمرض ضيق الصدر الحاصل من قول المنكرين، والمستهزئين، وأما السجود فهو كناية عن طهارة العبد من طلب العلو، والرفعة (١) ومن نظر إلى هذه القاعدة استراح وأراح لأنه جعل الحق سبحانه قدوته في الإنكار عليه، ومن اعترض فكانه يريد باعتراضه أن يكون أفضل من الحق والأنبياء فيرفض تكليف الاعتراض عليه.

لأن الساجد قد فني عن صفة العلو حال سجوده، ولذلك شرع للعبد أن يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى وبحمده)، وأما العبودية المشار إليها بقوله: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) فالمراد بها إظهار التذلل، والتباعد عن طلب العز، وهي إشارة إلى فناء العبد ذاتاً، ووصفاً وذلك موجب لخلع القرب، والاصطفاء، والعز، والدنو المشار إليه بقوله (واسجد واقترب). وبحديث: (لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً)، والنوافل عند أهل الطريق إشارة إلى فناء العبد^(١) في شهود نفسه عند شهود ربه عز وجل، وأما اليقين فهو من يقن الماء في الحوض إذا استقر، وذلك إشارة إلى حصول السكون، والاستقرار، والاطمئنان بزوال التردد، والشكوك، والوهم، والظنون قال الشيخ محيي الدين رحمته الله: وهذا السكون، والاستقرار، والاطمئنان إذا أضيف إلى العقل، والنفوس يقال له علم اليقين، وإذا أضيف إلى الروح الروحاني يقال له عين اليقين، وإذا أضيف إلى القلب الحقيقي يقال له حق اليقين، وإذا أضيف إلى السر الوجودي يقال له حقيقة حق اليقين، ولا تجتمع هذه المراتب كلها إلا في الكامل من الرجال انتهى.

وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول كثيراً للشبلي رحمه الله تعالى: لا تفش سر الله تعالى بين المحجوبين^(٢)، وكان رحمته الله يقول: لا ينبغي لفقير قراءة كتب التوحيد الخاص، إلا بين المصدقين لأهل الطريق، أو المسلمين لهم، وإلا يخاف حصول المقت لمن كذبهم، وقد تقدم عن أبي تراب النخشي رحمته الله أنه كان يقول في حق المحجوبين من أهل الإنكار: إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة في أولياء الله قلت: وذلك لأنه لو كان من المقبلين بقلوبهم على حضرة الله تعالى لشم روائح أهل حضرة ربه، فتأدب معهم، ومدحهم، وأحبهم، وخدم نعالهم حتى يقربوه إلى حضرتهم، ويصير مثلهم، كما هو شأن من يريد التقرب إلى ملوك الدنيا. قلت: ومن هنا أخفى الكاملون من أهل الطريق الكلام في مقامات التوحيد الخاص شفقة على عامة المسلمين، ورفقاً بالمجادل من

(١) الصواب عن شهود نفسه، وهو الأصح في حق المقربين وخواص الخواص.

(٢) فإن أفضى سر الريوية حدث له المقت والطرده.

المحجوبين، وأدباً مع أصحاب ذلك الكلام من أكابر العارفين.

وكان الجنيد رحمته الله لا يتكلم قط في علم التوحيد^(١)؛ إلا في قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره، ويأخذ مفاتيحها تحت ورکه ويقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى، وخاصته، ويرمونهم بالزندقة، والكفر، وكان سبب فعله ذلك تكلمهم فيه كما سيأتي آخر هذه المقدمة، فكان بعد ذلك يستتر بالفقه إلى أن مات رحمته الله، وكان الشيخ محيي الدين رحمته الله يقول: من لم يقم بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه الطائفة، فلا يجالسهم، فإن مجالستهم من غير تصديق سم قاتل.

وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كثير^(٢) من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة، والفلاسفة، فالعاقل لا يبادر إلى الإنكار بمجرد غزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر، ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها فما كل ما قاله الفلاسفة، والمعتزلة في كتبهم يكون باطلاً، وإنما حذر بعضهم عن مطالعة كتبهم خوفاً من حصول شبهة تقع في قلب الناظر، لا سيما أهل الإنكار والدعاوى.

ورأيت في رسالة سيدي الشيخ محمد المغربي الشاذلي رحمته الله ما نصه: اعلم أن طريق القوم مبني على شهود الإثبات، وعلى ما يقرب من طريق المعتزلة في بعض الحالات^(٣)، وهي حالة شهود غيبية الصفات في شهود وحدة جمال الذات، حتى كأن لا صفات، وهذه الحالة وإن كان غيرها أرفع منها فهي عزيزة المرام شديدة الإيهام موقعة في سوء الظن في السادة الكرام، لشبهها بمذهب المعتزلة، ولا شبهة في تلك الحالة فليتنبه السالك لذلك، وليحذر من الوقوع في القوم

(١) مقصوده بعلم التوحيد الخاص بالخواص وخواص الخواص والذي ذكره سيدي محيي الدين في مقدمة الفتوحات وقال عنه: لا يحل ذكره في كتاب وإلا أريقتم الدماء.

(٢) قلت: الحقيقة أنه القليل النادر من كلام القوم الذي يتمشى ظاهره على قواعد المعتزلة.

(٣) قلت: وقد اشتبه المذهبان في بعض الحالات قدرأ لا قصداً من السادة الصوفية أن يتشبهوا بالمعتزلة فحاشاهم من ذلك.

فإنها من أعظم المهالك، انتهى.

قلت: ومن الأولياء من سد باب الكلام في دقائق كلام القوم حتى مات، وأحال ذلك على السلوك، وقال: من سلك طريقهم اطلع على ما اطلعوا عليه، وذاق كما ذاقوا، واستغنى عن كلام الناس وسيأتي في ترجمة أبي عبد الله القرشي رحمته الله أن أصحابه طلبوا منه أن يسمعهم شيئاً من علم الحقائق فقال لهم: كم أصحابي اليوم قالوا ستمائة رجل، فقال الشيخ: اختاروا لكم منهم مائة، فاختاروا، فقال: اختاروا من المائة عشرين، فاختاروا فقال: اختاروا من العشرين أربعة، فاختاروا.

قلت: وكان هؤلاء الأربعة أصحاب كشوفات ومعارف فقال الشيخ: لو تكلمت عليكم في علم الحقائق والأسرار لكان أول من يفتي بكفري هؤلاء الأربعة^(١).

قلت: ولا يجوز أن يعتقد في هؤلاء السادة أنهم زنادقة في الباطن، لكنهم ما هم متحققون به في الباطن عن العلماء، والعوام، وإنما يجب علينا حملهم على المحامل الحسنة من كوننا جاهلين باصطلاحهم، فإن من لم يدخل حضرتهم لا يعرف حالهم، فما أغلقوا أبوابهم عليهم في حالة تقريرهم للعلم، إلا لكون عور بحر ذلك العلم عميقاً على غالب الناس من العلماء فضلاً عن غيرهم، كما تقدم عن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله أنه كان إذا أتاه سؤال متعلق بالقوم يرسل إلى أبي حمزة البغدادي رحمته الله ويقول: ما تقول في هذا يا صوفي^(٢)؟ ولا يسمع العارف أن يتكلم بكلام واحد يعم سائر الناس على اختلاف درجاتهم، لأن ذلك من خصائص رسول الله رحمته الله على نزاع في ذلك أيضاً فإنه كان يقول: "أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم" فافهم وتأمل فإن من لا علم له بالطريق إذا سمع الفقير يقول: حقيقة التوبة هي التوبة من التوبة كيف يقول منطوق هذا الكلام، وفحواه خطأ لأن التوبة من التوبة إصرار.

(١) قلت: وذلك لأنهم لم يبلغوا مرتبة الشيخ وإلا لما أنكروا عليه وأفتوا بكفريه.

(٢) قلت: لبيت الوهابية يتعظون من استسلام إمامهم أحمد بن حنبل رحمته الله للصوفية والانقياد لهم وتأديبه معهم. وليت هذه الحكاية تكون زجراً لهم عن الخوض في حق القوم رحمته الله.

فإذا فسر له الفقير مراده على مصطلحه، وقال: مرادي عدم تزكية النفس، وعدم الاعتماد على التوبة دون رحمة الله عز وجل لا الإصرار كيف يقول له: هذا الكلام مليح الآن؟ وقد كان أنكره أولاً لأن من شأن القوم أن يشهدوا أعمالهم بغير الرياء، والدعاوى، ولا يشهدون لهم إخلاصاً، ومثل ذلك يصح تقرير قول بعضهم حقيقة التقوى هي ترك التقوى، ونظير ذلك أيضاً قول سيدي عمر بن الفارض رحمته الله:

وقلت لزهدى والتسك والتقى تغلوا وما بينى وبين الهوى خلوا

وكذلك قوله:

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا واخل سبيل الناسكين وإن جلوا

لأن من لا إمام له بمصطلح أهل الطريق ينكر مثل ذلك، ويقول: ترك الزهد، والعبادات، والتقوى مذموم بل بذلك يذهب دين العبد كله، فكيف يجوز اعتقاد صاحب هذا الكلام؟ ولو كان له إمام بالطريق لعلم أن مراد الشيخ عدم الوقوف على الأعمال دون الله عز وجل، فإن المنقول عن الشيخ رحمته الله الزهد والعبادات والتقوى كما درج عليه السلف الصالح رحمته الله، وكذلك عن الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله وأضرابه، وما بلغنا قط عن أحد من القوم أنه نهى أحداً عن الصلاة والزكاة والحج والصوم أبداً، ولا تعرض لمعارضة شيء من الشرائع، وكيف يترك الولي ما كان سبباً لوصوله إلى حضرة ربه، إنما يحث الناس على الإكثار من أسباب الوصول، فما بقي وجه الإنكار إلا على مواجيدهم، وأفهامهم، وتلك أمور لا تعارض شيئاً من صريح السنة، والأمر في ذلك سهل، فمن شاء فليصدقهم، ويقتدي بهم كمقلدي المذاهب، ومن شاء فليستك، ولا ينكر لأنهم مجتهدون في الطريق، والمجتهد لا يقدر إنكاره على مجتهد آخر. ونقل القزويني في كتابه سراج العقول عن إمام الحرمين أنه كان يقول حين يسئل عن كلام غلاة الصوفية: لو قيل لنا فصلوا ما يقتضي التكفير من كلامهم مما لا يقتضيه؟ لقلنا هذا طمع في غير مطمع، فإن كلامهم بعيد المدرك وعر المسلك يفترف من تيار

بحر التوحيد، ومن لم يحط علماً بنهايات الحقائق لم يحصل من دلائل التكفير على وثائق، كما أنشد بعضهم في هذا المعنى:

تركنا البحار الزاخرات وراعنا فمن أين يدري الناس أين توجهنا

وسئل سيدنا ومولانا شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى عن حكم تكفير غلاة المبتدعة، وأهل الأهواء، والمتفوهين بالكلام على الذات المقدس فقال رحمته: اعلم أيها السائل أن كل من خاف من الله عز وجل استعظم القول بالتكفير لمن يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذ التكفير أمر هائل عظيم الخطر، لأن من كفر شخصاً بعينه، فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الأبد، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال لا يمكن من نكاح مسلمة، ولا يجري عليه أحكام المسلمين لا في حياته، ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرئ مسلم، وفي الحديث: "لأن يخطئ الإمام في العفو أحب إلي من أن يخطئ في العقوبة" ثم إن تلك المسائل التي يفتي فيها بتكفير هؤلاء القوم في غاية الدقة والغموض لكثرة شبهها، واختلاف قرائنها، وتفاوت دواعيها، والاستقصاء في معرفة الخطأ من سائر صنوف وجوهه، والاطلاع على حقائق التأويل، وشرائطه في الأماكن، ومعرفة الألفاظ المحتملة للتأويل، وغير المحتملة، وذلك يستدعي معرفة جميع طرق أهل اللسان من سائر قبائل العرب في حقائقها، ومجازاتها، واستعارتها، ومعرفة دقائق التوحيد، وغوامضه إلى غير ذلك مما هو متعذر جداً على أكابر علماء عصرنا، فضلاً عن غيرهم، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير معتقده في عبارة، فكيف يحزر اعتقاد غيره من عبارته، فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر، واختاره ديناً، وجحد الشهادتين، وخرج عن دين الإسلام جملة، وهذا نادر وقوعه، فالأدب الوقوف عن تكفير أهل الأهواء، والبدع، والتسليم للقوم في كل شيء قالوه عما يخالف صريح النصوص. انتهى كلام السبكي^(١)

(١) وهذا هو القول الصحيح، وقد صنف في ذلك شيخنا العارف الكبير مولانا محمد زكي إبراهيم رحمته كتاباً سماه: «أهل القبلة كلهم موحدون».

قلت: وقد أخبرني شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري بمصر المحروسة: أن شخصاً وقع في عبارة موهمة للتكفير، فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أرادوا قتله قال السلطان جقمق: هل بقي أحد من العلماء ثم يحضر فقالوا: نعم الشيخ جلال الدين المحلي شارح المنهاج، فأرسل وراءه، فحضر، فوجد الرجل في الحديد بين السلطان فقال الشيخ: ما لهذا، فقالوا: كفر فقال: ما مستند من أفتى بتكفيره، فبادر الشيخ صالح البلقيني، وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير، فقال الشيخ جلال الدين رحمته الله: يا ولدي أتريد أن تقتل رجلاً مسلماً موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أبيك خلوا عنه الحديد، فجردوه، وأخذه الشيخ جلال الدين بيده وخرج، والسلطان ينظر فما تجرأ أحد يتبعه رحمته الله، وكان الشيخ محيي الدين رحمته الله يقول: كثيراً ما يهب على قلوب العارفين نفحات إلهية، فإن نطقوا بها جهلهم كمل العارفين وردها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر، وغاب عن هؤلاء أن الله تعالى كما أعطى أولياءه الكرامات التي هي فرع المعجزات، فلا يدع أن ينطق ألسنتهم بالمبارات التي تعجز العلماء عن فهمها^(١).

قلت: ومن شك في هذا القول: فليُنظر في كتاب المشاهد للشيخ محيي الدين؛ أو كتاب الشعائر لسيد محمد، أو في كتاب خلع النعلين لابن قسي، أو كتاب عنقاء مغرب لابن العربي^(٢)، فإن أكبر العلماء لا يكاد يفهم منه معنى مقصوداً لقائله أصلاً، بل خاص بمن دخل مع ذلك المتكلم حضرة القدس، فإنه لسان قدسي لا يعرفه إلا الملائكة، أو من تجرد عن هيكل البشرية، أو أصحاب الكشف الصحيح.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمته الله يقول: بعد اجتماعه على الشيخ

(١) وهو اختصاص أزلي لأهل المعرفة فليس كل ما يعلمه الأنبياء المرسلون والأولياء المقربون فيه شرط لأن يعلمه العوام وأهل الظاهر من العلماء الذين لم يجاهدوا النفس ولم يدخلوا الخلوات ويشغلوا بالأذكار ليلاً ونهاراً.

(٢) الصواب أنها لابن عربي، لأن ابن العربي هو أبو بكر بن العربي المالكي تلميذ الغزالي صاحب كتاب أحكام القرآن، و(ال) التعريف هي للتفرقة بينهما.

أبي الحسن الشاذلي وتسليمه للقوم: من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس الدين ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك قط لفقيهه، إلا إن سلك مسلكتهم كما هو مشاهد، وكان الشيخ عز الدين رحمته الله قبل ذلك ينكر على القوم، ويقول: هل لنا طريق غير الكتاب والسنة^(١)، فلما ذاق مذاقهم، وقطع السلسلة الحديد بكراسة الورق صار يمدحهم كل المدح، ولما اجتمع الأولياء، والعلماء في وقعة الإفرنج بالمنصورة قريباً من ثغر دمياط جلس الشيخ عز الدين، والشيخ مكين الدين الأسمر، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وأضرا بهم، وقرئت عليهم رسالة القشيري، وصار كل واحد يتكلم إذ جاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله فقالوا له: نريد أن نسمعنا شيئاً من معاني هذا الكلام؟ فقال: أنتم مشايخ الإسلام، وكبراء الزمان، وقد تكلمتم، فما بقي لكلام مثلي موضع فقالوا له: لا بل تكلم، فحمد الله، وأثنى عليه، وشرع يتكلم فصاح الشيخ عز الدين من داخل الخيمة، وخرج ينادي بأعلى صوته هلموا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله تعالى فاسمعوه.

قال الياضي رحمته الله في كتابه روض الرياحين: والعجب كل العجب ممن ينكر كرامات الأولياء، وقد جاءت في الآيات الكريمات، والأحاديث الصحيحة، والآثار المشهورات، والحكايات المستفيضات، حتى بلغت في الكثرة مبلغاً يخرج عن الحصر، ثم قال رحمته الله: والناس في إنكار الكرامات على أقسام: منهم من ينكرها مطلقاً، وهم أهل مذهب معروفون، وعن التقوى مصروفون، قال بعضهم هم المجسمة، ومنهم من يصدق بكرامات من مضى، ويكذب بكرامات أهل زمانه، فهؤلاء كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمته الله كبني إسرائيل صدقوا بموسى حين لم يروه، وكذبوا بمحمد رحمته الله حين رأوه، مع أن محمداً رحمته الله أعظم من موسى، وإنما ذلك حسداً منهم، وعدواناً، وشقاء منهم، ومنهم من يصدق بأن لله تعالى أولياء من أهل زمانه، ولكن لا يصدق بأحد معين فهذه محروم من الإمدادات، لأن من لم يسلم لأحد معين لا ينتفع بأحد أبداً نسأل الله العافية،

(١) أي هل لنا طريق سوى ظاهر الكتاب والسنة؟

قال: فإن قيل إن هذه الكرامات تشبه السحر فإن سماع الإنسان الهواتف في الهواء، وسماع النداء في بطنه وطي الأرض له، وقلب الأعيان، ونحو ذلك غير معهود في الحس أنه صحيح، إنما يظهر ذلك من أهل السيمياء والنانرجات، فالجواب ما أجاب به المشايخ العارفون، والعلماء المحققون في النرق بين الكرامة والسحر أن السحر يظهر على أيدي الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة.

وأما الأولياء عليهم السلام، فإنما وصلوا إلى ذلك بكثرة اجتهادهم، واتباعهم للسنة حتى بلغوا فيها الدرجة العليا فافترقا، قال عليه السلام: ثم إن كثيراً من المنكرين لو رأوا أحداً من الأولياء، والصالحين يطير في الهواء، لقالوا هذا سحر واستخدمات للجن والشياطين، ولا شك أن من حرم التوفيق كذب بالحق عياناً وحساً، فكيف حال هذا في تصديقه بالمغيبات التي أمر الله تعالى بالإيمان بها؟ فريما زلت به القدم فخسر الدارين، لأنه إذا أنكر المحسوسات، فبالحقيق إنكاره المغيبات، وقد كان الإمام الشافعي عليه السلام يقول: الإنكار⁽¹⁾ فرع من النفاق.

قلت: وذلك لأن المنافقين لو لم ينكروا على محمد عليه السلام لآمنوا به ظاهراً وباطناً ثم قال الياقعي عليه السلام: فوا عجباً كيف ينسب السحر، وفعل الشياطين إلى الأولياء المقربين، والأبرار الصالحين، المتطهرين من الصفات المذمومة، المتحلين بالصفات المحمودة، المعرضين عن كل شيء يشغلهم عن ربهم عز وجل.

فإياك يا أخي بعد اطلاعك على ما بينته لك في هذه المقدمة من علو شأن أهل الله عز وجل من أهل عصرك، وغيرهم أن يقوم بك داء الحسد، ولا تدعن للانقياد لهم، وتسمع من بعض المنكرين عليهم ما يقولونه في حقهم، فيفوتك منهم خير كثير، كما فاتك الخير في عدم علمك بكلامهم الذي هو كله نصح لك حين وزنته بميزان عقلك الجائر، فإن الكلام لم يزل في هذه الطائفة من عصر ذي النون المصري وأبي يزيد البسطامي إلى وقتنا هذا، بل نقل سيدي إبراهيم

(1) وقد ابتليت به الوهابية في زماننا هذا، فيعرفون الحق واضعاً كالشمس وينكرونه، وهو سم يسرى في العروق ولا يرجى برؤه كما قال الشيخ محيي الدين بن عربي عليه السلام.

الدسوقي رحمته الله: أنهم تكلموا في جماعة من الصحابة، ونسبوهم إلى الرياء، والتناق منهم الزبير رحمته الله كان كثير الخشوع في الصلاة، وكان بعضهم يقول: إنما هو مرء فبينما الزبير رحمته الله ساجد، إذ صبوا على وجهه ورأسه ماء حاراً فكشط وجهه، وهو لا يشعر^(١)، فلما فرغ من صلاته، وصحا قال: ما هذا فأخبروه فقال رحمته الله: غفر الله تعالى لهم ما فعلوا، ومكث زماناً يتألم من وجهه.

قلت: ودليل هذا كله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٠)، وكل ولي له من تلك الفتنة الحظ الوافر، وذلك لأن الابتلاء لما كان شرفاً، جمع الله تعالى لخواص هذه الأمة من انبلايا والمحن جميع ما كان متفرقاً في الأمم السالفة لعلو درجاتهم عنده، ونقل الثقات عن أبي يزيد البسطامي رحمته الله أنهم نفوه من بلده سبع مرات، فإنه لما رجع إلى بسطام من سفرته، وتكلم بعلوم لا عهد لأهل بلده بها من مقامات الأنبياء والأولياء أنكر ذلك الحسين بن عيسى البسطامي إمام ناحيته، والمدرس بها في علم الظاهر، وأمر أهل بلده أن يخرجوا أبا يزيد من بسطام، فأخرجوه، ولم يعد إليها إلا بعد موت حسين المذكور، ثم بعد ذلك ألفه الناس، وعظموه، وتبركوا به، ثم لم يزل يقوم له قائم بعد قائم، وهو ينفي ثم استقر أمره على تعظيم الناس له، والتبرك به إلى وقتنا هذا، وكذلك وقع لذي النون المصري رحمته الله أنهم وشوا به إلى بعض الحكام، وحملوه من مصر إلى بغداد مغلولاً مقيداً، فكلم الخليفة، فأعجبه فقال: إن كان هذا زنديقاً، فما على وجه الأرض مسلم كما سيأتي في ترجمته، وكذلك وقع لسمنون المحب رحمته الله محنة عظيمة، وادعت عليه امرأة كانت تهواه، وهو يأبى أن يأتيها في الحرام هو وجماعة من الصوفية، وامتلات المدينة بذلك، ثم إن الخليفة أمر بضرب عنق سمنون، وأصحابه فمنهم من هرب، ومنهم من توارى سنين حتى كف الله عنهم ذلك، وكذلك وقع أنهم رموا أبا سعيد الخراز، وأفتى العلماء بتكفيره بألفاظ وجدوها في كتبه، منها لو قلت من أين وإلى أين، لم يكن

(١) وذلك لحدوث الفناء له أثناء الصلاة، كما أخرجوا للإمام على كرم الله وجهه النصل وهو يصلى ولم يشعر به.

جوابي غير الله مع ألفاظ أخرى، وتعصب مرة فقهاء أخميم على ذي النون المصري رضي الله عنه، ونزلوا في زورق ليمضوا إلى السلطان بمصر ليشهدوا عليه بالكفر، فأعلموه بذلك فقال: اللهم إن كانوا كاذبين ففرقهم، فانقلب الزورق والناس ينظرون ففرقوا حتى رئيس المركب فقيل له: ما بال الرئيس؟ فقال: قد حمل الفساق، وأخرجوا سهل بن عبد الله رضي الله عنه من بلده إلى البصرة، ونسبوه إلى قبائح، وكفروه، ولم يزل بالبصرة إلى أن مات بها هذا مع علمه، ومعرفته، واجتهاده، وذلك أنه كان يقول: التوبة فرض على العبد في كل نفس فتعصب عليه الفقهاء في ذلك لا غير.

وقتل حسين الحلاج بدعوة عمرو بن عثمان المكي، وذلك أنه كان عنده جزء فيه علوم الخاصة من القوم فأخذه^(١) الحسين فقال عمرو من أخذ هذا الكتاب قطعت يده، ورجلاه، فكان كذلك، وإنما كان القول بتكفيره تستراً على دعوة عمرو، كما سيأتي عن ابن خلكان، وشهدوا على الجنيد رضي الله عنه حين كان يقرر في علم التوحيد، ثم إنه تستر بالفقه^(٢)، واختفى مع علمه، وجلالته، وأخرجوا محمد بن الفضل البلخي رضي الله عنه بسبب المذهب كما سيأتي في ترجمته، وذلك أن مذهبه كان مذهب أصحاب الحديث فقالوا له: لا يجوز لك أن تسكن في بلدنا فقال: لا أخرج حتى تجعلوا في عنقي حبلاً، وتمروا بي على أسواق المدينة، وتقولوا هذا مبتدع نريد أن نخرجه، ففعلوا به كذلك، وأخرجوه، فالتفت إليهم، وقال: نزع الله تعالى من قلوبكم معرفته، فلم يخرج بعد دعائه قط من بلخ صوفي^(٣) مع كونها كانت أكثر بلاد الله تعالى صوفية، وعقدوا للشيخ عبد الله

(١) قلت: وبعضهم يقول سرقة الحلاج، وهي حكاية مكذوبة في حق الرجل، فإن مثل هذه الترهات لا يصح حكايتها في حق الكمل أمثال الحلاج، ويستحيل في حق الولي أن يسرق أستاذه.

(٢) قد يأمر الحق سبحانه الولي أن يتستر بالعلوم الظاهرة خوفاً عليه من بطش أهل الحجاب.

(٣) قد يغير الحق سبحانه فطرة بلدة بأكملها لدعاء ولي مقرب على تلك البلدة، قال الشعراني في ترجمة سيدي إبراهيم المتبولي: ورماء أهل بيت في متبول باللواط مع ولدهم فقال: هتك الله ذرايهم فمن ذلك اليوم صار أولادهم مخانيث وبناتهم زناة إلى يومنا هذا وورد في الطبقات للشعراني في ترجمة الشيخ أحمد السطيحة أنه دعا على أهل بلده شبري قبالة الغريبة =

بن أبي جمرة رضي الله عنه مجلساً في الرد عليه حين قال: أنا أجمع بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة، فلزم بيته فلم يخرج إلا للجمعة حتى مات، وأخرجوا الحكيم الترمذي رضي الله عنه إلى بلخ حين صنف كتاب علل الشريعة، وكتاب ختم الأولياء، وأنكروا عليه بسبب هذين الكتابين وقالوا: فضلت الأولياء على الأنبياء، وأغلظوا عليه، فجمع كتبه كلها، وألقاها في البحر، فابتلعها سمكة سنين، ثم لفظتها، وانتفع الناس بها، وأنكر زهاد الرأز وصوفيتها على يوسف بن الحسين، وتكلموا فيه، ورموه بالعظام إلى أن مات، لكنه لم يبال بهم لتمكنه رضي الله عنه، وأخرجوا أبا الحسن البوشنجي، وأنكروا عليه، وطردوه إلى نيسابور، فلم يزل بها إلى أن مات، وأخرجوا أبا عثمان المغربي من مكة مع مجاهداته، وتمام علمه، وحاله وطاف به العلوية على جمل في أسواق مكة بعد ضربه على رأسه، ومنكبيه، فأقام ببغداد، ولم يزل بها إلى أن مات، وشهدوا على السبكي بالكفر مراراً مع تمام علمه، وكثرة مجاهداته، واتباعه للسنة إلى حين وفاته، حتى إن من كان يحبه شهد عليه بالجنون طريقاً لخلصه، فأدخلوه البيمارستان، وقال فيه أبو الحسن الخوارزمي أحد مشايخ بغداد: إن لم يكن لله جهنم فإنه يخلق جهنماً بسبب السبكي، أي يخلقها الله للذين آذوه، وأنكروا عليه، وكفروه بالباطل هذا معنى قول أبي الحسن بدليل قوله عقب ذلك وإن لم يدخل السبكي الجنة فمن يدخلها، وقال أهل المغرب على الإمام أبي بكر النابلسي مع فضله، وعلمه، وزهده، واستقامة طريقه، وتصدره للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فأخرجوه من المغرب متيدين إلى مصر، وشهدوا عليه عند السلطان، ولم يرجع عن قوله، فأخذ وسلخ، وهو حي، وقيل إنه سلخ وهو منكوس، وهو يقرأ القرآن فكاد أن يفتتن به الناس، فرفع الأمر إلى السلطان، فقال اقتلوه، ثم اسلخوه، وأخرجوا الشيخ أبا مدين المغربي رضي الله عنه من بجاية، كما سيأتي في ترجمته. وأخرجوا أبا القاسم النصراباذي رضي الله عنه من البصرة، وأنكروا عليه كلامه وأحواله، فلم يزل = بالخراب وعلى أهلها الذين كانوا ينكرون عليه فوقع بينهم القتل والخراب فهي خراب إلى وقتنا هذا، قال الشعرائي: فقلت له: الفقير يعمر بلده والا يخربها فقال: هؤلاء منافقون وفي حصادهم مصلحة للدين.

بالحرم إلى أن مات مع صلاحه، وزهده، وورعه، واتباعه للسنة.

وأخرجوا أبا عبد الله الشجري صاحب أبي حفص الحداد قام عليه أبو عثمان الجبيري^(١) وهجره، وأمر الناس بهجره حين رفع الناس قدره على أبي عثمان، وأقبلوا عليه، وشهدوا على أبي الحسن الحصري رضي الله عنه بالكفر، وحكوا عنه ألفاظاً كتبت في درج، وحمل إلى أبي الحسن قاضي القضاة، فاستحضره القاضي وناظره في ذلك، ومنعه من القعود في الجامع حتى مات، وتكلموا في ابن سمنون^(٢)، وغيره بالكلام الفاحش حتى مات، فلم يحضروا له جنازة مع علمه، وجلالته، وتكلموا في الإمام أبي القاسم بن جميل بالعظائم إلى أن مات، ولم يتزلزل عما هو عليه من الاشتغال بالعلم، والحديث، وصيام الدهر، وقيام الليل، وزهده في الدنيا حتى لبس الحصير رضي الله عنه.

وكان أبو بكر التلمساني يقول: كان أبو دانيال يحط على الجنيد، وعلى رويم، وسمنون، وابن عطاء، ومشايخ العراق، وكان إذا سمع أحداً يذكرهم بخير تغيظ وتغير، وأما الحلاج فإنه كان من القوم، وهو الصحيح فلا تخفي محنته، وإن كان من غير القوم فلا كلام لنا فيه، وقد اختلف الناس فيه اختلافاً كثيراً قال ابن خلكان في تاريخه: وإنما سمي بالحلاج لأنه جلس على دكان حلاج، وبها مخزن قطن غير محلوج فذهب صاحب الدكان في حاجته، فرجع فوجد القطن كله محلوجاً فسمي حلاجاً، وكان رضي الله عنه يأتي بفاكهة الصيف في الشتاء، وعكسه، ويمد يده في الهواء فيردها مملوءة دراهم يسميها دراهم القدرة .

قال ابن خلكان^(٣): وأما سبب قتله فلم يكن عن أمر موجب للقتل، إنما عمل

(١) لعله الحيرى بالحاء، وهو أبو عثمان الحيرى تلميذ أبي حفص الحداد وزوج ابنته.

(٢) الصحيح أن اسمه سمنون بن حمزة الخواص وسمى نفسه سمنونا الكذاب وكان يتكلم في المحبة صحب السرى السقطى وغيره وكان إماماً في مقام المحبة.

(٣) قلت: لا يجوز اعتقاد كلام المؤرخين في مسألة تكفير الحلاج، ولا يجوز اعتقاد كل كلامهم فيه، بل الحق التعويل على كلام كبار القوم فيما ورد عنهم في تبجيله وإحلاله في مقامه الذي يليق به ولنا في سيرته كتاب مطبوع اسمه «سيرة الحلاج».

عليه الوزير حين أحضره إلى مجلس الحكم مرات، ولم يظهر منه ما يخالف الشريعة، فقال لجماعة: هل له مصنفات؟ فقالوا: نعم، فذكروا أنهم وجدوا له كتاباً فيه أن الإنسان إذا عجز عن الحج، فليعمد إلى غرفة من بيته، فيطهرها، ويطيبها، ويطوف بها، ويكون كمن حج البيت، والله أعلم إن كان هذا القول عنه صحيحاً فطلبه القاضي فقال هذا الكتاب تصنيفك، فقال: نعم، فقال له: أخذته ممن؟ فقال: عن الحسن البصري، ولا يعلم الحلاج ما دسوه عليه، فقال له القاضي: كذبت يا مراق الدم ليس في كتب الحسن البصري شيء من ذلك، فلما قال القاضي يا مراق الدم مسك الوزير هذه الكلمة على القاضي قال: هذا فرع عن حكمك بكفره، وقال للقاضي: اكتب خطك بالتكفير، فامتنع القاضي فألزمه الوزير بذلك، فكتب، فقامت العامة على الوزير، فخاف الوزير على نفسه، فكلم الخليفة بذلك، فأمر بالحلاج، وضرب ألف سوط، فلم يتأود، وقطعت يداه، ورجلاه، وصلب، ثم أحرق بالنار، ووقع الاختلاف فيه بين الناس أهوى الذي صلب، أم رفع كما وقع في عيسى (1) عليه السلام.

وأفتوا بتكفير الإمام الغزالي عليه السلام، وأحرقوا كتابه الإحياء، ثم نصره الله تعالى عليهم، وكتبوه بماء الذهب، وكان من جملة من أنكر على الغزالي، وأفتى بتحريق كتابه القاضي عياض، وابن رشد، فلما بلغ الغزالي ذلك دعا على القاضي، فمات فجأة في الحمام يوم الدعاء عليه، وقيل إن المهدي هو الذي أمر بقتله بعد أن ادعى عليه أهل بلده، بأنه يهودي لأنه كان لا يخرج يوم السبت، لكونه كان يصنف في كتاب الشفاء يوم السبت فقتله المهدي لأجل دعوة الغزالي، وأخرجوا أبا الحسن الشاذلي عليه السلام من بلاد المغرب بجماعته، ثم كاتبوا نائب الإسكندرية بأنه سيقدم عليكم مغربي زنديق، وقد أخرجناه من بلادنا، فالحذر من الاجتماع عليه فجاء الشيخ إلى الإسكندرية، فوجد أهلها كلهم يسبون، ثم وشوا به إلى السلطان، ولم يزل في الأذى حتى حج بالناس في سنين كان الحج فيها قد قطع من كثرة القطاع في طريقه، فاعتقده الناس.

(1) الصحيح أنه لا يحق لمسلم أن يعتقد فيه هذه العقيدة، وهي مقولة واهية لا شيء لها من الصحة.

ورموا الشيخ أحمد بن الرفاعي بالزندقة، والإلحاد، وتحليل المحرمات كما سيأتي في ترجمته.

وقتلوا الإمام أبا القاسم بن قسي، وابن برجان، والخولي، والمرجاني مع كونهم أئمة يقتدى بهم، وقام الحساد عليهم، فشهدوا عليهم بالكفر، فلم يقتلوا، فعملوا عليهم الحيلة، وقالوا للسلطان إن البلاد قد خطبت لابن برجان في نحو مائة بلد وثلاثين، فأرسل له من قتله، وقتل جماعته.

وأما الشيخ محيي الدين بن العربي^(١) وسيدي عمر بن الفارض رحمهما الله، فلم يزل المنكرون ينكرون عليهما إلى وقتنا هذا، وعقدوا للشيخ عز الدين بن عبد السلام مجلساً في كلمة قالها في العقائد، وحرضوا السلطان عليه، ثم حصل له اللطف، وحسدوا شيخ الإسلام تقي الدين ابن بنت الأعز، وزوروا عليه كلاماً للسلطان، فرسم بشنقه، ثم تداركه اللطف، وذلك أن الملك الظاهر بيبرس قد كان انتقاد له انقياداً كلياً حتى كان لا يفعل شيئاً إلا بمشاورته، فمشى الحساد بينهما بالكلام، حتى زينوا للسلطان في مسألة يقول فيها الحنفية إنها صواب، وما عليه الشافعية خطأ، فعارضه الشيخ تقي الدين فانتصر بعض الحساد للسلطان، ونصروه على الشيخ، وكان لا يحكم في مصر في ذلك الزمان إلا بقول الشافعي رحمهما الله فقط فولى السلطان بيبرس القضاة الأربعة من تلك الواقعة، فلم يزالوا إلى عصرنا هذا.

وأنكروا على الشيخ عبد الحق بن سبعين، وأخرجوه من بلاد المغرب، وأرسلوا نجاباً بدرج مكتوب أمامه يحذرون أهل مصر منه، وكتبوا فيه أنه يقول: أنا هو وهو أنا.

ومحن الأئمة كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وأضرابهم مشهورة في كتب المناقب، فانظر يا أخي ما جرى لهؤلاء الأئمة من المتقدمين، والمتأخرين، وخذ لنفسك أسوة فيما تقع فيه من المحن والله أعلم.

(١) الصواب ابن عربي.

ولنشرع الآن في مقصود الكتاب، فنقول وبالله التوفيق:

فأولهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه

واسمه عبد الله بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي يلتقي مع النبي ﷺ في مرة بن كعب، ومناقبه أكثر من أن تحصى، وكان رضي الله عنه يقول: أكيس الكيس التقوى، وأحمق الحمق الفجور، وأصدق الصدق الأمانة، وأكذب الكذب الخيانة، وكان رضي الله عنه إذا أكل طعاماً فيه شبهة، ثم علم به استقاءه من بطنه، ويقول: اللهم لا تؤاخذني بما شربته العروق وخالط الأمعاء،^(١) وكان رضي الله عنه يقول: إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله، ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة، وأملككم لنفسه، وكان رضي الله عنه يقول لمن يعظه: يا أخي إن أنت حفظت وصيتي، فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وكان يقول: إن العبد إذا داخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقتته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة، وكان يقول: يا معاشر المسلمين استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده إنني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء متقناً استحياء من ربي عز وجل، وكان يقول: لييتي كنت شجرة تعضد ثم تؤكل، وكان يأخذ بطرف لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان إذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له: هلا أمرتنا فيقول: إن رسول الله ﷺ أمرني ألا أسأل الناس شيئاً، وكان رضي الله عنه يقول للصحابة رضي الله عنهم: قد وليت أمركم، ولست بأخيركم فأعينوني فإذا رأيتموني استقمتم، فاتبعوني، وإذا رأيتموني زغت فقوموني، وغلب عليه الحزن، والخوف حتى كان يشم من فمه رائحة الكبد المشوي، توفي رضي الله عنه بين المغرب والعشاء ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة رضي الله عنه.

(١) قلت: وهو شيخ الصوفية في رد الشبهات.

ومنهم الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ويجتمع نسبه مع النبي ﷺ في كعب، واتفقوا على أنه أول من سمي أمير المؤمنين، وأجمعوا على كثرة علمه، ووفور عقله، وفهمه، وزهده، وتواضعه، ورفقه بالمسلمين، وإنصافه ووقوفه مع الحق، وتعظيمه آثار رسول الله ﷺ، وشدة متابعتة له، ومحاسنه ﷺ أكثر من أن تحصى، وكان رضي الله عنه لا يجمع في سماطه بين إدامين، وقدمت إليه حفصة رضي الله عنها مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال: إدامان في إناء واحد لا آكله حتى ألقى الله عز وجل، وكان في قميصه رضي الله عنه أربع رقاع بين كتفيه، وكان إزاره مرقوعاً بقطعة من جراب، وعدوا مرة في قميصه أربع عشرة رقعة، إحداها من آدم أحمر، وكان يقول: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ، واستأذن رضي الله عنه رسول الله ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: لا تتسنا يا أخي من دعائك، وفي رواية أشركنا في دعائك، وكان رضي الله عنه إذا وقع بالمسلمين أمر يكاد يهلك اهتماماً بأمرهم.

وكان يأتي المجزرة ومعه الدرة فكل من رآه يشتري لحمًا يومين متتابعين يضره بالدرة، ويقول له: هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك، وأبطأ يوماً عن الخروج لصلاة الجمعة، ثم خرج، فاعتذر إلى الناس، وقال: إنما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره، وكان يقول: لولا خوف الحساب لأمرت بكبش يشوى لنا في التتور^(١)، وكان رضي الله عنه يشتهي الشهوة، وثمنها درهم فيؤخرها سنة كاملة، وكان يقول: من خاف من الله تعالى لم يشف غيظه، ومن يتق الله لم يضيع ما يريد، وصعد يوماً إلى المنبر فقال: الحمد لله الذي صيرني ليس فوقي أحد، فقيل له: ما حملك على ما تقول؟ فقال إظهاراً للشكر ثم نزل^(٢).

وحج رضي الله عنه من المدينة إلى مكة، فلم يضرب له فسطاط، ولا خباء حتى رجع، وكان إذا نزل يلقى له كساء، أو نطع على شجرة فيستظل بذلك، وكان رضي الله عنه

(١) هذا برغم أن كثيراً من الصوفية أكلوا الشواء، إلا أن تصوف عمر عجز عنه الكثيرون ممن بعده وراجع في ذلك كتابنا المسمى «إعلام صوفية العصر بما ورد من التصوف عن عمر» وهو مطبوع.

(٢) قلت: حديثه هنا بلسان القطبانية لأن القطب لا يملوه ولى في عصره.

أبيض يعلوه حمرة، وإنما صار في لونه سمرة في عام الرمادة^(١)، حين أكثر من أكل الزيت توسعة للناس أيام الغلاء، فترك لهم اللحم والسمن، واللبن، وكان قد حلف أن لا يأكل إداماً غير الزيت حتى يوسع الله على المسلمين، ومكث الغلاء تسعة أشهر، وكانت الأرض قد صارت سوداء مثل الرماد، وكان يخرج يطوف على البيوت ويقول: من كان محتاجاً فليأتنا، وكان ﷺ يقول: اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد ﷺ على يدي، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء، وكان يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضاً، وكان يسمع حنينه من وراء ثلاث صفوف، وكان ﷺ يقول: ليتني كنت كبشاً أهلي سمنوني ما بدا لهم ثم ذبحوني، فأكلوني وأخرجوني عذرة، ولم أكن بشراً.

ولما مرض كانت رأسه في حجر ولده عبد الله فقال له: يا ولدي ضع رأسي على الأرض فقال له عبد الله: وما عليك إن كانت على فخذي، أم على الأرض فقال: ضعها على الأرض فوضع عبد الله رأسه على الأرض^(٢) فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي ثم قال ﷺ: وددت أن أخرج من الدنيا، كما دخلت لا أجر لي، ولا وزر علي ثم قال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع^(٣)، ولا مفرد، فلما مات رآه العباس ﷺ فقال له: كيف وجدت الأمر يا أمير المؤمنين؟ قال: كاد عرشي يهوي بي لولا أنني وجدت رباً رحيماً، وكان إذا مر على مزيلة يقف عندها، ويقول: هذه دنياكم التي تحرصون عليها، وكان يقول: أضروا بالفانية خير لكم من أن تضروا بالباقية يعني الآخرة.

(١) ورد كثيراً في سير الصوفية أن ألوان جلودهم تغيرت بسبب كثرة الجوع والمجاهدة فقد ورد عن الأسود بن يزيد النخعي أنه اخضر واصفر بسبب كثرة الجوع والمجاهدة قلت: وحقيقة انكماش اللون على جلد عمر ﷺ لكونه القطب القائم بالوجود في عصره فهو المتحمل لأعباء الخلق والوجود فقد حكى أن الأرض قد صارت سوداء مثل الرماد فانعكس صورة ذلك على ذلك القطب.

(٢) قلت: وهذا هو التصوف الحقيقي والتبرأ من الحول القوة والعمل الصالح وعدم اعتماده على صحبته لرسول الله ﷺ أو على كونه كان أميراً للمؤمنين وبالتالي فهو أفضل القوم.

(٣) يجوز للولي أن يدعو على نفسه بأن يقبضه الحق سبحانه، إذا رأى أنه قد أدى أمانته ومهمته، أو يجوز له الدعاء على نفسه إذا رأى كثرة الفتن في عصره، وقد دعا الإمام البخاري على نفسه بالموت فقبضه الله إليه.

وكان يأخذ التبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أكن شيئاً ليتني كنت نسياً منسياً، وكان ﷺ يحب الصلاة في وسط الليل، وكان إذا حصل بالناس هم يخلع ثيابه، ويلبس ثوباً قصيراً لا يكاد يبلغ ركبتيه، ثم يرفع صوته بالبكاء، والاستغفار، وعيناه تدرقان حتى يغشى عليه، وكان يحمل جراب الدقيق على ظهره للأرامل والأيتام، فقال له بعضهم: دعني أحمل عنك فقال: ومن يحمل عني يوم القيامة ذنوبي، وأخوانه كثيرة مشهورة ﷺ.

ومنهم الإمام عثمان بن عفان ﷺ

ويجتمع نسبه مع النبي ﷺ في عبد مناف وسمي ذا النورين لجمعه بين بنتي رسول الله ﷺ: رقية ثم أم كلثوم.

وحاصروه تسعة وأربعين يوماً، ثم قتلوه صبراً، والمصحف مفتوح بين يديه، وهو يقرأ، وكان ﷺ شديد الحياء حتى إنه ليكون في البيت والباب مغلق عليه، فما يضع عنه الثوب عند الفسل^(١) ليفيض عليه، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه، وكان يصوم النهار، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله، وكان يختم القرآن في كل ركعة كثيراً، وكان يخطب الناس وعليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة، وكان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته، فيأكل الخل والزيت، وكان يردف خلفه غلامه أيام خلافته، ولا يستعيب ذلك، وكان إذا مر على المقبرة بكى حتى بل لحيته ﷺ، ومناقبه كثيرة مشهورة ﷺ.

ومنهم الإمام علي بن أبي طالب^(٢) ﷺ

ونسبه مشهور، وكان ﷺ يقول الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على مخالطة الكلاب.

(١) وقد أخذ عنه الصوفية هذا الخلق فهو أستاذهم فيه.

(٢) يعتبر الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو أبو الصوفية الحقيقي، وإن كان للقوم أسانيد إلى صحابة آخرين كأبي بكر وغيره من الصحابة.

قلت: والمراد بالدنيا ما زاد على الحاجة الشرعية بخلاف ما دعت الضرورة إليه، وذلك أن فضول الدنيا شهوات، وأهل الشهوات كثير، ولذلك ما رؤي زاهد قط في محل مزاحمة على الدنيا، كما هو مشاهد، وإنما سمي طالب الفضول كلباً للدنيا لتعلق قلبه بها، لأن الكلب مأخوذ من التكلب، وكل من عسر عليه فراق شهوته فهو كلبها، فافهم فما توسع من توسع في مآكل، أو ملبس إلا لقلّة ورعه، والشارع لم يأمرنا بالتوسع في الشبهات، والله أعلم.

قال أبو عبيدة رحمه الله: ارتجز الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه تسع كلمات، قطع الأطماع عن اللهاق بواحدة منهن، ثلاث في المناجاة، وثلاث في العلم، وثلاث في الأدب.

فأما التي في المناجاة فهي قوله: كفاني عزاً أن تكون لي ريباً، وكفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، أنت لي كما أحب فوفقتني لما تحب، وأما التي في العلم فهي قوله: المرء مخبوء تحت لسانه، فتكلموا تعرفوا، ما ضاع امرؤ عرف قدره، وأما التي في الأدب فهي قوله: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

وكان عليه السلام يقول: والله لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق.

وكان آخر كلامه قبل موته لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكان عليه السلام يقول: موت الإنسان بعد أن كبر وعرف ربه خير من موته طفلاً، ولو دخل الجنة بغير حساب^(١).

قلت: لأن أقل ما هناك أن العبد يجالس ربه في الجنة بقدر ما عمل من العبادات والله أعلم، وكان عليه السلام يقول: أعلم الناس بالله أشدهم حباً، وتعظيماً لأهل لا إله إلا الله.

وقيل له مرة: ألا نحرسك يا أمير المؤمنين فقال: حارس كل امرئ أجله، وكان عليه السلام يقول: كونوا لقبول أعمالكم أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لن يقل (١) قلت: لأنه يحشر العارف في جنة العارفين بخلاف الطفل.

عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل متقبل، وكان ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة أتت الدنيا بأحسن زينتها، ثم قالت: يا رب هبني لبعض أوليائك فيقول الله عز وجل لها: اذهبي لا إلى شيء فلأنت أهون من أن أهبك لبعض أوليائي، فتطوى كما يطوى الثوب الخلق فتلقى في النار، وكان ﷺ يقول: لا يرجون العبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه، وكان يقول: لا يستحي جاهل أن يسأل عما لم يعلم، ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وكان ﷺ يقول: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وكان يقول: الفقيه كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة منه إلى غيره، وكان يقول: لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، وكان ﷺ يقول: كونوا ينابيع العلم، ومصابيح الليل خلقان الثياب جدد القلوب تعرفون به في ملكوت السماء، وتذكرون به في الأرض، وكان ﷺ يقول: لو حننتم حنين الواله الثكلان، وجأرتم جوار مبتلى الرهبان، ثم خرجتم من أموالكم، وأولادكم في طلب القرب من الله تعالى، وابتغاء رضوانه، وارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة كان ذلك قليلاً فيما تطلبونه، وكان ﷺ يقول: القلوب أوعية وخيرها أوعاها، ثم يقول: هاه هاه إن هاهنا - وأشار بيده إلى صدره - علماً لو أصبت له حملة^(١)، وأتى ﷺ بفالزوج فوضع قدمه فقال: إنك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم لكني أكره أن أعود نفسي ما لم تعتد ولم يأكله، ولم يأكل ﷺ طعاماً منذ قتل عثمان ونهبت الدار إلا مختوماً حذراً من الشبهة، وكان قوته وكسوته شيئاً يجيئه من المدينة، ولم يأكل من طعام العراق إلا قليلاً^(٢)، وكان ﷺ يرقع قميصه ويقول: إن لبس المرقع يخشع القلب، ويقتدي به المؤمن، وكان يقطع من كم

(١) يقصد به علم الباطن، والذي كان يعمل جملة من الصحابة كان منهم أبو هريرة ﷺ القائل: أصبت عن رسول الله ﷺ وعائنين أما أحدهما فقد بثته فيكم وأما الآخر فلو بثته لقطعتم مني الحلقوم.

(٢) قلت: يعتبر الخلفاء الأربعة هم الذين أرسوا قواعد التصوف وبذوره وبثوا ذلك في الأمة وعلموا القوم اجتناب الشبهات وهم لهم السبق في ذلك.

قميصه ما زاد على رؤوس الأصابع. وكذلك كان عمر رضي الله عنه.

وكان رضي الله عنه يبرد في الشتاء حتى ترعد أعضاؤه من البرد فقيل له: ألا تأخذ لك كساء من بيت المال، فإنه واسع؟ فقال: لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئاً لي.

وكان رضي الله عنه يقول: التقوى هي ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة، وكان رضي الله عنه (يستوحش من الدنيا، وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، وكان يحاسب نفسه على كل شيء، وكان يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان رضي الله عنه يعظم أهل الدين والمساكين، وكان يصلي ليله ولا يهجع إلا يسيراً، ويقبض على لحيته، ويتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين حتى يصبح، وكان رضي الله عنه يخاطب الدنيا ويقول: يا دنيا غري غيري قد طلقتك ثلاثاً عمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك كبير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق. وكان رضي الله عنه يقول أشد الأعمال ثلاثة إعطاء الحق من نفسك، وذكرك الله تعالى على كل حال، ومواساة الأخ في المال، وكان يقول: ما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحاً، وما فاتك منها فلا تياس عليه حزناً؛ وليكن همك فيما بعد الموت.

وكان رضي الله عنه يقول: لم يرض الحق تعالى من أهل القرآن الادهان في دينه، والسكوت على معاصيه، وكان يقول إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خلياً بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة، وكان ينشد ويقول:

حقيق بالتواضع من يموت ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم وحرص ليس تدركه النعموت
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهم السكوت

(١) وعنه أخذ الصوفية هذا الخلق، كان بشر الحافي يجلس في الشتاء في البرد القارس عرياناً ولما سئل عن ذلك قال: لكي أشارك الفقراء في آلامهم وعريهم.

(٢) وعن حضرته كرم الله وجهه أخذ الصوفية كل ما هو خشن في حياتهم لأنه أبو الصوفية.

قال القاضي القضاعي رحمته الله: وكان لعلي رحمته الله من الأولاد الذكور أربعة عشر ولداً ولم يكن النسل إلا لخمسة منهم فقط: الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعمر والعباس رحمته الله م أجمعين، ومناقبه رحمته الله كثيرة مشهورة.

ومنهم الإمام طلحة بن عبيد الله رحمته الله

ويجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وآله في مرة، وكان رحمته الله من الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد، ووقاه بيده ونفسه، فشلت يده وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جراحة، وسماه رسول الله صلى الله عليه وآله طلحة الخير، وكانت نفقته كل يوماً ألفاً وتصدق يوماً بمائة ألف، وهو محتاج إلى ثوب يذهب به إلى المسجد فلم يشتتره قميصاً، وكان رحمته الله يقول: إن رجلاً يبيت عنده الدنانير في بيته لا يدري ما يطرقه من الله تعالى لغرير بالله، فكان إذا بات عنده الدنانير لا ينام تلك الليلة حتى يصبح ويفرقها، قتل رحمته الله يوم الجمل سنة ست وثلاثين، وقبره بالبصرة ظاهر يزار رحمته الله.

ومنهم الإمام الزبير بن العوام رحمته الله (١)

ويجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وآله في قصي، وقاتل يوم بدر قتالاً شديداً حتى كان الرجل يدخل يده في الجراح من ظهره وعاتقه.

ولما حضرته الوفاة كان عليه دين كثير، وليس له مال فقالوا له: ما نفعك في دينك؟ فقال لأولاده: قولوا يا مولى الزبير اقض دينه فقضاه الله تعالى عنه جميعه، وكان قدره ألف ألف ومائتي ألف، وكان للزبير عم فكان يعلق الزبير في حصير، ويدخن عليه بالنار، ويقول له: ارجع إلى الكفر فيقول الزبير: لا أكفر أبداً، وكان له ألف مملوك يؤدون الخراج إليه كل يوم، فكان يتصدق به في مجلسه، ولا يقوم منه بدرهم رحمته الله.

(١) ذكره الكتاني في كتابه «التراتب الإدارية» ضمن أغنياء الصحابة وقال: ورثت عنه إحدى زوجاته ٤ آلاف دينار.

قلت: وبرغم ذلك لم يمنعه غناه لأن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة.

ومنهم الإمام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

ويجتمع نسبه مع النبي ﷺ في الأب الخامس، ومرض رضي الله عنه فقال: يا رب إن لي بنين صفاراً، فأخر عني الموت حتى يبلغوا، فأخر عنه عشرين سنة، وكان بينه وبين خالد كلام، فذهب رجل يقع في خالد عنده فقال: مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا.

ولما وقعت فتنة عثمان رضي الله عنه اعتزل الناس، فلم يخرج من بيته^(١)، وقد رمى يوم أحد ألف سهم، وأوصى أن يكفن في جبته التي كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر فكفنوه فيها رضي الله عنه.

ومنهم الإمام سعيد بن زيد رضي الله عنه

ويجتمع نسبه مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي، وكان مجاب الدعوة وقد ادعت عليه أروى بنت أنس عند مروان أنه أخذ لها شيئاً من أرضها، فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها، فما ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت.

توفي بالعقيق، وحمل إلى المدينة، ودفن بها سنة خمس وخمسين رضي الله عنه.

ومنهم الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

ويجتمع نسبه مع النبي ﷺ في كلاب بن مرة.

كان رضي الله عنه يتصدق بالسبعمائة راحلة وأكثر للفقراء والمساكين بأعمالها وأقتابها وأحلاسها، ولم يزل خائفاً منذ قال رسول الله ﷺ: "عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً"^(٢) ولما بلغه ذلك جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له

(١) قلت: ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن سعداً رضي الله عنه اعتزل الناس أيام فتنة عثمان وأوصى أهله أن لا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتى ينصبوا لهم إماماً.

قلت: وفي حال عزلته دليل لمن اعتزل الناس بعده من الأئمة كما لك وأحمد وغيرهم من أقطاب الأمة.

(٢) قلت: هو مثال تاديبى زجرى منه ﷺ لهذا الصحابي الجليل حتى لا يتعلق بأمواله ودينياه، وإلا فإن مقامه لا يسمح بدخوله الجنة حبواً كما ينص عليه ظاهر الحديث، لكونه في أعلى عليين مع النبي ﷺ وصحابته.

رسول الله ﷺ: "أقرض الله قرضاً حسناً يطلق لك قدميك، ثم نزل جبريل. فقال مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كان كفارة لما هو فيه، وروي أن رسول الله ﷺ عممه بيده، وسدلها بين كتفيه، وصلى رسول الله ﷺ خلفه^(١)، وقال: "إنه عبد صالح" وكان رسول الله ﷺ من شدة خوفه، وتواضعه لا يعرف من بين عبیده، توفي سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع ﷺ.

ومنهم الإمام أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ

ويجتمع نسبه مع النبي ﷺ في الأب السابع، ودفن بغور بيسان سنة ثمان عشرة عند قرية تسمى عماد، وكان رسول الله ﷺ يقول: ألا رب مبيض لثيابه، مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه، وهو لها مهين، فبادروا رحمكم الله السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء، ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تغيرهن، وكان رسول الله ﷺ يقول مثل المؤمن مثل العصفور يتقلب كل يوم كذا وكذا مرة ﷺ.

ومنهم الإمام عبد الله بن مسعود ﷺ

وكان صاحب سر رسول الله ﷺ ووساده وسواكه ونعليه وطهوره في السفر، وكان يشبهه بالنبي ﷺ في هديه وسمته، وكان رسول الله ﷺ من أجود الناس ثوباً، ومن أطيب الناس ريحاً تعظيماً لنعل رسول الله ﷺ إذا حمه^(٢)، وكان هو الذي يلبس رسول الله ﷺ نعليه ويمشي أمامه بالعصا حتى يدخل أمامه الحجرة، فإذا أتى رسول الله ﷺ مجلسه نزع نعليه فأدخلهما في ذراعيه وأعطاه العصا.

(١) قلت: صلته ﷺ خلفه فيها دلالة على خلافته وقطبانيته، فإنه ما صلى سيدنا رسول الله ﷺ وهو روح الوجود إلا خلف قطب.

(٢) قلت: ومن هذا يتضح مدى تعظيم الصحابة لآثار النبي ﷺ، لا كما يدعى الوهابية أن هذا من أبواب الشرك، وقد صنف في ذلك المقرئ كتابه «فتح المتعال في تعظيم النعال» وصنف أحمد تيمور باشا كتابه «الآثار النبوية».

وكان رضي الله عنه دقيق الساقين فكان بعض الصحابة يضحك من دقة ساقيه^(١) فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد"، وكان رضي الله عنه يستمع لقراءته في الليل ويقول: "من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة عبد الله بن مسعود" وكان رضي الله عنه قليل الصوم، كثير الصلاة، فقيل له في ذلك فقال إني إذا صمت ضعفت عن الصلاة والصلاة عندي أهم^(٢)، وسمع رجلاً يقول: اللهم إني أحب أن أكون من المقربين ولا أحب أن أكون من أصحاب اليمين، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هاهنا رجل يود أنه إذا مات لا يبعث يعني نفسه، وكان رضي الله عنه يبكي، ويلاقي دموعه بكفيه، ثم يقول بدموعه هكذا يرش بها الأرض، وخرج مرة معه ناس يشيعونه فقال لهم: ألكم حاجة فقالوا لا فقال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبع، وكان يقول لو تعلمون مني ما أعلمه من نفسي لحثيتم على رأسى التراب، وكان يقول حبذا المكروهان الموت والفقر، وكان رضي الله عنه يقول: ما أصبحت قط على حالة فتمنيت أن أكون على سواها، وكان يقول: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين معه لأنه تعرض أن يعصي الله تعالى إما بفعله وإما بسكوته وإما باعتقاده، وكان يقول: لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله تعالى سبعين سنة وهو يجب ظالماً لبعثه الله تعالى يوم القيامة مع من يجب.

ولما مرض رضي الله عنه عاده عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي قال له: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب^(٣)

(١) وإنما ضحك، بعض الصحابة من دقة ساقيه لاستيلاء البشرية عليه، وهو مطلوب لأجل اظهار فضل ابن مسعود أمام الناس.

(٢) قلت: فيه حجة لضعاف الأبدان من السادة الصوفية ممن لا يستطيعون الجمع بين العبادات الشاقة وذلك لاحتياجها لبنية روحية قوية.

قلت: وحقيقة القول أن الأمر ليس بكبير الجسم أو صغره، بل ذلك يرجع إلى قوة الروح، فمن الأرواح من إذا جاءت قويت واشتدت ومنها من إذا جاءت ضعفت وذبلت، ولا يدل ذلك على نقص الإيمان والدرجة فافهم.

(٣) قلت: هذا هو فناء الصحابة الجميل، وذلك لكونهم سادة المقامات والأحوال، فهم خير =

أمرضني قال إلا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقر وقد أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من قرأ الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً".

وكان من دعائه: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد، وقرّة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك ﷺ في أعلى جنات الخلد، وكان ﷺ يقول: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم بالخشية، وكان ﷺ يقول: ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات، وكان يقول: ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها، والموت اليوم تحفة لكل مسلم، وكان يقول: لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته ولا يحل بذروته حتى يكون الفقير أحب إليه من الغنى، والذل أحب إليه من العز، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، وفسر هذه الجملة أصحابه فقالوا حتى يكون الفقير في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام، والتواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله وحتى يكون حامده وذامه عنده في الحق سواء لا يميل إلى من يحمده أكثر ممن يذمه، وكان يقول: لأن بعض أحدكم على جمرة حتى تطفأ خيراً له من أن يقول لأمر قضاءه الله ليت هذا لم يكن وكان يقول لأصحابه: أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب منكم في الآخرة⁽¹⁾، وكان يقول: إن الرجل لا يكون غائباً عن المنكر في بيوت الولاة، ويكون عليه مثل وزر من حضر وذلك لأنه يبلغه فيرضى به ويسكت عليه، والله أعلم.

= من فنى في الحق عز وجل مع حفظ البقاء وعدم تغير العقل والنطق كما فعل المتأخرون ممن جاءوا من بعدهم.

قلت: وأخطأ من ظن من الناس أن الصحابة لم يكونوا متصوفين ولا مروا بمقامات وأحوال الصوفية، وقد ظن الظان هذا لانشغاله بسير المتأخرين من الصوفية وعدم انشغاله بسير الصحابة وأحوالهم وهو جهل.

(1) قلت: وصدق كلام هذا الصحابي الجليل، فإنه لم يبلغنا أن أحداً من الصحابة صلى ألف ركعة في اليوم كما نقل عن من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين، فإنهم رضوان الله عليهم أي الصحابة كان عملهم قليلاً وإخلاصهم كثيراً، وكان لا يهمهم كثرة عدد الركعات، أو طول العبادات =

ومنهم الإمام خباب بن الارت رضي الله عنه

وكان يعذب بالنار ليرجع عن دين الإسلام فلم يرجع، وكان رضي الله عنه يبكي ويقول: إن إخواننا مضوا ولم يأخذوا من أجرهم شيئاً ولم تتقصهم الدنيا، وأنا بقينا بعدهم وأعطينا من المال ما لم نجد له موضعاً إلا التراب، ولولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به. وقال عمر رضي الله عنه: يا خباب ماذا لقيت من المشركين؟ فقال: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري رضي الله عنه.

توفي بالكوفة وصلى عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومنهم أبي بن كعب رضي الله عنه

كان من القراء وقرأ عليه رسول الله ﷺ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب إلى آخرها بأمر الله عز وجل له في ذلك، وكان يقول: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة وذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله تعالى فتمسه النار، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، وكان يقول: ما من عبد ترك شيئاً لله إلا أبدله الله عز وجل ما هو خير منه من حيث لا يحتسب.

ومنهم سلمان الفارسي رضي الله عنه

كان عطاؤه خمسة آلاف، وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين، وكان يخطب على الناس في عبادة يفرش بعضها ويلبس بعضها^(١)، فإذا خرج عطاؤه أمضاه^(٢)، وكان يأكل من شغل يديه ويستظل بالفيء حيثما دار ولم يكن له بيت^(٣)، وكان يعجن عن الخادم حين يرسلها في حاجة، ويقول: لا تجمع عليها = بقدر ما يهمهم الإخلاص نفسه في العمل، وكان أبو الدرداء يقول: مثقال ذرة من بر مع تقوى ويقين أفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المقربين.

(١) قلت: وهو في هذا قدوة للصوفية الذين أتوا من بعده ولم يكن لهم إلا ثوب واحد فقط.

(٢) أي كان موظفاً ولم يكن يأكل من مرتبه ويتصدق به كله، ويأكل من عمل يده، وهم ينظرون تورعاً إلى أنه ربما دخل هذا المرتب شبهة ويفضلون الأكل من عمل اليد.

(٣) ربما كان هذا قبل أن يكون له عيال.

عملين، وكان يعمل الخوص ويقول: اشتري خوصاً بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم فأعيد درهماً فيه وأنفق درهماً على عيالي وأتصدق بدرهم، وكان لا يأكل من صدقات الناس، وكان الناس يسخرونه في حمل أمتعتهم لثرائه حاله، فربما عرفوه فيريدون أن يحملوا عنه فيقول: لا حتى أوصلكم إلى المنزل وهو إذ ذاك أمير على المدائن، وكان ﷺ يقول: إنما مثل المؤمن في الدنيا كمثل مريض معه طبيب به الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا انتهى ما يضره منعه، وقال: إن أكلته هلك، وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة فيمنعه الله عز وجل منها حتى يموت فيدخل الجنة، وكان ﷺ يقول: عجيباً لمؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ولا يدري أربه راض عنه أم ساخط، وكان ﷺ يقول: عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً فقال: "ليكن بلغة أحدكم مثل زاد الراكب".
 عاش ﷺ مائتين وخمسين سنة، وتوفي في خلافة عثمان ﷺ.^(١)

ومنهم تميم الداري ﷺ

كان كثير التهجد قام ليلة حتى أصبح بآية واحدة من القرآن يركع، ويسجد ويبكي وهي قوله تعالى: "أم حسب الذين يعملون السيئات الآية وكان له هيئة ولباس وحسن، وكان أول من قص^(٢) على الناس بإذن عمر بن الخطاب ﷺ، وكان له حلة اشتراها بألف درهم فكان يلبسها في الليلة التي يرجي أنها ليلة القدر.^(٤) والله أعلم.

(١) قال ابن حجر في الإصابة: قال الذهبي: وجدت الأقوال في سنة كلها دالة على أنه جاوز المائتين وخمسين والاختلاف إنما هو في الزائد قال: ثم رجعت عن ذلك وظهر لي أنه ما زاد على الثمانين.

(٢) ربما أصابه الفناء فصار يرددها في ركوعه وسجوده.

(٣) قلت: وقد ذكره ابن الجوزي في كتاب «طبقات القصاص والمذكرين».

(٤) وكان أبو حنيفة إذا تهجد لبس أعز ما يملك من الثياب، قلت: وهم يرون أن في ذلك تعظيماً للألوهية لا لتعظيماً لهذا الجسد الفاني.

ومنهم أبو الدرداء عويمر بن زيد رضي الله عنه

كان يقول: والله الذي لا إله إلا هو ما أمن أحد على إيمانه أن يسلب إلا سلب^(١)، وكان يقول: إني لأمركم بالأمر لا أفعله ولكني أرجو به لأجر من قبلكم، وكان رضي الله عنه يقول: تفكر ساعة خير من قيام أربعين ليلة، وكان يقول: مثقال ذرة من برمع تقوى ويقين أفضل وأعظم وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المقرين، وكان يقول: إن من فقه الرجل رفقته في معيشته، وكان يقول: معاتبة الأخ خير من فقده.

وكان يقول: إن ناقدت الناس ناقدوك وإن تركتهم لم يتركوك، وإن هربت منهم أدركوك، فهبوا أعراضكم ليوم فقركم، وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت ما أكلتم طعاماً وما شربتم ماء عن شهوة ووددت أني شجرة تعضد، ثم تؤكل وكان يقول: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، وكان رضي الله عنه يقول: إن الذين ألسنتهم رطبة من ذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك.

قلت: والمراد بالرطوبة عدم الغفلة فإن القلب إذا غفل يبسر اللسان وخرج عن كونه رطباً، وكان يقول: لا تبغض من أخيك المسلم إذا عصى إلا عمله فإذا تركه فهو أخوك، وكان رضي الله عنه يقول نعم صومعة الرجل المسلم بيته يكف لسانه وفرجه وبصره.

وقالت أم الدرداء له: إن احتجت بعدك فأكل الصدقة؟ قال: لا، اعلمي وكلي فإن ضعفت عن العمل فالتقطي السنبل ولا تأكلي الصدقة^(٢)، وخطبها معاوية فأبت وقالت: لا أغير على أبي الدرداء، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه لم يزل يدفع الدنيا بالراحتين ويقول: إليك عني، وكان يقول: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى

(١) أي يجب على العبد أن لا يأمن من مكر الله عز وجل.

(٢) كان بعض فقراء الصحابة لا يأكل من الصدقة برغم أنه أحق الناس بها، وذلك لاعتبارات عديدة منها إظهار غيره بها ومنها تركهم لها تنزهاً لكونها أوساخ الناس ومنها تفضيلهم الأكل من عمل اليد، ومنها خوف الوقوع في الشبهة.

يمقت نفسه في جانب الله أشد المقت، وكان يقول: ما في المؤمن بضعة أحب إلى الله من لسانه، فليحفظه لئلا يدخله النار، وكان رضي الله عنه يقول: إنا لنضحك في وجوه قوم، وإن قلوبنا لتلعنهم، وكان يقول: إذا تغير أخوك واعوج فلا تتركه، لأجل ذلك فإن الأخ يعوج مرة ويستقيم أخرى، وكان هذا مذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والنخعي وجماعة لا يهجررون عند الذنب، ويقولون: لا تحدثوا بزلة العالم فإنه يزل الزلة، ثم يتركها، وكانت زوجته أم الدرداء تقول: طلبت العبادة في كل شيء، فما وجدت شيئاً أشفى لصدري ولا أفضل من مجالس الذكر، فكانوا يحضرون عندها فيذكرون فتذكر معهم، وأرسلت إلى نوف البكالي وهو يعظ الناس تقول له: اتق الله ولتكن موعظتك لنفسك، والله أعلم.

ومنهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

كان من عباد الصحابة وزهادهم لم يضع لبنة على لبنة، ولا غرس شجرة منذ مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رضي الله عنه يقول: يا بن آدم صاحب الدنيا بيدك^(١) وفارقها بقلبك وهمتك، وكان رضي الله عنه يقول: لا يكون الرجل من أهل العلم حتى لا يحسد من فوقه ولا يحقر من تحته ولا يبتغي بالعلم ثمناً والله أعلم.

ومنهم أبو ذر رضي الله عنه

كان يظل نهاره أجمع يتفكر فيما هو صائر إليه، وكان يقول: لو أن صاحب المنزل يدعنا فيه للأناه أمتعة، ولكنه يريد نقلتنا منه، وكان يرى تحريم إدخال ما زاد على نفقة اليوم^(٢)، وكان الرجل يدخل عليه، فيقلب بصره في بيته فلا يجد فيه شيئاً من أمتعة الدنيا رضي الله عنه.

(١) قلت وهو مذهب الشاذلي وبعض الصوفية كان رضي الله عنه يقول لتلاميذه: اجمعوا المال كي لا تذلوا لأحد.

(٢) وهو مذهب صوفية التوكل الذين لا يدخرون لغدهم شيئاً، ويعتبرون الادخار سوء ظن بقدرة الله على الإرزاق.

ومنهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

صاحب سر رسول الله ﷺ ، وكان يقول: أحب يوم أكون فيه حين يأتيني أهل بيتي فيقولون: ما عندنا شيء نأكله لا قليل ولا كثير.

وبكى يوماً في صلاته ثم التفت فرأى وراءه رجلاً فقال: لا تعلمن بهذا أحداً، وكان رضي الله عنه يقول: سيأتي على الناس زمان، يقال للرجل فيه ما أظرفه ما أعقله! وما في قلبه مثقال ذرة من إيمان^(١). وكان يقول: ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للأخرة ولكن خيركم الذين يتناولون من كل منهما.

ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه

كانت له هرة صغيرة فكفي بها، وكان يقول: لولا آية من كتاب الله عز وجل ما حدثكم بشيء أبداً "إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى"، وكان يخدم الناس قبل صحبته لرسول الله ﷺ على ملء بطنه، وكان لا يسأل الناس شيئاً، وكان رضي الله عنه يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، ويقول: أسبح بقدر ذنبي، ورفع يوماً على جاريته سوطاً ثم قال: لولا خوف القصاص لأوجعتك، ولكن سأبيعك لمن يوفيني ثمنك، اذهبي فانت حرة لوجه الله تعالى، وكان هو وامراته وجاريته يقسمون الليل أثلاثاً يصلي هذا ثم يوقظ هذا ويصلي هذا ثم يوقظ هذا.

وكان يقول: ما وجع أحب إلى من الحمى لأنها تعطي كل مفصل قسطه من الأجر بسبب عموم الجسد والوجع.

وكان يقول: المرض لا يدخله رياء ولا سمعة بل هو أجر محض، وقد قسم الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه المرض على ثلاثة أقسام: عقوبة وكفارة ورفع درجة، فالعقوبة ما صاحبه السخط والكفارة ما صاحبه الرضا والصبر

(١) قلت: منهم اليوم طائفة الممثلين، الذين ينظر المجتمع إليهم على أنهم من العظماء والكبراء وما في قلب أحدهم مثقال ذرة من إيمان، وما حدث هذا التبجيل إلا لاختلال موازين العقل والدين عند الناس ورفعهم للخسيس وخفضهم للشريف وذى الدين.

والدرجة^(١) ما صاحبه الرضا وانشراح الصدر، وكان يحمل حزمة الحطب على رأسه وهو يومئذ خليفة مروان ويقول: أوسعوا الطريق لأميركم، ولما حضرته الوفاة بكى فقيل له في ذلك فقال: أبكي على بعد سفري وقله زادي وأني أصبحت على مهبط جنة أو نار لا أدري أيهما يأخذ بي. توفي في المدينة في خلافة معاوية وله ثمان وسبعون سنة رحمته الله.

ومنهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه

كان يقول: يا صاحب الذنب لا تأمن شر عاقبته فإن ضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وعدم اضطراب قلبك من نظر الله تعالى إليك وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وكان مجرى الدموع في وجهه كأنه الشراك البالي، وكان رضي الله عنه يقول: لو بغى جبل على جبل لك الباغى، وكان يقول: يأتي على الناس زمان يعرج^(٢) فيه يعقول الناس حتى لا تجد فيه أحداً ذا عقل، وكان يجلس يوماً للفقهاء، ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر، ويوماً لأيام العرب.

قلت: ومعنى الشعر أن يذكره استشهاداً للغة العرب، وكان يقول: لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام، وكان يقول: عيادة المريض سنة، فما زاد فهو نافلة، والله أعلم.

ومنهم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

كان من عباد الصحابة، وكان إذا قام في الصلاة كأنه عمود من الخشوع، وكان يسجد ويطيل السجود حتى تنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جدار حائط، وكان يحيي الدهر كله ليلة قائماً حتى يصبح، وليلة يحييها راکعاً حتى يصبح وليلة يحييها ساجداً حتى يصبح وكان يسمى حمامة المسجد.

(١) هكذا وردت، ولكن بها سقط كلمة (رفع) وهو إهمال من الناسخ.

(٢) مقصودة أن ترفع فيه عقول الناس.

قتل سنة ثلاث وسبعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وصلب على باب الكعبة وكان أطلس لا لحية له، وقتله الحجاج حين بويع له بالخلافة وأطاعه أهل الحجاز واليمن، والعراق وخراسان وأقام في الخلافة تسع سنين ثم حاصره الحجاج بمكة.

ومنهم الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ولد في النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وأذن رسول الله ﷺ في أذنه وسماه الحسن، وكان حليماً كريماً ورعاً دعاه ورعه وحلمه إلى أن ترك الدنيا والخلافة^(١) لله عز وجل، وكان من المبادرين إلى نصرة عثمان رضي الله عنه.

وولي الخلافة بعد قتل أبيه وبايعه أكثر من أربعين ألفاً، كانوا بايعوا أباه، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالحجاز واليمن والعراق وخراسان وغير ذلك، ثم سار إليه معاوية من الشام وسار إلى معاوية فلما تقاربا علم أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يقتل أكثر الأخرى، فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر على أن تكون الخلافة له من بعده، وعلى أن لا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه وغير ذلك من القواعد، فأجابه معاوية إلى ما طلب فاصطلحا على ذلك وظهرت المعجزة النبوية في قوله ﷺ: "بن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" وكان ذلك إحدى وأربعين وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ.

قال القضاعي: ولم يمض الحسن حتى قتل عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسمع رضي الله عنه رجلاً يسأل الله عز وجل أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فأنصرف الحسن وأرسل بها إليه، وكان يقول: إني لأستحيي من ربي عز وجل أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين مرة إلى مكة من المدينة على رجله، وكانت الجنائب تقاد معه، وخرج من ماله لله تعالى مرتين^(٢).

(١) ذكرته رضي الله عنه في كتابي «طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصوفوا» وذكرته في كتابي المسمى «طبقات الأقطاب الذين حطوا بالخلافة الظاهرية والباطنية».

(٢) هو في الحقيقة التجرد الكامل عن الوجود، وهو تجريد التوحيد فعلاً لا قولاً بدون فعل.

وقاسم الله تعالى ثلاث مرات حتى إنه كان ليعطي نعلا ويمسك نعلا، وكان عليه السلام يجيز الواحد بمائة ألف درهم وكان إذا اشترى من أحد حائطاً⁽¹⁾ ثم افتقر البائع يرد عليه الحائط ويردّفه بالثمن معه، وما قال قط لسائل لا، وكان لا يعطي لأحد عطية إلا شفّعها بمثلها، وكان يقول لبنيه وبني أخيه تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه في بيوتكم، ولما شرب السم تقطع كبده فقال: إني قد سقيت السم مراراً فلم أسق مثل هذه المرة، وقال له الحسين عليه السلام: يا أخي من تتهم؟ قال: لم؟ قال: لنقتله قال: إن يكن الذي أظنه فالله أشد بأساً وأشدّ تكيلاً، وإن لم يكن فما أحب أن يقتل بي بريء، فلما نزل به الموت قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني احتسب نفسي عندك فإنني لم أصب بمثلها ثم قبض سنة خمسين ودفن بالبقيع عليه السلام.

ومنتهم الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام

ولد في شعبان سنة أربع من الهجرة وكان له من الأولاد خمسة: علي الأكبر وعلي الأصغر وله العقب فإن الأشراف الآن منه وجعفر وفاطمة، وسكينة المدفونة بالمراغة بقرب السيدة نفيسة.

وحج عليه السلام خمساً وعشرين حجة ماشياً، وجنائبه تقاد بين يديه، وكان عليه السلام يقول: اعلّموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عز وجل عليكم فلا تملوا النعم فتعود نقماً، وكان يقول: من جاد ساد ومن بخل ذل، ومن تعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه غداً.

وقتل عليه السلام شهيداً يوم الجمعة يوم عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين وهو ابن ست وخمسين سنة.

وقال أهل السير: إن الله عز وجل قتل بسبب يحيى بن زكريا خمسة وتسعين ألفاً وذلك دية كل نبي، ويروى أن الله تعالى أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: "إني قتلت بيحيى بن زكريا خمسة وتسعين ألفاً ولأقتلن بالحسين ابن بنتك قدر

(1) الحائط يعنى البستان.

ذلك مرتين". وروي أنه لما قتل الحسين احتزوا رأسه وقعدوا في أول مرحلة يشربون، فخرج عليهم قلم من حديد من حائط فكتب عليه سطرًا:

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب

وأنشدت أخته زينب المدفونة بقناطر السباع من مصر المحروسة برفع صوت ورأسها خارج من الخباء:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بمترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أساري ومنهم ضمخوا بدم

ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم تغلفوني بسوء في نوي رحمي

وحملت رأسه إلى مصر ودفنت بالمشهد المشهور بها، ومشى الناس أمامها حفاة من مدينة غزة إلى مصر تعظيماً لها (١).

ومنهم رجال من سادات التابعين أولهم أويس القرني رضي الله عنه

كان من أكابر الزهاد رث البيت قليل المتاع وكان أشهل ذا سهوية بعيد ما بين المنكبين معتدل القامة، آدم شديد الأدمة ضارباً بذقته إلى صدره، رامياً ببصره إلى موضع سجوده واضعاً يمينه على شماله، وكان له طمران من الثياب وكان يتزر بإزار من صوف خامل الذكر لا يؤبه له، وكان إذا أمسى يقول اللهم إنني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائع فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني، وكان رضي الله عنه يقول: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع لأحد من من صديق فكلمنا أمرناهم بالمعروف شتموا أعراضنا ووجدوا على ذلك أعواناً من الفاسقين حتى والله لقد رموني بالعظائم.

قال بشر الحافي رضي الله عنه: وبلغ من ورع أويس رضي الله عنه أنه جلس في قوصرة من

(١) انظر بريك إلى مدى تعظيم أهل مصر لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله قديماً، وكيف مشوا أمام الراس الشريف حفاة من غزة إلى مصر، وامتد هذا التعظيم من أهل مصر إلى يومنا هذا، بخلاف الوهابية قاتلهم الله فلا يحبون آل بيت النبي صلى الله عليه وآله ولا يسعون إلى تعظيمهم وزيارتهم، بل لقد هدموا قبابهم بالبقيع.

العري فهذا هو الزهد، وكان عليه السلام يقول: لا ينال الناس هذا الأمر حتى يكون الرجل كأنه قتل الناس أجمعين، وقال له رجل: أوصني فقال: فر إلى ربك قال فمن أين المعاش؟ فقال: إن القلوب يخالطها الشك أتقر إلى الله بدينك وتتهمه في رزقك، وكان عليه السلام مشغولاً بخدمة والدته ^(١) فلذلك لم يجتمع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد روى أنه اجتمع به مرات وحضر معه وقعة أحد وقال: والله ما كسرت رباعيته صلى الله عليه وآله وسلم حتى كسرت رباعيتي، ولا شج وجهه حتى شج وجهي ولا وطئ ظهره حتى وطئ ظهري هكذا رأيت هذا الكلام في بعض المؤلفات والله أعلم بالحال ^(٢) وكان قوته مما يلتقط من النوى. وكانوا لا يرونه إلا كل سنة أو سنتين مرة له لما نسبوه إلى الجنون بنى له خصماً ^(٣) على باب داره، فكانوا لا يرونه يخرج منه إلا في النادر، وقال له رجل مرة: أوصني فقال: وصيتي إليك كتاب الله تعالى، وسنة المرسلين وصالحو المؤمنين وعليك بذكر الموت ولا يفارق قلبك ذكره طرفة عين، وانصح الأمة جميعاً، وإياك أن تفارق الجماعة، فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار، وقال له رجل: ادع لي فقال: حفظك الله ما دمت حياً، ورضاك من الدنيا باليسير وجعلك لما أعطاه لك من الشاكرين.

وطلب شخص أن يجالسه فقال: يا أخي لا أراك بعد اليوم فإنني أكره الشهرة، والوحدة أحب إلى إني كثير الغم، ما دمت مع الناس في هذه الدنيا فلا تسألني ولا تطلبني بعد فراقك فإنني لا أنساك يا أخي، وإن لم أرك وترني، وكان عليه السلام يتصدق إذا أمسى بكل ما في بيته، وبلغ من عريه أنه جلس في قوصرة، وكان يلتقط الكسر من المزابل، فيغسلها ويأكل بعضها ^(٤) ويتصدق ببعضها، وقال له هرم بن حيان: أوصني فقال: توسد الموت إذا نمت وأجعل له نصب عينك إذا

(١) طبعاً تقدم صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صحبة كل أحد، ولكن كان هذا هو حاله، والأحوال بطبيعتها قاهرة، فأعطاه الحق سبحانه بحسن نيته مقامه الذي ساد به التابعين.

(٢) قلت: الصحيح أنه مخضرم كذا ذكره العراقي في النكت على مقدمة ابن الصلاح فقد ذكره في المخضرمين، وكذلك ذكره في كتابه شرح الألفية في المخضرمين.

(٣) الخص: كلمة لا تزال تستعمل بين العامة في الصعيد بمصر وهو عبارة عن بناء من البوص وكذا سقفه.

(٤) وكان سيدي عبد القادر الجيلاني يتقوت هكذا في بداية شأنه.

قمت، وكان يقول: الدعاء بظهر الغيب أفضل من الزيارة واللقاء لأنهما قد يعرض فيهما التزين والرياء، ولما دفنوه في قبره رجعوا فلم يجدوا لقبره عيناً ولا أثراً ﷺ.

ومنهم عامر بن عبد الله بن قيس رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: لو أن الدنيا كانت لي بحذاقيرها ثم أمرني الله تعالى بإخراجها كلها لأخرجتها بطيب نفس، وكان قد فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة وفي رواية ثمانمائة ركعة، فلا ينصرف منها إلا وقد انتفخت قدماه وساقاه ثم يقول لنفسه: إنما خلقت للعبادة والله لأعملن بك عملاً حتى لا يأخذ الفراش منك نصيباً، وكان يقول: لا أبالي حين أحببت الله عز وجل على أي حال أمسيت وأصبحت، وكان رضي الله عنه يقول: منذ عرفت الله تعالى لم أخف سواه، وكان إذا تشوش من إنسان ودعا عليه يقول: اللهم أكثر ماله وأصح جسمه وأطل عمره، وكان رضي الله عنه يقول: كم من شيء كنت أحسنه أود الآن أني لا أحسنه وما يغني في ما أحسن من الخير إذا لم أعمل به، وكان إذا سافر إن شاء صب من الركوة ماء للوضوء وإن شاء صب منها لبناً للشرب، وكان إذا دخل عليه شيء من الدراهم ينفق منها على المساكين ما شاء ولا ينقص منها شيء، وكان إذا أعطى السائل الرغيف يقول: إني لأستحي أن يكون في ميزاني أقل من رغيف، وقيل له مرة من هو خير منك؟ فقال: من كان صمته تفكراً وكلامه ذكراً ومشيه تديراً فهذا خير مني، وكان يقول: ذكر الله شفاء وذكر غيره داء، وكان يقول: من جهل العبد أن يخاف على الناس من ذنوبهم، ويأمن هو على ذنوب نفسه، وكان رضي الله عنه يقول: ما غيركم اليوم بخير ولكنه خير من أشرم منه، وكان يطعم المجانين فيقول له الناس: إنهم لا يدرون الأكل فيقول: إن لم يكونوا يدرون فإن الله تعالى يدري^(١)، وكان يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (الطلاق: ٢) أي من كل شيء ضاق على الناس، وكان يقول: إذا مت فلا تعلموا بي أحداً وسلوني إلى ربي ﷺ.

(١) لأنه يتكلم من باب الفناء، فكانه يطعم الحق عز وجل نفسه كما ورد في الحديث القدسي: «عبدى مرضت فلم تعدني».

ومنهم مسروق بن عبد الرحيم رضي الله عنه

سرق وهو صغير ثم وجد فسمي مسروقاً، وكان رضي الله عنه يقول: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله عز وجل، وكان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ من الله حذره، وكان رضي الله عنه يصلي حتى تورمت قدماه، وكان يرخي الستر بينه وبين أهله ثم يقبل على صلاته ويخليهم ودنياهم، وكان يقضي بين الناس ولا يأخذ على القضاء أجراً، وكان رضي الله عنه يقول: ما من شيء اليوم للمؤمن خير له من الحذر رضي الله عنه.

ومنهم علقمة بن قيس رضي الله عنه

قيل له: ألا تجلس للناس تعلمهم القرآن؟ فقال: أكره أن يوطأ عقبي ويقال هذا علقمة، وقيل له: ألا تدخل على السلطان فتشفع؟ فقال: لا أصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من ديني مثله، وكان رضي الله عنه يقول: امشوا بنا نزداد إيماناً أي تفقهاً، وكان يتزوج بنات الفقراء يريد بذلك التواضع، ولم يخلف بعد موته إلا رداء وبرداً رثاً ومصحفاً رضي الله عنه.

ومنهم الأسود بن يزيد النخعي رضي الله عنه

كان يجهد نفسه في الصوم والعبادة حتى اخضر جسمه واصفر، وكان رضي الله عنه يقول: إن الأمر جد إذا لاموه على تعذيب نفسه في العبادة وذهبت إحدى عينيه من البكاء، توفي بالكوفة سنة خمس وسبعين، والله أعلم.

ومنهم الربيع بن خيثم رضي الله عنه

كان يقول رضي الله عنه: كن وصي نفسك يا أخي وإلا هلكت، وأصابه الفالج فقيل له: لو تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق، ولكن عن قريب لا يبقى المداوي ولا المداوي، وكان عمله سراً لا يطلع عليه إلا أهل بيته، ودخل عليه رجل وهو يقرأ في المصحف فغطاه بكمه، وكان يقول: كل ما لا يبتغي به وجه الله تعالى يضمحل، وكان إذا وجد غفلة من الناس يخرج إلى المقابر ويقول: يا أهل المقابر

كنا وكنتم ثم يحيي الليل كله فإذا أصبح كأنه نشر من قبره، وكان رضي الله عنه يأتي مسجد الجماعة يهادي بين رجلين، فيقول له الناس: إن الله قد رخص لك فيقول: فماذا أصنع في منادي ربي وهو يقول: حي على الصلاة، وكان يقول: أي لحيمة أي دمية كيف تصنعان إذا سيرت الجبال ودكت الأرض دكاً؟ وكان يكنس البيت بنفسه ولا يمكن أهله من ذلك ويقول: إنني أحب أن آخذ لنفسي من المهنة، وكان رضي الله عنه يقول: لقد أدركنا أقواماً^(١) كنا نعد أنفسنا في جنبهم لصوصاً، مات رضي الله عنه سنة سبع وستين، في أيام معاوية رضي الله عنه.

ومنهم هرم بن حيان رضي الله عنه

كان يقول: صاحب الكلام إما أن يعصي فيه فيخضم أو يفرق فيه فيأثم، وكان رضي الله عنه يقول: اللهم إنني أعوذ بك من شر زمان يتمرّد فيه صغيرهم، ويؤمل فيه كبيرهم وتقرب فيه آجالهم، ويرون أعز إخوانهم على المعاصي فلا ينهونه رضي الله عنه.

ومنهم أبو مسلم الخولاني رضي الله عنه

كان رضي الله عنه على جانب عظيم كبير من العبادة حتى لو قيل له: إن جهنم لتسعر لما استطاع أن يزيد في عمله شيئاً، وكان رضي الله عنه يترك الأكل ويقول: الخيل إنما تجري وهي ضمير، وكان يقول: من شد رجله في الصلاة ثبت الله رجله على الصراط، والله أعلم.

ومنهم أبو سعيد الحسن البصري رضي الله عنه

كان والده من أهل ميسان فسبى فهو مولى الأنصار، وكان قد غلب عليه الخوف، حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده، وكان رضي الله عنه يقول: ذهبت المعارف، وبقيت المناكر، ومن بقي من المسلمين فهو مغموم، وكان يقول: ما من وسواس نبذ فهو من إبليس، وما كان فيه إلحاح فهو من النفس فيستعان عليه بالصوم والصلاة والرياضة^(٢)، وكان رضي الله عنه يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم

(١) وهم الصحابة، فكيف لو رأيناهم نحن - أي التابعين - لكننا نعد أنفسنا بجوارهم لصوصاً.

(٢) مقصوده أن وسواس النفس الأمانة أشد من وسواس الشيطان.

يشغله بأهل ولا ولد وكان رضي الله عنه يقول: من شرط المتواضع أن يخرج عن بيته فلا يلقى أحداً إلا رأى له الفضل عليه، وكان يقول: إذا أذنب العبد ثم تاب لم يزد بتوبته من الله تعالى إلا قريباً، وإذا أذنب ثانياً لم يزد كذلك إلا قريباً، وقال له رجل: أشكو إليك قساوة قلبي فقال: ادن من مجالس الذكر، وكان يقول: شر الناس للميت أهله ييكون عليه، ولا يهون عليهم قضاء دينه، وكان يقول: أدركنا أقواماً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم، وكان يقول: لا تشتري مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد، وكان رضي الله عنه يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً أمات عياله وخلاه للعبادة، وكان يقول: الطمع يشين العالم، وكان يقول: ذم الرجل نفسه في العلانية مدح لها.

وقيل له هل في البصرة منافق؟ فقال: لو خرج المنافقون منها لاستوحشت^(١)، وكان يقول: أكرم إخوانك يدم لك ودهم، وكان يقول: لو نظرت يا ابن آدم إلى سير أجلك لأبغضت غرور أملك، وكان رضي الله عنه إذا جلس يجلس كالأمير، فإذا تكلم يتكلم كلام رجل قد أمر به إلى النار، وكان رضي الله عنه يقول: من لبس الصوف تواضعاً لله عز وجل زاده نوراً في بصره وقلبه، ومن لبسه للتكبر والخيلاء كور في جهنم مع المردة، وكان ينشد ويقول:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وكان يقول: وددت أن أكلت أكلة تصير في جوفي مثل الآجرة فإنه بلغنا أنها تبقى في الماء ثلاثمائة سنة، وقيل له مرة: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا فقال: وهل رأيتم فقيهاً قط بأعينكم إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بذنبه المداوم على عبادة ربه عز وجل، وكان يحلف بالله أنه ما أعز أحد الدراهم إلا أذله الله، وكان إذا استأذن عليه أحد من إخوانه، فإن كان عنده طعام أذن له وإلا خرج إليه ولا يتكلف فيما حضر، وكان يقول: كانوا يقولون لسان الحكيم من وراء قلبه إن أراد أن يقول يرجع إلى قلبه فإن كان له قال، وإلا أمسك، وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم به، وكان

(١) فيه إشارة إلى اتهامه لنفسه.

يقول: الناس ينظرون الله يوم القيامة كما شاء بلا إحاطة، وكان يقول: الدنيا مطيتك إن ركبتها حملتك وإن ركبتك قتلتك، وكان يقول: ورع العلماء في الدنيا والأموال، وكان يقول: إذا رأيت في ولدك ما تكره فاعلم أنه شيء تراد به أنت فأحسن، وكان يقول: إذا أردت عداوة رجل فإن كان مطيعاً فأياك وإياه فإن الله تعالى لا يسلمه إليك، ولا يخلي بينك وبينه، وإن كان عاصياً فقد كفيت مؤنته فلا تتعب نفسك بعداوته، وكان يقول: كل من اتبع طاعة الله لزمته مودته، ومن أحب رجلاً صالحاً فكانما أحب الله، وكان يقول: ما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدرك الآخرة بها أبداً، بخلاف العكس، وكان يقول: يبعث الله أقواماً يطلبون هذا العلم حسبة ليس لهم فيه نية فيتعبهم في طلبه كي لا يضيع العلم وتبقى عليهم تبعته، وكان يقول الإسلام أن تسلم قلبك لله فيسلم منك كل مسلم، وكان رضي الله عنه يقول: المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه.

ومنهم سعيد بن المسيب رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول لنفسه إذا دخل الليل: قومي يا مأوى كل شيء والله لأدعنك تزحفين زحف البعير، فكان يصبح وقدماه منتفختان فيقول لنفسه: بذات أمرت ولذا خلقت، وكان رضي الله عنه يقول: لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وجسمه ويصل بها رحمه^(١)، وكان يقول: ما فاتتني فريضة في جماعة منذ أربعين سنة، وما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد، وصلى رضي الله عنه الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة، وكان يقول وقد أتت عليه أربع وثمانون سنة ما شيء أخوف عندي من النساء^(٢)، وكان يقول: الناس كلهم تحت كنف الله يعملون أعمالهم، فإذا أراد الله عز وجل فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه، فبذت للناس عورته، وكان رضي الله عنه يقول: لا تملؤا أعينكم من أعوان الظلمة إلا

(١) وكان هذا هو مذهب الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، كان يأمر تلاميذه بجمع الدنيا ويقول لهم: اجمعوها حتى لا تذلوا لأحد.

(٢) قلت: وقد كان هكذا كبار المتكئين من أهل الله لا يأمنون مكر الله عز وجل وإن أمنهم سبحانه وتعالى من مكره.

بالإنكار من قلوبكم لكي لا تحبط أعمالكم الصالحة.

وضريه عبد الملك بن مروان وألبسه المسوح، وطاف به أسواق المدينة حين امتنع من مبايعته، ومنع الناس من مجالسته فكان يقول: لا أحد يجالسني فإنهم قد جلدوني ومنعوا الناس من مجالستي فيرجع الناس عنه، وكان رضي الله عنه يقول: لا تقولوا مسيئراً، ولا مصيحفاً بالتصغير فتصغروا ما كان لله تعالى، فهو عظيم جليل، وكان يقول: من استغنى بالله افتقر الناس إليه، وكان الناس يستأذنون عليه من هيبته كما يستأذنون على الأمراء، وكان يقول: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله كثر من نقصه وهب نقصه لفضله رضي الله عنه.

ومنتهم عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: إذا رأيت من رجل حسنة فأحبوه عليها، واعلموا أن لها عنده أخوات، وكذلك إذا رأيت منه سيئة فأبغضوه عليها، واعلموا أن لها عنده أخوات، وكان رضي الله عنه يقول: كان داود عليه السلام يصنع القفة من الخوص، وهو على المنبر، ثم يرسل يبيعهها ويأكل منها، وكان يقول أزهد الناس في العالم أهله.

ولما اعتزل في قصره بالعقيق، وترك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: في ذلك؟ فقال: رأيت مساجدهم لاهية وأسواقهم لاغية والفاحشة في فجاجهم عالية، فكان فيما هنالك عماهم فيه عافية، وكان رضي الله عنه يقول لأولاده: تعلموا العلم فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين، ما أقبح الجهل ولا سيما من شيخ، وخرج إلى الوليد بن عبد الملك فوقعت في رجله الأكلة فقطعوها، فكانوا يرون ذلك عقوبة لمشيئه بها إلى الوليد، ثم قال: الحمد

(1) اعلم أن حقيقة اجتناب بعض الصوفية للصلاة في المساجد وعدم حضور الجماعة فيها إنما هو هجر لأخلاق القوم لا هجر للمسجد نفسه، وهم يرون في عزلتهم صلاحاً لدينهم، ولذلك لما اعتزل مالك في بيته سئل عن سبب عدم حضوره للجمعة والجماعة فقال: أخشى أن أرى منكراً ولا أستطيع تغييره، فالصوفي يرى في كل شيء يقربه من حضرة ربه مصلحة له، فكيف بصوفية السلف لو راوا مساجدنا اليوم وما يحدث فيها من تقاتل على الإمامة وما ينتشر فيها من بدع ولفوق؟

لله الذي أبقيت لي أختها، وكان عليه السلام يسرد الصوم، فقطعوا رجله وهو صائم لم يمسكه أحد حين قطعت (١)، مات عليه السلام وهو صائم سنة أربع وتسعين عليه السلام.

ومنهم محمد بن الحنفية بن الإمام علي عليه السلام

كان عليه السلام يقول: من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر، وكان عليه السلام يقول: ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له مخرجاً.

ولما كتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان يتهدده، ويتوعده، ويحلف ليحملن إليه مائة ألف في البر ومائة ألف في البحر، أو يؤدي إليه الجزية كتب عبد الملك إلى الحجاج أن اكتب إلى محمد بن الحنفية تتهدده وتتوعده، ثم أعلمني بما يرد عليك فكتب إليه فأرسل ابن الحنفية كتابه إلى الحجاج يقول: إن لله عز وجل ثلاثمائة وتسعين نظرة إلى خلقه، وأنا أرجو أن ينظر الله إلي نظرة يمنيني بها منك، فبعث الحجاج بذلك الكتاب إلى عبد الملك، فكتب مثل ذلك إلى ملك الروم فقال ملك الروم: ما خرج هذا منك، ولا كتبت أنت به ولا خرج إلا من بيت نبوة عليه السلام.

ومنهم علي زين العابدين بن الحسين

بن علي بن أبي طالب عليه السلام

وهو علي الأصغر وأما الأكبر فقتل مع الحسين عليه السلام أجمعين، وسيأتي في ترجمة محمد الباقر أن زين العابدين أبو الحسينيين كلهم، وكان يقول: إذا نصح العبد لله تعالى في سره، أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله، فتشاغل بذنوبه عن معائب الناس.

وكان يقول: كانت المصاحف لا تباع إنما يأتي الرجل بورقه عند المنبر، فيقوم الرجل المحتسب، فيكتب له من أول البقرة ثم يجيء غيره حتى يتم المصحف.

(١) قلت: وقد أخرجوا نصلاً من جسم الإمام على كرم الله وجهه وهو يصلى ولم يحس بذلك.

قالوا: ولما قتل أخوه كان عمره ثلاث عشرة سنة إلا أنه كان مريضاً نائماً على فراش فلم يقتل، وكان إذا توضأ اصفر وجهه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟ وكان إذا مشى لا تجاوز يده فخذه، ولا يخطر بيده، وكان إذا بلغه عن أحد أنه ينقصه، ويقع فيه يذهب إليه في منزله، ويتلطف به ويقول: يا هذا إن كان ما قلت في حقاً فيغفر الله لي وإن كان باطلاً، فغفر الله لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وكان الرجل يقف على رأسه في المسجد، فما يترك شيئاً إلا ويقول في نفسه، وهو ساكت لا يرد عليه ﷺ، فلما ينصرف يقوم الرجل وراءه ويلزمه من خلفه، ويبكي فيقول: لا عدت تسمع مني شيئاً تكرهه قط، وكان ينشد:

وما شيء أحب إلى اللئيم إذا شتم الكريم من الجواب

وكان ﷺ يقول: فقد الأحبة غربة، وكان يقول: عبادة الأحرار لا تكون إلا شكر الله لا خوفاً ولا رغبة، وكان يقول: كيف يكون صاحبكم من إذا فتحتم كيسه فأخذتم منه حاجتكم لم ينشرح لذلك، وكان ﷺ يقول لأصحابه: أحبونا حب الإسلام لله عز وجل، فإنه ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً، إشارة إلى ما وقع له مع عبد الملك بن مروان حين حمله من المدينة إلى الشام مثقلاً بالحديد في يديه ورجليه وعنقه، فلما دخل الزهري على عبد الملك قال له: ليس علي بن الحسين حيث يظن من جهة الخلافة إنما هو مشغول بنفسه، وعبادة ربه عز وجل فقال: نعم ما شغل به نفسه وأطلقه.

وكان ﷺ يحب ألا يعينه على طهوره أحد، وكان يستقي الماء لظهوره ويحضره قبل أن ينام، وكان لا يترك قيام الليل لا سفراً ولا حضراً، وكان يقول: إن الله يحب المؤمن المذنّب التواب.

وكان ﷺ يثني على أبي بكر وعمر وعثمان، ويترحم عليهم، وكان يصلي

(١) أي تكون يده ثابتتان بجوار فخذه ولا تتحركان مع المشي إلى الأمام والخلف وهو ادعى للخشوع.
(٢) قلت: ويا ليت الشيعة اقتدوا بهذا الإمام الكامل في حبه لأبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وأرضاهم، فإنهم يبغضونهم أشد البغض ويسبونهم بما لا يليق ولا يرضى الله ولا رسوله ﷺ.

في كل يوم وليلة ألف ركعة، وكانت الريح تهيج فيخرب مفسياً عليه، ولما حج قال:
ليكن فوق مفسياً عليه فتشم، واستطال عليه رجل فتناول فتناول عنه، فقال
له الرجل: إياك أعني فقال له علي زين العابدين: وعنك إذن أغضي.

وخرج يوماً من المسجد، فلقى رجل فسبه، وبالح في سبه فبادرت إليه
العبيد والموالي فكفهم عنه، وقال: مهلاً على الرجل، ثم أقبل عليه فقال: ما ستر
عنك من أمرنا أكثر ألك حاجة نعينك عليهما؟ فاستحى الرجل فألقى إليه
خميصته التي عليه، وأمر له بعتاء فوق ألف درهم، فقال الرجل: أشهد أنك من
أولاد الرسول عليه الصلاة والسلام.

توفي عليه السلام بالبقيع سنة تسع وتسعين، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وحمل
رأسه إلى مصر، ودفنت بالقرب من مجرة الماء إلى القلعة بمصر العتيقة عليه السلام.

ومنهم أبو جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين

بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام

قال النووي رحمه الله تعالى: سمي بالباقر لأنه بقر العلم أي شقه، فعرف
أصله وعرف خفيه. وكان عليه السلام يقول: إن الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا
تصيب الذاكر لله عز وجل. وكان عليه السلام يقول: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر
إلا نقص من عقله مثل ما دخل من ذلك الكبر أو كثر، وكان يحب أبا بكر
الصديق عليه السلام، ويبالغ في مدحه ويقول: من لم يقل الصديق، فلا صدق الله له
قولاً في الدنيا والآخرة، ويلفه عن جماعة من أهل العراق أنهم يبنضون أبا بكر
وعمر، ويزعمون أنهم يحبون أهل البيت، فكتب إليهم: إني بريء ممن يبنض أبا
بكر وعمر ولو أني وليت لتقرت إلى الله تعالى بدماء من يكرهما^(١)، وكان عليه السلام
يقول: ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج، وكان إذا ضحك قال: اللهم لا
تمقتني^(٢)، وكان يقول: ليس في الدنيا شيء أعون من الإحسان إلى الإخوان،
(١) هذا ليعلم الناس تبرا أئمة أهل البيت رضى الله تعالى عنهم من الشيعة ومن أعمالهم الشنيعة،
وان الشيعة ينتسبون إليهم زوراً وبهتاناً.

(٢) خشية أن تكون أصابته الغفلة أثناء ضحكه.

وكان لا يمل قط من مجالستهم، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: بئس الأخ يرعاك غنياً، ويقطعك فقيراً. وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: اعرف المودة في قلب أخيك بما له من قلبك.

قال الأصمعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ونسل الحسينيين كلهم من قبل زين العابدين فهو أبو الحسينيين كلهم، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أجمعين، مات رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة سبع عشرة ومائة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وأوصى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه، والله أعلم.

ومنهم أبو عبد الله جعفر الصادق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

ابن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين: كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منها قيامه من مجلسه لأبيه وخدمته لضيفه وقيامه على دابته ولو أن له مائة عبد وخدمته لمن يتعلم منه، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال أن تصغره إذا صنعته، وتستره وتعجله، وذلك لأنك إذا صغرته عظم، وإذا سترته أتممته، وإذا عجلته هينته.. وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: إذا أقبلت الدنيا على إنسان أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه، وكان يقول: إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه، فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل له عذراً لا أعرفه.

ودخل عليه الثوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فرأى عليه جبة من خز، فقال له: إنكم من بيت نبوة تلبسون هذا؟ فقال: ما تدري أدخل يدك فإذا تحته مسح من شعر خشن، ثم قال: يا ثوري، أرني ما تحت جبتك، فوجد تحتها قميصاً أرق من بياض البيض، فخجل سفيان، ثم قال: يا ثوري لا تكثر الدخول علينا تضرنا ونضرك. ودخل عليه أبو حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس^(١)، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: إذا سمعتم عن مسلم كلمة، فاحملوها على أحسن ما تجدون، حتى لا تجدوا لها محملاً فلوموا أنفسكم، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(١) هو تحذير تتزيهه وليس تحذيراً زجرياً، وإلا فإن القياس من أصول الدين، ولا يستقيم بدونه، فكان مولانا جعفر الصادق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أراد لأبي حنيفة أن لا يعوج في قياسه فيخرج عن القصد فيضل هو ويضل غيره، فكانه أراد أن يقول له: قس لكن بعذر واستقامة وتمكن.

يقول: لا تأكلوا من يد جاءت ثم شبعتم، وقال لرجل من قبيلة: من سيد هذه القبيلة؟ فقال الرجل: أنا فقال: لو كنت سيدهم، ما قلت أنا. وكان يقول: إذا أذنبت فاستغفر فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال قبل أن يخلقوا وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها، وكان رضي الله عنه إذا احتاج إلى شيء قال: يا ربه أنا محتاج إلى كذا، فما يستتم دعاءه إلا وذلك الشيء بجنبه موضوعاً. توفي رضي الله عنه، بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان رضي الله عنه يقول: من استبطأ رزقه؛ فليكثر من الإستغفار، وكان رضي الله عنه يقول: من أعجب بشيء من أمواله وأراد بقاءه، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وكان يلبس الجبة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده، والحلة من الخز على ظاهره، ويقول: تلبس الجبة لله، والخز لكم، فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبدينا.^(١)

وكان رضي الله عنه يقول: أوحى الله إلى الدنيا أن اخدمني من خدمني وأتعبي من خدمك. وكان يقول: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين، وكان يقول: اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك، وكل ما أنا فيه من فضلك رضي الله عنه.

ومنهم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه^(٢)

وكانت الشياه والذئاب في زمانه ترعى سواء من عدله، وأتته الدنيا وهي راغمة فتركها وزهد فيها وكانت حجرة إزاره غائبة في عكته، فلما ولي الخلافة فلو شئت أن تعد أضلاعه عدداً من غير مس لعددها، وكانت غلته خمسين ألف دينار، فلما ولي الخلافة صار ينفقها كل حين، حتى ما يبقى له غير قميص واحد لا يخلعه، حتى يتسخ فإذا اتسخ غسله ومكث في البيت حتى يجف، وكانت زوجته فاطمة بنت عبد الملك كذلك؛ وضعت جميع مالها في بيت المال فصارت كآحاد الناس، قالت فاطمة رضي الله عنها: ومنذ ولي الخلافة ما اغتسل قط من جنابة إلى أن مات.^(٣) فإنه لما ولي الخلافة خير جواريه، وقال: قد نزل بي أمر شغلني

(١) فعن أهل البيت رضى الله تعالى عنهم ظهر مذهب الملامية.

(٢) ذكرته في كتابي «طبقات الأولياء الذين نالوا الخلافة الظاهرية والباطنية» وهو مطبوع.

(٣) وذلك لاستيلاء حال الجلال والقبض والخوف عليه، واللذة النكاحية تحتاج إلى حان جمالي =

عنكن إلى يوم القيامة، وحتى يفرغ الناس من الحساب فمن أحببت ممنكن أن اعتقتها اعتقتها ومن أحببت أن أمسكها على أن لا يكون مني إليها شيء أمسكتها، فبكين وارتفع بكاؤهن ياساً منه. وخير فاطمة رضي الله عنها بنت عبد الملك بين أن تقيم عنده، وبين أن تلحق بدار أبيها، فبكت وعلا نحيبها، حتى سمع ذلك الجيران.

قالت فاطمة: ولم أر أحداً من الرجال، أشد خوفاً من الله تعالى من عمر، كان إذا دخل عندي البيت ألقى نفسه في مسجده فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم يسقط فيفعل مثل ذلك ليله أجمع، وكان يخطب الناس بقميص مرقوع الجيب، من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست، فنكس رأسه ساعة، ثم قال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة.

وكانت بناته لم تزلن عراة، فدعا واحدة منهن فلم تجبه، فأرسل الخادم فأتى بها إليه فقال: ما منعك أن تجيبيني؟ فقالت: إني عريانة فأمر لها بخيشة فألبسها إياها، وكان رضي الله عنه يبكي الدم، وكان يجتمع بالخضر رضي الله عنه وكان رضي الله عنه كل قليل يرسل البريد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر وعمر ليس له حاجة إلا السلام، وكان رضي الله عنه له سرب ينزل فيه كل ليلة، فيضع الغل في عنقه فلا يزال يبكي ويتضرع إلى الصباح، وكان رضي الله عنه يقول: لا تدخل على أمير ولو نهيته عن المنكر وأمرته بالمعروف، وقد كان رضي الله عنه يقول: لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس، وكان رضي الله عنه يقول: المنتقى ملجم، وكان رضي الله عنه يقول: لو تعلمون مني ما أعلم من نفسي، ما نظرتكم في وجهي، وكان رضي الله عنه يقول: إنما الزهد في الحلال وأما الحرام فنار تسعر؛ يرتع فيها الأموات، ولو كانوا أحياء لوجدوا ألم النار، وأخباره رضي الله عنه مشهورة في الحلية لأبي نعيم وغيرها، مات رضي الله عنه في رجب سنة إحدى ومائة، وله من العمر تسع (1) وثلاثون سنة، ودفن بدير سمعان من أرض حمص.

= بخلاف ما هو فيه، ولذلك لم يَأثم من عدم إعطائه لحق الزوجة والجواري لكونه خيرهن في البداية وأعلمهن بهذا الحال وقال لهن: قد نزل بي أمر شغلني عنكن إلى يوم القيامة.

(1) أي تقطب قبل الأربعين، وفيه درء لمن قال: إن القطبانية لا ينالها إلا من بلغ سن الأربعين فصاعداً.

وكانت خلافته سنتين وأربعة عشر يوماً، ومات مسموماً، قالت فاطمة بنت عبد الملك رضي الله عنه: وكان جل مرضه من كثرة الخوف من الله تعالى، فكان أقوى سبباً من السم، رضي الله عنه.

ومنهم مطرف بن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: لو أتاني آت من ربي عز وجل فقال: أنت مخير بين الجنة والنار أو تصير تراباً لا اخترت أن أصير تراباً ولما مات ابن له رضي الله عنه، سرح لحيته ولبس أحسن ثيابه فقيل له في ذلك قال: أتأمروني أن أستكين للمصيبة، والله لو أن الدنيا وما فيها كانت لي ثم وعدني الحق تعالى على أخذها كلها بشرية ماء في الآخرة، لا اخترت تلك الشربة، وكان رضي الله عنه يقول: لأبيت نادماً وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً، وكان رضي الله عنه يقول: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عز وجل: هذا عبدي حقاً، وكان إذا خلا في بيته تسبح معه لبنة بيته، وظلمه رجل فقال: أماتك الله على عجل فمات في الحال، فطلبوه إلى زياد وهو على البصرة فقال: هل مسبه؟ قالوا: لا قال: فهل هي إلا دعوة رجل صالح وافقت قدراً فأطلقوه، وكان رضي الله عنه يقول: اللهم إني أستغفرك من كل عمل، ادعيت أني مخلص فيه، وأنني أردت به وجهك، وكان رضي الله عنه يقول: اللهم ارض عنا، فإن لم ترض فاعف فإن المولى قد يعفو عن عبده، وهو غير راض عنه، وكان رضي الله عنه يقول: أجلوا الله أن تذكروه عند الحمار أو الكلب، فيقول: أحذكم لكلبه أخزاك الله أو فعل الله بك كذا،^(١) وكان رضي الله عنه يقول: المتقي عند ذكر خطايا الناس مشغول، وكان يقول: أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس، وكان رضي الله عنه يقول: من لم يجزع من الضرب فهو لثيم.

وكان يقول: لا تحمل قط كتاباً إلى أمير وأنت لا تعلم ما فيه، وكان رضي الله عنه يقول: ذهب العلم وبقيت عبارات في أوعية سوء، وكان يقول: لا يحتكم ورج إلا

(١) قلت: هو نوع من أنواع الآداب الباطنية الراقية، كما أنهم كرهوا أن يكثر الرجل لمن يستحق. كمن يقول عن إبليس لعنك الله، فعملوا بالأحوط حتى لا تتعود السننهم على اللعن.

(٢) فريما كان فيه ظلم فتصبح أنت ممن شارك ذلك الظالم في ظلمه.

على أهله، وسئل عليه السلام عن الرجل يتبع الجنائز حياءً من أهلها فقط، هل له في ذلك أجر؟ فقال: ذهب ابن سيرين إلى أن له أجرين أجر صلته على أخيه وأجر مشيه للحى^(١)، وكان عليه السلام يقول: من ترك النساء والطعام فلا بد له من ظهور كرامة! وكانوا يرون السائح من ترك الطعام والشراب والنساء ولو كان مقيماً في بلده، وكان يقول: إذا أمرت غلامي بحاجة فقدم حاجة صديقي عليها ازددت في ذلك الغلام حباً، وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك أن يكون غيري أسعد مني بما علمته له، وكان عليه السلام يقول: رأيت أني نزلت إلى السموات فرأيتهم جالسين فسلمت عليهم، فلم يرد علي منهم أحد السلام فقلت لهم: في ذلك فقالوا: إن رد السلام حسنة وأنا لا نستطيع أن نزيد في الحسنات^(٢)، وسمع رجلاً يقول: اللهم لا ترد هؤلاء القوم من أجلي فقال: هذا هو العارف بنفسه، وكان يقول: لا يقل أحدكم إن الله تعالى يقول، ولكن ليقل إن الله تعالى قال، وكان عليه السلام يقول: من كذب صاحب كرامة فهو أكذب، وكان يقول: عليك بالشرف فإنك لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إليهم، وكان عليه السلام يقول: يود أقوام من الناس يوم القيامة، أن أقلامهم كانت من نار حتى لا يكتبوا بها ما كتبوا. وكان عليه السلام يقول: ما بقي في زماننا قراء إنما هم مترفون في الدنيا، وكان يقول: ليس بصاحب من يفتاب عندي الناس، وكان يقول: لولا الغفلة في قلوب الصديقين^(٣) لما توارى من عظيم ما تجلى لقلوبهم، وكان يلبس المطارف والبرانس ويركب الخيول، ومع ذلك كان يقول: في دعائه اللهم لا ترد السائلين معي من أجلي. توفي عليه السلام بعد الطاعون الجارف، لما تولى الحجاج العراق سنة سبع ومائتين عليه السلام.

(١) وأما مشيه للميت فلا يأخذ منه شيئاً، لأن نيته لم تتعقد على ذلك.

(٢) لأن بقاءهم التكليفي زال وهم في دار غير الدار التي يزاها فيها الحسنات.

(٣) قلت: ولا تصح جمعية متصلة بلا انقطاع لمخلوق بالخالق عز وجل سوى للقطب الفرد الجامع.

وأما بقية الأولياء فتصيبهم الغفلة عن استمرار تلك الجمعية بالحق.

ومنهم العلاء بن الشخير أخوه رضي الله عنه

كان يقول: العافية مع الشكر أحب من البلاء مع الصبر، قال سفيان الثوري رضي الله عنه: وذلك لأن الله مدح سليمان مع العافية بقوله: "نعم العبد إنه أواب" وقال في صفة أيوب مع البلاء الذي كان فيه، "نعم العبد إنه أواب" فاستوت الصفتان؛ وهذا معافى وهذا مبتلى، فوجدنا الشكر قد قام مقام الصبر فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب من البلاء مع الصبر رضي الله عنه.

ومنهم صفوان بن محرز المازني رضي الله عنه

كان يقول: ما يعني عني ما أعلم من الخير، إذا لم أعمل به فيا ليتني لم أحسن شيئاً، وكان رضي الله عنه، يقول: إذا وجدت رغيماً وكوز ماء يوماً بعد يوم فعلى الدنيا العفاء، وكان له رضي الله عنه سرب بيكي فيه، وكان له بيت فانكسر من سقفه جذع فقيل له: ألا تصلحه فقال: أنا أموت غداً ولو أن صاحب المنزل يدعني أن أقيم فيه لأصلحته^(١)، وكان رضي الله عنه لا يخرج من بيته قط إلا للصلاة، ثم يرجع بسرعة رضي الله عنه.

ومنهم أبو العالية رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: يوثق كل من كان الناس يخافون شره بالحديد يوم القيامة، ثم يؤمر به إلى النار مع الجبارين والشياطين، وكان رضي الله عنه يكره للرجل أن يلبس زي الرهبان من الصوف، ويقول زينة المسلمين التجمل بلباسهم، وكان يحب الوحدة، وإذا جلس إليه أكثر من أربعة قام وتركهم، يخاف من اللغو، وكان يقول: ما مسست ذكرى يميني منذ خمسين سنة^(٢)، وكان يقول: من لم يخشع في

(١) انظر بريك كراهيتهم للدنيا حتى في إصلاح السقف الذي يظلمهم ويؤوهم.

(٢) سبقه أبو بكر بهذا الخلق فقد ورد عنه أنه قال: ما مسست ذكرى يميني منذ أسلمت، وهم لا يريدون لليد اليمنى التي هي رمز للألوهية وللخير وللنجاة من النار ورمز للخير المطلق أن تمس تلك الآلة الشهوانية والتي دخل النار بسببها الكثيرون، فإن المؤمن يفعل يمينه كل ما فيه خير وتقرب إلى حضرة ربه، فإن الحق سبحانه كلنا يديه يمين، فأحب القوم تزنيه اليمين عن كل نقیصة فافهم.

صلاته، فمتى يخشع وكان يقول: من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن، ثم ينام عنه ولا يتعهد به. توفي سنة تسعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم بكر بن عبد الله المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أوثق أعمالي عندي حبي للرجل الصالح، ووقف بعرفات فقال: والله لولا أنني فيهم لرجوت أن يغفر الله لهم أجمعين، وكان يقول: لا يكون الرجل متقياً حتى يكون بطيء الطمع بطيء الغضب، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كلما ازددت من اللباس وأمتعة الدار ازددت من الله تعالى مقتاً، وكلما ازددت مالاً عن إمساك ازددت من الله طرداً، وكان يقول: إذا وجدت من إخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثته فتب إلى الله تعالى، وإذا وجدت منهم زيادة محبة، فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى، وكان يقول: إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس، خبيراً بها فاعلموا أنه قد مكر به. مات سنة ثمان ومائة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم صلة بن أشيم العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان يقول إذا مر بقوم يلعبون: أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فقطعوا النهار في اللعب شغلاً عن الطريق وناموا ليلاً متى يصلون مقصدهم، ومات أخ له في بلاد بعيدة، فسبق شخص فأخبره، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد أخبرني الله تعالى بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠) وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي حتى يزحف إلى فراشه (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم العلاء بن زياد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان قد ترك مجالسة الناس كلهم إلا في صلاة الجماعة وفعل الخير، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: واحزنناه على الخير، وكان قد بكى حتى غشي بصره وربما بكى سبعة أيام متوالية لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً، توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيام ولاية الحجاج.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لو علم الناس ما أمامهم لما اطمأنوا ساعة في هذه الدار

(١) هذا ليعلم المتأخرين أنهم عيال على السلف في العبادة والزهد، وأنهم لم يأتوا بجديد يذكر.

ولا زرعوا ولا بنوا ولا أكلوا ولا شربوا ولا ناموا ﷺ، وجاءه رجل فقال: إني رأيتك الليلة في الجنة، فقال ﷺ ويحك أما وجد الشيطان أحداً يسخر به غيري وغيرك^(١)، وكان ﷺ يقول: إنكم في زمان أقلكم الذي ذهب عشر دينه وسيأتي عليكم زمان أقلكم الذي يسلم له عشر دينه ﷺ.

ومنهم أبو حازم ﷺ

كان ﷺ يقول: كل مودة يزيد فيها اللقاء لمدخوله وكان يقول: أدركت العلماء والأمراء والسلاطين يأتونهم فيقفون على أبوابهم كالعبيد حتى إذا كان اليوم رأينا الفقهاء والعلماء والعباد هم الذين يأتون الأمراء والأغنياء فلما رأوا ذلك منهم ازدروهم واحتقروهم وقالوا: لولا أن الذي بأيدينا خير مما بأيديهم ما فعلوا ذلك معنا، وكان يقول: إذا كنت في زمان يرضى فيه بالقول عن العمل فانت في شر ناس وشر زمان.

ومنهم محمد بن سيرين ﷺ

كانوا إذا ذكروا أحداً عنده بسوء يذكره هو بالخير، وكان ذا خشوع وسمت، وكان لا يدع أحداً يمشي بصحبته إذا خرج إلى مكان ويقول: إن لم يكن لك حاجة فارجع، وكان إذا كلم أمه لا يكلمها بلسانه كله إجلالاً لها، ولما حبس في دين^(٢) قال له السجنان: إذا جاء الليل فاذهب إلى دارك وأت بكرة النهار، فقال: لا أعينك على خيانة أمانتك، وكان يقول: سبب حبسي أنني عيرت رجلاً بدين كان عليه فعوقبت بذلك، وكان ﷺ يقول: من الظلم البين لأخيك أن تذكر شر ما فيه وتكتم خيراً ما فيه عند غضبك، وكان يقول: لو أن للذنوب ريحاً لما قدر أحد أن يدنو مني لكثرة ذنوبي، وكان إذا سئل عن الرؤيا يقول للسائل: اتق الله

(١) هو نوع من مكر الولي كي يستر مقامه بين الخلق ودرجته الباطنية.

(٢) وذلك لأن الكامل لا يستطيع التصرف لنفسه ولا يدفع عنها شيئاً، وعدم التصرف في حق الكامل من الرجال أقوى وأمكن بخلاف غيرهم من الأولياء، ألا ترى أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي، ولو شاء لتصرف وفك درعه قبل أن يموت ﷺ.

في اليقظة فلا يضرك ما رأيت في النوم وقال له رجل: اجعلني في حل فأني قد اغتبتك، فقال: إني أكره أن أحل ما حرم الله عز وجل من أعراض المسلمين ولكن يغفر الله لك، وكان يقول إذا مدحوه في فتياه وقالوا ما كانت الصحابة تحسن أكثر من هذا: والله لو أردنا فقههم لما أدركته عقولنا.

ومنهم ثابت بن أسد البناني رضي الله عنه

كان إذا ذكر النار خرجت أعضاؤه من مفاصلها، وكان يقول: إن أهل الذكر يجلسون للذكر، وعليهم من الذنوب أمثال الجبال، فيقومون وليس عليهم ذنب واحد، وكان رضي الله عنه يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر يقول في دعائه: اللهم إن كنت أعطيت أحداً من خلقك الصلاة في قبره فأعطنيها، فلما مات وسواوا عليه اللبن وقعت عليه لبنة فإذا هو قائم يصلي في قبره، وكان يقول: الصلاة خدمة الله في الأرض، ولو علم الله تعالى شيئاً أفضل من الصلاة لما قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩)، وكان رضي الله عنه يقول: كابدت^(١) الصلاة عشرين سنة وتعمت بها عشرين سنة، ولما مات كان الناس يسمعون من قبره تلاوة القرآن رضي الله عنه.

ومنهم يونس بن عبيد رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: ليس في هذه الأمة رياء خالص ولا كبر خالص فقيل له لماذا؟ فقال: لا كبر مع السجود ولا رياء مع التوحيد، والله تعالى أعلم.

ومنهم فرقد السبخي رضي الله عنه

كوفي تولى البصرة كان رضي الله عنه يقول: رأيت في المنام منادياً ينادي يا أشباه اليهود كونوا على حياء من الله عز وجل، فإنكم لم تشكروا إذ أعطاكم ولم تصبروا حين ابتلاكم، وكان يقول: مر عابد من بني إسرائيل على كتيب رمل وقد أصابت بني إسرائيل مجاعة فتمنى أن يكون ذلك الرمل دقيقاً يشبع به بني

(١) أي كابدت التحقق بها تحقفاً عرفانياً وذوقياً.

إسرائيل، فأوحى الله تعالى لنبي لهم قل للعابد: قد أوجبت لك من الأجر ما لو كان دقيقاً لتصدقت به (١) رضي الله عنه.

ومنهم محمد بن واسع رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يلبس الصوف فدخل يوماً على قتيبة بن مسلم فقال له قتيبة: ما دعاك إلى لبس الصوف؟ فسكت فقال له: ألا أكلمك فلا تجيبني؟ فقال: أكره أن أقول زاهد فأزكي نفسي، أو فقير فأشكو ربي عز وجل، وكان رضي الله عنه يقول: من زهد في الدنيا فهو مالك الدنيا والآخرة، وكان يقول: من أقبل بقلبه على الله تعالى أقبل بقلوب العباد إليه، وكان يقول: أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة، ويكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم عشرين سنة، لا تشعر إمرأتهم بذلك رضي الله عنه.

ومنهم سليمان التيمي رضي الله عنه

صلى رضي الله عنه الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة، وكان يمشي حافياً وله هيبه على السوق وغيرهم، وكان يدخل على الأمراء فيأمرهم وينهاهم رضي الله عنه.

ومنهم أبو يحيى مالك بن دينار رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت أني إذا مت أن أغل فأدفع إلى ربي مغلولاً كما يدفع العبد الأبق إلى مولاه، وكان رضي الله عنه يقول: من علامة حب الدنيا أن يكون دائم البطنة قليل الفطنة، همته بطنه وفرجه يقول: متى أصبح فآلهو وألعب وأكل وأشرب متى أمسى فأنام، جيفة بالليل بطال بالنهار، وسئل رضي الله عنه عن لبس الصوف فقال رضي الله عنه: أما أنا فلا أصلح له لأنه يطلب صفاء، وكان يقول: لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة لقاء الإخوان والتهدج بالقرآن وبيت خال يذكر الله فيه، وكان إذا سأله سائل والسحابة مارة يقول:

(١) قلت: وذلك لأن الحق سبحانه يعطي المرء على قدر نيته وإن لم تخرج نيته إلى عالم الشهادة وإلى خير التنفيذ.

اصبر حتى تمر هذه السحابة، فإني أخشى أن يكون فيها حجارة ترمينا بها، وكان عليه السلام يقول: ما بقي لأحد رفيق يساعده على عمل الآخرة إنما هم يفسدون على المرء قلبه، وكان يقول: إنني أكره أن يأتيني أحد من إخواني إلى منزلي خوفاً أن لا أقوم بواجب حقه، وكان يقول في قوله تعالى: "وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون" فكم اليوم في كل مدينة ممن يفسد ولا يصلح^(١)، يعني أن ما عدا التسعة كانوا كلهم يصلحون ولا يفسدون، وكان عليه السلام يقول: الناس يستبطنون المطر وأنا أستبطن الحجر.

وربى معه^(٢) كلباً فقيل له في ذلك فقال: هو خير من قرين السوء، وكان عليه السلام يقول: أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض في الملابس من أعلى وأدنى فكان صاحب الخبز لا يعيب على صاحب الصوف، ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخبز، وكان يقول: من الإخوان من يكون محباً لك وهو بعيد ويمنعه من لقاءك الشغل الذي هو فيه، وكان يقول: قد اصطلحنا كلنا على حب الدنيا فلا صالح ولا عالم يعيب على آخر فيها، وكان إدامه في جميع سنته أن يشتري له بفسلين ملحاً، وكان لا يأكل اللحم إلا في أضحية لما ورد في الأكل منها، وكان يقول لأهله: من وافقني على التقلل فهو معي وإلا فالفراق، وكان يتقوت من عمل الخوص، وفي بعض الأوقات يكتب المصاحف، وكان بيته خالياً ليس فيه غير مصحف وإبريق وحصير ويقول: هلك أصحاب الأثقال، وكان يقول في دعائه: اللهم لا تدخل بيت مالك بن دينار من الدنيا شيئاً، وكان عليه السلام يقول: لولا أن يقول الناس جن مالك للبيست المسوح، ووضعت الرماد على رأسي بين الناس، وكان عليه السلام يقول: إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه وإذا تعلمه لغير العمل زاده فجوراً وتكبيراً واحتقاراً للعامّة، وقال له بعض الولاة: ادع لنا

(١) قلت: وكم من مليون مفسد يوجد الآن في بلد مثل مصر، وأما الصالحون فيعدون على الأصابع، كما كان المفسدون في ذلك الزمان يعدون على الأصابع.

(٢) قلت: لعلة كان من الجن المؤمن، لأنه لا حاجة للأولياء بالكلاب إذا سقطت علة الحراسة وذلك لنجاستها، لاسيما وأنهم على طهر دائم متواصل، وقد انتشرت عادة مصاحبة الأولياء للكلاب خلال القرن العاشر كما حكى الشعرائي ذلك في الطبقات.

فقال: كيف أدعو لكم وألف واحد يدعون عليكم، وكان رضي الله عنه يقول: منذ عرفت أن ذم الناس إفراط، ومدحهم إفراط كرهت مذمتهم.
 مات رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين ومائة، والله أعلم.

ومنهم محمد بن المنكدر رضي الله عنه

كان يقول: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت على آثار السلف، وكان يحج بالأطفال ويقول: نعرضهم على الله تعالى لعله ينظر إليهم، وكان يقول: إن الفقيه يدخل بين الله وبين عباده فليُنظر كيف يدخل، وكان رضي الله عنه يقول: إني أستحيي من الله عز وجل أن أعتقد أن رحمته تعجز عن أحد من المسلمين ولو فعل ما فعل. توفي بالمدينة سنة ثلاثين ومائة.

ومنهم صفوان بن سليم رضي الله عنه

كان يصلي بالليل حتى تورمت قدماه، وكان يتهدج بالشتاء فوق السطح^(١)، لثلاثين يوماً، ودخل سليمان بن عبد الملك المسجد، فرأى صفوان فأعجبه سمته فأرسل إليه ألف دينار فقال للفلام: أنت غلظت ما هو أنا اذهب فاستثبت، فذهب الفلام فهرب صفوان فلم يرجع حتى خرج سليمان من المدينة، توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، والله أعلم.

ومنهم موسى الكاظم رضي الله عنه

أحد الأئمة الإثني عشر وهو ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أجمعين، كان رضي الله عنه يقول: إذا صحبت رجلاً وكان موافقاً لك،

(١) اعلم أن حقيقة اختلاء الأولياء على السطوح إنما يكون لانكشافها على السماء وهي موضع الملا الأعلى وكذلك موضع التأمل، وكذلك لبعدها عن الناس واللغو واللفظ، وربما رأوا أن البرد القارص والحر الشديد خير وسيلة لتأديب نفوسهم، وقد اختلى الكثيرون على سطوح البيوت والمساجد كسيدي أحمد البدوي وسيدي أبي المواهب الشاذلي وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله عنهم جميعاً.

ثم غاب عنك فلقيته فاضطرب قلبك عليه، فارجع إلى نفسك فانظر فإن كنت اعوججت فتب، وإن كنت مستقيماً فاعلم أنه ترك الطريق وقف عند ذلك ولا تقطع منه حتى يستبين لك إن شاء الله تعالى وكان يكنى بالعبد الصالح لكثرة عبادته واجتهاده وقيامه بالليل، وكان إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه يبعث إليه بمال.

ولد موسى بن جعفر عليه السلام سنة ثمان وعشرين ومائة، وأقدمه المهدي إلى العراق، ثم رده إلى المدينة، فأقام بها إلى أيام الرشيد، فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفي بها مسموماً عليه السلام، سنة ثلاث وستين ومائة وقبره بها مشهور عليه السلام.

ومنهم محمد بن كعب القرظي عليه السلام

كان عليه السلام يقول: إذا أراد الله بعبده خيراً جعل فيه ثلاث خصال: فقهاً في الدين وزهادة في الدنيا وتبصرة بعيوبه، وكان عليه السلام يقول: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لذكريا عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً^(١) واذكر ربك كثيراً وسأله رجل فقال: أرأيت إن أعطيت الله عز وجل عهداً أو ميثاقاً أن لا أعصيه أبداً فقال له محمد: فمن حينئذ أعظم منك جرماً، وأنت تأتلي على الله أن لا ينفذ فيك أمره^(٢)؟

توفي عليه السلام سنة سبع عشرة ومائة، وكان يعظ الناس، فسقط عليهم المسجد فمات وماتوا كلهم عليه السلام، وكان عليه السلام يقول: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة،

(١) أي لو انقطعت عن ذكر العبارة فلا تتقطع عن ذكر الإشارة.

(٢) قلت: قد قامت سنة المشايخ في زمننا هذا عندما يأخذون العهد على مرديهم أن يقول أحدهم: وعزمت على أن لا أعصى الله أبداً، ولا بأس به لدفع المرید إلى عقد النية على التوبة، وأما الفانى فلا يرى له عملاً مع الله في نفسه وذلك لفنائته في عين الفاعل فلا يعقد ولا يعزم على مولاه بشيء لكونه يرى أن حقيقة الفعل من الله، وأدباً لا يصح له أن يخرج عن حكم الله فيه، يقول سبحانه: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»، فالرامي هو الله.

والكامل يرى أن خروجه عن حكم مولاه إساءة أدب مع صاحب الحكمة والتدبير، فلا يقاوم الكامل القهر الإلهي في نفسه، وهذا هو الكمال المحمدي الوارد على لسانه بقوله: «قل إنه لن يجيرني من الله أحد».

وكان رضي الله عنه يقول: لا تنزل الحكمة في قلب فيه عزم على المعصية، وكان رضي الله عنه يقول: إياك وكثرة الأصحاب فإنك لا تقوم بواجب حقهم، والله إنني لأعجز عن القيام بواجب حق صاحب واحد، وكان يقول: كان بين قول فرعون أم علمت لكم من إله غيري وبين قول: أنا ربكم الأعلى أربعون سنة، وكان يقول: إذا صحت الضمائر، غفرت الكبائر، وكان رضي الله عنه أعرج، فكان يعاقب نفسه فيقول: ينادي يوم القيامة يا أهل خطيئة كذا وكذا قوموا فتقوم معهم ثم يقول: يا أهل خطيئة كذا وكذا قوموا فتقوم معهم فأراك يا أعيرج تقوم مع أهل كل خطيئة، توفي رضي الله عنه سنة أربعين ومائة رضي الله عنه.

ومنهم عبدة بن عمير رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: من صدق الإيمان إسباغ الوضوء في المكاره بالليل، وأن تخلو بالمرأة الحسناء لا تلتفت إليها، وكان رضي الله عنه يقول: ما بقي في الدنيا شيء للمؤمن، يتلذذ به إلا سرب يدخل فيه إلى أن يموت، وكان يقول: طوبى لمن يرى الشهوات بعينه، ولم يشته الخطايا بقلبه، وكان يقول: علامة الإخلاص أن لا تطمع في الناس ولا تحب محمدتهم، وكان رضي الله عنه يقول: حق الضيف عليك ثلاث: أن لا تتكلف له ولا تطعمه إلا من حلال وتحفظ عليه أوقات الصلاة، وكان يقول: علامة المتقلل من الدنيا أن يصل إلى حد لم يأخذه لائم، وكان يقول: لا يكون الرجل متعلماً حتى يترك الهوى، ولا يكون عالماً حتى يعلم الناس، ما يرجو لهم فيه النجاة، وكان رضي الله عنه يقول: والله ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيما مضى رضي الله عنه.

ومنهم مجاهد بن حنين رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: إنني لأرى الرجل يصنع شيئاً مما يكره فأستحي أن أنهاء عن ذلك أي مع نهي له، وكان رضي الله عنه يقول: كل موجبة كبيرة، وكان يقول: لا يكون الرجل من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً^(١)، وكان يقول: إن النملة التي كلمت سليمان كانت مثل الذئب العظيم، وكان يقول: ليس

(١) قلت: وهذا هو فناء السلف في الربوبية.

أحد إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ، وكان ﷺ يقول: يؤمر بالعبد إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا ظني بك وأنت أعلم فيقول الله عز وجل وهو أعلم: ما كان ظنك بي؟ فيقول: أن تغفر لي فيقول تعالى: "خلوا سبيله" وكان يقول: ليكن آخر كلام أحدكم عند منامه: لا إله إلا الله فإنها وفاة لا يدري لعلها تكون منية. توفي ﷺ وهو ساجد سنة اثنتين ومائة وله ثلاث وثمانون سنة ﷺ.

ومنهم عطاء بن أبي رباح ﷺ

كان ﷺ إذا حدثه أحد بحديث وهو يعلمه يصفى إليه كأنه ما سمعه قط لئلا يخجل الرجل^(١)، وكان يقرأ في قيامه في صلاة الليل المائتي آية أو أكثر وكان إذا استأذن عليه أحد لا يفتح له، حتى يقول له: بأي نية جئت إلي فإذا قال: لزيارتك يقول: ما مثلي من يزار ثم يقول: قد خبث زمان يزار فيه مثلي، وكان يقول: من جلس مجلس ذكر كفر الله تعالى عنه بذلك المجلس عشرة مجالس من مجالس الباطل، وكان ﷺ مولى لأبي ميسرة الفهري، نشأ بمكة.

وكان أحمد بن حنبل ﷺ يقول: خزائن العلم لا يقسمها الله تعالى إلا لمن أحب ولو كان يخص بالعلم أحداً لكان أهل النسب أولى، وكان عطاء عبداً حبشياً، وكان يزيد بن أبي حبيب نوبياً، وكان الحسن البصري نوبياً مولى، وكان ابن سيرين ﷺ مولى للأنصار انتهى.

قلت: ومن الموالى أيضاً مكحول وطاووس والنخعي وميمون بن مهران والضحاك بن مزاحم قاله الزهري، وكان عطاء يعلم الأكابر العلم، وجاءه سليمان بن عبد الملك فجلس بين يديه فعلمه مناسك الحج، ثم التفت إلى أولاده وقال: تعلموا العلم فإنني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود، وحج عطاء ﷺ سبعين حجة، وعاش مائة سنة. وتوفي بمكة سنة خمس عشرة ومائة ﷺ.

(١) وهو من الأخلاق المحمدية العالية التي ورثها الأولياء عنه ﷺ.

ومنهم عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه

وكان يقول: في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ١٧) الدنيا كلها قريب وكلها جهالة، وكان رضي الله عنه يقول: من قرأ سورة يس في يوم لم يزل في سرور ذلك اليوم حتى يمسي، وكان رضي الله عنه يقول: سعة الشمس سعة الأرض وزيادة ثلاث مرات وسعة القمر سعة الأرض مرة (١). وكان قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء ثلاثاً ينام، وثلاثاً يحدث، وثلاثاً يصلي، والله أعلم.

ومنهم طاوس بن كيسان اليماني رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: قم للقرء في دولته، وكان يقول: يا ليتك تعلم العلم لنفسك فإن الناس قد ذهب من الأمانة والعمل بالعلم، وكان يقول: أفضل العبادة أخفها، وكان رضي الله عنه يقول: لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا.

مات سنة خمس ومائة، وحج رضي الله عنه أربعين حجة، وكان إذا رأى النار يكاد يطيش عقله (٢)، ورأى مرة رؤاساً يخرج رأساً من التور فغشي عليه، وكان لا يسقي دابته من بئر حفرها سلطان، وصلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة، وكان قوالاً بالحق للولاة وغيرهم لا تأخذه في الله لومة لائم رضي الله عنه.

ومنهم أبو عبد الله وهب بن منبه رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: في التوراة علامة الرجل الصالح أن يخاصمه قومه الأقرب فالأقرب، وكان رضي الله عنه يقول: كان الناس ورقاً بلا شوك وأنتم اليوم شوك لا ورق فيه، إن تركهم العبد وهرب تبعوه، وكان يكره النطق بالشعر (٣) ويقول: إني أكره (١) هو قول غير علمي ولم يصدر عن كشف، وإنما هو مجرد رأي اجتهادي.

(٢) وهو حال قاهر يستولى على قلب العارف ويتمكن منه، ولا تستدعي الأحوال من قبل النفس، وإنما هي مفروضة على العارف وهو مقهور بها كما يقهر القاتل بالقتل والزاني بالزنا والباكي بالبكاء والضاحك بالضحك إلى آخر مشاهد الأحوال.

(٣) قلت: ومن العلماء من كان يصنف شعراً أيام شبابه فإذا كبر محاه وطمسه، وقد فعل ذلك شيخنا الإمام محمد بن سديد دلال العقالي السيوطي رضي الله عنه فإنه كان قد قال شعراً أيام الشباب =

أن يوجد في صحيفتي يوم القيامة شعر، وكان يكره القياس في الدين ويقول: أخاف على العالم أن تزل قدمه بعد ثبوتها، وكان يقول: إذا قرأ الشريف تواضع وإذا قرأ الوضيع تكبر.

وكان يقول: من لم يسمح لعدوه بالمال لم يجد إلى غير قتاله سبيلاً، وكان يقول: ما افتقر أحد إلا رق دينه وضعف عمله وذهبت مروءته واستخف به الناس، وكان عليه السلام يقول: اليد للمؤمن كالشكال للدابة، وكان يقول: إن للعلم طغياناً كطغيان المال، وكان يقول: اتخذوا عند الفقراء يداً، فإن لهم دولة يوم القيامة، وكان عليه السلام يقول: خلق ابن آدم أحرق ولولا حمقه ما هناه العيش، وأتاه رجل فقال: إني مررت على فلان، وهو يشتمك فغضب وذهب وقال: ما وجد الشيطان غيرك رسولاً، ثم إن ذلك الشاتم جاء فأجلسه إلى جنبه، وكان رضى الله عنه يقول: قرأت نيفاً وتسعين كتاباً من كتب الله عز وجل فوجدت فيها كلها أن كل من وكل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، وكان يقول: إن الله عز وجل يقول في بعض الكتب المنزلة: "يا ابن آدم كم لي عليك نعم ما قمت لي بما يجب عليك أذكرك وتتساني وأدعوك فتفر مني خيرى إليك نازل وشرك إلي صاعد" وكان يقول: قد أصبح علماؤنا يبذلون علمهم لأهل الدنيا لينالوها منهم فهانوا في أعينهم وزهدوا في علمهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان يقول: من كانت بطنه وادياً من الأودية كيف يصلح له الزهد في الدنيا، وكان يقول: قال موسى عليه السلام لربه: يا رب احبس عني كلام الناس فقال الله عز وجل: لو فعلت هذا بأحد لجعلت ذلك لي⁽¹⁾ وكان عليه السلام يقول: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أن أسرع الناس مروراً على الصراط الذين يرضون بجكمي وألسنتهم رطبة من ذكرى، وكان يقول: إن أعظم الذنوب بعد الشرك بالله السخرياء = ثم أنكره أيام الشيخوخة وتبرأ منه، وكان يقول: كفى أن الإمام الشافعي عليه السلام قال في ذلك:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت اليوم أشعر من لبيد

(1) قلت: وهي مسألة شائكة حيث لم تعصم منها الربوبية ولا أهل النبوة، والأمر كما ورد في الحديث القدسي على لسان الحق سبحانه: «أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواي».

بالناس، وكان يقول: إذا صام الإنسان زاغ بصره فإذا أفطر على حلاوة عاد بصره، وكان يقول: من تعبد ازداد قوة ومن كسل ازداد فترة، وكان رضي الله عنه يقول: قال عيسى للحواريين "بحق أقول لكم إن أكل خبز الشعير وشرب الماء القراح والنوم على مزابل الكلاب لكثير على من يموت"، وكان يقول: الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء، وصلى رضي الله عنه الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة. توفي بصنعاء سنة أربع عشرة ومائة رضي الله عنه.

ومنهم ميمون بن مهران رضي الله عنه

كان يقول: كراهة الرجل لأن يعصي الله عز وجل خير له من كثرة الطاعات مع الميل إلى المعاصي، وزار الحسن البصري فدق الباب فخرجت إليه جارية سداسية فقالت: من تكون قال ميمون بن مهران فقالت: كاتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال: نعم فقالت له: فما بقاؤك يا شقي إلى هذا الزمان الخبيث؟ فبكى، وصار يفحص^(١) كالطير المذبوح فسمع الحسن بكاءه وصار يقول له: لا بأس عليك يا أخي رضي الله عنه، وقيل له: إن هاهنا أقواماً يقولون نجلس في بيوتنا فترد علينا أبوابنا حتى تأتينا أرزاقنا فقال رضي الله عنه: هؤلاء قوم حمق إن كان لهم يقين مثل يقين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فليفعلوا^(٢)، وكان رضي الله عنه يقول: أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وكان يقول: يا أصحاب القرآن لا تتخذوا القرآن بضاعة تلتمسون الريح في الدنيا، اطلبوا الدنيا بالدنيا والآخرة بالآخرة، وكان يقول لأصحابه: قولوا لي ما أكره في وجهي لأن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره، وكان رضي الله عنه يقول: كان السلف رضي الله عنهم إذا راوا رجلاً راكباً وشخصاً يجري خلفه، قالوا: قاتلك الله من جبار^(٣)، وكان يقول: إذا ثبتت المودة بين الأخوين فلا بأس

(١) يفحص: أي صارت أعضاؤه تتخبط في الأرض كالطير إذا ذبح وفي القاموس: فحص الصبى أي تحركت شياؤه.

(٢) وذلك لأن قوة يقين الأنبياء هي التي يرزقون بها، فإين من له قوة يقينهم في الأولياء؟

(٣) كما كانت تعمل الباشوات وهم يركبون الخيل والفلاحون يجرون خلفهم، في الغيطان وهو من أشد أنواع التجبر والتكبر على خلق الله.

يبعد الزمان في زيارتهما، وصبت جاريتها على رأسه مرقاً فأحرقت رأسه فانذرت فقال رضي الله عنه: لا بأس عليك أنت حرة لوجه الله عز وجل. رضي الله عنه.

ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول لأصحابه: إني لأستحي أن أطوف حول الكعبة بقدمي، وقد مشتا إلى ما لا يحل، فكيف أمشي بهما في جوف الكعبة، أو الحجر، وسمع رجلاً يقول: فلان متق فقال: ويحك وهل رأيت متقياً قط إن علامة المتقي أن تذهب روحه إذا سمع بذكر النار.

وكان رضي الله عنه إذا صلى بالليل يسمع الجيران تسبيحه في صلاته، وكان إذا سمع ذكر الله تعالى انتفض انتفاض الطير المذبوح، وكان يقول: إني أستحي من الله تعالى أن أخاف شيئاً دونه، وكان رضي الله عنه يقول: إن أهل بيت يضعون اليوم على مائدتهم رغيفاً من حلال لغريباء في هذا الزمان رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه يقول: ما دام قلب الرجل يذكر الله تعالى، فهو في الصلاة، وإن كان في السوق وإن تحركت به شفتاه فهو أعظم، وكان يقول: كم بينكم وبين القوم أقبلت عليهم الدنيا، فهربوا منها، وأدبرت عنكم فاتبعتموها، وكان يقول: لا يكن أحدكم ولياً لله تعالى في العلانية وعدواً له في السر رضي الله عنه.

ومنهم إبراهيم التيمي رضي الله عنه

توفي في حبس الحجاج سنة اثنتين وتسعين، وكان سبب حبسه أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي، فجاء الذي طلبه، فقال: أريد إبراهيم، فقال: أنا إبراهيم، فأخذه، وهو لا يعلم أنه إبراهيم التيمي، فأمر الحجاج بحبسه في الديماس، ولم يكن له ظل من الشمس، ولا كن من البرد، وكان كل اثنين في سلسلة، فتغير إبراهيم حتى مات، فرأى الحجاج في منامه قائلاً يقول: مات الليلة في حبسك رجل من أهل الجنة، فقال: أنظروا من مات فوجدوه إبراهيم، فقال: حلم^(١) من نزعات الشيطان فأمر به فألقى على المزيلة.

(١) وذلك لفظ حجابيه وشدة شقاوته.

وكان يقول: كفى من العلم الخشبية، وكفى من الجهل أن يعجب الرجل بعمله، وكان يقول: حملتنا المطامع على أسوأ الصنائع.

وقيل له: لو تكلمت على الناس عسى أن تؤجر، فقال رضي الله عنه: أما يرضى المتكلم أن ينجو كفافاً. وقال الأعمش رضي الله عنه: قلت لإبراهيم التيمي رضي الله عنه: بلغني أنك تمكث شهراً لا تأكل شيئاً، فقال: نعم وشهرين^(١)، وما أكلت منذ أربعين ليلة إلا حبة عنب ناولنيها أهلي فأكلتها، ثم لفظتها في الحال، وكان يقول: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبير الأولى، فاغسل يديك منه، رضي الله عنه.

ومنهم إبراهيم بن يزيد النخعي رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: أدركنا الناس وهم يكرهون إذا اجتمعوا أن يحدث الرجل بأحسن ما عنده، وكان يقول: لا بأس أن يقول المريض- إذا سئل كيف تجدك؟- بخير، ثم يشكو ما به، وكان يقول: ما أوتي عبد بعد الإيمان أفضل من الصبر على الأذى، وكان رضي الله عنه يخفي أعماله ويتوقى الشهرة حتى إنه كان لا يجلس قط إلى أسطوانة، وكان يقول: أدركنا الناس وهم يهابون أن يفسروا القرآن والآن قد صار كل من أراد أن يفسره جلس إليه، وكان رضي الله عنه يقول: وددت أنني لم كن تكلمت بعلم وإن زماناً صرت فيه فقيهاً لزمان سوء، وكان رضي الله عنه يقول: لا بأس أن تسلم على النصراني إذا كانت لك إليه حاجة أو بينكما معروف.

قلت: والمراد بالسلام والله أعلم أن يقول للنصراني كيف حالك؟ مثلاً لا قوله السلام عليك لأنه لا يسلم إلا على من اتبع الهدى، ويحتمل أن يكون ذلك من باب إذا تعارضت مفسدتان ارتكبنا الأخف منهما أو مصلحتان فعلنا أدونهما عند تعذر أعلاهما والله أعلم، وكان يقول: إن الرجل يتكلم بالكلمة من العلم ليصرف بها وجوه الناس إليه، يهوي بها في جهنم فكيف بمن كان ذلك نيته منا أول جلوسه إلى أن فرغ، وكان إذا استأجر دابة ليركبها إلى موضع فوق سوطه

(١) هذا ليعلم الخلف أن السلف سبقوهم في طي البطون، وأنهم هم السباق، ولكي لا يقول واحد من الخلف: قد فعلت ما لم يفعله أحد قبلي من السلف من أمور الزهد والورع.

يميناً أو شمالاً ينزل عنها ويأخذه ولا يعرج^(١) بها ويقول: إنما استأجرتها لأذهب بها هكذا لا هكذا، وكان رضي الله عنه يقول: كفى بالمرء إثماً أن يشار عليه بالأصابع في دين أو دنيا إلا من حفظه الله تعالى، وكان يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران أو العصفور، حتى لا يدري من رآه أهو من القراء أو الفتيان. توفي سنة خمس وتسعين رضي الله عنه.

ومنهم عون بن عبد الله بن عتبة رضي الله عنه

كان يقول: إن لكل رجل سيداً من عمله وإن سيد عملي ذكر الله تعالى، وكان يقول: كفى بك كبيراً أن ترى لك فضلاً على من دونك، وكان يقول: الكبر أول ذنب عصى الله تعالى به وخرج أصحابه يوماً إلى البرية، فأراه نائمًا في الحر والغمامة تظله فلما انتبه أخذ عليهم أن لا يخبروا بذلك أحداً حتى يموت، وكان يقول: طريق الخلاص لمن يرى من الناس منكراً فلا يقدر على تغييره أن يعتزل عنهم^(٢)، وهو أهون من الفرار من أرضهم، وكان رضي الله عنه يقول: مجالس الذكر صقال للقلوب وشفاء لها.

وكان يلبس أحياناً الخبز وأحياناً الصوف فقيل له في ذلك فقال: ألبس الخبز لئلا يستحي ذو الهيئة أن يجلس إلي وألبس الصوف لئلا تهابني المساكين أن يجلسوا إلي، وكان يقول: من كان يتهم نفسه بالنفاق فليس عنده نفاق، وكان إذا خالفه عبده أو غلامه يقول ما أشبهك بمولايك مع مولاه، وكان رضي الله عنه يقول: من تمام التقوى أن لا يشبع العبد من زيادة العلم، وإنما ترك قوم طلب الزيادة من العلم لقلّة انتفاعهم بما قد علموا، وكان يقول: لو رأيت الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره، وكان يقول: من ضبط بطنه فقد ضبط الأعمال الصالحة كلها، رضي الله عنه.

(١) أي لا يجعلها تتحرف منه يميناً أو شمالاً بل هو الذي ينزل وينحرف ليأخذ السوط، وهو من دقائق مسائل الورع، وهو يسد مسالك الشيطان على نفسه كي لا يقضى بالدابة غير الذي أجزها من أجله فيكون بذلك خائناً.

(٢) وقد سئل الإمام مالك لما اعتزل الناس عن السبب؟ فقال: خشية أن أرى منكراً فلا أستطيع رده.

ومنهم سعيد بن جبير رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يبكي حتى عمشت عيناه وكان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء في رمضان^(١) وكان يختم القرآن في كل ركعة في جوف الكعبة وكان يقول: كل موجبة كبيرة، وكان يقول: إنني لأرى الرجل على المعصية فأستحي أن أنهاء لحقارة نفسي.

وكان له ديك يقوم على صياحه فلم يصح ليلة فنام سعيد عن ورده فدعا على الديك فمات لوقته فعزم ألا يدعو على شيء بعدها، وكان يقول: علامة الإجابة حلوة الدعاء، ولما أخذه الحجاج قال: ما أراني إلا مقتولا ودخلت عليه ابنته فرأت القيد في رجليه فبكت فلما دعي ليقتل صاحت وقالت: ويلاه يا أبي فقال يا بنيتي ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة وكان يقول: من أطاع الله تعالى فهو ذاك ومن عصاه فليس بذاكر وإن أكثر التسبيح وتلاوة القرآن.

وقيل له: من أعبد الناس؟ فقال: رجل اجترح من الذنوب ثم تاب فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله، وكان إذا طلع الفجر لا يتكلم إلا بذكر الله تعالى حتى يصلي الصبح، ولما قطع الحجاج رأسه قال: لا إله إلا الله مرتين ثم قال: الثالثة فلم يتمها، ولما وعدوه بالقتل غداً قال للحراس: دعوني أتأهب للموت وأتيكم غداً فتنازعوا في ذلك خوف الهرب ثم إنه غلب عليهم صدقه، فأطلقوه، ثم جاءهم من الغد فقدموه للقتل وبسط النطع وجاء السياف فذبجه على النطع، وكان قد قال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي فعاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة ووقعت الأكلة في بطنه، وكان ينادي بقية حياته: مالي وسعيد بن جبير كلما أردت النوم أخذ برجلي. قتل سنة خمس وتسعين رضي الله عنه ورحمه.

(١) وهو من باب طي الزمان للعارفين، وقرأت عن أحد العارفين أنه قرأ عشرة آلاف ختمة في ساعة واحدة، وهو من باب الطي الزماني للعارفين من هذه الأمة، ولا عجب في ذلك ورسولنا صلى الله عليه وسلم حدث له الإسراء والمعراج ذهاباً ورجوعاً في ساعات قليلة قال الألبوسي في تفسيره عند تفسير آية الإسراء: قد أثبت الصوفية للأولياء نشر الزمان وهو أمر وراء عقولنا المشوبة بالأوهام وليس لفهم ذلك عندي غير المتجردين من جلاليب أبدانهم وقليل ما هم.

ومنهم عامر بن شراحيل الشعبي

مر رضي الله عنه برجل يفتابه فأنشد:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لمزة من أعراضنا ما استحلحت

وكان يقول: إياكم والقياس في الدين فإن من قاس فقد زاد في الدين^(١)، وكان يقول: لأن أقيم في حمام أحب إلي من أن أقيم بمكة^(٢)، قال سفيان رضي الله عنه: إعظاماً لها وخوفاً من وقوع ذنب فيها، وكان يقول: اتقوا الفاجر من العلماء، والجاهل من المتعبدين، فإنهما فتنة لكل مفتون، وكان رضي الله عنه يقول: لم يحضر وقعة الجمل من أصحاب رسول الله ﷺ إلا أربعة علي وعمار وطلحة والزبير فإن جاءوا بخامس فأنا كاذب، وقيل له مرة: يا فقيه فقال: لست بفقيه، ولا عالم إنما نحن قوم سمعنا حديثاً فنحن نحدثكم بما سمعنا، وإنما الفقيه من تورع عن محارم الله عز وجل، والعالم من خشي الله تعالى بالغيب، وكان رضي الله عنه يقول: تعايش الناس بالدين زمناً طويلاً حتى ذهب الدين، ثم تعايشوا بالمروءة زمناً طويلاً حتى ذهبت المروءة، ثم تعايشوا بالحياء زمناً طويلاً حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرغبة^(٣)، وسيأتي بعد ذلك ما هو أشد منه.

وكان يقول: ليتني لم أتعلم علماً وددت أن أخرج من الدنيا كفافاً لا علي ولا لي وكان رضي الله عنه يقول: ما بكينا من زمان إلا وبكينا عليه وكان رضي الله عنه يقول: أدركنا الناس وهم لا يعلمون العلم إلا لعاقل ناسك وصاروا اليوم يعلمونه لمن لا عقل له ولا نسك. مات رضي الله عنه بالكوفة سنة أربع ومائة وهو ابن سبع وتسعين سنة رضي الله عنه.

(١) وهو قول تحذيري لا تحريمي، وذلك لندرة من يقيس في كل زمان وتجتمع فيه شروط الاجتهاد والقياس، وكم أضل فقهاء هذا الزمان أناساً بسبب قياسهم الباطل.

(٢) وذلك خوفاً منه أن لا يؤدي حقوق الإقامة فيها.

(٣) وهذا ينطبق الآن على المثل الشعبي القائل: فلان يبخاف لكن ما يبختشيش.

ومنهم ماهان بن قيس رضي الله عنه

كان يقول: أما يستحي أحدكم أن تكون دابته (١) أكثر ذكراً لله منه وكان لا يفتر عن التكبير والتسبيح والتهليل. ولما صلبه الحجاج على بابه كان يسبح ويهلل ويكبر على الخشبة ويعقد بيده حتى بلغ تسعاً وعشرين، ثم طعنوه (٢) على تلك الحالة فمكث شهراً مصلوباً، وسئل عن أعمال القوم فقال: كانت أعمالهم قليلة وقلوبهم سليمة رضي الله عنه.

ومنهم ربيع بن خراش رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: لا تعودوا أنفسكم الراحة فتشقى غداً وكان يقول: إن استطعت أن لا تعرف فافعل فقد فسدت الدنيا وليس فيها لغير العزلة متسع، وكان رضي الله عنه يقول: الجوع يصفي الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم وكن من أكثر الناس صياماً في الهواجر وكان قد آلى على نفسه أن لا يضحك قط حتى يعلم يصير إلى جنة أم إلى نار، فأخبر غاسله أنه لم يزل متبسماً على سريره، ويقول: قدمت على رب كريم.

توفي رضي الله عنه سنة أربع ومائة، وكان له مال كثير فأنفقه كله على أصحابه قال بعضهم: دخلت يوماً عليه وهو يعجن في جفنة ودموعه تسيل ويقول: لما قل مالي جفاني أحبائي والله أعلم.

ومنهم طلحة بن مصرف رضي الله عنه

كان يقول: إن الشيطان ليحلب على المؤمن بأكثر من ربيعة ومضر (٣)، وكان رضي الله عنه ورعاً زاهداً.

ودخلت في داره جارية تأخذ ناراً فقالت لها امرأته: مكانك حتى أشوي

(١) قلت: ربما كان هذا القول عن كشف.

(٢) قلت: كان القوم رحمهم الله لا يحبون تضييع وقتهم حتى وهم على خشبة الصلب.

(٣) هي مقولة من باب الكشف ومعناها أن اللعين يهجم على المؤمن ومعه جنود بقدر قبيلة ربيعة ومضر.

لطلحة قديده الذي يفطر عليه على سيحك الحديد، فلم يذقه، وقال: حتى ترسلي إلى سيدتها تستأذنيها في حبسك إياها وشواء القديد على حديدها، وكان إذا رفعوه على أحد من أقرانه يذهب ويقرأ عليه، ويجلس بين يديه ليدفع بذاك ما توهمه الناس فيه من أنه أعلم منه، وكانوا إذا ذكروا عنده الاختلاف يقول: لا تقولوا الاختلاف ولكن قولوا السعة^(١)، وكان رضي الله عنه يقول: لقد أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لاحترقت أكبادكم، وكنا نرى نموسنا في جنبهم لصوصاً، وكان يقول: العقاب مفتاح التقالي، والعتاب خير من الحقد، وكان رضي الله عنه يقول: أكرموا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم العار والنار، وكان يقول: إذا اعتذر إليك أحد فقلقه بوجه طلق إلا أن تكون قطيعته قرية إلى الله تعالى. توفي رضي الله عنه سنة اثنتي عشرة ومائة رضي الله عنه.

ومنهم زيد القائي رضي الله عنه

كان ورعاً زاهداً ذا هيبة يراه الرجل فيرجف فؤاده من هيبتة، وكان قد قسم الليل اثلاثاً ثلاثاً عليه، والثلاثين على أخويه، فكان يقوم ثلثه ثم يجيء إلى أخيه فيركضه برجله فيجده كسلان لا يقوم، فيقول له: نم أنا أقوم عنك فيقوم ثم يأتي إلى أخيه الآخر فيقول له: قم فيجده كسلان، فيقول له: نم أنت الآخر أنا أقوم عنك، فكان يقوم الليل كله^(٢).

توفي رضي الله عنه سنة اثنتين وعشرين ومائة.

ومنهم منصور بن المعتمر رضي الله عنه

كان الثوري رضي الله عنه يقول: لو رأيت منصوراً وهو واقف يصلي لقلت إنه يموت الساعة، فكانت لحيته تلتصق بصدره، وكان يقوم الليل على سطح داره، فلما مات قالت ابنة جاره لأبيها: يا أبت أين ذلك العمود الذي كان فوق سطح جارنا وذلك

(١) أي سعة دائرة اللطف الإلهي، فبسبب سعة هذه الدائرة اختلفت أقوال الأئمة المجتهدين فرحم الله الخلق بسببهم.

(٢) وهو من باب الفتوة.

لأنها كانت لا تصعد إلا ليلاً، وصام ستين سنة، وقام ليلاً، وكان يبكي حتى يرحمه أهله طول ليله، فإذا أصبح كحل عينيه وادهن، وخرج إلى الناس حتى كأنه بات نائماً يخفي عمله عن الناس، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد عمش من البكاء، وحبسوه شهراً ليتولى القضاء فلم يرض فقالوا لعامل الكوفة: لو نشرت لحمه لم يل لك قضاء فخلى عنه وحل قيده، وكان منصور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب عهد بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إذا حركته جاءت عيناه بالدموع، توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لو لم يكن لنا ذنب إلا محبتنا للعالم لاستحققنا دخول النار، وكان يقول للعلماء: إنما أنتم متلذذون يسمع أحدكم العلم ويحكيه وإنما يراد من العلم العمى ولو عملتم بعلمكم لهرتكم من الدنيا، لأن العلم ليس فيه شيء يدل على حبه، وكان يقول: من أعظم الزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: اللهم لا ترزقني مالا ولا ولداً ولا داراً ولا خادماً وما أعطيت لي مما تكره فخذ مني.

ومنهم سليمان بن مهران الأعمش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان الأغنياء والسلاطين يكونون في مجلسه أحقر الحاضرين وهو مع ذلك محتاج إلى رغيص، وكان يقول: نقض العهد وفاء بالعهد لمن ليس له عهد، وكان إذا قام من النوم فلم يصب ماء وضع يده على الجدار فتيمم حتى يجد الماء محافظة على الطهارة، وكان يقول: أخاف أن أموت على غير وضوء فإن الموت يأتي على غير ميعاد.

ومكث قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، وكان يقول: أما يخشى أحدكم إذا عصى الله تعالى أن يثور من تلك المعصية دخان يسود وجهه بين الناس، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إذا فسد الناس أمر عليهم شرارهم وكان يقول: إذا أنا مت فلا تعلموا بي أحداً وأذهبوا بي إلى ربي فاطرحوني في اللحد فإنني أحقر من أن يمشي أحد في جنازتي، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: والله لو كانت نفسي في يدي لطرحتها في الحش^(١)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) الحش: يعنى به الكنيف.

ومنهم أويس الخولاني رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: ليس بفقير من يحدث بالحديث من غير عمل، وكان رضي الله عنه يقول: لا يهتك الله ستر عبده وفي قلبه مثقال ذرة من خير، وكان يقول: إعراب اللسان يقيم جاهك عند الناس وإعراب القلب يقيم جاهك عند الله تعالى، وكان يقول: لي كذا وكذا سنة ما عملت عملاً يستحي منه إلا الجماع ودخول الخلاء وكان يعلق سوطه في مسجده، ويقول: أنا أحق بالسوط من الدواب^(١)، وكان إذا أخذته فترة مشق ساقه بالسوط، وكان رضي الله عنه يمشي على الماء في دجلة بغداد رضي الله عنه.

ومنهم مكحول الدمشقي رضي الله عنه

كان يقول: من أحيأ ليلة في ذكر الله عز وجل أصبح كيوم ولدته أمه، وكان يقول: إذا كان الفضل في الجماعة فإن السلامة في العزلة، وكان رضي الله عنه يقول: إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله عز وجل كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تعالى تلك الأمة بعذاب العامة، وكان يقول: من طاب ريحه زاد عقله، ومن نظف ثوبه قل همه والله أعلم.

ومنهم يزيد بن ميسرة رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: إذا بلغك عن الرجل القول فأنكره فخذ بقوله، ودع ما بلغك، وكان يقول: كنا نضحك ونلعب ونمزح فلما بلغنا المحل الذي يقتدى بنا فما بقي إلا الإمساك عن ذلك، وكان يقول: إذا تكلم الفقيه بالإعراب ذهب الخشوع من قلبه^(٢)، وكان يقول: لا تكمل محبة الأخ في الله تعالى حتى يكون أحب من الأب والأم والأخ الشقيق، وكان يقول: طول الكمد أحب إلي من إسبال الدمعة للخائفين، وكان يقول: إن العقل إذا طاش فقدت الحرقة، فإذا فقدت الحرقة قلصت الدمعة، وإذا ثبت العقل فهم صاحبه الموعظة فأحرقتة، فحزن

(١) وذلك لأن نفس الدابة مسخرة ونفس الإنسان لثيمة وماكرة.

(٢) مقصوده إذا تكلم الفقيه بتشكيل الكلام وعدم اللحن فيه وترك قلبه يلحن فلا يجيء منه شيء.

ويكى وكان رضي الله عنه يقول: ما أراك تعذبنا وتوحيدك في قلوبنا ولو فعلت ذلك لجمعت بيننا وبين قوم طالما عاديناهم فيك، وكان يقول: كانت العلماء إذا علموا عملوا، وإذا عملوا اشتغلوا بأنفسهم، فإذا اشتغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا، وكان رضي الله عنه يقول: لا تبذل قط علمك لمن لا يسأله، وكان يقول: كان أشياخنا رضي الله عنهم يسمون الدنيا الدنية ولو وجدوا لها اسماً شراً منه لسموها به، وكان رضي الله عنه يقول: كانت أحبار بني إسرائيل الصغير منهم والكبير لا يمشون إلا بالعصا مخافة أن يختال أحدهم في مشيه إذا مشى.

ومنهم كعب الأحبار رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: ما استقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر له في السماء وكان يقول: أنيروا بيوتكم بذكر الله كما تتيرون قلوبكم به، وكان رضي الله عنه يقول: يأتي على الناس زمان تكثر فيه المسألة فمن سأل في ذلك الزمان لم يبارك له فيه، وكان يقول: ما من أحد يساق إلى النار إلا وهو مسود الوجه، وقد وضعت الأنكال في قدميه، والأغلال في عنقه، إلا من كان من هذه الأمة فإنهم يساقون إلى النار بألوانهم من غير تسويد وجوههم^(١) لأنهم كانوا يسجدون عليها في دار الدنيا، وكان رضي الله عنه يقول: إنما سمى الخليل أواهاً لأنه كان إذا سمع بذكر النار قال: أواه من النار وكان يقول: يوشك أن تروا جهال الناس يتباهون بالعلم ويتغايرون على التقدم به عند الأمراء كما يتغايرون النساء على الرجال فذلك حظهم من علمهم.

وكان يقول: صلاة بعد صلاة ليس بينهما لغو كتاب في عليين، وكان رضي الله عنه يقول: لا يذهب ألم الموت عن الميت ما دام في قبره^(٢). توفي رضي الله عنه في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(١) وذلك إكراماً لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وربما كان قوله هذا عن قوة كشف حدث له.

(٢) قلت: هذه مقولة غير حقيقية إلا في حق الكفار والعصاة فإنه مما لاشك فيه أن آلامهم تزيد في قبورهم عن آلام الموت أكثر بكثير، وأما السعداء فهم ينعمون في قبورهم كما ورد به نص الحديث.

ومنهم عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يكره صيد البر أيام فراخه رحمة بأمه وبه^(١)، وكان يقول: تبارك من خلقك وجعلك تنظر بشحم وتسمع بعظم وتتكلم بلحم، وكان رضي الله عنه يقول: ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة يوماً يوماً، وساعة ساعة، فالساعة التي لا يذكر الله تعالى فيها تتع نفسه عليها حسرات، فكيف إذا مرت عليه ساعة مع ساعة ويوم مع يوم، وكان رضي الله عنه يقول: أدركنا الناس وهم أول ما يستيقظون ويصلون الصبح يتفكرون في أمر معادهم وما هم صائرون إليه، ثم يفيضون بعد ذلك في الفقه والقرآن. ولد رحمه الله سنة ثمان وثمانين، ومات سنة سبع وخمسين ومائة، وكان مولده ببعلبك، ومات في حمام بيروت دخل الحمام فذهب الحمامي في جماعة وأغلق عليه الباب ثم جاء فوجده ميتاً متوسداً بيمينه مستقبل القبلة ودخل عليه المنصور فقال: عظني فقال: ما أحد من الرعية إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامه سقتها إليه، وكان يقول: لقاء الإخوان خير من لقاء الأهل والمال، وكان يقول: الفار من عياله كالآبق لا يقبل الله منه صوماً، ولا صلاة حتى يرجع إليهم، وكان رضي الله عنه، يقول: لو قبلنا من الناس كل ما يعرضون علينا لهننا في أعينهم رضي الله عنه.

ومنهم حسان بن عطية رضي الله عنه

كان رضي الله عنه إذا صلى العصر تتحنى في ناحية المسجد فيذكر الله تعالى حتى تغيب الشمس، وكان يقول: من أطال قيام الليل هون الله عليه طول القيام يوم القيامة، وكان يقول ما ازداد العبد في علمه وعمله إخلاصاً إلا ازداد الناس منه قرباً وكان يقول: بكى آدم رضي الله عنه على خروجه من الجنة سبعين عاماً، وبكى على خطيئته سبعين عاماً، وبكى على ابنه حين قتل أربعين عاماً، وأقام بمكة مائة عام والله أعلم.

(١) قلت: وهو نوع راق من أنواع الورع الخاص بالسادة العارفين، وهو لا يسرى على العوام، وإلا حرمت ذبح صغار الماشية التي تعرف في مصر بالبتلوكي نرحم أمهاتها ولحرمتنا أكل زغاليل الحمام.

ومنهم عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه

أدرك الحسن البصري وغيره وكان يقول: مثل المؤمن مثل الولد في الرحم لا يحب الخروج، فإذا خرج لم يحب أن يرجع، فكذاك المؤمن إذا خرج من الدنيا.

وكان رضي الله عنه يقول: عليكم بالخبز والملح، فإنه يذهب شحم الكلى ويزيد في اليقين، وكان رضي الله عنه يقول: أحسن أحوال العبد مع الله موافقته، فإن أبقاه في الدنيا لطاعته كان أحب إليه وإن أخذه كان أحب إليه، وكان يقول: ما من عبد أعطي من الدنيا شيئاً فابتغى إليه شيئاً ثانياً إلا سلبه الله تعالى حب الخلوة معه وبذله بعد القرب بعداً وبعد الأُنس وحشة، وصلى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة رحمه الله والله أعلم.

ومنهم أبو بشر صالح المري رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يبكي كبكاء الثكلى، ويجار جوار الرهبان حتى كأن مفاصله تتع، وكان يمكث مبهوراً إذا رأى المقبرة اليومين والثلاثة لا يعقل ولا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب، وكان يسمع كلام الموتى ويكلمهم ويكلمونه بالمواعظ رضي الله عنه.

ومنهم أبو المهاجر بن عمرو القبسي رضي الله عنه

واسمه رياح وكان يقول: لي نيف وأربعون ذنباً قد استغفرت الله عز وجل عن كل ذنب مائة ألف مرة وما ثم إلا عفوه ومغفرته وكان يقول: لا تجعل لبطنك على عقلك سبيلاً إنما الدنيا أيام قلائل، وكان لا يأكل دائماً إلا سد الرمق، وكان يقول: مثقال ذرة من لحم يقسي القلب أربعين صباحاً، وكان يقول: إزالة الجبال من مواضعها أهون من إزالة محبة الرياسة إذا استحكمت في النفس^(١)، وكان

(١) قلت: وذلك لكون الفطرة منصبة بالصفة مفطورة بها، بل مقهورة على التلبس بها، قال سبحانه: «وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال» يعني أن الجبال تزول ولا تزول الصفة وقال سبحانه: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» أي قهرهم بها وأقامهم فيما أرادهم، وقال ﷺ لسليمة الكذاب: «أخساً فلن تعدو قدرك، أي لن تستطيع أن تغادر الصفة التي أقامك الله فيها، وكان شيخنا عبد المجيد الشريف رضي الله عنه يقول: إن أحوال الأولياء، هي صفات قاهرة قهرتهم القدرة على التلبس بها كما قهر الحق سبحانه عزرائيل على التلبس بصفة قبض الأرواح.

يقول: رحم الله أقواماً زاروا إخوانهم في قبورهم وهم في محاربيهم^(١)، وكان يقول: إياك أن تقف على حوائت الصيارفة فإنها مواضع الريا، وكان يقول: إذا قال الرفيق قصعتي فليس برفيق حتى يقول قصعتنا، وكان يقول: لما التقى موسى بالخضر عليهما السلام قال لموسى: تعلم العلم لتعمل به لا لتعلمه لغيرك، فيكون عليك بوره^(٢) ولغيرك نوره، وكان يقول: كما لا تنظر الأبصار الضعيفة إلى شعاع الشمس، كذلك لا تنظر قلوب محبي الدنيا إلى نور الحكمة، وكان يقول: لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين، حتى يترك زوجته كأنها أرمل وأولاده كأنهم أيتام ويأوى إلى منازل الكلاب.

وكان رضي الله عنه لا يزيد في أكله وإدامه على الخبز والملح ويقول لنفسه: أمامك الشواء والفرش في الدار الآخرة رضي الله عنه، وكان يقول: عليك بمجالس الذكر وحسن الظن بمولك وكفى بهما خيراً رضي الله عنه.

ومنهم عطاء السلمي رضي الله عنه

غلب عليه الحزن والخوف حتى مكث أربعين سنة على فراشه لا يقدر أن يقوم ولا يخرج من البيت، وكان يومئ بالصلاة على فراشه، ورأى مرة التور وهو يسجر فغشى عليه، وكان رضي الله عنه يبكي الثلاثة أيام بلياليهن لا يرقأ له دمع، وكان إذا بكى رؤي حوله بلل يظن أنه من أثر الوضوء وإنما هي دموعه، وكان إذا خرج إلى جنازة يغشى عليه في الطريق مرات، ويخر من على الدابة ثم يرجع، وكانت كل بلية نزلت بالناس يقول: هذا كله من أجل عطاء لو مات استراح الناس منه رضي الله عنه.

ومنهم عتبة بن أبان الغلام رضي الله عنه

وسمي بالغلام لأنه كان في العبادة كأنه غلام رهبان لا لصغر سنه، وقال عتبة الغلام رضي الله عنه: جاءني عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه فقال: ما زال فلان يصف

(١) ربما يقصد أنهم زاروهم في قبورهم بالانتقال إليهم بالخطوة وهم ماكثون في محاربيهم. قلت: وهذه صفة الأبدال.

(٢) أي فيكون عليك تعطيله، وهو من قولهم امرأة بائر وأرض بائرة.

من قلبه منزلة لا أعرفها من قلبي فقلت: لأنك تاكل مع خبزك تمرأ فقال: فإذا تركت التمر وصلت إليها فقلت له: نعم فجعل عبد الواحد يبكي، وكان عتبة ياوي إلى المقابر^(١) والصحاري ويخرج إلى السواحل فيقيم فيها، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فيشهد الجمعة ثم يأتي إخوانه فيسلم عليهم، وكان قد غلب عليه الحزن، وكانوا يشبهونه في الحزن بالحسن البصري رضي الله عنه.

مات رضي الله عنه شهيداً في قتال الروم، وكان يهجع بعد العشاء شيئاً يسيراً، ثم يقوم إلى الصباح وكان يلبس الشعر تحت ثيابه إلا يوم الجمعة، وكان يلبس كساءين أغبرين يتزر بواحدة منهما ويرتدي بالأخرى، وكان له بيت مغلق لا يفتحه إلا ليلاً فلما مات فتحوه فوجدوا فيه قبراً محفوراً وغلا من حديد رضي الله عنه.

ومنهم سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه

وكانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث، ولد رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة وتوفي رضي الله عنه بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وكان رضي الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها، وكان رضي الله عنه يقول: لا ينبغي للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل في الأدب^(٢) عشرين سنة، وكان يقول: إذا فسد العلماء فمن يصلحهم، وفسادهم بميلهم إلى الدنيا، وإذا جر الطبيب الداء إلى نفسه، فكيف يداوي غيره؟ وكان رضي الله عنه يقول: إذا لم يكن تحت الحنك من العمامة شيء فهي عمامة إبليس، وكان يقول: من تصدر للعلم قبل أن يحتاج إليه أورثه ذلك الذل، وكان يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل حتى يضربه الجوع شغلا عنه بما هو فيه من العبادة.

(١) قلت: فيه حجة للأولياء المتأخرين الذين يسكنون المقابر ويمتزلون الخلق فيها، وقد أقام سيدي محيي الدين بن عربي في بداية أمره في مقبرة وخرج يتكلم بتلك العلوم التي معه.

(٢) أي حتى يتعلم الآداب الباطنية اللائقة بالنبي ﷺ وبكلامه وانظر إلى الآداب المروية عن الإمام مالك التي تروى عنه، والتي كان يفعلها إذا جلس في مجالس الحديث.

قلت: ولا بد من تعلم تلك الآداب الباطنية والشرعية قبل الجلوس بين يدي العلماء وتلقى العلم وقبل روايته وأبان روايته وأبان إقامة مجالسه، حتى يكون قدوة لمن يرويه عنه.

وكتب إلى عابد من العباد اعلم يا أخي أنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يدركوه، ومعهم من العلم ما ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة العلم وقلة الصبر وقلة الأعوان على الخير، وفساد من الزمان، فعليك بالأمر الأول والتمسك به، عليك بالخمول فإن هذا زمان خمول، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، فالنجاة الآن في تركهم فيما ترى وإياك يا أخي والأمر أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، ويقال لك تشفع أو تدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة، فإن ذلك من خديعة إبليس، إنما اتخذ ذلك القراء سلباً للقرب منهم، واصطيداً للدنيا بذلك وكان ﷺ يقول: لو علمت من الناس أنهم يريدون بالعلم وجه الله تعالى لأتيت إلى بيوتهم، فعلمتهم ولكن إنما يريدون به مجارة الناس وأن يقولوا حدثنا سفيان، وكانوا إذا قالوا له حدثنا يقول: ما أراكم أهلاً للحديث، ولا أرى نفسي أهلاً لأن أحدث، وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل افتضحوا فاصطلحوا، وكان ﷺ يقول: ما كفيت من المسألة والفتيا فلا تزاحم فيه، وكان يقول: قد ظهر من الناس الآن أمور يشتهي الرجل أن يموت قبلها، وما كنا نظن أننا نعيش لها وكان يقول: ما كنت أظن أن أعيش إلى زمان إذا ذكرت الأحياء ماتت القلوب، وإذا ذكرت الأموات حييت القلوب، وكان ﷺ يقول: إلهي البهائم يزجرها الراعي فتتزجر عن هواها وأراني لا يزجرني كتابك عما أهواه فيا سواتاه.

وكان يقول: قال رجل لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أوصني قال: انظر خبزك من أين هو؟ وقيل له: إن فلاناً يدخل على المهدي ويقول: أنا في خلاص من تبعاته فقال: كذب، والله أما رأى إسرافه في ملبسه ومأكله وملبسه خدمه وخيله ورجله هل قال له يوماً إن هذا لا يليق بك هذا من بيت مال المسلمين وكان يقول رضا الملحين غاية لا تدرك.

وكان يقول: المال في زماننا هذا سلاح للمؤمن^(١)، وكان يقول: أحب لطالب

(١) قلت: وهو رأى أبي الحسن الشاذلي ﷺ.

العلم أن يكون في كفاية فإن الآفات وألسن الناس تسرع إليه إذا احتاج وذل، وكان ﷺ يقول: لا طاعة للوالدين في الشبهات وكان يقول: إنما يطلب العلم ليتقي به الله تعالى فمن ثم فضل على غيره، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء، وكان يقول: شكوى المريض إلى أحد من إخوانه ليس من شكوى الله عز وجل، وكان يقول للمهدي في وجهه: احذر من هؤلاء الأعوان، والمترددین إليك من الفقراء، فإن هلاكك على أيديهم يأكلون طعامك، ويأخذون دراهمك، ويفشونك ويمدحونك بما ليس فيك، وكان ﷺ يقول: أئمة العدل خمسة أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز^(١)، من قال غير هذا فقد اعتدى، وقوموا ثياب الثوري التي عليه حتى النعل فبلغ درهماً وأربعة دوانق، وكان ﷺ لا يجلس في صدر مجلس قط^(٢) إنما كان يقعد في جنب حائط، يجمع بين ركبتيه، وكان يقول: لا يأمر السلطان بالمعروف إلا رجل عالم بما يأمر وينهي، رفيق بما يأمر وينهى عدل في ذلك وقال له رجل: ذهب الناس يا أبا عبد الله وبقينا على حمر دبرة. فقال الثوري: ما أحسن حالها لو كانت على الطريق، وكان ﷺ يقول: إذا بلغك عن قرية أن بها رخصاً^(٣)، فارحل إليها فإنه أسلم لقلبك ودينك وأقل لهمك، وكان ﷺ يقول: لا تجب أخاك إلى طعام إلا إن كنت ترى أن قلبك يصلح على طعامه.

ونصح يوماً إنساناً رآه في خدمة الولاة، فقال: فما أصنع بعيالي؟ فقال: إلا تسمعون لهذا يقول: إنه إذا عصى الله رزق عياله، وإذا أطاعه ضيعهم، ثم قال ﷺ: لا تقتدوا بصاحب عيال، فإنه قل صاحب عيال أن يسلم من التخليط، وعذره دائماً في أكل الشبهات والحرام قوله: عيالي^(٤)، وكان يقول: لو أن عبداً

(١) هو مشهد خاص به وإلا فأين سيدنا الحسن بن علي ﷺ والذي كان عدله أتم من عدل عمر بن عبد العزيز إذا اقتص من نفسه لمعاوية فتنازل له عن الخلافة، فأى عدل أتم من هذا؟

(٢) قلت: وقد حكى كذلك عن سيدي أحمد الرفاعي ﷺ أنه لم يتصدر مجلساً قط حتى مات.

(٣) وذلك لأن الرخص ضد الغلاء، والغلاء يكلف المؤمن الشيء الكثير فيذهب بخشوعه.

(٤) وذلك لأن السلف أكلوا شأن عيالهم إلى الله ولم يهتموا بأمر إعالنتهم ومعيشتهم، ولما جاء أبو بكر ﷺ للنبي ﷺ بكل ماله قال له: وما تركت لأهلك يا أبا بكر؟ قال له: تركت لهم الله ورسوله.

عبد الله تعالى بجميع المأمورات إلا أنه يحب الدنيا إلا نوذي عليه يوم القيامة على رؤوس أهل الجمع ألا إن هذا فلان بن فلان قد أحب ما أبغض الله تعالى، فيكاد لحم وجهه يس من الخجل، وكان رَضِيَ يقول: لأن أخلف عشرة آلاف دينار أحاسب عليها أحب من أن أحتاج إلى الناس، فإن المال كان فيما مضى يكره أما اليوم فهو ترس للمؤمن يصونه عن سؤال الملوك والأغنياء وكان يقول لا بد لمن يحتاج إلى الناس أن يبذل لهم دينه فيما يحتاج فيمسك على ما بيده من المال، وكان يقول: لا تصحب في السفر من يتكرم عليك فإنك إن ساويته في النفقة أضربك، وإن تفضل عليك استعبدك.

وكان يقول: الحلال في زماننا هذا لا يحتمل السرف، وكان يقول: خرجت مرة في الليل فنظرت إلى السماء، قفقدت قلبي فذكرت ذلك لأمي فقالت: إنك لم تنظر إليها نظر اعتبار وإنما نظرت إليها نظر قلة.

وكان يرد ما يعطاه ويقول: لو أني أعلم منهم أنهم لا يفتخرون علي ببعائهم لأخذته منهم ولذلك كان يجوع، ولا يقترض ويقول: إنهم لا يكتمون ذلك بل يروح أحدهم، ويقول: جاءني سفيان الثوري البارحة، واقترض مني، وكان يقول: الأذان بخراسان أفضل من المجاورة بمكة^(١)، وكان يقول: الزهد في الدنيا هو قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ والعباء، وكان يقول: ازهد في الدنيا ونم لا لك ولا عليك، وكان يقول: إذا رأيتم العالم يلوذ بباب السلطان، فاعلموا أنه لص، وإذا رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء، فاعلموا أنه مرء، وكان يقول: إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا وإن الرجل ليكون فقيراً، وهو راغب فيها^(٢)، وكان يقول: إنني أحب أن أكون في مكان لا أعرف فيه.

وكانوا إذا ذكروا عنده الموت يمكث أياماً لا ينتفع به أحد، وكان يقول: إذا

(١) قلت: مقصوده لو أن كل زاهد جاور بمكة لهجرت بقية ديار الإسلام، فيجب على العارف أن يقيم حيث أقامه الله عز وجل، فحقيقة التعلق إنما هو بالله لا بمكة ولا بغيرها.

(٢) وكان هذا مذهب بعض المتأخرين من الصوفية كابى الحسن الشاذلى رَضِيَ، فإنه كان يوصى تلاميذه بجمع المال ويقول: اجمعوه حتى لا تذلو لأحد.

عرفت نفسك لا يضرك ما قيل فيك، وكان يقول: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللثام، وكان يقول: إذا رأيت أخاك حريصاً على أن يؤم فأخره^(١)، وكان يقول: لأن أشتري من فتى يتفنى أحب إلي من أن أشتري من قارئ لأن القارئ يتأول عليك في دراهمك، والمفني يعطيك دراهمك كاملة مروءة، أو ديانة، وكان يقول: ما خالفت قارئاً إلا خفت منه أن يشيط بدمي، وإذا كان لك إلى قارئ حاجة فلا تضرب له بقارئ مثله، يقف عن قضاء حاجتك.

وسئل عن الفوغاء فقال: الذين يطلبون بعلمهم الدنيا، وكان يقول: أول العلم طلبه، ثم العمل به، ثم الصمت، ثم نظره، ولو أن أهل العلم أخلصوا فيه ما كان من عمل أفضل منه، وكان يأخذ بيده دنائير ويقول: لولا هذه لتمندلوا بنا، وكان يقول: كثرة الأخلاء من رقه الدين، وكان يقول: ما أدري لو أصابني بلاء لعلي كنت أكثر، وكان يقول: عجبت لكون النساء أكثر أهل النار مع أن الرجال أعمالها أقبح من أعمالهن.

وكان قد جعل على نفسه ثلاثة أشياء أن لا يخدمه أحد، ولا يطوى له ثوب، ولا يضع لبنة على لبنة، وكان عليه السلام يقول: هذا زمان عليك فيه بخويصة نفسك ودع العامة، وكان يقول: من رأى نفسه على أخيه بالعلم والعمل حبط أجر عمله وعلمه، ولعل أخاه يكون أروع منه على حرم الله عز وجل، وكان إذا أخذ في الفكر صار كأنه مجنون لا يعي كلام أحد.

وبعث أبو جعفر أمير المؤمنين الخشابين قدامه حين خرج إلى مكة وقال: إذا رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه. فوصلوا مكة ونصبوا الخشب وجاءوا إليه فوجدوه نائماً رأسه في حجر الفضيل بن عياض ورجلاه في حجر سفيان بن عيينة، فقالوا: يا أبا عبد الله اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء فتقدم إلى أستار الكعبة فأخذها، وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر فمات قبل أن يدخل مكة، وكان عليه السلام يقول: لقيت أبا حبيب البدوي فقال: يا سفيان منع الله تعالى عطاء لك

(١) فأخره كي تطفئه حرصه على الشهرة والإمامة فإنه نوع من أنواع الهوى الباطني.

وذلك لأنه لا يمنحك من بخل ولا عدم، وإنما هو نظر إليك واختيار، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إن الملكين ليجدان ريح^(١) الحسنات والسيئات إذا عقد القلب على ذلك فكما لا يؤذونك لا تؤذهم.

وسئل عن رجل يكتسب لعياله ولو صلى في الجماعة لفاته القيام عليهم ماذا يصنع؟ قال: يكتسب لهم قوتهم ويصلي وحده^(٢)، وكان يقول: كثرة النساء ليست من الدنيا لأن علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من أزهد الصحابة^(٣)، وكان له أربع نسوة وتسع عشرة سرية.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: هذا زمان لا يأمن فيه الخامل على نفسه فكيف المشهور فيه؟ وكان يقول: إذا سمعتم ببدعة فلا تحكوها لأصحابكم، ولا تلقوها في قلوبكم وكان يقول: قد قل أهل السنة والجماعة في زماننا هذا وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إني لأعرف محبة الرجل للدنيا بميله لأهل الدنيا وإرساله السلام لهم وكان يقول: إذا رأيت شرطياً نائماً عن صلاة فلا توقظوه لها فإنه يقوم يؤذي الناس ونومه أحسن^(٤).

وقيل له: ألا تدخل على الولاة فتتحفظ وتعظهم وتنهاهم؟ فقال: أنا مروني أن أسبح في بحر ولا تبتل قدمي إني أخاف أن يترحبوا بي فأميل إليهم فيحبط عملي، وشكا له رجل مصيبة فقال: قم عني ما وجدت أحداً أهون في عينيك مني تشكو الله تعالى عنده، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: العلماء ثلاثة عالم بالله وبأمر الله فعلامته أن يخشى الله ويقف عند حدود الله، وعالم بالله دون أوامر

(١) وهو ريح النية.

(٢) هذا ليعلم الناس مدى تعظيم الصوفية لطلب الكسب والمجاهدة في سبيل تحصيله، وإباحة تقديمه للمضطر من غيرهم على صلاة الجماعة، قلت: وهي نعمت الفتوى.

(٣) وليس على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجده من كان كذلك فقد كان مثله عمر والزيبر والحسن والحسين وغيرهم من الصحابة، وكان الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إني لأجد للنكاح لذة هي عندي أعظم من لذة الذكر، وعد الشيخ الأكبر في الفتوحات أن من ضمن صفات القطب محبته للنكاح.

(٤) ويقول المثل الشعبي في مصر: نوم الظالم عبادة.

الله فعلامته أن يخشى الله ولا يقف عند حدوده، وعالم بأوامر الله دون الله فعلامته أن لا يقف عند حدود الله ولا يخشى الله وهو ممن تستمر بهم النار يوم القيامة، وكان يقول إذا أرضيت ربك أسخطت الناس، وإذا أسخطتهم فتهيأ للسهام، والتهيؤ للسهام أحب من أن يذهب دين الرجل، وكان يقول: إذا رأيتم قارئ القرآن يحبه جيرانه فاعلموا أنه مدهن ومناقبه عليه السلام كثيرة والله أعلم.

ومنهم إمامنا أبو عبد الله

محمد بن إدريس الشافعي عليه السلام

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقي معه في عبد مناف. عليه السلام بفضله ثم جهل إلى مكة وهو ابن سنتين وعاش أزيداً وخمسين سنة وأقام بمصر أربع سنين ونيفاً ثم توفي بمصر ليلة الجمعة بعد المغرب سنة أربع ومائتين.

نشأ عليه السلام في حجر أمه في قلة عيش وضيق حال، وكان عليه السلام في صباه يجالس العلماء، ويكتب ما يستفيده في العظام ونحوها، لعجزه عن الورق حتى ملأ منها خبايا.

وتفقه في مكة على مسلم بن خالد الزنجي ونزل في شعب الخيف منها ثم قدم المدينة فلزم الإمام مالكا عليه السلام، وقرأ عليه الموطأ حتى أعجبه قراءته، وقال له: اتق الله فإنه سيكون لك شأن، وكان سن الشافعي عليه السلام حين أتى مالكا ثلاث عشرة سنة، ثم رحل إلى اليمن حين تولى عمه القضاء بها، واشتهر بها ثم رحل إلى العراق، وجد في الاشتغال بالعلم وناظر محمداً بن الحسين وغيره، ونشر علم الحديث وأقام مذهب أهله، ونصوا السنة واستخرج الأحكام منها ورجح كثير من العلماء ممن مذهب كانوا عليها إلى مذهبهم، ثم خرج إلى مصر آخر سنة تسع وتسعين ومائة ووضف كتبه الجديدة بها ورحل الناس إليه من

سائر الأقطار. عليه السلام عشتاق سميته بعد الفقه رقماً له حقيقة، عليه السلام عشتاق سميته بعد الفقه رقماً له حقيقة، عليه السلام عشتاق سميته بعد الفقه رقماً له حقيقة، عليه السلام عشتاق سميته بعد الفقه رقماً له حقيقة.

قال الربيع بن سليمان: رأيت على باب دار الإمام الشافعي رحمته الله سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه رحمته الله، وكان يقول مع ذلك: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وكان رحمته الله يقول: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلي منه حرف، قال شيخنا شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري: وقد أجابه الحق إلى ذلك فلا يكاد يسمع في مذهبه إلا مقالات أصحابه قال الراقعي قال النووي قال الزركشي ونحو ذلك، وكان يقول وددت أني إذا ناظرت أحداً أن يظهر الله تعالى الحق على يديه^(١) وكان يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وكان يقول من أراد الآخرة فعليه بالإخلاص في العلم، وكان يقول: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه، وكان يقول: لا شيء أزين بالعلماء من الفقر والقناعة والرضا بهما، وكان يقول: صحبت الصوفية عشر سنين ما استقدت منهم إلا هذين الحرفين الوقت سيف، وأفضل العصمة ألا تجد.

وكان يقول: من أحب أن يقضي له بالحسنى فليحسن بالناس الظن وكان يقول: أبين ما في الإنسان ضعفه فمن شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة مع الله تعالى وكان يقول: من طلب العلم بعز النفس لم يفلح ومن طلبه بذل النفس وخدمة العلماء أفلح، وكان رحمته الله يقول: تفقه قبل أن ترأس فإذا ترأست فلا سبيل إلى التفقه، وكان يقول: دققوا مسائل العلم لئلا تضيع دقائقه، وكان يقول: جمال العلماء كرم النفس، وزينة العلم الورع، والحلم، وكان رحمته الله يقول: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه وكان يقول: ليس العلم ما حفظ إنما العلم ما نفع، وكان يقول: فقر العلماء اختيار، وفقر الجهلاء اضطرار، وكان يقول: المرء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن وكان رحمته الله يقول: الناس في غفلة عن هذه السورة ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: ١، ٢) وكان قد

(١) قلت: وذلك لأن المتخلق بالصفات الإلهية كالإنسان الكامل يريد إفاضة العالم من وراء الستار، وحقيقة هذا كخفاء الحق سبحانه عن الأبصار ويرغم ذلك لم يحوج الوجود لشيء قط برغم عدم رؤيته له سبحانه، فهكذا الإنسان الكامل لا يريد له ظهوراً، مع إرادته في نفس الوقت إفاضة العالم بما أعطاه الحق له سبحانه من علم قلوبهم.

جزأ الليل ثلاثة أجزاء الثلث الأول يكتب والثاني يصلي والثالث ينام وفي رواية ما كان ينام من الليل إلا يسيراً، وكان يختم في كل يوم ختمة، وكان يقول: ما كذبت قط ولا حلفت بالله لا صادقاً ولا كاذباً^(١)، وما تركت غسل الجمعة قط لا في برد ولا في سفر ولا في حضر وما شيعت منذ ست عشرة سنة إلا شيعه طرحتها من ساعتى، وكان عليه السلام يقول: من لم تعزه التقوى فلا عز له.

وكان يقول: ما فزعت من الفقر قط، وكان يقول: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد، وكان يمشى على العصا فقيل له في ذلك فقال: لأذكر أنى مسافر من الدنيا، وكان يقول: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة، وكان يقول: من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضى بالقنوع زال عنه الخضوع وكان يقول: من أحب أن يفتح الله تعالى عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبغض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا، وكان يقول: لا بد للعالم من ورد من أعماله يكون بينه وبين الله تعالى، وكان يقول: لو اجتهد أحدكم كل الجهد على أن يرضى الناس كلهم عنه فلا سبيل له فليخلص العبد عمله بينه وبين الله تعالى، وكان يقول: لا يعرف الرياء إلا المخلصون^(٢)، وكان يقول: لو أوصى رجل لأعقل للناس صرف إلى الزهاد، وكان يقول: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب، وكان يقول: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم، وكان يقول: لو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته^(٣)، وكان يقول: أصحاب المروءات في جهد، وكان يقول: من أحب أن يختم الله له بخير فليحسن الظن بالناس، وكان يقول: مكثت أربعين سنة أسأل إخوانى الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم، فما منهم أحد قال رأيت خيراً قط، وكان يقول: ليس بأخيك من احتججت إلى مداراته، وكان

(١) وهو من صفات الصديقين.

(٢) لأنهم هم أطباء القلوب فهم أعلم الناس بالعلل والأمراض الباطنية.

(٣) يعنى أن المشكلة ليست فى شرب الماء البارد، وإنما المشكلة فى سلامة القلوب من العلل والأمراض الباطنية.

يقول: من علامة الصادق في أخوة أخيه أن يقبل علته ويسد خلله ويغفر زلله، وكان يقول: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً، وكان يقول: ليس سرور يعدل صحبة الإخوان ولا غم يعدل فراقهم، وكان يقول: لا تشاور من ليس في بيته دقيق، وكان يقول: لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مروءته ولا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك.

وكان يقول: من برك فقد أوثقك ومن جفاك فقد أطلقك، وكان يقول: من نم لك نم عليك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، كذلك إذا أغضبتك قال فيك ما ليس فيك، وكان يقول: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه، وكان يقول: من سامى بنفسه فوق ما يساوي ربه الله تعالى إلى قيمته، وكان يقول: من تزين بباطل هتك ستره وكان يقول: التكبر من أخلاق اللئام، وكان يقول: القناعة تورث الراحة، وكان يقول: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله، وكان يقول: من كتم سره ملك أمره، وكان يقول: ما ضحك من خطأ رجل إلا ثبت صوابه في قلبه وكان يقول: الإكثار في الدنيا إفسار والإعسار فيها إيسار، وكان يقول: الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط، وكان يقول: ما أكرمت أحداً فوق قدره إلا نقص من مقداري بقدر ما زدت في إكرامه، وكان يقول: لا وفاء لعبد، ولا شكر للثيم، وكان يقول: صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة، ومن عاشر اللئام نسب إلى اللؤم، وكان يقول: من يسمع بأذنه صار حاكياً؛ ومن أصغى بقلبه صار واعياً، ومن وعظ بفعله كان هادياً، وكان يقول: من الذل حضور مجلس العلم بلا نسخة، وعبور الماء بلا فوطاة وعبور الحمام بلا قصعة، وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئاً، وكان يقول: مداراة الأحمق غاية لا تدرك، وكان يقول: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص^(١)، وكان يقول: ينبغي للفقير أن يكون معه سفيهه (١) وذلك لكون القضاة فيهم من يأخذ الرشا، وأما الأمين منهم فتجده فقيراً، ولقد كانت لنا قضية في بعض السنين وحكم فيها أحد القضاة الأمانة، وبعدها بفترة وجدته واقفاً في الشارع على محطة الأتوبيس ينتظر مع الناس فعملت أمانته.

ليسافه عنه^(١)، وكان ﷺ يقول: من خدم خدماً، وكان ﷺ من أكرم الناس.

قدم من اليمن بعشرة آلاف دينار فضرب خبائه خارج مكة، فكان الناس يأتونه فما برح حتى فرقها كلها وما سألها أحد شيئاً إلا احمر وجهه حياءً من السائل، وكان ﷺ يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية وتارة يصفرها اتباعاً للسنة، وكان كثير الأسقام منها البواسير وكانت دائماً تتضح الدم، ولا يجلس للحديث إلا والطشت تحته يقطر الدم فيه، قال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي^(٢)، وكان مقتصداً في لباسه، وكان نقش خاتمه كفى بالله ثقة لمحمد بن إدريس، وكان ذا هيبة وكان أصحابه لا يتجرؤون أن يشربوا الماء وهو ينظر إليهم هيبة له^(٣)، وكان يتشع بالرداء ويتكئ على الوسادة وتحته مضربتان، وكان يقول: أحب لكل مسلم أن يكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ.

وكان يقول في قوله ﷺ: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" قال يتحزن به يترنم به، وكان يقول: كلما رأيت رجلاً من أصحاب الحديث كاني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يقول: لو رأيت صاحب بدعة يمشي على الهواء ما قبلته، وكان يقول: من لم يضمن نفسه لم ينفعه علمه، وكان إذا اشترى جارية يشترط عليها أن لا يقربها، لأنه كان عليلاً على الدوام^(٤) وكان يقول: الكرم والسخاء يفطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا يلحقهما بدعة، وكان يقول: من

(١) وقد كان مع النبي ﷺ من يسافه عنه.

(٢) قلت: وهي من صفات أصحاب الأئمة وخلفاء الله عز وجل في أرضه، ولقد رأيت شيخنا محمد زكي إبراهيم ﷺ وكان قد بلغ التسعين وكان به أكثر من سبعة أمراض، وكانت القدرة الإلهية هي التي تقيم صورته وتجعله حياً.

(٣) اعلم أن شدة هيبة العارف إنما تنتج عن تجلي أسماء القهر عليه أكثر من تجلي أسماء الجمال، ولذلك شرب الصحابة وأكلوا بين يديه ﷺ وذلك لشدة كماله وعدم غلبة أي من الأسماء القهرية أو الجمالية عليه بل كان قائماً في الكمال الوسطى.

(٤) قلت: ليس في هذا الشرط مخالفة للسنة، إذ الضرورات تبيح المحظورات ومثاله كالمرض الذي يحتاج إلى زوجة ممرضة لكي تمرضه فهل يشترط له أن يجامعها إذا رضيت بهذا الشرط منذ البداية؟

استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان، وكان يقول: احذروا الأعور والأحول والأعرج والأحذب والأشقر والكوسج وكل من به عاهة في بدنه فإن فيه التواء ومعاشرته عسرة^(١)، وكان يقول: من طلب الرياسة فرت منه، وكان يقول: ليس من المروة أن يخبر الرجل بسنه لأنه إن كان صغيراً استحقروه، وإن كان كبيراً استهرموه، وكان يقول: لينوا لمن يجفؤ فقل من يصفؤ، وكان يقول: من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله، وكان يقول: ما نصحت أحداً فقبل مني إلا هبته، واعتقدت مودته ولا رد أحد علي النصح إلا سقط من عيني ورفضته، وقال الربيع: دخلت على الشافعي ليلة مات فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وإخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً، ولسوء أعمالى ملاقياً، وعلى الكريم واردة ثم بكى. ومناقبه رضي الله عنه كثيرة مشهورة رضي الله عنه والله تعالى أعلم.

ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه

كان رضي الله عنه رجلاً طويلاً عظيم الهامة أصلع أبيض الرأس واللحية شديد البياض، وكان لباسه الثياب العدنية الجياد، وكان إذا أراد أن يجلس لحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتبخر وتطيب ومنع الناس أن يرفعوا أصواتهم، وكان إذا دخل بيته يكون شغله المصحف وتلاوة القرآن، وكانت السلاطين تهابه، وكان يكره حلق الشارب ويعيبه ويراه أنه من المثلة وكان يقول: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسئل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان يقول: مثل المنافقين في المسجد كمثل العصافير في القفص إذا فتح باب القفص طارت العصافير.

ومكث رضي الله عنه خمساً وعشرين سنة لم يشهد الجماعة فقيل له: ما يمنعك من الخروج؟ قال: مخافة أن أرى منكراً أحتاج أن أغيره^(٢).

(١) قلت: هي ليست قاعدة عامة فقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء والأقطاب من هو أعرج وأعور وأحول وكوسج وأشقر، ومع ذلك كانوا من أرباب الهمم والنفوس السليمة الخالية من الأمراض الباطنية.

(٢) قلت: هو مشهد عرفاني ذوقى خاص بهذا العارف فقط، وليس فيه حجة على جمهور الأمة، سواء الخواص أو العوام.

قلت: وإنما سومح في ذلك أنه اجتهد ولو فعل ذلك غيره لا يقر على ذلك والله تعالى أعلم، وكان يقول: إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه، وكان رضي الله عنه إذا قال في المسألة لا أو نعم لا يقال له من أين قلت هذا؟

وأخذ رضي الله عنه العلم عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين وكان يقول: ليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب، وقيل له ما تقول في طلب العلم؟ فقال: حسن جميل ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه.

ولما ضربه جعفر بن سليمان في طلاق المكره وحمله على بغير قال: له ناد على نفسك فقال رضي الله عنه: ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، أقول طلاق المكره ليس بشيء فبلغ ذلك جعفرأ فقال: أدركوه وأنزلوه، وكان يقول: حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وكان رضي الله عنه يقول: لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه فإنه ذل وإهانة للعلم، وكان يمشي في أزقة المدينة حافياً ماشياً ويقول: أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحافر دابة^(١).

وقال مالك رضي الله عنه لمطرف: ماذا يقول الناس في؟ فقال: أما الصديق فيثني وأما العدو فيقع، فقال: ما زال الناس هكذا لهم عدو وصديق ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها.

وسئل رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (الرحمن: ٥) فعرق وأطرق وصار ينكت بعود في يده ثم رفع رأسه وقال: كيف منه غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وأظنك

(١) انظر إلى مدى تعظيم الإمام مالك رضي الله عنه لتراب المدينة لكونه ضم رفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هذا التعظيم الذي يحاربه الوهابية اليوم، ويسعون إلى عدم تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم ويتأفمون من كل ما يعظمه صلى الله عليه وآله وسلم، وينزلون بشريته إلى بشرية الرجل الأمي العادي فيقول أحدهم: أنت إذا اجتهدت صرت مثل محمد، ويقولون: إن محمداً قد مات وصار لا يضر ولا ينفع، وما رأيت وهابياً يعظم جنبه صلى الله عليه وآله وسلم أو يكثر من الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم، أو يعظم آثاره الشريفة أو يحب آل بيته الأطهار.

يقول: الناس عيال على أبي حنيفة رضي الله عنه في الفقه، وكان لا ينام الليل وسموه الوتد^(١) لكثرة صلواته وصلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان رضي الله عنه لا يجلس في ظل جدار غريمه ويقول: كل قرص جر نفعاً فهو ربا، وكان عامة الليل يقرأ القرآن كله في كل ركعة، وكان يسمع بكاؤه حتى يرحمه جيرانه، وختم القرآن في الموضوع الذي مات فيه سبعة آلاف مرة وقال عبد الله بن المبارك عن أبي حنيفة رضي الله عنه: إنه صلى الصلوات الخمس أربعين سنة بوضوء واحد وكان نومه دائماً ساعة بين الظهر والعصر وفي الشتاء ساعة أول الليل وكان يقول: إذا ارتشى القاضي فهو معزول وإن لم يعزله الإمام.

وسئل رضي الله عنه أيما أفضل علقمة أو الأسود؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم؟ وكان يقول: سمعت عطاء يقول: ما من ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ولله الحجة عليه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له^(٢)، وكان يقول: إنما سمي المرجئة بذلك لأنهم سئلوا عن حالة العصاة أين منزلتهم في الآخرة؟ فقالوا: أمرهم إلى الله تعالى فسموا مرجئة لإرجائهم أمر العصاة إلى الله تعالى، فإن الكفار في النار والمؤمنين في الجنة، وكان له جار يهودي وكانت قسبة بيت خلائه تتضح على بيت أبي حنيفة فمكث عشر سنين، وهو يكنس كل يوم ما نزل في داره منها، ويذهب به إلى الكوم، ولم يعلم اليهودي قط فبلغ ذلك اليهودي فبكى ثم جاء وأسلم، وكان رضي الله عنه يقول: لو أن عبداً عبد الله تعالى حتى صار مثل هذه السارية ثم إنه لا يدري ما يدخل بطنه حلال أو حرام ما تقبل منه، وكان يقول: جالست الناس منذ خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي ذنباً ولا وصلني حين قطعته ولا ستر على عورة ولا أئتمنته على نفسي إذا غضب فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير، وكان يقول: لو لم تبغض الدنيا إلا لأن الله تعالى

(١) قلت: وقد كان رضي الله عنه وتداً حقيقياً قبل أن يتقطب.

(٢) هو مثال تشبيهي بعدم المن على الخالق سبحانه بكثرة العمل أو رفعة الدرجة والمقام لأي مخلوق كان من خلقه قال سبحانه لنبيه ﷺ: «ولا تمنن تستكثر، فإن الحق سبحانه عز وجل هو خالق الأعمال على الحقيقة، فكيف تكون لمخلوق منة عليه على التحقيق ولذلك قال سيد الخلق ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» أي أشكر الربوبية لما وفقني لما أنا فيه.

يعصى فيها لكانت تبغض، وكان يقول: الملح مع الخبز شهوة ﷺ، ورؤي ﷺ بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي فقيل له بالعلم فقال: هيهات إن للعلم شروطاً وأدباً قل من يفعلها فقيل: فيماذا غفر لك الله؟ قال: يقول الناس في ما ليس في، وكان يقول: من هان عليه فرجه هان عليه دينه، وكان يقول: إذا لم يتكلم العبد بما ظنه فلا إثم عليه^(١)، وكان يقول: بلغني أنه ليس في الدنيا أعز من فقيه ورع، وقال له رجل: إني أحبك فقال: وما يمنعك من محبتي، ولست بابن عم لي ولا جاري وكان يقول: الفوغاء هم القصاص الذين يستأكلون أموال الناس، وكان يقول: لا ينبغني للقاضي أن يترك على القضاء أكثر من سنة، لأنه إذا مكث فيه أكثر من سنة ذهب فقهه. ومناقبه كثيرة مسهورة ﷺ.

ومنهم الإمام أحمد بن حنبل ﷺ

كان ﷺ يقول: طوبى لمن أخمل الله تعالى ذكره وكان يقول: رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم، وكان ﷺ إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره^(٢) قلت: وكذلك كان يحيى بن معين وعبد الله بن داود والله أعلم، وكان ﷺ يقول: تزوج يحيى بن زكريا عليهما السلام مخافة النظر^(٣)، وكان ﷺ يضرب به المثل في اتباع السنة واجتباب البدعة، وكان لا يدع قيام الليل قط، وله في كل يوم وليلة ختمة وكان يسر ذلك عن الناس وقال أبو عصمة ﷺ: بت ليلة عند أحمد ﷺ فجاءني بماء

(١) قلت: هذا في حق العوام وأما الخواص فإن الحق سبحانه يحاسبهم على خطراتهم الباطنية أكثر من أفعالهم الظاهرة، وإذا لم يكن العبد باطنه أنقى من ظاهره فلا يأتي منه شيء.

(٢) من باب عدم الضن: بالعلم والاستثثار به.

(٣) لا يصح أن يقال هذا في حق الأنبياء، لكونهم معصومين من هواجس النفس وإنما الصحيح أن يقال: تزوج يحيى بن زكريا أرضاء لله عز وجل وإن كان الصحيح الثابت أنه لم يتزوج لقوله سبحانه: (وسيدا وحصورا) والحصور هو الذي لا يخالط النساء.

فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء كما هو فقال: يا سبحان الله رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل، وكان يلبس الثياب النقية البياض ويتعهد شاربه وشعره رأسه وبدنه، وكان مجلسه خاصاً بالآخرة لا يذكر فيه شيء من أمر الدنيا وكان يأتي العرس والأملاك والختان ويأكل^(١)، وتعدت أمه من الثياب، فجاءته زكاة فردها، وقال: العري لهن خير من أوساخ الناس، وإنها أيام قلائل ثم نرحل من هذه الدار، وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء في قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وكانوا في بعض الأوقات يطبخون له في فخارة عدساً وشحمأ، وكان أكثر إدامه الخل، وكان إذا مشى في الطريق لا يمكن أحداً يمشي معه، ولما مرض عرضوا بوله على الطبيب فتظر إليه وقال: هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده، وكان يحيي الليل كله من منذ كان غلاماً وكان من أصبر الناس على الوحدة لا يراه أحد إلا في المسجد أو جنازة أو عيادة، وكان يكره المشي في الأسواق، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضرب بالسياط ضعف بدنه فكان يصلي مائة وخمسين ركعة كل يوم وليلة، وحج صلى الله عليه وسلم خمس حجرات ثلاثاً منها ماشياً، وكان ينفق في كل حجة نحو عشرين درهماً ولما قدم للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالى برجل يقال له أبو الهيثم العيار^(٢) فوقف عنده وقال يا أحمد أنا فلان اللص ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت، وأنا أعرف أني على الباطل فاحذر أن تتقلق وأنت على الحق من حرارة السوط، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه ولما دخل أحمد على المتوكل قال^(٣) المتوكل لأمه:

(١) مقصوده ختان وأعراس الصالحين فإنها مباحة خلافاً للجبايرة والمكاسين والظلمة فإن ختانهم وأعراسهم لا يليق بالأكابر حضورها والأكل منها.

(٢) ربما كان هذا اللص من العارفين لكون الحق عز وجل ألقى الموعدة على لسانه وثبت به أحمد بن حنبل صلى الله عليه وسلم.

(٣) كان المتوكل من أقطاب الظاهر والباطن، كما هو مروى عن الشيخ الأكبر، ولذلك لما دخل عليه الإمام أحمد رأى أنوار ولايته فقال لأمه: يا أماء قد نارت الدار بهذا الرجس، وذلك لكون الولي يعرف الولي فافهم. وقد ذكرناه في كتابنا طبقات الأقطاب الذين نالوا الخلافة الظاهرية والباطنية.

يا أمه قد نارت الدار بهذا الرجل ثم أتوا بثياب نفيسة فألبسوها له فبكى وقال: سلمت منهم عمري كله حتى إذا دنا أجلي بليت بهم ويدنياهم ثم نزعها لما خرج، وكان رضي الله عنه يواصل الصوم فيفطر كل ثلاثة أيام على تمر وسويق، وقال الفضيل بن عياض^(١) رضي الله عنه: حبس الإمام أحمد رضي الله عنه ثمانية وعشرين شهراً، وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه، ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم، وتولى بعده الواثق فاشتد الأمر على أحمد وقال: لا أسكن في بلد أهد فيه فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها، حتى مات الواثق وولي المتوكل فرجع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه وكتب إلى الأفاق برفع المحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق وخمدت المعتزلة وكانوا أشد الطوائف المبتدعة. قال أحمد بن غسان: ولما حملت مع أحمد إلى المأمون تلقانا الخادم وهو يبكي ويمسح دموعه وهو يقول: عز علي يا أبا عبد الله ما نزل بك قد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط وبسط نطعاً لم يبسطه قط ثم قال: وقرابتي من رسول الله ﷺ لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقولوا القرآن مخلوق، فجننا أحمد على ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ودعا فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة فأقبل علينا خادمه وهو يقول: صدقت يا أحمد القرآن كلام الله غير مخلوق قد مات والله أمير المؤمنين، وكان قد لقيه قبل أن يدخل المدينة رجل من العباد فقال: احذر يا أحمد أن يكون قدومك مشئوماً على المسلمين فإن الله تعالى قد رضي بك لهم وافداً والناس إنما ينظرون إلى ما تقول فيقولون به فقال أحمد: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولما سجنوه رضي الله عنه وضعوا في رجليه أربعة قيود وكان ابن أبي داود هو الذي تولى جدال أحمد عن الخليفة وقال للخليفة: إن أحمد ضال مبتدع ثم يلتفت إلى أحمد ويقول: قد حلف الخليفة ألا يقتلك بالسيف، وإنما هو ضرب بعد ضرب إلى أن تموت، فما زالوا بأحمد رضي الله عنه يناظرونه بالليل والنهار إلى أن ضجر الخليفة من ذلك، فلما طال بهم الحال قال

(١) قلت: هذه الرواية لا تصح عن الفضيل لكونه توفى عام ١٨٧ وأحمد توفى عام ٢٤١.

ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين اقتله ودمه في أعناقنا فرفع الخليفة يده ولطم بها وجه أحمد، فخر مفضياً عليه، فخاف الخليفة على نفسه ممن كان من الشيعة مع أحمد، فدعا بماء فرش منه على وجه أحمد قال أحمد: ولما قدمت إلى الضرب والناس بين يدي الخليفة قيام قال لي إنسان: أمسك رأس الخشبتيين بيدك وشد عليهما فلم أفهم مقاتته، فتخلعت يداي قالوا ولم يزل أحمد رضي الله عنه يتوجع منهما إلى أن مات رضي الله عنه ولم يزالوا بعد الضرب يقطعون اللحم والجلد من مقاعد أحمد سنين عديدة إلى أن مات رضي الله عنه.

وكان بشر بن الحارث رضي الله عنه يقول: امتحن أحمد بعدما أدخل الكير فخرج ذهباً أحمر. وقال الهيثم رضي الله عنه: كان أحمد رضي الله عنه حجة الله على أهل زمانه والفضيل حجة الله على أهل زمانه^(١)، وهكذا الأمر في كل زمان، وكان يقول: إذا كان في الرجل مائة خصلة من الخير وكان يشرب الخمر محتها كلها، وكان يقول: لا تكتبوا العلم عنم يأخذ عليه عرضاً من الدنيا.

ومرض جاره فلم يعده فقال له ابنه: هلا تعود جارنا؟ فقال يا بني: إنه لم يعدنا حتى نعوده^(٢)، وكان رضي الله عنه يقول: لم يجئ لأحد من الصحابة في الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأرسل له الخضر فقيراً فقال: يا أحمد إن ساكني السماء ومن حول العرش راضون عنك بما صبرت نفسك له عز وجل، ومناقبه كثيرة مشهورة.

توفي رضي الله عنه سنة إحدى وأربعين ومائتين وقد استكمل سبعمائة وسبعين سنة. ولما مرض رضي الله عنه اجتمع الناس والدواب على بابة لعيادته حتى امتلأت الشوارع والدروب، ولما قبض صاح الناس وبهت الأصوات بالبكاء وارتجت الدنيا لموته، وخرج أهل بغداد إلى الصحراء يصلون عليه فحزروا من حضر جنازته من الرجال ثمانمائة ألف ومن النساء ستون ألف امرأة سوى من كان في الأطراف والسفن

(١) يعني به الخليفة النائب عن الله.

(٢) ليس استكباراً عليه بل حفاظاً على خصوصية ذلك الجار لأنه ربما لا يريد أن يختلط بأحد فاحترم أحمد رغبته.

والأسطحة فإنهم بذلك يكونون أكثر من ألف ألف وفي رواية بلغوا ألفي ألف وخمسمائة ألف، وأسلم يومئذ عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس رضي الله عنهم.

ومنهم أبو محمد سفيان بن عيينة رضي الله عنه

حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين وكان يقول: من لا تتفتح به فلا عليك أن لا تعرفه، وكتب مرة إلى أخ له: أما أن لك يا أخي أن تستوحش من الناس ولقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جن^(١) عن معارفه وصار كأنه مختلط العقل من شدة تأهبه للموت، وكان إذا أعطاه الناس شيئاً يقول: أعطوه لفلان فإنه أحوج مني وكان يقول: من صبر على البلاء ورضي بالقضاء فقد كمل أمره وكان يقول: بحسب امرئ من الشر أن يرى من نفسه فساداً لا يصلحه، وكان يقول: خصلتان يعسر علاجهما ترك الطمع فيما بأيدي الناس، وإخلاص العمل لله، وكان يقول: إذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل فماذا أصنع بالعلم الذي كتبت؟ وكان يقول: من زيد في عقله نقص من رزقه، وكان يقول: لا إله إلا الله بمنزلة الماء في الدنيا فمن لم يكن معه لا إله إلا الله فهو ميت ومن كانت معه فهو حي، وكان يقول: ما أنعم الله عز وجل على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله وإن لا إله إلا الله في الآخرة كالماء في الدنيا، وكان يقول: من فسر حديث: "من غشنا فليس منا" ونحوه على أن المراد ليس هو على هدينا وحسن طريقتنا فقد أساء الأدب فإن السكوت عن تفسيره أبلغ في الزجر، وكان رضي الله عنه يقول: الزهد في الدنيا هو الصبر وارتقاب الموت، وقال: حرمة أخرج لي سفيان بن عيينة رغيث شعير من كمه، وقال لي: دع ما يقوله الناس فإنه طعامي منذ ستين سنة، وكان رضي الله عنه يقول: ليس من حب الدنيا طلبك ما لا بد منه، وكان يقول: ماء زمزم بمنزلة الطيب لا يرد، وكان يقول: إذا كانت نفس المؤمن متعلقة بدينه حتى يقضي فكيف بصاحب الغيبة؟ فإن الدين يقضي والغيبة لا تقضي ولو أن رجلاً أصاب من مال رجل شيئاً ثم تورع عنه بعد موته فجاء به إلى ورثته لكننا نرى أن ذلك كفارات له ولو أنه اغتابه

(١) أي حجب نفسه عنهم واعتنى بها استعداداً للقاء الله.

أنه اغتابه ثم تورع وجاء بعد موته إلى ورثته وإلى جميع أهل الأرض فجعلوه في حل ما كان في حل فعرض المؤمن أشد من ماله، وكان يقول: وصى الخضر موسى عليهما السلام أن لا يعير أحداً بذنب، وكان عليه السلام يقول: إن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام سرّاً وللعلماء عليهم السلام سرّاً، وإن للملوك سرّاً فلو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أظهروا سرهم للامة لفسدت النبوة، ولو أن العلماء عليهم السلام أظهروا سرهم للامة لفسدت عليهم، ولو أن الملوك أظهروا سرهم للامة لفسد ملكهم، وكان عليه السلام يقول: العلم إن لم ينفعك ضرك، وكان إذا فرغ من صلاته يقول: اللهم اغفر لي ما كان فيها وكان يقول: لا يكون طالب العلم عاقلاً حتى يرى نفسه دون كل المسلمين وكان يقول: إذا لم تصل إلى ححك إلا بالخصومة والسلطان فدعه لما ترجو من سلامة دينك^(١)، وكان يقول: كم من شخص يظهر الزهد في الدنيا والله مطلع على قلبه أنه محب لها، وكان عليه السلام يقول: كتمان الفقر مطلوب لأنه من الأعمال الصالحة وذلك من أشد ما يكون على النفس وكان عليه السلام يقول: الجهاد عشرة: فجهاد العدو واحد وجهاد النفس تسعة وكان عليه السلام يقول: إنما عرفوا لأنهم أحبوا أن لا يعرفوا، وكان يقول: اتتوا الصلاة قبل النداء ولا تكونوا كالعبد السوء لا يأتي للصلاة حتى يدعى إليها، وكان عليه السلام يقول: ما عليك أضر من علم لا تعمل به وكان يقول: شرار من مضى عام أول^(٢) خير من خياركم اليوم، وكان عليه السلام يقول إن الزمان الذي يحتاج فيه إلى مثلنا لزمان سوء، ولد عليه السلام في الكوفة سنة سبع ومائة وسكن مكة وتوفي فيها سنة ثمان وتسعين ومائة ودفن بالحجون وهو ابن إحدى وتسعين سنة عليه السلام.

ومنهم شعبة بن الحجاج عليه السلام

كانوا يسمونه أمير المؤمنين في الرواية والحديث، وكان عليه السلام يقول: والله إن الشيطان صار يلعب بالقراء كما يلعب الصبي بالجوز فكيف بغير القراء؟ وكان

(١) قلت: هذه هي أخلاق الصديقين فإن ترى هذه الأخلاق اليوم؟ إنما أندر من الكبريت الأحمر وأعز منه.

(٢) يقصد من تمام مضى، وهي لفة لاتزال تستعمل لحد الآن بصعيد مصر.

قد عبد الله تعالى حتى جف جلده على عظمه فليس بينهما لحم، وكان يصوم الدهر كله^(١)، وكان يعيب على من يلبس ثوباً بثمانية دراهم ويقول: هلا اشتريت قميصاً بأربعة وتصدقت بأربعة؟ فقيل له: إنا مع قوم نتجمل لهم، فقال: أيش نتجمل لهم، وكان إذا مر بسائل يذهب إلى البيت فيخرج له كل ما وجد، وكان يقول لأصحابه: لولا سؤالي للمحاييج والفقراء ما جلست مع أحد، وكانت ثياب شعبة لونها لون التراب، وكان إذا حك جلده انتثر منه التراب، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا لم يجد شيئاً يعطيه للسائل أعطاه حماره ومشى^(٢)، وكان إذا قعد في زورق أعطى الأجرة عن جميع من فيه^(٣)، وقوموا حمار شعبة وسرجه ولجامه بسبعة عشر درهماً، وقوموا ثيابه فلم تساو عشرة دراهم، وهي قميص وإزار ورداء وأرسل له المهدي ثلاثين ألف درهم ففرقها في المجلس ولم يأخذ منها درهماً، وإن أهله لمحتاجون إلى رغيغ. توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالبصرة وهو ابن سبع وتسعين سنة، سنة ستين ومائة، والله أعلم.

ومنهم مسعرين كدام بكسر الكاف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وكان يقول: إن لله تعالى عباداً لو يعلمون بما ينزل القدر لاستقبلوه استقبالا حياً لريهم ولقدره، فكيف يكرهونه بعد ما وقع، وكان إذا فتح المصحف ورأى فيه قصة قوم عذبهم الله يقول: إلهي قد دخلت رحمتهم قلبي فإن شئت فاغفر لي وإن شئت عذبني، وكان يقول: لا تقعدوا فراغاً فإن الموت يطلبكم، وكان ينشد الشعر عقب الصلاة، ويقول: إن النفس تكون هكذا وهكذا، وسئل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أفقه أهل المدينة؟ فقال: أفقههم أتقاهم لله عز وجل، وكان لا ينام كل ليلة حتى يقرأ نصف القرآن فإذا فرغ من ورده لف رداءه ثم هجع هجعة خفيفة، ثم يثب^(١) وبرغم صيامه الدهر وعبادته الشاقة التي جف منها جلده على عظمه كان أحفظ أهل زمانه، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث فلم يمنعه الصوم والعبادة عن الحفظ.

(٢) وقد حدث لسيدى محيي الدين بن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما أقام ببلاد الروم وأعطاه السلطان داراً فمر عليه سائل فسأله شيئاً فقال له: ليس معي سوى هذه الدار وخرج منها وأعطاهم له.

(٣) قلت وهذه هي فتوة الصوفية الحقيقية، حتى لا يظن أحد أنهم فقراء بل هم أغنياء بالله ينفقون على الكل من رب الكل.

مرعوباً كالرجل الذي ضل منه شيء عزيز فهو يطلبه فيستاك ثم يتطهر ويستقبل القبلة إلى الفجر، وكان عليه السلام يجتهد في إخفاء عمله وكان يقول: أشتي أن أسمع صوت باكية حزينة وقيل له: أتحب أن يخبرك الرجل بعيوبك؟ فقال: إن كان ناصحاً فنعم وإن كان يريد أن ينقصني فلا وكان عليه السلام إذا خطر على باله يوم القيامة يبكي حتى يرثي له الحاضرون، وكان عليه السلام يخدم أمه ويقول: لولا أمي ما فارقت المسجد إلا لما لا بد منه، وكان عليه السلام: إذا دخل بكى وإذا خرج بكى وإذا صلى بكى وإذا جلس بكى، ودخل عليه سفيان الثوري عليه السلام في مرض موته فقال له: ما هذا الجزع يا مسعر؟ والله لوددت أني مت الساعة فقال له مسعر عليه السلام: إنك إذن لوائق بعملك يا سفيان لكني والله كاني على شاهق جبل لا أدري أين أهبط، فبكى سفيان عليه السلام وقال: أنت أخوف لله عز وجل مني يا أخي، وكان سفيان إذا حدث عنه يقول: أخبرني أبو سلمة يقول يستحي أن يقول مسعر، وكان في جبهته مثل ركة العنز من السجود، وكان يقول: لا ينبغي أن يثى على عالم وهو يقبض جوائز السلطان ويبني بيته بالأجر، وطلبت أمه بعد العشاء شربة ماء فخرج فجاء بالكوز فوجدها نامت فبقي الكوز على يده إلى الصباح ينتظر استيقاظها، ولما طلبه أبو جعفر المنصور ليوليه القضاء قال له: مهلاً يا أمير المؤمنين إن أهلي يطلبون حاجة بدرهم فأقول لهم: أنا اشتري لكم فيقولون: لا نرضى بشرائك، فإذا كان أهلي لا يرضون بشرائي لهم حاجة بدرهم يوليني أمير المؤمنين القضاء، فأعفاه وقال له: لو كان في المسلمين مثك يا مسعر لخرجت إليه ماشياً، وكان يقول: من يرضى بالخل والبقل لم يستعبده الناس، وكان يقول: مضاحكة الوالدين على الأسرة أفضل من مجاهدة السيوف في سبيل الله تعالى، وكان إذا جاءه أحد يسأله الدعاء يقول له: ادع أنت حتى أؤمن أنا فإن الدعاء من صاحب الحاجة.

قلت: وهكذا بلغنا عن معروف الكرخي وكان مشهوراً بإجابة الدعوة والله تعالى أعلم، وكان يقول: شكوى العارف للطبيب ليست شكوى في ربه لأنه إنما يذكر للطبيب قدرة الله فيه، وكان عليه السلام يقول: اللهم من ظن بنا خيراً أو ظننا به

خيراً فصدق ظننا وظنه وبكي، وكان يقول: قيام الليل نور للمؤمن يوم القيامة يسعى بين يديه ومن خلفه، وصيام النهار يبعد العبد من حر السعير، وكان كثير البكاء فقيل له في ذلك فقال: وهل خلقت النار إلا لمثلي، وكان يدعو على من آذاه أن يجعله الله محدثاً^(١) أو مفتياً، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ينادي مناد يوم القيامة يا مادح الله قم فلا يقوم إلا من كان يكثر قراءة قل هو الله أحد، وكان يقول أعرف الناس بعور الناس الأعمور. توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم علي والحسين

ابنا صالح بن حي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كانا من العباد والزهاد وقسما الليل ثلاثة أجزاء فكان علي يقوم الثلث ثم ينام، ويقوم بعده الحسين ثم ينام وتقوم أمهما الثلث الآخر، فلما ماتت قسما ثلثها عليهما. فكانا يقومان الليل كله، ثم مات علي فقام الحسين الليل كله، وكان كل واحد يقرأ في قيامه بثلث القرآن كذلك، فلما ماتت أمه وعلي كان الحسين يختم كل ليلة القرآن، وكان الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا لم يجد شيئاً يعطيه للسائل في داره يعطيه شعلة نار ويقول: امض بها إلى منزل قوم عسى أن يعطوك شيئاً فتبلغ به، وكان إذا أراد أن يعظ أحداً لا يشافهه بالوعظ، وإنما يكتب ذلك إليه في ورقة ويدفعها، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: صاحب التخليط لا يفلح أبداً، وسأله رجل عن الدليل على قولهم الكريم لا يستقصي فقال: دليله قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ (التعريم: ٢) وكان يقول: إذا لم يخش العالم ربه فليس بعالم، وكان يقول: لا ينبغي لمؤمن أن لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يمشي إلا بنية صالحة.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أنا أستحي من الله تعالى أن أتكلف النوم حتى يكون النوم هو الذي يصرعني^(٢)، وكان لا يقبل من أحد شيئاً، وكان يقول: قال سعيد بن المسيب من لزم المسجد وقبل كل ما يعطاه فقد ألح في المسألة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

(١) وهي من أخلاق الصديقين ألا يدعون على أحد أبداً، وهي أخلاق قل من يصنعها اليوم من الصوفية.

(٢) قلت: وهذا دوماً كان حال الصوفية، فإنهم لا يأكلون ولا ينامون عن شهوة من تلقاء أنفسهم.

أول من نعى رسول الله ﷺ إلى أهل فارس جني في صورة كلب، وذلك أنه أتى إلى كلب من كلاب فارس، فقال: أطعمني وأنا أخبرك خبراً فأطعمه، فقال محمد ﷺ مات^(١)، قال ﷺ: وسئل سعيد بن المسيب ﷺ ما يستر المصلي؟ قال: التقوى قيل: فما يقطع الصلاة؟ قال: الفجور وكان ولده يجيء إليه في المسجد فيقول: أنا جيعان فيعله حتى يروح، وكانت له جارية يأكل من غزلها الخبز الشعير، وكان ﷺ يتخم الدم من شدة الخوف، وكان يقول: فتشنا الورع فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان، وكان إذا أشرف على المقابر يخر مغشياً عليه، وكان إذا ذهب إلى جنازة ورأى الميت وهم يدخلونه القبر يغشى عليه فلا يرجع إلا محمولاً في سرير الميت، وكان إذا بكى سمع الناس صراخه كبكاء أهل المصائب، وكان يقول: العمل بالحسنة قوة في البدن ونور في القلب وضوء في البصر، والعمل بالسيئة وهن في البدن، وظلمة في القلب، وعمى في البصر، وكان يقول: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يفرح إذا زوى الله عنه الدنيا وأعطاها لأقرانه.

توفي علي ﷺ بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة، وتوفي بعده الحسين بثلاث عشرة سنة ﷺ ما.

ومنهم عبد الله بن المبارك ﷺ

ولد ﷺ سنة ثمان عشرة ومائة، وكانوا يقدمونه في الأدب على سفيان الثوري ﷺ، وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: جهدت جهدي على أن أدوم ثلاثة أيام في السنة على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر، وكان يقدم النظر في سير الصحابة والتابعين على مجالسة علماء عصره^(٢)، وكان يقول: إذا كانت سنة مائتين ففروا من الناس إلا لحضور واجب^(٣)، وكان يقول: إذا تعلم أحدكم من

(١) ربما كان هذا الكلب من الجن الصالح، ولذلك كان كثير من الأولياء من يصحبون معهم الكلاب ويطعمونها ويمتتون بها.

(٢) قلت: وبمذهب ابن المبارك هذا تمسك جملة من متأخري الصوفية، فكانوا يفضلون قراءة الأوزاد الحميدة الواردة في السنة على أوزاد المشايخ المتأخرين.

(٣) قلت: فكيف به لو رأنا ونحن في سنة ١٤٢٩.

القرآن ما يقيم به صلاته فليشتغل، بالعلم فإن به تعرف معاني القرآن، وكان عليه السلام يقول: ما بقي في زماننا أحد أعرف أنه يأخذ النصيحة بانسراح قلب، وكان يقول: من شرط العالم أن لا تخطر محبة الدنيا على باله، وقيل له: من سفلة الناس؟ قال: الذين يتعيشون بدينهم، وكان يقول: كيف يدعي رجل أنه أكثر علماً وهو أقل خوفاً وزهداً، وكان عليه السلام يقول: من علامة من عرف نفسه أن يكون أذل من الكلب^(١)، وكان يقول: من ختم نهاره بذكر، كتب نهاره ذاكراً، وكان يتحرى هذا العمل، وكان يقول: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية، وكان عليه السلام يتمثل بهذين البيتين من كلامه:

وهل بدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة يبين لذي العلم إنتانها

وكان عليه السلام يقول: مسكين ابن آدم، قد وكل به خمسة أملاك ملكان بالليل وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، وكان إذا اشتهى شيئاً لا يأكله إلا مع ضيف ويقول: بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه، قالوا: وكانت سفرة المبارك تحمل على عجلة أو عجلتين وقال أبو إسحاق الطالقاني: رأيت بعيرين مملوءين دجاجاً مشوياً لسفرة ابن المبارك وكان عليه السلام يطعم أصحابه الفالوج والخبيص ويظل هو نهاره صائماً، وما دخل عليه السلام الحمام قط، وقيل له مرة: قد قل المال فقلل من صلة الناس. فقال: إن كان المال قد قل فإن العمر قد نفذ، وكان عليه السلام يقول: أربع كلمات انتخب من أربعة آلاف حديث: لا تثقن بامرأة ولا تغترن بمال ولا تحمل معدتك ما لا تطيق وتعلم من العلم ما ينفعك فقط، وكان إذا بلغه عن أصحابه أنهم أضافوا إليه مسألة يرسل إليهم بكشطها بالسكين، ويقول: من أنا حتى يكتب قولتي، وكان يقول: كن محباً للخمول

(١) لأنه يتحقق أنه ابن الفناء.

كارها للشهرة، ولا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فتترفع نفسك، وكان يقول: دعواك الزهد من نفسك يخرجك عن الزهد، وكان يقول: سلطان 'لزهد أعظم من سلطان الرعية لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا، والزاهد ينفر من الناس فيتبعوه، ولما قدم هارون الرشيد الرقة ورد عبد الله بن المبارك فأنجفل الناس إليه وتقطعت النعال وارتفعت الغبيرة فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج قصر الخشب، فلما رأت الناس وكثرتهم قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم خراسان فقالت:

والله هذا هو الملك لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشرط والأعوان^(١)، وكان إذا قرأ شيئاً من كتب الوعظ كأنه بقرة منحورة من البكاء لا يجترئ أحد يدنو منه ولا يسأله عن شيء، وقيل له: إن جماعة من أهل العلم يأخذون من الناس الزكوات فقال: فما نصنع؟ إن منعناهم وقفوا عن طلب العلم وإن رخصنا لهم حصلوا العلم وتحصيل العلم أفضل^(٢)، وكان يقول: لأن أرد درهماً من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بستمائة ألف الف، وقيل له: ما التواضع؟ قال: التكبر على الأغنياء، وبلغ ابن المبارك عن إسماعيل بن علية أنه قد ولي الصدقات فكتب إليه ابن المبارك:

(١) ولذلك كان من سنة الله في الأرض أن الحكام الظلمة يخافون من العلماء الريانيين الذين تجتمع حولهم قلوب الخلق حباً فيهم، فيخافون من حب الناس لأولئك العلماء ومن بفضهم لهم، وعن القوم قال سيدي مصطفى البكري:

ملوك ولكن الملوك عبيدهم

وعبيدهم أضحى له الكون خادماً

(٢) قلت: وفي ظاهر كلامه رخصة للعالم الفقير أن يقبل الزكاة من الناس لكي يستعين بها على طلب العلم، وحتى لا يشغل نفسه بالاستجداء من الخلق ويمد يده للناس، ف رأى أن في منع العالم من ذلك تعطيل لطلب العلم، وطلب العلم أهم، ولذلك كانت الملوك والسلطين تقرر الرواتب من بيت المال للعلماء والفقهاء حتى لا ينشغلوا بهم المال وإعالة أنفسهم وأولادهم.

قلت: وهذا لا يسرى إلا في حق فقهاء الظاهر الذين لم يسلكوا طريق القوم من الباطنيين، وإلا فإن الولي لا يأكل من صدقات الناس ولو مات من الجوع، لكون صدقات الناس هي أوساخهم.

يا جاعل العلم له بازياً يصطاد أموال السلاطين
احتلت للدنيا ولذاتها بحيلة تنهب بالبين
فصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواء للمجانين
أين رواياتك والقول في لزوم أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فما هكذا ذل حمار الشيخ في الطين

وذكر لعبد الله ما كان عليه يوسف بن أسباط من العبادة فقال: لقد ذكرتكم قوماً يستشفون بذكرهم ولكن إن فعل الناس جميعهم ذلك فمن لسنن رسول الله (ﷺ) ومن لعيادة المرضى وشهود الجنائز؟ وعد أنواعاً من القرب، وقيل له: كيف تعلم الملائكة أن الإنسان قد هم بحسنة؟ فقال (ﷺ): يجدون ريحها، وكان يقول: عجبت طالب العلم كيف تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه بما حمل من العلم، وكان يقول: إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين.

ورجع (ﷺ) من مرو إلى الشام في رد قلم كان استعاره ونسيه في رحله (١)، وكان يقول: كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين وكان قليل الخلاف على أصحابه وينشد:

وإذا تصحب فاصحب ماجداً ذا عفاف وحياء وكرم
قوله للشبه لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وكان يقول: على العاقل أن لا يستخف بثلاثة: العلماء والسلطان والإخوان فإن من استخف بالعلماء ذهب آخرته ومن استخف بالسلطان ذهب دنياه ومن استخف بالإخوان ذهب مروءته، وكان يقول: لا يقول أحدكم ما أجراً فلاناً على الله تعالى فإن الله تعالى أكرم من أن يجترأ عليه، ولكن ليقبل ما أغر فلاناً بالله (٢)، وكان (١) قلت: وهذا هو وفاء العارفين، وقد انتظر رسول الله ﷺ رجلاً بظاهر مكة ثلاثة أيام حتى جاءه. (٢) وهو من مقام احتراز العارفين عن الألفاظ التي لا تليق بحضرة الله عز وجل، إذ هم سادة البيان والخطاب والتقوى والفصاحة، فينتقون من كلامهم ما يليق بحضرة الحق عز وجل وحجتهم في هذا المقام قوله ﷺ: (لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله).

يقول: محارم الرجال في اللحى والأكمام ومحارم النساء تحت التميميص، وكان يقول: ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط، وكان يقول: ما أودعت قلبي شيئاً قط فخانني، وكان ينشد إذا ودع شخصاً:

وهون وجدي أن فرقة بيتنا فراق حياة لا فراق ممات

وكان رضي الله عنه يقول: لا يخرج العبد عن الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس وقيل له: إن شيبان يزعم أنك مرجئ، فقال: كذب شيبان أنا خالفت المرجئة في ثلاثة أشياء فإنهم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل، وأنا أقول هو قول وعمل، ويزعمون أن تارك الصلاة لا يكفر وأنا أقول: إنه يكفر، ويزعمون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأنا أقول إنه يزيد وينقص.

توفي رضي الله عنه سنة إحدى وثمانين ومائة ودفن بهيت مدينة معروفة على الفرات لما رجع من الغزو وكانت إقامته بخراسان رضي الله عنه ومولده سنة ثمان عشرة ومائة رضي الله عنه.

ومنهم عبد العزيز بن أبي رواد رضي الله عنه

ذهب بصره عشرين سنة فلم يعلم به أهله ولا ولده^(١) وقال شعيب بن حرب: جلست إلى عبد العزيز خمسمائة مجلس ما أحسب أن صاحب الشمال كتب عليه شيئاً، وقال: يوسف بن أسباط: مكث عبد العزيز أربعين سنة لم يرفع طرفه إلى السماء، وقيل له: كيف أصبحت؟ فبكى، فقيل له في ذلك فقال: كيف حال من هو في غفلة عظيمة عن الموت مع ذنوب كثيرة قد أحاطت به وأجل يسرع كل ساعة في عمره ولا يدري أيصير إلى جنة أم إلى نار. توفي رضي الله عنه بمكة سنة تسع وخمسين ومائة.

ومنهم أبو العباس بن السماك رضي الله عنه

كان يقول: من شرط الزاهد أن يفرح بتحويل الدنيا عنه وكان يقول: قد صمت الأذان في زماننا هذا عن المواعظ وذهلت القلوب عن المنافع فلا الموعدة تنفع (١) وهي من الأخلاق التي انقرضت من زمن بعيد، والتي لا يرجى لها اليوم فاعلاً.

ولا الواعظ ينتفع، وكان يقول: يا أخي هب أن الدنيا كلها في يدك فانظر ما في يدك منها عند الموت، وكان يقول: كم من منكر لله تعالى وهو له ناس وكم من داع إلى الله تعالى وهو فار من الله تعالى وكم من تال لكتاب الله تعالى وهو منسلخ من آيات الله تعالى:

وتوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة.

ومنهم أبو عبد الرحمن

محمد بن النضر الحارثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان كثير العبادة راقبه شخص أربعين يوماً وليلة فما رآه نائماً لا ليلاً ولا نهاراً، وقال يوسف بن أسباط: شهدت غسل أبي عبد الرحمن حين مات فلو أخرج كل لحم عليه ما بلغ رطلا، وشغلته العبادة عن الرواية فكان إذا ذكر الآخرة اضطربت مفاصله ويقول: يا سلام^(١) سلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم محمد بن يوسف الأصفهاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان ابن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسميه عروس العباد والزهاد، وكان يقول: لنفسه هب أنك قاض فكان يكون ماذا؟ هب أنك عالم فكان يكون ماذا؟ هب أنك محدث فكان يكون ماذا؟ الأمر من وراء ذلك، وكان إذا رأى نصرانياً كرمه وأضافه وأتحفه يبتغي بذلك ميلاً إلى الإسلام^(٢)، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ذهب أصحابنا إلى رحمة الله تعالى ودفنا نحن إلى حشوش هذه الدنيا، وبعثوا إليه بمال ليفرقه فأبى وقال: السلامة مقدمة وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا ينام الليل لا شتاء ولا صيفاً لكن يتمدد بعد طلوع الفجر ساعة ثم يقوم ويتوضأ وكان إذا أصبح كأن وجهه وجه عروس^(٣).

(١) إذن هو تعبير قديم لا يزال يستعمل بين الناس إلى اليوم.

(٢) قلت: الصوفي بفطرته وبطبعه لا يكره أحداً قط لمساكنته للأكوان عموماً وانظر إلى حاله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كيف أكل طعام اليهودية التي سمته وآمن لها وقبل منها الهدية، فقد يبش الولي لغير المسلم لا لغرض أن يدخل في دين الإسلام بل للاعتبارات التي ذكرناها.

(٣) وهي أنوار التجليات التي تبدو على أسارير وجه العارف فيعرف بها.

توفي رضي الله عنه وهو ابن نيف وثلاثين سنة في سنة أربع وثمانين ومائة رضي الله عنه.

ومنهم يوسف بن أسباط رضي الله عنه

كان يقول: غاية التواضع أن تخرج من بيتك فلا ترى أحداً إلا رأيت أنه خير منك، وكان رضي الله عنه يقول: لو أن شخصاً ترك الدنيا كما تركها أبو ذر وأبو الدرداء ما قلت له زاهداً، وذلك أن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض والحلال المحض لا يعرف اليوم^(١)، وأقام أربعين سنة ليس له إلا قميصان إذا غسل أحدهما لبس الآخر، وكان يعمل الخوص بيده ويتقوت حتى مات رضي الله عنه. ومرض مرة فأتوه بطبيب من أطباء الخليفة وهو لا يعلم فلما أراد الانصراف أعلموه فقال لهم: ما عادته فقالوا: دينار فقال: أعطوه هذه الصرة ففتحوها فإذا فيها خمسة عشر ديناراً، فقال: أعطوها له، وقال: إنما فعلت ذلك لئلا يعتقد أن الخليفة أكبر مروءة من الفقراء^(٢)، وكان يقول: ما أحسب أن أحداً يفر من الشر إلا وقع في أشر منه فاصبروا حتى يحوله الله تعالى عنكم بفضله^(٣)، وكان يقول: من قرأ القرآن ثم مال إلى محبة الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزواً، وكان يقول: العالم يخشى أن يكون خير أعماله أضر عليه من ذنوبه، وكان رضي الله عنه يقول: دخلت المصيصة فأقبل أهلها عليّ فما وجدت قلبي إلا بعد سنتين. توفي سنة نيف وتسعين ومائة وليس على جسمه أوقية لحم رضي الله عنه.

ومنهم حذيفة المرعشي رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: والله لو قال لي إنسان والله ما عملك عمل من يؤمن بيوم الحساب، لقلت له صدقت فلا تكفر عن يمينك، وكان يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله على خير أعمالك فأنت هالك، وكان يقول: لولا أخشى أن أتصنع

(١) ومقصوده أن أبا ذر وأبا الدرداء تحريماً الزهد في الحلال المحض أكثر من غيرهم.

(٢) ذكرت هذه الحكاية في كتابي «طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصوفوا» في ترجمة يوسف بن أسباط.

(٣) وهو خطاب لأهل التفويض الذي أكلوا شؤونهم إلى الله لكي يتصرف فيها كيف يشاء.

لأخي فلان لاجتمعت به ولكن بلغوه عني السلام وكان يقول: لا أعلم شيئاً من أعمال البر أفضل من لزوم المرء بيته ولو كانت لي حيلة في عدم الخروج إلى هذه الفرائض تخلصني لفعلت^(١)، توفي رضي الله عنه سبع ومائتين.

ومنهم اليمان بن معاوية الأسود رضي الله عنه

كان يقول: كل إخواني خير مني لأنهم كلهم يرون لي الفضل عليهم، وكان يقول: يقبح على حامل القرآن أن يسعى في تحصيل أقل من جناح بعوضة أو يزاحم عليها، وكان قد ذهب بصره فكان إذا أراد أن يقرأ في المصحف رد الله عليه بصره فإذا رد المصحف ذهب بصره واستطال شخص في عرضه فمنعه الناس، فقال: دعوه يشتفي ثم قال: اللهم اغفر لي الذنب الذي سلطت به عليّ هذا، وكان يلتقط الخرق من المزابل ويفسرها ثم يطبقها على بعضها ويستر بها عورته، ويقول: أماننا اللبس^(٢) إن شاء الله في دار البقاء، رضي الله عنه.

ومنهم مسلم بن ميمون الخواص رضي الله عنه

مات بطبرية رضي الله عنه وكان رضي الله عنه يقول: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة فقلت لنفسي: أقرئيه كأنك تسمعيه من رسول الله رضي الله عنه فجاءت حلوته، ثم أردت زيادة فقلت أقرئيه كأنك تسمعيه من جبريل رضي الله عنه ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم فزادت حلوته، ثم قلت أقرئيه كأنك تسمعيه من رب العالمين فجاءت الحلوة كلها، وكان يقول: من طلب الحلال لم يجد رغيماً كاملاً يخرجه لضييف رضي الله عنه.

ومنهم أبو عبيدة الخواص رضي الله عنه

كتب مرة إلى إخوانه إنكم في زمان قل فيه الورع وحمل العلم فيه مفسدة، وأحبوا أن يعرفوا بحمله وكرهوا أن يعرفوا بإضاعة العمل به فتطرقوا فيه بالرأي

(١) قلت: قد اعتزل بعض الأئمة الكبار كمالك وأحمد بن حنبل الناس واعتزلوا أداء الفرائض في المساجد وذلك لعل علموها في أنفسهم.

(٢) وقال لي شيخنا عبد المجيد الشريف تقدست أسرارها لما تزوجت وشكوت له خلق زوجتي: لا تبحث عن الكمال في خلق المرأة ولا تعبت فإن ذلك لن يكون إلا في الجنة.

ليزينوا ما دخلوا فيه من الخطايا فذنوبهم ذنوب لا يستغفر منها، ومكث عليه السلام سبعين سنة لم يرفع بصره إلى السماء حياءً من الله عز وجل، وكان لا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ولا أن يقرأ عليه عليه السلام.

ومنهم أبو بكر بن عياش عليه السلام

كان عليه السلام يقول: مسكين محب الدنيا يسقط منه درهم فيظل نهاره يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون وينقص عمره ودينه ولا يحزن عليه، وكان يقول: أدنى ضرر المنطق الشهرة وكفى بها بلية، وكان زاهداً ورعاً وكان عليه السلام يقول: رأيت عجوزاً مشوهة حذاء تصفق بيديها وحواليها خلق يتبعونها ويصفقون فلما جاوزتني أقبلت عليّ وقالت: آه لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء ثم بكى (١). وكان يقول ختمت ثمانية وعشرين ألف ختمة وأود لو كانت سبباً للصفح عن زلة واحدة وقعت فيها.

توفي عليه السلام سنة ثلاث وتسعين ومائة وله ثلاث وتسعون سنة عليه السلام.

ومنهم أبو علي الحسين

بن يحيى النخشي عليه السلام

كان عليه السلام يقول: ما في جهنم من دار ولا مغار ولا قيد ولا غل ولا سلسلة إلا واسم صاحبها مكتوب عليها فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان عليه السلام يقول: من حكمة لقمان: لا يطاء بساطك إلا راغب أو راهب فأما الراهب منك فأدن مجلسه وتهلل في وجهه وإياك والغمز من ورائه وأما الراغب فيك فأظهر له البشاشة مع صفاء الباطن وأبذل له النواقل قبل السؤال فإنك متى أوجاهته إلى السؤال أخذت من حر وجهه ضعفي ما أعطيته عليه السلام.

(١) وهو مثال تشبيهي للدنيا رآه في عالم الكشف (فإن هذه العجوز هي الدنيا).

ومنهم وكيع بن الجراح رضي الله عنه

وكان رضي الله عنه يقول: الزهد لا يكون إلا في الحلال والحلال قد فقد فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة وخذ منها ما يقيمك فإن كانت حلالاً كنت قد زهدت فيها وإن كانت حراماً كنت أخذت منها ما يقيمك لأنه هو الذي يحل لك منها وإن كانت شبهات كان عتابها يسيراً. قلت: وقوله فقد أي بالنظر لحاله ومقامه فإنهم كانوا يعدون التفتيش لعاشر يد قبله واجباً ومن لم يفتش لعاشر يد لا يأكلون له طعاماً والله تعالى أعلم، وكان رضي الله عنه يقول: طريق الله بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق وكان يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليلة، وكان إذا آذاه شخص يرفع التراب علي رأس نفسه، ويقول: لولا ذنبي ما سلطت هذا عليّ ثم يكثر من الاستغفار حتى يسكن ذلك المؤذي عنه.

ولد رضي الله عنه سنة تسع وعشرين ومائة وتوفي سنة سبع وتسعين ومائة ودفن بطريق العراق حين رجع من الحج وله ست وستون سنة رضي الله عنه.

ومنهم عبد الرحمن بن مهدي رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يختم القرآن كل ليلة ويتعهد بنصف القرآن، وكان إخوانه إذا جلسوا عنده كأنما على رؤوسهم الطير، وضحك واحد منهم في حلقة يوماً فقال: يطلب أحدكم العلم وهو يضحك، لا يجلس هذا معي شهرين، فمنعه حضور شهرين^(١)، ثم استغفر فقال له: إنما ينبغي طلب العلم والعبد يبكي لأنه يريد به إقامة الحجة على نفسه وقل أن يريد به العمل، وقام ليلة إلى الصباح ثم رمى بنفسه على الفراش فنام من لينه عن صلاة الصبح فمنع الفراش شهرين، وكان يقول: لا أغبط اليوم إلا مؤمناً في قبره.

ولد سنة خمس وثلاثين ومائة وتوفي سنة ثمان وتسعين ومائة رضي الله عنه.

(١) ويسميه الصوفية المتأخرون في عرفهم بالحكم فيقولون: فلان عليه حكم.

ومنهم محمد بن أسلم الطوسي رحمته الله

كان يقول: عليكم باتباع السواد الأعظم قالوا له: من السواد الأعظم؟ قال: هو الرجل العالم أو الرجلان المتمسكان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقته، وليس المراد به مطلق المسلمين، فمن كان مع هذين الرجلين أو الرجل وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فقد خالف أهل الجماعة، وكان يخفي عمله التطوع ويقول: لو أمكنني أن أخفيه عن الملكين لفعلت^(١)، وكان إذا دخل داره يبكي حتى يرحمه جيرانه فإذا خرج غسل وجهه واكتحل، وكان يخرج بصدقته بالليل وهو متلثم لا يعرفه أحد، وكان يأكل الشعير الأسود ويقول: إنه يصير إلى الكنيف يعني البطن، وكان يقول: لو أن أحدكم اشترى طعاماً وبالغ في طيب طعمه ورائحته، ثم ألقاه في الحش^(٢) لقلتم هذا مجنون وأحدكم ليلاً ونهاراً يطرح ذلك في الحش يعني بطنه فلا يضحك على نفسه.

توفي رحمته الله سنة ست وعشرين ومائتين رحمته الله.

ومنهم محمد بن إسماعيل البخاري رحمته الله

كان رحمته الله من العلماء العاملين تستنزل الرحمة عند ذكره، كان صائم الدهر وجاع حتى انتهى أكله كل يوم إلى ثمرة أو لوزة ورعاً وحياء من الله تعالى في تردده إلى الخلاء^(٣)، ولد رحمته الله ببخاري سنة أربع وتسعين ومائة. وتوفي رحمته الله ليلة الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ودفن بخرتتك قرية على فرسخين من سمرقند، وكان رحمته الله يقول: المادح والذام من الناس عندي سواء، وكان يقول:

(١) انظر رحمك الله إلى حب التستر عند أولياء هذه الأمة ومدى مبالغتهم فيه.

(٢) الحش هو المراض.

(٣) لكونه أي الخلاء موضع الكشافات الطينية وتفريغ الظلمات الجسدية، والعارف يرى أن في بدمه عن هذا الموضع ترقياً لروحه فيقلل من أكله ما استطاع. ومنهم من يستحي من كثرة كشف عورته في الخلاء، وذلك لاستيلاء مقام المراقبة عليه، فيستحي المراقب من كشف عورته بكثرة تردده إلى الخلاء، ولذلك كانوا لا يفتسلون إلا في ثوب حياء من كشف عورتهم بحيث يراهم الحق سبحانه في هذا المنظر، وهو مقام للفانين أكثر.

أرجو أن ألقى الله تعالى ولا يطالبني أنني اغتبت أحداً وما اشتري شيئاً ولا باعه قط، وكان ورعاً زاهداً كان ينام في الظلام وربما قام في الليل نحو العشرين مرة يقدح الزناد ويسرج ويكتب أحاديث، ثم يضع رأسه، وكان يصلي كل ليلة آخر الليل ثلاث عشرة ركعة يوتر بواحدة منها، وكان يصلي بأصحابه في ليالي رمضان كل ليلة بثلاث القرآن ويختم كل ثلاث، ويقول: عند كل ختم دعوة مجابة وما وضع حديثاً في الصحيح إلا وصلى عقبه ركعتين شكراً لله عز وجل، وكان رضي الله عنه يأكل من مال أبيه لكونه حلالاً، وكان أبوه يقول: ما أعلم من مالي درهماً حراماً ولا شبهة ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله عنه.

ومنهم يزيد بن هارون الواسطي رضي الله عنه

قال أحمد بن سنان: ما رأيت عالماً قط أحسن صلاة منه كان يقوم كأنه أسطوانة، وكان رضي الله عنه يقول: من طلب الرياسة في غير أوانها حرمها وقت أوانها، وكان إذا صلى العشاء لا يزال قائماً يصلي حتى الغداة نيفاً وأربعين سنة، وكانت عيناه جميلتين، فلم يزل يبكي حتى ذهبت إحداهما وعمشت الأخرى، وقال له مرة إنسان: أين تلك العينان الجميلتان؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأحزان في الأسحار.

توفي رضي الله عنه سنة ست وثمانين ومائتين رضي الله عنه.

ومنهم يونس بن عبيد رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: يعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم، وكان رضي الله عنه يقول: البر كله قد يشوبه شيء إلا ما كان من حفظ اللسان، فإنه من البر ولا يشوبه شيء، وذلك لأن الرجل قد يكثر الصلاة والصيام ويفطر على الحرام ويقوم الليل ويرائي بذلك ويقع في اللغو وشهادة الزور، وإذا حفظ لسانه أرجو أن يبر عمله كله، وكان يقول: لو أنني وجدت درهماً من حلال لا اشتريت به براً ثم جعلته سويقاً ثم سقيته للمرضى، فكل مريض شرب شيئاً شفاه الله عز وجل، وكان رضي الله عنه يقول: خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما أمر صلواته ولسانه، وكان

يقول: ما صلح لسان أحد إلا وصلح سائر عمله، وكان يقول: إنني لأعرف مائة خصلة من البر ما فيّ واحدة منها. توفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة تسع وثلاثين ومائة.

ومنهم عبد الله بن عون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

: قال بكار رحمه الله تعالى: كان ابن عون يقول: لا ينبغي للعاقل أن يعاتب أحداً في زماننا هذا فإنه إن عاتبه أعقبه بأشد مما عاتبه عليه. وكان ابن بكار يقول: ما رأيت ابن عون يمازح أحداً قط لشغله بنفسه وبما هو صائر إليه، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا صلى الغداة جلس في مجلسه مستقبلاً القبلة يذكر الله عز وجل إلى طلوع الشمس، ثم يقبل على أصحابه، وكان مالكا للسانه يصوم يوماً ويقطر يوماً، وكان طيب الريح حسن الملبس، وكان يخلو في بيته صامتاً متفكراً وما دخل حماماً قط وكان يكره أن يطلع أحد على شيء من أعماله وأخلاقه الحسنة، وكان ابن مهدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: صحبت عبد الله بن عون أربعاً وعشرين سنة فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة واحدة^(١)، وكان باراً بوالديه لم يأكل معهما قط في وعاء فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن يسبق بصرهما إلى لقمة فأخذها^(٢)، ودعته أمه يوماً في حاجة فأجابها برفع الصوت، فأعتق ذلك اليوم رقبتين كفارة لرفع صوته على صوتها^(٣)، وكان له دور كثيرة يبيحها للسكان ولا يكرها لأحد من المسلمين خشية أن يروعهم عند طلب الأجرة^(٤). رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة إحدى وخمسين ومائة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) مثله في ذلك مثل أبي يزيد البسطامي فإن ملك السيئات لم يكتب عليه سيئة واحدة طوال حياته.

(٢) ويحكى مثل ذلك عن سيدي علي زين العابدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ويحكى عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه نام عن بعض صلواته فاعتق رقبة.

قلت: وحقيقة العتق عندهم تسوية الأيام كلها ببعضها في الدرجات، فإن أحدهم اعتاد كمال يومه فإذا حدث له تقصير في يوم سواء بعتق رقبة أو رقبتين حتى تستوى أيامه كلها في الدرجات.

(٤) قلت: هذه الأخلاق زالت تماماً اليوم بين المسلمين وانقضت منذ مئات السنين، ولا يقدر عليها سوى الصديقين.

ومنهم عبد الله الصوري رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: أعمال الصادقين بانقلاب وأعمال المرأين بالجوارح، وكان رضي الله عنه يقول: في القلب وجع لا يبرئه إلا حب الله تعالى وكان رضي الله عنه يقول: من أزم نفسه شيئاً لا يحتاج إليه ضيع من أحواله ما يحتاج إليه، وكان يقول: إذا لم تنتفع بكلامك كيف ينتفع به غيرك، وكان يقول: من تهاون بالسنن ابتلى بالبدع، وكان يقول: من ادعى أنه من أهل الطريق ضعف عن فعل آدابها ولم يمت حتى يفتضح، ومن محي اسمه من أهلها لم يمت حتى تشد إليه الرجال، وكان يقول: كم من يضمر دعوى العبودية ولا تظهر عليه إلا أوصاف الربوبية، وكان يقول: من أعظم أخلاق الرجال أن يسلم الناس من سوء ظنك رضي الله عنه.

ومنهم عبد الله بن عبد العزيز العمري رضي الله عنه

كان رضي الله عنه متعبداً يسكن المقابر، وكان تاركاً لمجالسة الناس ويقول: ما رأيت أوعظ من قبر ولا أسلم للدين من الوحدة، وكان يقول: من غفلت عن الله تعالى أن تمر على ما يسخط الله عز وجل فلا تنهى عنه خوفاً من الناس، ومن ترك الأمر بالمعروف خوفاً من المخلوقين نزعته منه هيبة الله عز وجل، وكان رضي الله عنه يقول: إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين. توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة أربع وثمانين ومائة وهو ابن ست وستين سنة رضي الله عنه.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم الهروي رضي الله عنه

صحب إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، وكان من أهل التوكل والتجريد، توفي رضي الله عنه بقزوين، وكان أهل هراة يعظمونه فحج متجرداً فكان من دعائه في تلك الحجة: اللهم اقطع رزقي في أموال أهل هراة وزهدهم في، وكان بعد رجوعه من الحج يأتي عليه الأيام الكثيرة لا يطعم فيها شيئاً فإذا مر بسوق هراة سبوه وقالوا: إن هذا ينفق في كل يوم ليلة كذا وكذا درهماً، وكان يقول: أقمت في البادية لا أكل

ولا أشرب ولا أشتهي شيئاً فعارضتني نفسي أن لي مع الله عز وجل حالا فلم أشعر أن كلمني رجل عن يميني فقال: يا إبراهيم ترائي الله عز وجل في شرك، ثم قال أتدري كم لي هاهنا لم أكل ولم أشرب ولم أشته شيئاً وأنا زمن مطروح؟ قلت: الله أعلم قال: ثمانين يوماً وأنا أستحي من الله عز وجل أن يقع لي خاطر ولو أقسمت على الله تعالى أن يجعل لي هذا الشجر ذهباً لفعل فكان ذلك تبيها لي ﷺ.

(١) ومنهم أبو نعيم الأصفهاني رحمته الله

صاحب الحلية والطبقات وغيرهما، ولد رحمته الله سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وتوفي بأصفهان سنة ثلاثين وأربعمائة عن أربع وتسعين سنة، أخرجته أهل أصفهان ومنعوه من الجلوس في الجامع فتولى على أصفهان السلطان محمود بن سبكتكين وولى عليهم والياً من قبله ورحل عنها فوثب أهل أصفهان وقتلوه فرجع محمود إليها وأمنهم حتى اطمأنوا ثم قتلهم حتى أتى على أكثر من نصفهم وكانوا يعدون ذلك من كرامات أبي نعيم رحمته الله، وأملى كتابه الحلية ^(٢) من صدره بعد أن نيف على الثمانين سنة.



(١) كان رحمته الله من الأبدال وقد ذكرته في كتابي طبقات الأبدال.

(٢) وذلك لأنه دعا على أهل بلده لما أخرجوه فأصابهم القتل، وقد ذكر له هذه الكرامة النبها في «جامع كرامات الأولياء».

(٣) وهو أكبر كتاب لحد الآن صنف في طبقات الصوفية وقد قرأته كاملاً وعمري عشرون عاماً ولنا عليه تعليقات.

فصل في ذكر جماعة من عباد النساء رضي الله عنهن

منهن معاذة العدوية رضي الله عنها

كانت إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه فما تمام حتى تمسي وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها فلا تمام حتى تصبح وكانت إذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول: يا نفس النوم أمامك ثم لا تزال تدور في الدار إلى الصباح تخاف الموت على غفلة ونوم، وكانت تصلي في اليوم واللييلة ستمائة ركعة، ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين عاماً، ولما مات زوجها لم تتوسد فراشاً حتى ماتت، أدركت معاذة رضي الله عنها عائشة رضي الله عنها روت عنها.

ومنهن رابعة العدوية رضي الله عنها

كانت رضي الله عنها كثيرة البكاء والحزن وكانت إذا سمعت ذكر النار غشي عليها زماناً، وكانت تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار، وكانت ترد ما أعطاه الناس لها وتقول: مالي حاجة بالدنيا، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها شن بال تكاد تسقط إذا مشت، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها، وكان بموضع سجودها وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها.

وسمعت رضي الله عنها سفيان يقول: واحزنناه فقالت له: واقلة حزنناه ولو كنت حزيناً ما هناك العيش، ومناقبها كثيرة رضي الله عنها ومشهورة.

ومنهن ماجدة القرشية رضي الله عنها

كانت رضي الله عنها تقول: ما حركة تسمع ولا قدم يوضع إلا ظننت أني أموت في أثرها، وكانت رضي الله عنها تقول: يا لها من عقول ما أنقصها سكان دار أودنوا بانقطة وهم حيارى يركضون في المهلة كأن المراد غيرهم والتأذين ليس لهم ولا عني بالأمر سواهم، وكانت رضي الله عنها تقول: لم ينل المطيعون ما نالوا من حلول الجنان ورضا الرحمن إلا بتعب الأبدان.

ومنهن السيدة عائشة (١) بنت جعفر الصادق رحمها الله

المدفونة بباب قرافة مصر رضي الله عنها: كانت رضي الله عنها تقول: وعزتك وجلالك لئن أدخلتني النار لأخذن توحيد بيدي وأدور به على أهل النار وأقول لهم: وحدته فغذبنني (٢).

توفيت سنة خمس وأربعين ومائة رضي الله عنها.

ومنهن امرأة رباح القيسي رضي الله عنها

كانت رضي الله عنها تقوم الليل كله وكانت إذا مضى الربع الأول تقول له: قم يا رباح للصلاة فلا يقوم فتقوم، ثم تأتية وتقول له: قم يا رباح فلم يقم فتقوم الربع الآخر، ثم تأتية وتقول: قم يا رباح فلا يقوم فتقوم الربع الآخر إلى تمام الليل ثم تأتية وتقول: قم يا رباح قد مضى عسكر الليل وأنت نائم، فليت شعري من غرني بك يا رباح ما أنت إلا جبار عنيد.

وكانت رضي الله عنها تأخذ تبنه من الأرض وتقول: والله للنديا أهون عليّ من هذه، وكانت إذا صلت العشاء تطيبت ولبست ثيابها ثم تقول لزوجها: ألك حاجة (٣) فإن قال لا نزعمت ثياب زينتها وصلت إلى الفجر رضي الله عنها.

ومنهن فاطمة النيسابورية رضي الله عنها

كان ذو النون المصري رضي الله عنه يقول: فاطمة أستاذتي وكانت رضي الله عنها تقول: من لم يراقب الله تعالى في كل حال فإنه ينحدر في كل ميدان ويتكلم بكل لسان، ومن راقب الله تعالى في كل حال أحرصه إلا عن الصدق والزمه الحياء منه، والإخلاص له، وكانت تقول: من عمل لله على مشاهدة الله إياه فهو مخلص،

(١) هي صاحبة المنطقة الشهيرة بمنطقة السيدة عائشة التي بجوار القلعة بمصر، وبها مسجدها وضريحها بالميدان.

(٢) هو قول من باب الفتوة.

(٣) تأديباً مع السنة وسداً لباب الذرائع وقولها هذا يدل على كمالها.

وكان أبو يزيد يقول عنها: ما رأيت امرأة مثل فاطمة ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا الخبر كان لها عياناً^(١). ماتت في طريق العمرة بمكة سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

ومنهن رابعة بنت إسماعيل رضي الله عنها

كانت تقوم من أول الليل إلى آخره وكانت رضي الله عنها تقول: إذا عمل العبد بطاعة الله تعالى أطلعه الجبار على مساوئ عمله فتشاغل بها دون خلقه وكانت تصوم الدهر وتقول: ما مثلي يفطر في الدنيا، وكانت تقول لزوجها: لست أحبك حب الأزواج وإنما أحبك حب الإخوان، وكانت تقول: ما سمعت الأذان قط إلا ذكرت منادي يوم القيامة ولا رأيت الثلج قط إلا ذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت حراً إلا ذكرت الحشر، وكانت رضي الله عنها تقول: ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون وربما رأيت الحور العين يستترن مني بأكامهن. ومناقبها كثيرة رضي الله عنها.

ومنهن أم هارون رضي الله عنها

كانت من الخائفين العابدين وكانت تأكل الخبز وحده وكانت تقول: ما أنشرح إلا بدخول الليل فإذا طلع النهار اغتممت، وكانت تقوم الليل كله وتقول إذا جاء السحر: دخل قلبي الروح، وخرجت مرة فسمعت قائلاً يقول: خذوها فوقعت مغشياً عليها وما دهنت رأسها بدهن منذ عشرين سنة، وكانت إذا كشفت رأسها وجد شعرها أحسن من شعور النساء^(٢)، وكانت إذا عرض لها الأسد في البرية قالت له: إن كان لك في رزق فكل فيولي راجعاً^(٣) عنها رضي الله عنها.

(١) قلت: قليل من العارفات من تصل إلى هذه الدرجة، وقد كان للشيخ الأكبر ابن عربي أستاذة مثل هذه من العارفات تسمى فاطمة الإشبيلية.

(٢) وذلك لكونها من أهل الحضرة، وأهل الحضرة محفوظة أجسامهم من أي تلف أو خلل، وهو حفظ إلهي محض، ألا ترى إلى أحدهم يظل سائحاً في البرية عشرين سنة ولا يصيبه أي مرض ولا يؤثر فيه برد ولا حر ولا تراب، ولا يؤثر فيه تلوث البيئة المحيطة، بل يبقى جسده أشد قوة من الأصحاء، فإن الذي أقامه فيما هو فيه حفظ عليه جسده.

(٣) ربما قال الوالي ذلك وهو فان في الفعل الإلهي.

ومنهن عمرة امرأة حبيب ﷺ

كانت تقوم الليل كله فإذا جاء السحر قالت لزوجها: قم يا رجل قد ذهب الليل وجاء النهار وانقض كوكب الملاء الأعلى وسارت قوافل الصالحين وأنت متأخر لا تدركهم. واشتكت من عينيها مرة فقبل لها ما حال وجع عينيك؟ قالت: وجع قلبي أشد^(١) ﷺ.

ومنهن أمة الجليل ﷺ

كانت من العابدات الزاهدات، واختلف مرة العابدون في تعريف الولاية على أقوال فقالوا: امضوا بنا إلى أمة الجليل فقالوا لها: ما الذي عندك من تعريف الولاية؟ فقالت: ساعات الولي ساعات شغل عن الدنيا، ليس لولى في الدنيا ساعة لا يتفرغ منها لشيء دون الله عز وجل ثم قالت لواحد منهم: من حدثكم أن ولياً لله تعالى له شغل بغير الله تعالى فكذبوه ﷺ.

ومنهن عبيدة بنت أبي كلاب ﷺ

كانت تتردد إلى مالك بن دينار. وسمعت شخصاً يقول: لا يبلغ المتقي حقيقة التقوى حتى لا يكون شيء أحب إليه من القدوم على الله عز وجل فخرت مغشياً عليها، وكانت تقول: لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت وكان الناس يقدمونها على رابعة^(٢) ﷺ.

ومنهن عذيرة العابدة ﷺ

دخل عليها العابدون ﷺ يوماً يزورونها فقالت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: نسألك الدعاء قالت: لو أن الخاطئين خرسوا ما تكلمت عجوزكم من اليكم ولكن الدعاء سنة، ثم قالت: جعل الله قراكم من نبق الجنة، وجعل ذكر الموت مني ومنكم على بال، وحفظ علينا الإيمان إلى الممات وهو أرحم الراحمين.

(١) أي لا تهمني علة الجسد بقدر ما تهمني علة الروح.

(٢) قلت: لا يشترط أن تكون رابعة هي أعلى العارفات بالله درجة، وإن كانت هي الأشهر، فربما كان من العارفات من هي أعلى مرتبة منها وأعرف بالله منها.

ومنهن شعوانة رضي الله عنها

كانت رضي الله عنها لا تفتقر عن البكاء فقيل لها في ذلك قالت: والله لوددت أن أبكي حتى تنقطع دموعي ثم أبكي دماً حتى لا يبقى جارحة من جسدي فيها دم، وكانت تقول: من لم يستطع البكاء فليرحم الباكين، فإن الباكي إنما يبكي لمعرفة نفسه وما جنى عليها وما هو سائر إليه، وكانت تبكي وتقول: إلهي إنك لتعلم أن العطشان من حبك لا يروى أبداً، وكانت التي تخدمها تقول: من منذ وقع بصري على شعوانة ما ملت قط إلى الدنيا ببركتها ولا استصغرت في عيني أحداً من المسلمين وكان الفضيل بن عياض رضي الله عنه يأتيها ويتردد إليها ويسألها الدعاء.

ومنهن آمنة الرملية رضي الله عنها

كان بشر بن الحارث رضي الله عنه يزورها، ومرض بشر مرة فعادته آمنة⁽¹⁾ من الرملية فبينما هي عنده إذ دخل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يعوده كذلك فنظر إلى آمنة رضي الله عنها فقال لبشر: من هذه؟ فقال له بشر: هذه آمنة الرملية بلغها مرضي فجاءت من الرملية تعودني، فقال أحمد لبشر رضي الله عنه: فاسألها تدعو لنا فقال لها بشر: ادعي الله لنا فقالت: اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين، قال الإمام أحمد رضي الله عنه فلما كان من الليل طرحت إلي رقعة من الهواء مكتوب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم قد فعلنا ذلك ولدينا مزيد رضي الله عنهم.

ومنهن منقوسة بنت زيد بن أبي الضواري رضي الله عنها

كانت إذا مات ولدها تضع رأسه على حجرها وتقول: والله لتقدمك أمامي خير عندي من تأخرك بعدي ولصبري عليك أولى من جزعي عليك، ولئن كان فراقك حسرة فإن في توقع أجرك لخيرة ثم تتشد قول عمرو بن معد يكرب رضي الله عنه:

وانا لقوم لا تفيض دموعنا على هالك منا وإن قصم الظهر

(1) قلت: إنما كانوا يعرفون بعضهم البعض رجالاً ونساءً لأنهم كانوا من أهل النوبة.

ومنهن السيدة نفيسة ابنة الحسن

بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ولدت رضي الله عنها بمكة، وكان مولدها ستة خمس وأربعين ومائة ونشأت في العبادة وتزوجت بإسحاق المؤتمن ورزقت منه بولدين القاسم وأم كلثوم، وأقامت رضي الله عنها بمصر سبع سنين وتوفيت إلى رحمة الله تعالى سنة ثمان ومائتين، وخرج زوجها من مصر بولديها القاسم وأم كلثوم، ودفنوا بالبقيع على خلاف في ذلك، قاله ابن الملتن: ولما دخل الإمام الشافعي رضي الله عنه مصر كان يتردد إليها، ويصلي بها التراويح في رمضان في مسجدتها رضي الله عنها.

ولنرجع إلى ما كنا فيه أولا من ذكر أولياء الرجال رضي الله عنهم أجمعين :

ومنهم سعدون^(١) المجنون رضي الله عنه

كان يجن ستة أشهر ويفيق ستة أشهر وكان إذا هاج صعد السطح ونادى بالليل بصوت رفيع: يا نيام انتبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة فإن الموت يأتيكم بغتة رضي الله عنه.

ومنهم بهلول^(٢) المجنون رضي الله عنه

اجتمع به هارون الرشيد فقال له الرشيد: كنت أشتهي رؤيتك من زمان فقال: لكني أنا لم أشفق إليك قط، فقال له: عظني فقال: بم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم ثم قال: كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه فسألك عن النكير والفتيل والقطمير وأنت عطشان جيعان عريان، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون! فخنقته العبرة، وكان بهلول مجاب الدعوة

(١) ذكرته في كتابي «طبقات المجاذيب» وهو مطبوع وذكره ابن حبيب في كتابه «عقلاء المجانين» وذكره اليافعي في روض الرياحين، توفي عام ١٩٠.

(٢) قلت: بهلول بضم الباء وسكون الهاء على وزن عصفور، واسمه بهلول بن عمرو أبو وهيب الصيرفي النجداني المجنون المجذوب، وقيل هو كوفي، توفي عام ١٩٠، وانظر كتابنا «طبقات المجاذيب».

وأمرله الرشيد بصلة فردها عليه، وقال: ردها إلى من أخذتها منه قبل أن يطالبك بها أصحابها في الآخرة فلا تجد لهم شيئاً ترضيهم به فبكى الرشيد وكان رضي الله عنه ينشد:

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال فما تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم وسوء الظن لا ينفع
فتقير كل ذي حرص غني كل من يقنع

ومنهم أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه

ابن مسعود بن بشر التميمي ثم اليربوعي خراساني المنشأ من ناحية مرو من قرية تعرف بقندين، مات بالحرم الشريف سنة سبع وثمانين ومائة رضي الله عنه، ومن كلامه رضي الله عنه أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم، وكان يقول: من أحب أن يسمع كلامه إذا تكلم فليس بزاهد، وكان يقول: إذا اغتابك عدو فهو أنفع لك من الصديق فإنه كلما اغتابك كان لك حسنة، وكان رضي الله عنه يقول: سيد القبيلة في آخر الزمان منافقها، وهناك يحذر منهم لأنهم داء لا دواء له، وكان رضي الله عنه يقول: فر من الناس غير تارك للجماعة، وكان رضي الله عنه يقول: ليس هذا زمان فرح إنما هو زمان غموم، وكان يقول: لكل شيء ديباجة وديباجة القراء ترك الغيبة، وكان يكره لقاء الإخوان مخافة التزين منه ومنهم.

وكان يقول: من فهم معنى القرآن استغنى عن كتابة الحديث^(١)، وكان رضي الله عنه يسقي على الدوام وينفق من ذلك على نفسه وعياله، وكان رضي الله عنه يقول: إذا أحب الله عبداً أكثر غمه في الدنيا، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه، وكان يقول: لو (١) هو مشهد خاص به، إذ لا يستغنى المسلمون عن كتابة الحديث، وإلا تعطل العلم، إذ الحديث مفسر للقرآن، ولكنه - أي الفضيل - لما رأى أن طلب الحديث يشغله عن ربه لم يطلبه، وهو شأن طبقة من الزهاد في ذلك الزمان كما هو معروف.

حلفت أني مرء كان أحب إلي من أن أحلف أني لست بمراء، وكان يقول: لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له حاجة عند أحد من الأمراء والأغنياء إنما ينبغي أن يكون حوائج الخلق إليه هو، وكان رضي الله عنه يقول: تباعد من القراء جهدك فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك وإن غضبوا شهدوا عليك زوراً وقبل ذلك منهم.

وجلس إليه سفيان بن عيينة فقال له الفضيل: كنتم معاشر العلماء سرجاً للبلاد يستضاء بكم فصرتم ظلمة، وكنتم نجوماً يهتدي بكم فصرتم حيرة، أما يستحي أحدكم من الله إذا أتى إلى هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم وهو لا يعلم من أين أخذه، ثم يسند بعد ذلك ظهره إلى محرابه ويقول: حدثني فلان عن فلان فطأطأ سفيان رأسه وقال: نستغفر الله ونتوب إليه، وكان يقول: قراء الرحمن أصحاب خشوع وذبول وقراء الدنيا أصحاب عجب وتكبر وازدراء للعامّة، وكان يقول: الغيبة فاكهة القراء، واجتمع رضي الله عنه هو وشعيب بن حرب في الطواف فقال: يا شعيب إن كنت تظن أنه شهد الموقف والموسم من هو شر مني ومنك فبئس ما ظننت، وكان رضي الله عنه يقول: من طلب أخاً بلا عيب صار بلا أخ^(١)، وكان يقول: لا تؤاخ من إذا غضب منك كذب عليك، وكان يقول: قد بطلت الأخوة اليوم كان الرجل يحفظ أولاد أخيه من بعده ويعولهم حتى يبلغوا رشدهم كأنهم أولاده، وكان يقول: ليس بأخيك من إذا منعتك شيئاً طلبه غضب منك، وكان يقول: كان لقمان قاضياً على بني إسرائيل مع كونه عبداً حبشياً لصدقه في الحديث وتركه ما لا يعنيه، وكان يقول: طول الصراط خمسة عشر ألف فرسخ فانظر يا أخي أي رجل تكون.

وسأله إسحاق بن إبراهيم أن يحدثه فقال له الفضيل رضي الله عنه: لو طلبت مني الدنانير لكان أيسر عليّ من الحديث ولو أنك يا مفتون عملت بما علمت لكان لك شغل عن سماع الحديث^(٢)، وكان رضي الله عنه يقول: من قرأ القرآن سئل يوم

(١) وهكذا صحب الصوفية الناس بعيوبهم لأنهم أعقل أهل زمانهم.

(٢) هذه وجهة نظر طائفة من زهاد السلف الأوائل، وكلامهم ليس بحجة على غيرهم ممن نشروا علم الحديث والعلم كمالك وأحمد وغيرهم، وربما من نشر العلم فاقهم في المقال والحل.

القيامة كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تبليغ الرسالة فإنه وارثهم، وكان يقول: عالم الآخرة علمه مستور وعالم الدنيا علمه منشور، فاتبعوا عالم الآخرة واحذروا عالم الدنيا أن تجالسوه فإنه يفتكمم بفروره وزخرفته ودعواه العلم من غير عمل أو العمل من غير صدق، وكان رضي الله عنه يقول: لو أن أهل العلم زهدوا في الدنيا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانتادت الناس لهم ولكن بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما في أيديهم فذلوا وهانوا على الناس، ومن علامة الزهاد أن يفرحوا إذا وصفوا بالجهل عند الأمراء ومن داناهم وكان رضي الله عنه يقول: من عرف ما يدخل جوفه كان عند الله صديقاً، فانظر من أين يكون مطعمك يا مسكين.

ومنتهم أبو إسحاق إبراهيم^(١) بن أدهم بن منصور رضي الله عنه

كان من كورة بلخ من أولاد الملوك ومن كلامه رضي الله عنه: من علامة العارف بالله أن يكون أكبر همه الخير والعبادة وأكثر كلامه الثناء والمدحة وكان رضي الله عنه يتمثل كثيراً بهذا البيت:

لقمة بجريش الملح أكلها ألد من تمره تحشى بزنبور

قلت: ومعنى حشوها بزنبور أن يكون في باطنها علة كأن يعطاها لأجل دينه وصلاحه ولولا ذلك ما أعطاهما له فمن أدب هذه أن ترد على صاحبها ولا يقبل إلا ممن يعلم منه أنه يحبه على أي حال كان فهذه هي التي ليس فيها زنبور والله أعلم.

وكان رضي الله عنه يقول: أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان وفي العمل وفي الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة صفر اليدين.

وصحب رضي الله عنه رجلاً فلما أراد أن يضارقه قال له الرجل: إن كنت رأيت في عيباً فنبهني عليه فقال له إبراهيم: لم أر فيك يا أخي عيباً لأنني لاحظتكم بعين الوداد فاستحسنتم كل ما رأيته منك فاسأل غيري، وكان رضي الله عنه يقول: إنني لأتمنى

(١) ذكرته في كتابي (طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصفوا).

المرض حتى لا تجب عليّ الصلاة في جماعة ولا أرى الناس ولا يروني^(١)، وكان يفلق بابه من خارج فيجيء الناس فيجدونه مغلقاً فيذهبون وكان رضي الله عنه يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: ٨٢) من حب العلو أن تستحسن شسع نعلك على شسع نعل أخيك، وكان يقول ثلاثة لا يلامون على ضجر: المريض والصائم والمسافر، وكان يقول: بلغني أن العبد يحاسب يوم القيامة بحضرة من يعرفه ليكون أبلغ في فضيلته، وكان يقول: ما صدق الله عبداً أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم، وكان رضي الله عنه إذا لم يجد الطعام الحلال يأكل التراب^(٢)، ومكث شهراً يأكل الطين، وقال: لولا أخاف أن أعين على نفسي ما كان لي طعام إلا الطين حتى أجد الحلال إلى أن أموت، وكان يقلل الطعام والأكل ما استطاع ويقول: لا يحتمل الحلال الصرف حتى كان يصلي خمس عشرة صلاة بوضوء واحد، وكان رضي الله عنه يقول: اطلبوا العلم للعمل فإن أكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال وعملهم كالذر، وكنت إذا رأيته كأنه ليس فيه روح ولو نفخته الريح لوقع وقال له بعض العلماء: عظني فقال: كن ذنباً ولا تكن رأساً فإن الذنب ينجو والرأس يذهب، وكتب إليه الأوزاعي رحمه الله تعالى: إنني أريد أن أصحبك يا إبراهيم فكتب إليه إبراهيم رضي الله عنه: إن الطير إذا طار مع غير شكله طار الطير وتركه^(٣) والله أعلم.

ومنهم أبو الفيض ذو النون المصري رضي الله عنه

واسمه ثوبان بن إبراهيم وكان أبوه نوبياً توفي سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان رضي الله عنه رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية، ولما توفي رضي الله عنه بالجيزة حمل في قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته، وراى الناس طيوراً خضراً ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره رضي الله عنه.

(١) لأن الخلق عبارة عن حجاب ظلماني كثيف قد يؤخر العارف في ترقيه، يقول سبحانه: «فقرؤا إلى الله» أي من هذا الحجاب الظلماني الكثيف.

(٢) وحكى عن نفسه الشعراني في المنن أنه أكل التراب زماناً لفقده الحلال الخالص، وحكى أنه كان يجد له طعم المرق والحق سبحانه قادر على قلب الأسباب لعبده المخلص الصادق.

(٣) قلت: لأنه لم يكن يوافق في مشربه في السلوك، وهم يعرفون ذلك عن طريق الكشف والأنوار.

ومن كلامه عليه السلام: إياك أن تكون للمعرفة مدعياً أو بالزهد محترفاً أو بالعبادة متعلقاً وفر من كل شيء إلى ربك، وكان يقول: كل مدعٍ محجوب بدعواه عن شهود الحق لأن الحق شاهد لأهل الحق بأن الله هو الحق، وقوله الحق ومن كان الحق تعالى شاهداً له لا يحتاج أن يدعي فالدعوي علامة على الحجاب عن الحق، والسلام، وكان يقول للعلماء: أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علماً ازداد في الدنيا زهداً وبغضاً وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علماً ازداد في الدنيا حباً وطلباً ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال في تحصيل العلم وأنتم اليوم تتفقون العلم في تحصيل المال، وكان يقول: يا معشر المريدين من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بإظهار الجهل والزهاد بإظهار الرغبة والعارفين بالصمت.

قلت وذلك ليزيده العلماء علماً والزهاد زهداً والعارفون معرفة قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (التوبة: ٦٠) الآية. وسئل عليه السلام عن السفلة من الخلق من هم؟ فقال: من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه وكان يقول: سيأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس.

قلت: والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى الأمانى والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، وكان يقول: لم يزل الناس يسخرون بالفقراء في كل عصر، ليكون للفقراء عليه السلام التأسى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقال: قد جاءتني امرأة فقالت: إن ابني أخذ التمساح فلما رأيت حرقتها على ولدها أتيت النيل وقلت: اللهم أظهر التمساح فخرج إليّ فشقت عن جوفه فأخرجت ابنها حياً صحيحاً فأخذته ومضت وقالت: اجعلني في حل فإنني كنت إذا

(١) قلت: إنما اختقت مثل هذه الكرامات في عصرنا هذا لضعف يقين الناس وقلصفتهم وانشغالهم بكل ما هو مادي، فيقول بعضهم: مثل هذه الكرامات إنما هي خرافة ولا صدقها ولو قرأ القرآن والسنة لرأها ثابتة بالنصوص فإن مريم هزت النخلة وهي حامل وأجرى الله تحتها نهراً وهي كرامات ثابتة بنصوص القرآن وأما ما ثبت في السنة فأكثر من أن يحصى، وقد صنفتنا في ذلك كتابنا معجم كرامات الصحابة وقد طبع.

قلت: وكانت الأولياء في عصر الشعرائى وقبله تظهر الكرامات جهاراً أمام الخلق لعدم تسمم الأرواح بالمعاصى والذنوب ولصفاء المعاملات في الخلق مع الله، وأما اليوم فظهرت بكثرة أمراض القلوب كزيغ في العقائد عند الوهابية وكثرة أكل الحرام وتفتش الغفلة وعدم الاعتقاد في الأولياء وكثرة ظلام القلوب فاختفى الأولياء ولم يظهروا كراماتهم.

رأيتك سخرت منك وأنا تائبة إلى الله عز وجل، وكان يقول: من علامة سخط الله تعالى على العبد خوفه من الفقر، وكان يقول: لكل شيء علامة وعلامة طرد العارف عن حضرة الله تعالى انقطاعه عن ذكر الله عز وجل، وقال عليه السلام: إذا تكامل حزن المحزون لم تجد له دمة وذلك لأن القلب إذا رق سبلا وإذا جمد وغلظ سخي، وتذاكر الفقراء عنده يوماً في المحبة فقال لهم: كفوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها، وكان يقول: من القلوب قلب يستغفر قبل أن يذنب فيثاب قبل أن يطيع، وكان يقول: إن الله تعالى أنطق اللسان بالبيان وافتتحه بالكلام وجعل القلوب أوعية للعمل ولولا ذلك كان الإنسان بمنزلة البهيمة يوماً بالراس ويشير باليد، وكان يقول: كنا إذا سمعنا شاباً يتكلم بالمجلس أيسنا من خيره وكان يقول: من لم يفتش على الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله عز وجل، وقال له رجل: إن امرأتي تقرأ عليك السلام فقال عليه السلام: لا تقرأونا من النساء السلام وكان يقول: إياكم وكثرة الإخوان والمعارف وكان عليه السلام يقول: لحنا في العمل وأعرينا في الكلام فكيف نفلح؟

قلت: وكذلك كان إبراهيم بن أدهم عليه السلام يقول: من آتسه الله بقره أعطاه العلم من غير طلب وكان يقول: ليس بعاقل من تعلم العلم فعرف به ثم أثر بعد ذلك هواه على عمله، وليس بعاقل من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره، وليس بعاقل من نسي الله في طاعته وذكر الله تعالى في مواضع الحاجة إليه، وكان عليه السلام يقول: تواضع لجميع خلق الله تعالى وإياك أن تتواضع لمن يسألك أن تتواضع له فإن سؤاله إياك يدل على تكبره في الباطن وتواضعك له يكون له عوناً على التكبر، وكان يقول عليه السلام: من نظر في عيوب الناس عمى عن عيب نفسه، وكان يقول: من طلب مع الخبز ملحاً لم يفلح في طريق القوم.

وسئل عليه السلام عن كمال العقل وعن كمال المعرفة؟ فقال: إذا كنت قائماً بما أمرت تاركاً لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت بالله عز وجل متعلقاً وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك فأنت كامل المعرفة، وكان عليه السلام يقول:

قد غلب على العباد والنسك والقراء في هذا الزمن التهاون بالذنوب حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم وحجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا على أكل الحرام، وتركوا طلب الحلال ورضوا من العمل بالعلم، يستحي^(١) أحدهم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم، هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح، إن سألوا ألحوا وإن سئلوا شحوا، لبسوا الثياب على قلوب الذنائب اتخذوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللفو والجدال والقيل والقال، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا فإياكم ومجالستهم.

وسئل عليه السلام عن الحديث لم لا تشتغل به؟ فقال: للحديث رجال وشغلي بنفسي استغرق وقتي^(٢)، والحديث من أركان الدين ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقهاء لكانوا أفضل الناس في زمانهم^(٣)، ألا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون دنياهم فحججهم واستكبروا عليهم، وافتتوا بالدنيا لما رأوا من حرص أهل العلم والمتفقيين عليها، فخانوا الله ورسوله وصار إثم كل من تبعهم في عنقهم، جعلوا العلم فخاً للدنيا وسلاحاً يكسبونها بعد أن كان سراجاً للدين يستضاء به، وسئل عليه السلام عن العلماء بالقرآن؟ فقال: هم الذين نصبوا الركب والأبدان، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة وشفاء ذابلة ودموع وابلة وزفرات عالية أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وكان عليه السلام يقول: العجب كل العجب من هؤلاء العلماء كيف خضعوا للمخلوقين دون الخالق وهم يدعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق؟ وكان يقول: من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن تراه

(١) قلت: وهو حياء الطبع، وهو من أعظم الحجب المانعة من الوصول، ولو تغلى عنه المرید لوصل في طرفة عين، ومثاله كالمرید الذي يستعى أن يعكى لشيخه علته الباطنية ولو تشجع ونطق بها، فإن في نطقه زوالها.

(٢) قدم مجاهدة النفس على طلب الحديث لأن مجاهدة النفس فرض عين على كل مسلم وأما طلب الحديث ففرض كفاية.

(٣) قلت: وقد كانت هناك طائفة من المحدثين والفقهاء كانوا أفضل أهل زمانهم، ونالوا درجات في الولاية عالية كالقطبانية وغيرها، فقد كان أحمد بن حنبل صديقاً وكان الشافعي وتداً، وكان الحافظ أبو نعيم بدلاً وكان الإمام النووي غوثاً.

ساهياً لاهياً لاغياً معرضاً عن ذكر الله تعالى، وكان رضي الله عنه يقول: إن الله تعالى لم يمنح أعداءه المحبة له بخلاً وإنما صان أوليائه الذين أطاعوه أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه، وكان يقول: العارف لا يدوم على حزن ولا يدوم على سرور، ثم قال: مثل العارف في هذه الدار مثل رجل توج بتاج الكرامة وأجلس على سرير في بيته قد علق فوق رأسه سيف بشعرة وأرسل على بابه سبعان ضاريان فيشرف على الهلاك ساعة بعد ساعة فأتى له السرور وأنى له الحزن قال بعضهم: السيف المعلق فوق رأسه الأحكام، والضاريان اللذان على الباب الأمر والنهي، وكان رضي الله عنه يقول: من تقرب إلى الله تعالى بتلف نفسه حفظ الله عليه نفسه، وقال رضي الله عنه: لما حملت من مصر في الحديد إلى بغداد لقيتني امرأة زمنة^(١) فقالت: إذا دخلت على المتوكل فلا تهبه ولا تر أنه فوقك ولا تحتج لنفسك محقاً كنت أو متهماً لأنك إن هبته سلطه الله عليك وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالاً لأنك باهت الله فيما يعلمه، وإن كنت بريئاً فادع الله تعالى أن ينتصر لك، ولا تنتصر لنفسك فيكلك إليها، فقلت لها: سمعاً وطاعة فلما دخلت على المتوكل سلمت عليه بالخلافة فقال لي: ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة؟ فسكت فقال وزيره: هو حقيق عندي بما قيل فيه ثم قال لي: لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن قلت لا كذبت المسلمين وإن قلت نعم كذبت على نفسي بشيء لا يعلمه الله تعالى مني، فافعل أنت ما ترى فأني غير منتصر لنفسي فقال المتوكل: هو رجل بريء مما قيل فيه فخرجت إلى العجوز فقلت لها جزاك الله عني خيراً فعلت ما أمرتني به فغن أين لك هذا فقالت: من حيث ما خاطب به الهدهد سليمان عليه السلام: وكان ذو لنون المصري رضي الله عنه بعد ذلك يقول: من أراد تجريد التوحيد وخالص التوكل فعليه بالنساء الزمنى ببغداد، وكان رضي الله عنه يقول: ما شبعت من الطعام قط إلا عصيت أو هممت بمعصية وكان رضي الله عنه يقول: كن عارفاً خائفاً ولا تكن عارفاً واصفاً رضي الله عنه.

(١) إذ للحق جنود أخفيا لا يعلم مقامهم إلا الحق عز وجل، يعلم بهم أوليائه السائرين إليه في الطريق.

ومنهم أبو محفوظ معروف بن غيروز الكرخي رحمته الله

وهو من جملة المشايخ المشهورين بالزهد والورع والفتوة مجاب الدعوة يستسقى بقبره، وهو من موالي^(١) علي بن موسى الرضا رحمته الله صحب داود الطائي رحمته الله ومات ببغداد ودفن بها سنة مائتين وقبره ظاهر يزار ليلاً ونهاراً رحمته الله.

ومن كلامه رحمته الله: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح له باب الجدل، وكان رحمته الله يقول: ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين فيهم، وكان رحمته الله يقول: لولا إخراج حب الدنيا من قلوب العارفين ما قدروا على فعل الطاعات ولو كان من حب الدنيا ذرة في قلوبهم لما صحت لهم سجدة واحدة، وكان رحمته الله يقول: العارف يرجع إلى الدنيا اضطراراً والمفتون يرجع إليها اختياراً، وكان يقول: إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين، وكرهه كل من في قلبه مرض، وكان رحمته الله يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً زوى عنه الخذلان وأسكنه بين الفقراء الصادقين، وإذا أراد الله بعبد شراً عطله عن الأعمال الصالحة حتى تكون على قلبه أثقل من الجبال وأسكنه بين الأغنياء.

ومنهم أبو نصر بشر بن الحارث الحافي رحمته الله

أصله من مرو وسكن بغداد ومات بها عاشر المحرم سنة سبع وعشرين ومائتين رحمته الله، صحب الفضيل بن عياض رحمته الله، وكان عالماً ورعاً كبير الشأن أوجد وقته علماً وحالاً، ومن كلامه رحمته الله لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس يعني يحب اطلاع الناس على صفات كماله، وكان رحمته الله يقول: سيأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى والأراذل على أهل العقول والأكابر، وكان رحمته الله يقول: دخلت داري يوماً فإذا رجل جالس في الدار فقلت له: كيف دخلت داري بغير إذني؟ فقال: أنا أخوك الخضر فقلت: ادع الله تعالى لي

(١) هذا ليعلم الناس أن آل بيت رسول الله ﷺ هم أساتذة الصوفية، كما كانت روحانية جعفر الصادق تمد أبا يزيد.

فقال عليه السلام: هون الله عليك طاعته فقلت: زدني، فقال: وسترها عليك^(١)، وكان عليه السلام يقول: قال لي رجل من المتصوفة: يا أبا نصر انقبضت عن أخذ البر من أيدي الناس لإقامة الجاه فقال: إن كنت متحققاً بالزهد منصرفاً عن الدنيا فخذ من أيديهم ليمحي جاهك عندهم ثم أخرج عما يعطونك إلى الفقراء وفرقه عليهم ولا تذق منه شيئاً، وكن بعقد التوكل بأخذ قوتك من الغير، فاشتد هذا القول على أصحابي فقلت له: جزاك الله خيراً عني ولكن اسمع جوابي فقال: نعم فقلت له: اعلم أن الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فذاك من الروحانيين، وفقير لا يسأل وإن أعطى قبل فذاك من أوسط القوم، وفقير اعتقد الصبر ومدافعة الوقت فإذا طرقت الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال، فكفارة مسألته صدقه في السؤال فقال الرجل: رضيت رضي الله عنك، وكان عليه السلام يقول حسبك أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم وإن أقواماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم، وكان يقول: يا طالب العلم إنما أنت متلذذ متفكه بالعلم تسمع وتحكي لا غير ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم، ويحك إنما يراد بالعلم العمل فاسمع يا أخي وتعلم ثم اعمل واهرب ألا ترى إلى سفيان الثوري عليه السلام كيف طلب العلم وتعلم وهرب، فاسمع ما أقول لك فإن طلب العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا لا على حبها وكان عليه السلام يقول: الصدقة أفضل من الجهاد والحج والعمرة^(٢) لأن ذلك يركب ويجيء فيراه الناس وهذا يعطي سراً فلا يراه إلا الله عز وجل، وكان يقول: إنني لأجل الله تعالى أن أذكره عند من لا يعرفه ولا يتعرفه وكان عليه السلام يقول: أمس قد مات واليوم في النزع وغداً لم يولد فبادروا بالأعمال الصالحة وكان يقول: إذا راسلت أحداً بكتاب فلا تزخرفه بحسن الألفاظ، فإني كتبت مرة كتاباً فعرض كلام لي إن كتبت حسن الكتاب، وكان كدباً، وإن تركته سمح الكتاب وكان صدقاً، فعزمت على ذكر الكلام السمج الصدق فتأدى هاتف من جانب البيت يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وكان عليه السلام يقول: من أراد أن يكون عزيزاً في الدنيا

(١) ذكرته عليه السلام ضمن من اجتمع بالخضر في كتابي «الجواهر فيمن رأى الخضر من الأكابر» وهو مطبوع.

(٢) قلت: وبها وصل قوم وتقطبوا مثل أبي العباس أحمد المصطفى عليه السلام.

سليماً في الآخرة فلا يحدث ولا يسُهد ولا يؤم قوماً ولا يأكل لأحد طعاماً، وكان محمد بن يوسف يقول: سمعت رجلاً يسأل بشر بن الحارث أن يحدثه فأبى عليه فجعل الرجل يتضرع إليه ويلج عليه فلم يجبه، فلما آيس منه قال له الرجل: يا أبا نصر ما تقول لله تعالى إذا لقيتَه يوم القيامة وقال لك لم تحدث الناس؟ فقال بشر رضي الله عنه: أقول يا رب قد أمرتني بمخالفة نفسي وإن نفسي كانت تشتهي الحديث والرياسة فخالفتها ولم أعطاها سؤالها وكان رضي الله عنه يقول للمريدين: لا تؤثروا على حذف العلائق شيئاً إنى أحببت نفسي إلى ما تشتهي من المطعم والملبس خفت أن أكون مكاساً أو شرطياً وكان يقول: من لم يحتج إلى النساء فليتنق الله تعالى ولا يألف أفضاهن، ولو أن رجلاً جمع أربع نسوة يحتاج إليهن ما كان مسرفاً^(١)، وقيل له: لم لا تتزوج وتخرج عن مخالفة السنة؟ فقال رضي الله عنه: إني مشغول بالفرض عن السنة، يعني بالفرض مجاهدة النفس وتصفيتها من الأخلاق الرديئة وكان رضي الله عنه يقول: صحبة الأشرار تورث الظن بالأخيار وصحبة الأخيار تورث حسن الظن بالأشرار، وإن الله عز وجل لا يسأل عبداً قط لم حسنت ظنك بعبادي؟ وكان رضي الله عنه يقول في مرض موته كثيراً: إلهي رفعتني فوق قدري ونوهت باسمي وشهرتني بين الناس، فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضحني غداً يوم القيامة، وكان رضي الله عنه إذا رأى فقيراً يضحك وهو غافل يقول له: احذر أن يأخذك الله تعالى على هذا الحال، وكان يقول: غنيمة الفقير في هذا الزمان غفلة الناس عنه وإخفاء مكانه عنهم فإن لقاء غالب الناس خسران وكان رضي الله عنه يقول: دخلت داري مرة فرأيت رجلاً طويلاً قائماً يصلي فراعني ذلك لأن المفتاح كان معي فسلم من صلاته ثم قال لي: لا تفرح أنا أخوك الخضر فقلت له: علمني شيئاً ينفعني الله به فقال: قل^(٢) أستغفر الله عز وجل وأسأله التوبة من كل ذنب تبت منه ثم رجعت إليه وأستغفر الله عز وجل^(١) وذلك لأنه لا زهد في النكاح، فإنه من سنن المرسلين، وانظر إلى حالة تعدد الزوجات عند النبي صلى الله عليه وسلم وعند أصحابه كالإمام علي وعمر والإمام الحسن والزيبر، فإن هؤلاء هم السادة وما زهدوا في النكاح وفي كثرة التزوج، بل إن هذا من سنن الأقطاب، وقد قال سيدي عبد القادر لما ذكروا أمامه أبا يزيد فضله بشيئين: الأول بانتمائي إلى النبي صلى الله عليه وسلم والثاني بكوني تزوجت وهو مات عازباً.

(٢) ويسمى استغفار الخضر عليه السلام، وكان شيخنا سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه يذكره، كما هو وارد في مجموع الأوراد التجانية فيليراجع.

وجل وأسأله التوبة من كل عقد عقده لله على نفسي ففسخته ولم أوف به وأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه من كل نعمة أنعم بها عليّ طول عمري واستعنت بها على معصيته وأسأله الحفظ والحمية من ذلك كله، وكان عليه السلام يقول: لا يفلح فقير يقول بأي شيء أكل خبزي وكان يقول: سكون النفس إلى قبول المدح لها أشد عليها من ذل المعصية، ولا يضر الثناء لمن عرف نفسه وكان يقول: كان العلماء عليهم السلام موصوفين بثلاثة أشياء صدق اللسان وطيب المطعم وكثرة الزهد في الدنيا، وأنا اليوم لا أعرف في هؤلاء أحداً فيه واحدة من هذه الخصال فكيف أعبأ بهم أو أبش في وجوههم، وكيف يدعي هؤلاء العلم وهم يتغايرون على الدنيا ويتحاسدون عليها ويجرحون أقرانهم عند الأمراء ويفتابونهم كل ذلك خوفاً أن يميلوا إلى غيرهم بسحتهم وحطامهم، ويحكم يا علماء السوء أنتم ورثة الأنبياء وإنما ورثوكم العلم فحملتوه وزغتم عن العمل به وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها معاشكم، أفلا تخافون أن تكونوا أول من تسعر به النار، وكان عليه السلام يقول: مثل الذي يأكل الدنيا بالعلم والدين، مثل الذي يغسل يديه من الزهومة بماء تنظيف السمك أو كمثل الذي يطفئ النار بالحلفاء.

قلت: وميزان أكل الدنيا بالدين أن تنظر في نفسك، فكل صفة أكرمت لأجلها قدّر نفسك عند فقدها، هل كنت تكرم أم لا؟ فإن كنت تكرم مع فقدها فقد خلصت وإلا فلا، وكان عليه السلام يقول: إذا قصر العبد فيما بينه وبين الله تعالى أخذ منه ما كان يؤنسه.

قال أبو جعفر المفازلي: رأيت على بشر بن الحارث قميصاً خلقاً فقلت له: أعتق هذا القميص فقال: حتى يعتق صاحبه.

وسئل عليه السلام عن التصوف فقال: هو اسم لثلاث معان وهو أن لا يغطي نور معرفة المعارف نور ورعه^(١)، وأن لا يتكلم في علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله عز وجل.

(١) وذلك لأنه كم من مدع للمعرفة ولا يتورع بدعوى أنه عارف.

ومنهم أبو الحسن السري بن المغلس السقطي رحمته الله

خال الجنيد وأستاذه رحمته الله، صحب معروفاً الكرخي وكان أوجد أهل زمانه في الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد، وهو أول من تكلم فيه ببغداد وإليه ينتمي أكثر المشايخ ببغداد، ومات بها سنة إحدى وخمسين ومائتين وقبره بالشونيزية ظاهر يزار. ومن كلامه رحمته الله: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه ويقل غمه من سماع الكلام الذي يفمه فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة وكان يقول: أقوى القوة أن تغلب نفسك ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز، وكان يقول: من علامة الاستدراج للعبد عماء عن عيبه وإطلاعه على عيوب الناس، وكان رحمته الله يقول: كيف يستتير قلب الفقير وهو يأكل من مال من يفش في معاملته، ويعامل الظلمة وأكلة الرشا لا سيما إن كان يسألهم بذلة وخضوع لعدم حرفة تكون بيده، وقال علي بن الحسين: بعثني أبي إلى السري رحمته الله بشيء من حب السعال لسعال كان به فقال لي: كم ثمناً؟ فقلت له: لم يخبرني بشيء فقال: اقرأ عليه السلام وقل له نحن نعلم الناس منذ خمسين سنة إلا يأكلوا بأديانهم أفتراني اليوم أكل بديني ثم رده ولم يأخذ منه شيئاً، وكان رحمته الله يقول: من سكن إلى قول الناس فيه أنه ولي الله فهو في يد نفسه أسير، وكان رحمته الله يقول: لو علمت أن جلوسي في البيت أفضل من خروجي إلى المسجد ما خرجت، ولو علمت أن انفرادي عن الناس أفضل ما جالستهم، وكان يقول: ثلاثة من علامة سخط الله على العبد كثرة اللعب، والاستهزاء والغيبة، وكان رحمته الله يقول: إياكم ومجاورة الأغنياء وقراء الأسواق والأمراء، فإنهم يفسدون كل من جالسهم وكان يقول: لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا، وكان رحمته الله يقول: ما رأيت شيئاً أحبب للأعمال ولا أفسد للقلوب ولا أسرع في

(1) قلت: وذلك لأن الصوفية يعتبرون أن مجاهدة النفس مقدمة على كل شيء، وذلك لأن في مجاهدتها تعريف لها بريها، وليس هناك شيء أعز من معرفة الحق سبحانه، وقد اعتزل مالك بن أنس الناس سنوات في بيته هو وأحمد بن حنبل، وكان مالك لا يشهد الجمعة ولا الجماعة وكان أحمد لا يشهد سوى الجمعة، فهؤلاء راوا أن في العزلة مصلحة لأنفسهم مع أنهم كانوا من أركان التشريع والاجتهاد المطلق في هذه الأمة.

هلاك العبد ولا أدوم للأحزان ولا أقرب للمقت ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب والرياسة من قلة معرفة العبد نفسه ونظره في عيوب الناس لا سيما إن كان مشهوراً معروفاً بالعبادة وامتد له الصيت حتى بلغ من الثناء ما لم يكن يؤمله، وتربص في الأماكن الخفية بنفسه، وسراييب الهوى، وقبل تجريحه في الناس ومدحه فيهم، وقيل له: إن العابد الفلاني يعظم فلاناً ويعتقده والأمير الفلاني لا يقدم أحداً على فلان من الفقراء وأطبقت أهل بلده على اعتقاده فقال: إنه يهلك مع الهالكين، وكان عليه السلام يقول: الدنيا أفاعي قلوب العلماء وسحارة قلوب العباد والقراء تلعب بهم كما يلعب الصبيان بالأكرة، وكان يقول: خصلتان تبعدان العبد من الله تعالى أداء نافلة بتضييع فريضة، وعمل بالجوارح من غير صدق بالقلب، وكان عليه السلام يبكي ويقول: قد توعدت طريق الصالحين وقل فيها السالكون وهجرت الأعمال وقل فيها الراغبون ورفض الحق ودرس هذا الأمر فلا أراه إلا في لسان كل بطال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال الصالحة، قد افترش الرخص وتمهد التأويلات، واعتل بذلك العاصون ثم يقول: واغماه من فتنة العلماء واكرياه من حيرة الأدلاء، وكان عليه السلام يقول: من أنس بربه في الظلام نشرت عليه غداً الأعلام، وكان عليه السلام ينشد كثيراً ويقول عليه السلام:

لا في النهار ولا في الليل لي فرح فما أبالي أطلال الليل أم قصرا
لأنني طول ليلي هائم دنف وبالنهار أقاسي الهم والفكرا

ومنهم أبو عبد الله الحارث

بن أسد المحاسبي عليه السلام

وهو من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم الأصول وعلوم المعاملات له التصانيف المشهورة، عديم النظير في زمانه، وهو أستاذ أكثر البغداديين بصري الأصل مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين عليه السلام، ومن كلامه عليه السلام: من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله تعالى ظاهره بالمجاهدة واتباع

السنة وكان ﷺ يقول: خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم^(١) وأنشدوا بين يديه مرة:

أنا في الغربة أبكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي عن مكاني بمصر سيب
عجباً لى ولتركى وطناً فيه حبيبي

فقام وتواجد حتى رق له كل من حضره، وسئل ﷺ عن المتوكل هل يلحقه طمع من طريق الطباع؟ فقال: خطرات لا تضره شيئاً^(٢)، وكان ﷺ يقول: عملت كتاباً في المعرفة وأعجبت فيه فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسناً له إذ دخل عليّ شاب عليه ثياب رثة فسلم عليّ وقال: يا أبا عبد الله المعرفة حق للحق على الخلق أو حق للخلق على الحق؟ فقلت له: حق على الخلق للحق، فقال: هو أولى أن يكشفها لمستحقها، فقلت: بل حق للخلق على الحق فقال: هو أعدل من أن يظلمهم، ثم سلم عليّ وخرج، قال الحارث: فأخذت الكتاب وحرقتة وقلت لا عدت أن أتكلم في المعرفة بعد ذلك^(٣)، وكان ﷺ يقول: أول بلية العبد تعطل القلب من ذكر الآخرة وحينئذ تحدث الغفلة في القلب، وقيل لأحمد بن حنبل ﷺ إن الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآي والحديث فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر؟ فقال: نعم فحضر معه ليلة إلى الصباح ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً قال: لأنني رأيتهم لما أذن بالمغرب تقدم فصلى ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه وهو

(١) قلت: وهو مذهب الصحابة، وهو الوسطية، وهم خير من تخلقوا بها ويقولون عز وجل: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً»، قلت: وإنما توسط الصحابة وجمعوا بين الدنيا والآخرة ووصلوا أسرع ممن بعدهم لشدة صدقهم وإخلاصهم وقوة يقينهم أكثر ممن جاء بعدهم من الزهاد والصوفية، فليست المشكلة في جملة الدنيا وإنما المشكلة في الإخلاص واليقين والصدق.

(٢) هذا في حق غير الكامل، وأما الكامل فلا تخطر له تلك الخطرات، لأن الخطرات تخرج من النفس، والكامل بلا نفس فافهم.

(٣) هو مثال تاديبى للعارف حتى لا يملكه العجب والفرور فيظن أنه ليس هناك من هو أعرف منه، فيرسل الحق سبحانه من لا يؤبه له لكى يفيقه من إعجابه بنفسه ويوقظه من غروره.

يأكل، وهذا من السنة، فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه وقال: من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليه بالآي والحديث فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئاً يقرأ فقروا فبكوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكت القارئ فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلى الصلاة فلما أصبحوا اعترف أحمد رضي الله عنه بفضلته وقال: كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا أستغفر الله العظيم (١) رضي الله عنه.

ومنهم أبو سليمان داود بن نصير الطائي رضي الله عنه

كان رضي الله عنه كبير الشأن في باب الزهد والورع حتى إنهم دخلوا عليه في مرض موته فلم يجدوا في بيته شيئاً غير دن صغير فيه خبز يابس ومطهرة ولبنة كبيرة من التراب هي مخدته، وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه: إياكم أن يتخذ أحدكم في داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة، وقيل له مرة: دلنا على رجل نجلس إليه فنريح فقال رضي الله عنه: تلك ضالة لا توجد، وكان يقول: إنما يطلب العلم للعمل به أولاً فأولاً وإذا أفتى الطالب عمره في جمعه فمتى يعمل به.

ومكث رضي الله عنه أربعاً وستين سنة أعزب، ف قيل له: كيف صبرت عن النساء؟ قال: قاسيت شهوتهن عند إدراكي سنة ثم ذهبت شهوتهن من قلبي، وكان لا يسأل الله الجنة حياء منه ويقول: وددت أن أنجو من النار فأصير رماداً وكان يقول: قد مللنا الحياة لكثرة ما نضل من الذنوب، وكان رضي الله عنه يقول: من علامة المرید الزهد في الدنيا وترك كل خليط يرغب فيها جملة كافية فلا يجالسه ولا يعودوه والله تعالى أعلم.

(١) فانظر بريك مدى تأثير الإشاعات على رجل مثل الإمام أحمد، ولولا سماعه بنفسه وتحققه من صدق القوم لظلت وجهة نظره مختلفة في الصوفية، وبعد سماع الإمام أحمد بنفسه صار يخالط الصوفية ويجالسهم ويقريهم ويأخذ بأرائهم كما كان يقول لأبي حمزة البغدادي في مجلسه: ما تقول في هذا يا صوفي؟

ومنهم أبو علي

شقيق بن إبراهيم البلخي رضي الله عنه

كان رضي الله عنه من مشايخ خراسان، له لسان في التوكل حسن الكلام، وقيل: إنه أول من تكلم في علم الأحوال بكورة خراسان.

صحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه طريقته، وهو أستاذ حاتم الأصم رحمه الله وكان رضي الله عنه يقول: عملت في القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة فأصبته في حرفين وهما قوله تعالى: "وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى" وكان يقول: الزاهد هو الذي يقيم زهده بفعله، والمتزهّد هو الذي يقيم زهده بلسانه، وكان رضي الله عنه يقول: اتق الأغنياء فإنك متى عقدت قلبك معهم، وطمعك فيهم فقد اتخذتهم أرباباً من دون الله.

وسئل بأي شيء يعرف العبد بأن نفسه اختارت الفقر على الغنى فقال: إذا صار يخاف من حصول الغنى كما كان يخاف من حصول الفقر فقد اختار الفقر، وسئل ما علامة صدق الزاهد؟ فقال: أن يصير يفرح بكل شيء فاتته من الدنيا، ويفتم لكل شيء حصل له منها، وكان يقول: مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن تحمل شوكاً، ومثل المنافق كمثل رجل غرس شوكاً وهو يطمع أن يحصده رطباً هيهات، وكان يقول: لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة فقال لي: اجتمعت بالخضر عليه السلام فقدم لي قدحاً أخضر فيه رائحة السكباج فقال لي: كل يا إبراهيم فرددته عليه فقال: إني سمعت الملائكة تقول: من أعطى فلم يأخذ سأل فلا يعطى، وكان رضي الله عنه يقول: إذا كان العالم طامعاً، وللمال جامعاً فبمن يقتدي الجاهل؟ وإذا كان الفقير المشهور بالفقر راغباً في الدنيا، والتنعم بملابسها ومناكحها فبمن يقتدي الراغب حتى يخرج عن رغبته؟ وإذا كان الراعي هو الذئب فمن يرعى الغنم رضي الله عنه.

ومنهم أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (١) رضي الله عنه

مات سنة إحدى وستين ومائتين ومن كلامه رضي الله عنه: مددت ليلة رجلي في محرابي فهتف بي هاتف من يجالس الملوك ينبغي له أن يجالسهم بحسن الأدب، وكان رضي الله عنه يقول: اختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد (٢)، ولقد عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشق علي العبد من العلم ومتابعتة (٣)، وكان رضي الله عنه يقول: عرفت الله بالله (٤)، وعرفت ما دون الله بنور الله، وكان يقول: خلق الله على العبيد النعم ليرجعوا بها إليه فاشتغلوا بها عنه، وكان يقول: إلهي إنك خلقت هؤلاء الخلق بغير علمهم، وقلدتهم أمانة بغير إرادتهم، فإن لم تمنهم فمن يعنهم؟ وسئل رضي الله عنه عن السنة والفريضة فقال: السنة ترك الدنيا بأسرها، والفريضة الصحبة مع الله تعالى، وذلك لأن السنة كلها تدل على ترك الدنيا، والكتاب كله يدل على صحبة المولى (٥) لأن كلامه صفة من صفاته تعالى، والنعم أزية فيجب أن يكون لها شكر أزي. وكان يقول: رأيت رب العزة في النوم فقلت: يا رب كيف أجذك فقال: فارق نفسك وتعال إليّ.

(٦)

وسئل رضي الله عنه ما صفة العارف؟ فقال: صفة أهل النار لا يموت فيها ولا يحيى وقيل له: متى يكون الرجل متواضعاً؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا (١) ولنا شرح مطبوع على شطحاته اسمه «جواهر التوحيد في الحقائق المستفادة من شطحات أبي يزيد»، وذكرته أيضاً في كتابي المطبوع «معجم شطحات الصوفية».

قلت: ويمتبر أبو يزيد رضي الله عنه هو أول من أظهر الشطح في الصوفية، حتى دونت شطحاته في الكتب وشرحت وقد سبق الحلاج والشبلي في هذا.

(٢) لأنه يعتبر نقطة غير منقسمة لا تقبل التعدد.

(٣) وكان سهل بن عبد الله يقول: أصعب الأشياء متابعة السنة.

(٤) وهو التعريف الفطري للعارف كالنتقام الرضيع لثدي أمه، قال سبحانه لتبنيه ﷺ: «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً».

(٥) قلت: هو تلخيص مختصر لطيف للكتاب والسنة بشكل مبسط، وذلك لكون الصوفية أبعد الناس عن التكلف والتعقيد.

(٦) قلت: هي صفة أهل الفناء في الله الذين لا يموتون عن مشاهدة الله ولا ينقطعون عنه ولا يحيون إلا به.

حالا ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه، وكان يقول عليه السلام: إن أولياء الله تعالى مخدرون عنده في جنان الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة، وكان يقول: حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء الأول والآخر والظاهر والباطن؛ وكل فريق له منها اسم فمن فني عنها بعد ملابتها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في السرائر، وأصحاب اسمه الأول شغلهم بما سبق، وأصحاب اسمه الآخر متريصون بما يستقبلهم، فكل يكشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره، وكان عليه السلام يقول إذا سئل عن المعرفة: للخلق أحوال ولا حال لعارف لأنه محيت رسومه، وفنيت هويته لهوية غيره، وعيبت آثاره لآثار غيره، فالعارف طيار والزاهد سيار.

وكتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد إنني سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد عليه السلام غيرك شرب من بحور السماوات والأرض، وما روي بعد، ولسانه خارج يقول هل من مزيد^(١).

ودخل إبراهيم بن شيبه الهروي يوماً على أبي يزيد فقال له أبو يزيد: وقع في خاطري أنني أشفع لك إلى ربي عز وجل فقال: يا أبا يزيد لو شفعتك الله في جميع المخلوقين لم يكن ذلك كثيراً، إنما هم قطعة طين فتحير أبو يزيد من جوابه، ودخل على أبي يزيد عالم بلده وفقهها يوماً فقال: يا أبا يزيد علمك هذا عمن وممن ومن أين؟ فقال أبو يزيد علمي من عطاء الله وعن الله ومن حيث قال رسول الله ﷺ: "من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم" فسبكت الفقيه^(٢)، وسئل أبو علي الجوزجاني عليه السلام عن الألفاظ التي تحكى عن أبي يزيد فقال رحمه الله: أبو يزيد نسلم له حاله ولعله بها تكلم على حد غلبة أو حال

(١) قلت: هذا القول شبيهه بقول أبي الحسين الحمال حيث قال: الناس يعطشون في البراري وأنا عطشان على شاطئ النيل.

(٢) وقد ورد عن أبي يزيد عليه السلام أنه قال لأحد الفقهاء: أخذتم علمكم من ميت عن ميت ونحن أخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

سكر ومن أراد أن يرتقي إلى مقام أبي يزيد فليجاهد نفسه كما جاهد أبو يزيد فهناك يفهم كلام أبي يزيد والله تعالى أعلم.

ومنهم أبو محمد سهل بن عبد الله رضي الله عنه

ابن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رضيع التستري رضي الله عنه هو أحد أئمة القوم ومن أكابر علمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وغيوب الأفعال، صحب خالداً ومحمد بن سوار وشاهد ذا النون المصري عند خروجه إلى مكة في سنة ثلاث وسبعين ومائتين ومات سهل سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ومن كلامه رضي الله عنه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وإذا انتبهوا ندموا وإذا ندموا لم تتفعهم الندامة، وكان رضي الله عنه يقول: ما طلعت شمس ولا غربت على أهل الأرض إلا وهم جهال بالله إلا من يؤثر الله على نفسه وزوجته ودينه وآخرته، وأدنى الأدب أن يقف عند الجهل^(١) وآخر الأدب أن يقف عند الشبهة^(٢)، وكان يقول: إن الله مطلع على القلوب في ساعات الليل والنهار، فأيما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس^(٣)، وكان يقول: يلزم الصوفي ثلاثة أشياء حفظ سره وصيانة فقره وأداء فرضه، وكان رضي الله عنه يقول الله قبله النية والنية قبله القلب والقلب قبله البدن والبدن قبله الجوارح والجوارح قبله الدنيا، وكان يقول: من سلم من الظن سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان، وكان يقول: لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يصرف جهله عن الناس ويحمل جهلهم ويترك ما في أيديهم ويبذل ما في يده لهم، وكان يقول: من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين، ولا يفتابون ولا يفتاب، عندهم ولا يشبعون بطونهم، وإذا

(١) أي إذا جهل شيئاً لا يعرفه اعترف بجهله ويجب أن يقف عند حقيقة هذا الجهل

(٢) كما وقف الأكابر واجتنبوا الشبهات كمن حرم غسل النحل على نفسه بدعوى أن النحل يرعى في غيطان الناس، وكمن حرم أكل السمك لكون أحد الجنود أكل على الشاطئ ورعى ببقية الأكل في النهر.

(٣) قلت: هو تأديب خاص بالأكابر لا بالعوام.

وعدوا لم يخلفوا، وكان ﷺ يقول: الفتنة على ثلاثة أقسام: فتنة العامة دخلت عليهم من صناعة العلم، وفتنة الخاصة دخلت عليهم من الرخص والتأويلات وفتنة العارفين دخلت عليهم من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر، وكان يقول: أصولنا سبعة أشياء التمسك بكتاب الله والافتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتتاب المعاصي، والتوبة وأداء الحقوق.

وكان يقول: من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو غافل، وكان يقول: لقد أيس العلماء في زماننا هذا من هذه الثلاث خصال ملازمة التوبة ومتابعة السنة وترك أذى الخلق، وكان يقول: العيش على أربعة أقسام: عيش الملائكة في الطاعة، وعيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في العلم وانتظار الوحي، وعيش الصديقين في الاقتداء، وعيش سائر الناس عالماً كان أو جاهلاً زاهداً كان أو عابداً في الأكل والشرب والضرورة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والقوام للصديقين والقوت للمؤمنين والمعلوم للبهائم، وكان ﷺ يقول: ما عمل عبد بما أمره الله تعالى عند فساد الأمور وتشويش الزمان واختلاف الناس في الرأي إلا جعله تعالى إماماً يقتدي به هادياً مهدياً، وكان غريباً في زمانه.

وسئل عن الولي؟ فقال: هو الذي تواتت أفعاله على الموافقة⁽¹⁾.

وسئل عن ذات الله عز وجل؟ فقال: ذات موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول وتراه العيون في العقبي ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والأبصار لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهائية.

وكان ﷺ يقول: إن الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عنه وإنما جاءهم الحجاب من تدبيرهم واختيارهم مع الله تعالى وذلك هو الذي كدر على الخلق عيشهم، وكان ﷺ يقول: مخالطة الولي للناس ذل، وتفرد عنهم عز، وقلما رأيت ولياً لله عز وجل إلا منفرداً.

(1) قلت: وذلك لكون الولي محفوظاً، وقال سيدي أحمد التجاني ﷺ: القطب له عصمة كعصمة الأنبياء.

وكان ﷺ، يقول: ما من ولي لله صحت ولايته إلا ويحضر إلى مكة في كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك^(١)، وكان ﷺ يقول: أنا حجة الله على الخلق وأنا حجة على أولياء زماني فبلغ ذلك أبا زكريا الساجي وأبا عبد الله الزبيري فذهبا إليه فقال له أبو عبد الله الزبيري: وكان جسوراً لأنه ضرير بلغنا عنك أنك تقول أنا حجة الله على الخلق وأنا حجة الله على أولياء زماني فبماذا صرت هل أنت نبي أو صديق؟ فقال: سهل لم أذهب حيث ظننت ولست أنا نبياً إنما قلت هذا لأنني صححت أكل الحلال دون غيري، فقال له: وأنت صححت الحلال؟ قال: نعم لا أكل دائماً إلا حلالاً، فقال له الزبيري: وكيف ذلك؟ فقال له سهل: قسمت عقلي ومعرفتي وقوتي على سبعة أجزاء، فأترك الأكل حتى يذهب عنها ستة أجزاء، ويبقى جزء واحد فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتلف معه نفسي أكلت بقدر البلغة خوفاً أن أكون أعنت على نفسي ولترد على الستة الأخرى، فبهذا صح لي الحلال، فقال الزبيري: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء اعترفاً بفضل سهل ﷺ، وكان يقول: يأتي على الناس زمان يذهب الحلال من أيدي أغنيائهم وتكون أموالهم من غير حلها فيسلط الله بعضهم على بعض يعني بالأذى والمرافعات^(٢) عند الحكام فتذهب لذة عيشهم ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا، وخوف شماتة الأعداء، ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم، وتكون ساداتهم في بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين، ولا يستلذ بعيش يومئذ إلا منافق لا يبالي من أين أخذ ولا فيما أنفق ولا كيف أهلك نفسه، وحينئذ تكون رتبة القراء رتبة الجهال، وعيشهم عيش الفجار وموتهم موت أهل الحيرة والضلال، وكان ﷺ يقول: اجتمعت بشخص من أصحاب المسيح ﷺ في ديار قوم عاد فسلمت عليه فرد علي السلام فرأيت عليه جبة صوف فيها طراوة، فقال لي: إنها علي من أيام المسيح فتعجبت من ذلك فقال يا سهل، إن

(١) يقصد عن طريق الانتقال الروحي، وقد يكون البدني.

(٢) وهو ما يوجد اليوم من كثرة وجود القضايا في المحاكم وتشاحن الناس وتسلطهم على بعضهم البعض وهو بلاء مدقع وشر مستطير.

الأبدان لا تخلق الثياب إنما يخلقها رائحة^(١) الذنوب، ومطاعم السحت فقلت له: فكم لهذه الجبة عليك فقال لها على سبعمائة سنة^(٢) فقلت له: هل اجتمعت بنبينا محمد ﷺ فقال: نعم وآمنت به حين آمن به الجن الذين أوحى إليه في حقهم "قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن" قلت ومن هنا كان الخضر ﷺ لا تبلى له ثياب لأنه لا يعصي الله تعالى ولا يأكل حراماً وكما لا يبلى لأكل الحلال ثياب فكذلك لا يبلى له جسم بعد موته كما وقع لبعض الأولياء وجدناه طرياً كما وضعناه بعد سنين والله تعالى أعلم.

وكان ﷺ يقول: إياكم ومعاداة من شهره الله تعالى بالولاية وإنه كان بالبصرة ولي الله تعالى فعاداه قوم وآذوه فغضب الله عليهم فأهلكهم أجمعين في ليلة، وكان يقول طوبى لمن تعرف بالأولياء، فإنه إذا عرفهم استدرك ما فاته من الطاعات، وإن لم يستدرك شفعوا عند الله فيه لأنهم أهل الفتوة، وكان ﷺ يقول: الدنيا حرام على صفوة الله من خلقه حرم عليهم أن ينالوا منها شيئاً كما حرم الله على الخلق أن يأكلوا من صيد الحرم ومن كل منه لزمته الفدية كذلك من أكل من أهل صفوته شيئاً من الدنيا ليس له فدية إلا ترك الطاعات، وكان يقول: إذا قام العبد بما لله تعالى عليه، فحقيق على الله أن يقوم بما كان العبد قائماً به لنفسه، وكان ﷺ يقول: من لم يكن مطعمه من الحلال لم يكشف عن قلبه حجاب، وتسارعت إليه العقبات ولا تنفعه صلاته ولا صومه ولا صدقته، وكان ﷺ يقول: إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت وعن الوصول بسوء المطعم وأذى الخلق، وكان يقول لأصحابه: ما دامت النفس تطلب منكم المعصية فأدبوها بالجوع والعطش، فإذا لم ترد منكم المعصية فأطعموها ما شاءت، واتركوها تنام من الليل ما أحببت.

(١) وذلك لكون الجماد يشتكى إلى الحق عز وجل ويبتهل إليه أن ينزعه من يد المذنب والمعاصي، ويدعو الحق سبحانه أن يعطيه للطائع ألا ترى إلى حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «إذا أصبح ابن آدم قالت له أعضاؤه اتق الله فينا».

(٢) قلت: لعلها جبة غير محسوسة بل معنوية.

وسئل عليه السلام عن الذي لم يأكل طعاماً أياماً كثيرة أين يذهب لهب جوعه؟ فقال: يطفئه نور القلب وكان عليه السلام يقول: حياة القلوب التي تموت بذكر الحي الذي لا يموت، وكان عليه السلام يقول: من كمل إيمانه لم يخف من شيء سوى الله تعالى وكان يقول: خيار الناس العلماء الخائفون وخيار الخائفين المخلصون الذين وصلوا إخلاصهم بالموت عليه السلام.

ومنهم أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني عليه السلام

وداريا قرية من قرى دمشق من بني عبس وكان كبير الشأن في علوم الحقائق والورع مات سنة خمس عشرة ومائتين.

ومن كلامه عليه السلام: لا ينبغي لفقير أن يزيد في نظافة ثيابه على نظافة قلبه بل يشاكل ظاهره باطنه⁽¹⁾، قال أحمد بن أبي الحواري: وسمعت أبا سليمان يقول يوماً: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب قال أحمد: وكانت ثيابه وسطى، وكان عليه السلام يقول: من صارح الدنيا صرعته وإذا سكنت الدنيا في قلب ترحلت الآخرة منه وقال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان صليت أمس صلاة في خلوة فرأيت لها لذة فقال لي وأي شيء ألد منها قلت كونه لم يرني أحد فقال يا أحمد إنك لضعيف حيث خطر بقلبك ذكر الخلق.

وسأله رجل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل فقال أن يطلع الله على قلبك وأنت لا تريد في الدارين غيره وكان عليه السلام يقول: الدنيا تهرب من الطالب لها وتطلب الهارب منها فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلتها، وكان يقول إنما يعجب بعمله القدرية الذين يزعمون أنهم يعملون أعمالهم أما الذي يرى أنه مستعمل فبأي شيء يعجب، وكان عليه السلام يقول: لو اجتمع الناس على أن يضعوني كاتضاعى عند نفسي ما قدروا عليه ومن رأى لنفسه قيمة لم يجد حلاوة الخدمة، وقال أحمد بن أبي الحواري قال لي أبو

(1) كانوا يستحيون أن يجملوا ظاهرهم وبواطنهم قذرة ويمتبرونه نوعاً من أنواع النفاق، وإعانة للنفس على عدم الترقى وإبقاء لها لما هي فيه من العلل والأمراض، ولذلك أدلوها وسارعوا بلبس المرقعات والوبر والخشن من الثياب.

سليمان الداراني يا أحمد ما أنجب من أنجب إلا بالقبول من المعلمين وأنا أقول لك لا تفتح أصابعك في القصة يا أحمد عهدت ناساً يعدون الجوع فيهم غنيمة كما تعد أنت وأصحابك الصوفية الشيع غنيمة يا أحمد كيف تتير قلوبهم وكل شيء يجدونه من الشبهات يأكلونه إني لأكل الشبهة فأجد ناراً على قلبي من الجمعة إلى الجمعة.

وكان يقول: إن الله تعالى يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلي^(١) ورؤي أبو سليمان بعد موته فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لي وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم لما في التكلم بدقائق العلوم من التمييز على الأقران وقال أحمد بن أبي الحواري قال لي أبو سليمان رضي الله عنه يا أحمد من أكل طعام أخيه ليسره بأكله لم يضره أكله شيئاً وإنما يضره إذا أكل بشهوة نفسه وذلك لأن كل شيء قصد العبد به وجه الله تعالى عاقبته حميدة وكان رضي الله عنه يقول: من صغر المؤمن في عينه استخف بحرمة ومن لم يتلاش في قلبه ذكر كل شيء يضاد ذكر الله تعالى لم يجد صفوة ذكر الله تعالى وكان رضي الله عنه يقول: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فعليك بالجوع ثم اسألها وذلك لأن الأكل يغير العقل رضي الله عنه.

ومنهم أبو محمد الفتح بن سعيد الموصلي رضي الله عنه

وهو من أقران بشر بن الحارث والسري السقطي وكان كبير الشأن في باب الورع والمعاملات ومن كلامه رضي الله عنه من أدام ذكر الله تعالى بقلبه أورثه ذلك الفرح بالمحبوب ومن أثره على هواه أورثه ذلك حبه إياه ومن اشتاق إلى الله زهد فيما سواه وكان يقول : القلب إذا منع من الطعام والشراب يموت ولو على طول. وسأل رجل المعافى بن عمران هل كان لفتح الموصلي رضي الله عنه كبير عمل فقال كفاك بعمله تركه للدنيا رضي الله عنه.

(١) قلت: وهو يقع لكبار العارفين من هذه الأمة، وانظر كيف كان ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فراشه، وكان أحياناً ينزل عليه الوحي ورأسه في حجر السيدة عائشة رضي الله عنها، وهو من أعظم الترققيات، وكان أبو العباس المرسى يقول: ربما الالعاب أولادى وروحي عند العرش.

ومنهم أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم رضي الله عنه

هو من قدماء المشايخ بخراسان من أهل بلخ صحب شقيقاً البلخي وهو أستاذ أحمد بن خضرويه^(١) مات أبو عبد الرحمن سنة سبع وثلاثين ومائتين ودفن عند رباط يقال له سروند على جبل فوق وأشجره.

ومن كلامه رضي الله عنه : إذا رأيت المرید يريد غير مراده فاعلم أنه قد أظهر بذالته وقد مكر به، وكان رضي الله عنه يقول: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب من ادعى خشية الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله في طاعة الله فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب، وأرسل عصام بن يوسف رحمه الله شيئاً إلى حاتم فقبله فقبل له لم قبلته فقال رأيت أن في قبوله ذل نفسي وفي رده عزها وكان يقول: مررت براهب فقال لي: من أين أنت فقلت من بلخ فقال: مع من كنت تجلس فقلت كنت أجالس شقيقاً البلخي فقال: أيش سمعته يقول فقلت: سمعته يقول لو أن السماء من نحاس والأرض من حديد فلا السماء تمطر قطرة، ولا الأرض تثبت حبة، وكان عيالي ملء ما بين الخافقين، لم أبال فقال الراهب هذا رجل سوء لا ينبغي الجلوس إليه فقلت لم فقال: لأنه يفكر فيما لم يكن كيف لو كان إنما ينبغي له أن يفكر فيما كان كيف كان لا تجالسه فإنه فاسد الفكر.

دخل حاتم على محمد بن مقاتل عالم الري يعوده فرأى داره واسعة وفرشه وطيفة وغلماناً وخداماً بين يديه فلم يسلم عليه وقال له يا محمد بمن اقتديت في بناء بيتك هذا وفرشك هذه وأمتعتك هذه أبا لنبي رضي الله عنه والضحابة والتابعين والأئمة، والصالحين أم بفرعون ونمرود ؟ فسكت محمد فقال حاتم : يا علماء السوء إنما مثلكم مثل الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها لا مثل العلماء العاملين بل أنتم فساد للعامة يقولون: إذا كان هذا محمد العالم على هذا الحال

(١) الصواب أنه خضرويه بالخاء كما ورد في الحلية (٤٢/ ١٠) وانظر الكواكب الدرية للمناوي ١/ ٣٥١.

فأنا تبع له فازداد محمد بن مقاتل مرضاً على مرضه من كلام حاتم رضي الله عنه، ثم قال حاتم رضي الله عنه لمحمد أنا رجل أعجمي أريد منك أن تعلمني كيف الوضوء للصلاة فقال له توضأ، وأنا أنظر ففسل حاتم ثلاثاً في المضمضة والاستنشاق فلما جاء يده اليسرى غسل يده أربعاً فقال له: أسرفت في غسل ذراعك أربعاً فقال حاتم: سبحان الله تنكر على الإسراف في كف ماء ولا تتكر على نفسك في إسرافك في جميع ما أنت فيه فعلم محمد أن حاتم إنما قصد بطلبه تعليم الوضوء هذه القضية فتبته لنفسه وخرج من دار وغلماناه ولحق بالفقراء رضي الله عنهم أجمعين (١).

ومنهم أبو زكريا يحيى

بن معاذ بن جعفر الواعظ الرازي رضي الله عنه

كان أوحده وقته في زمانه، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة. أقام ببليخ مدة ثم عاد إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين. ومن كلامه رضي الله عنه كيف يكون زاهداً من لا ورع له، تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك وكان رضي الله عنه يقول: على قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق، وكان يقول: جميع الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة فكيف تفتم عمرك فيها مع قلة نصيبك منها، وكان يقول الزاهدون غرياء في الدنيا، والعارفون غرياء في الآخرة، وكان يقول لأصحابه اجتنبوا صحبة ثلاثة أصناف من الناس العلماء الغافلون، والقراء المداهنون، والمتصوفة الجاهلون الذين يتعبدون قبل تعلمهم فروض دينهم وكان يقول: من لم ينتفع بأفعال شيخه لم ينتفع بأقواله.

وكان يقول لا يزال دين العبد متمزقاً ما دام قلبه بحب الدنيا متعلقاً وكان

(١) هو نوع من التعليم الإشاري، وكما قالوا: إن الدجاجة تعلم أولادها بالنظر، والصوفية هم سادة الإشارة، وسادة من يعلم بها وله سند في القرآن قال سبحانه: «فأشارت إليه» وقال سبحانه ليحيى عليه السلام: «آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا».

يقول: الجوع نور، والشبع نار، والمشوة حطب يولد منه الإحراق فلا تنطفئ ناره حتى يحرق صاحبه، وكان عليه السلام يقول: ليس الصوف حانوت، والكلام في الزهد حرفة، وكان يقول: الولي لا يرثي ولا ينافق وما أقل صديقاً هذا خلقه وكان يقول: الولي ريحان الله في الأرض يشمه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون برؤيته عبادة وكان يقول: بئس الأخ أخ تحتاج أن تقول له ادع لي ويئس الأخ أخ تحتاج أن تعتذر إليه عند زلتك وكان عليه السلام يقول: العلماء العاملون أرفأ بأمة محمد عليه السلام وأشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم قيل له: كيف ذلك قال: لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها وكان يقول: من ضحى الأولياء بصدق ألهاه ذلك عن أهله وماله وعن جميع الاشتغال فإذا صح له ذلك معهم ترقى إلى مقام الاشتغال بالله فاشتغل به عن سواه وإن لم يصح له هذا المقام مع الأولياء لا يشم رائحة الاشتغال بالله أبداً وكان عليه السلام يقول: العامة يحتاجون إلى أهل العلم في الجنة كما في الدنيا فليل له كيف؟ فقال: يقال للامة في الجنة: تمنوا فلا يدرون ما يقولون فيقولون نرجع لأهل العلم فنسألهم فيكون ذلك تمام مكرمة لأهل العلم، وكان عليه السلام يقول: إياكم والركون إلى دار الدنيا فإنها دار ممر لا دار مقر الزاد منها والمقيل في غيرها.

وكان يقول: لو أن رجلاً في علم ابن عباس وهو راغب في الدنيا لنهيت الناس عن مجالسته فإنه لا ينصحك من خان نفسه وكان يقول: مثل الأولياء مثل الصيادين يصطادون العباد من أفواه الشياطين ولو لم يصد الولي طول عمره إلا واحداً لكان قد أوتي خيراً كثيراً وكان يقول طلب الزهد فراراً من مشقة الأعمال الشاقة بطالة ولبس الصوف من غير إماتة النفس جهالة، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل والكسل مع وجود الاستعناء عنه كلفة، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق والتعبد مع تضييع العيال جهل، وكان يقول: كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقي الحبيب في

الوليمة وكان يقول: محاربة الصديقين لنفوسهم مع الخطرات^(١) ومحاربة الأبدال مع الفكرات، ومحاربة الزهاد مع الشهوات، ومحاربة التائبين مع الزلات، وكان رضي الله عنه يقول في دعائه: إلهي لا أقوى على شروط التوبة فأغفر لي بلا توبة، وكان يقول: لا يكون الرجل حليماً حتى يلحظ النساء بعين الشفقة لا بعين الشهوة، وكان يقول جالسوا الذاكرين فإنهم ملازمون باب الملك رضي الله عنه.

ومنهم أبو حامد أحمد بن خضرويه^(٢) البلخي رضي الله عنه

هو من أكابر مشايخ خراسان صحب أبا تراب النخشي وحامناً الأصم ورحل إلى أبي يزيد البسطامي وزار أبا حفص الحداد، وهو من المشهورين بالفتوة مات سنة أربعين ومائتين رحمه الله تعالى. ومن كلامه رضي الله عنه: ولي الله لا يرسم نفسه بسيما ولا يكون له اسم يتسمى به وكان يقول: من صبر على صبر فهو الصابر لا من صبر وشكاً، وكان يقول: بلغني أن شخصاً من الأغنياء طلب زيارة شخص من الزهاد فدخل عليه فرآه يفطر في رمضان على خبز الشعير والملح فرجع التاجر إلى داره وأرسل للزاهد ألف دينار فردها وقال لغلامه: قل لمولايك هذا جزاء من أفشى سره على مثلك رضي الله عنه.

ومنهم أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه

واسم أبي الحواري ميمون من أهل دمشق صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة وجماعة من المشايخ. مات سنة ثلاثين ومائتين رضي الله عنه وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام.

ومن كلامه رضي الله عنه الدنيا مزيلة ومجمع الكلاب وأقل من الكلاب من علق

(١) يقصد بها الخطرات الشيطانية لا النفسية، فإن الصديق ليس له نفس لحولته في رتبة الكمال، وأما الشيطان فليس له حظ منهم سوى الإلقاء عن بعد قال الشعراني في البواقيت والجواهر: إن الوسوسة جائزة في حق الأنبياء ولكن العمل بها غير جائز واستدل بقوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آيته.

(٢) الصواب خضرويه كما سبق.

عليها وخاصم أصحابه لأجلها، فإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف، والمحب لها لا يتركها بحال وكلما بلغ منها مبلغاً طلب ما بعده، وكان رضي الله عنه يقول: علمني الخضر رضي الله عنه رقية للوجع فقال: إذا أصابك وجع فضع يدك على الموضع وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥) فلم أزل أقولها على الوجع فيذهب لساعته،^(١) وكان إذا اطلع أحد على شيء من أخلاقه الحسنة يلوم نفسه ويقول ما هذه الغفلة حتى ظهرت محاسنك للناس رضي الله عنه.

ومنهم أبو حفص عمر بن سالم الحداد النيسابوري رضي الله عنه

من قرية يقال لها كوردباز بباب مدينة نيسابور على طريق بخارى، صحب عبد الله المهدي والنصر اباذي ورافق أحمد بن حضرويه^(٢) البلخي وإليه ينتمي شاه بن شجاع الكرمانى، وكان أوحد الأئمة والسادة ومن كبار المشايخ المشار إليهم، مات سنة سبعين ومائتين، وكان إذا ذكر الله تعالى تغير عليه الحال، حتى يعرف ذلك منه جميع من حضره.

وكان رضي الله عنه يقول: من هوان الدنيا على أنى لا أبخل بها على أحد وقيل له إن فلاناً من أصحابك يدور حول السماع فإذا سمع بكى وصاح ومزق ثيابه، فقال: أيش يعمل الغريق يتعلق بكل شيء يظن فيه نجاته، وكان رضي الله عنه يقول: حرست قلبي عشرين سنة ثم وردت حالة فصرنا فيها جميعاً محروسين وكان يقول: ما استحق اسم السخاء من ذكر العطاء ولمحه بقلبه وسئل مرة عن الولي ؟ فقال هو من أيد بالكرامات وغيب عن البدع، وسئل مرة عن آداب الفقراء ؟ فقال: هر حفظ حرمان المشايخ وحسن العشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر، وترك الخصومات في الأرفاق وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس على طريقهم، ومعاونة الإخوان في أمر دنياهم وآخرتهم فاعرض هذه الصفات على نفسك فإن وفيت بها فأنت فقير.

(١) وكان سيدى محمد أبو بطانية رضي الله عنه لما صحبتته بصعيد مصر إذا أصابه وجع يكتب على موضع الوجع بالأصبع: «موسى قتل فرعون» فيذهب الوجع.

(٢) الصواب خضرويه كما مر.

وكان يقول كثيراً : فساد الأحوال دخل من ثلاثة أشياء: فسق العارفين، وخيانة المحبين، وكذب المريدين قال أبو عثمان الحيري: فسق العارفين: إطلاق الطرف واللسان والسمع لأسباب الدنيا ومنافعها، وخيانة المحبين: اختيار أهويتهم على رضا الله فيما يستقبلهم، وكذب المريدين: أن يكون ذكر الخلق ورؤيتهم أغلب على قلوبهم من ذكر الله عز وجل ورؤيته، وكان يقول: إذا رأيت ضوء الفقير في ثيابه فلا ترجو خيره ﷺ.

ومنهم أبو تراب

عسكر بن الحسين النخشي ﷺ

صحب حاتماً الأصم وأبا حاتم العطار وهو من أجلة مشايخ خراسان وكبارهم المشهورين بالعلم والفتوة والزهد والتوكل والورع، مات رحمه الله تعالى بالبادية فنهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين. ومن كلامه ﷺ: إن الله عز وجل ينطق العلماء في كل زمان بما يشاكل أعمال ذلك الزمان وكان ﷺ يقول: من شغل مشغولاً بالله عن الله أدركه المقت من ساعتها وكان يقول لا أعلم شيئاً أضر بالمريدين من أسفارهم على متابعة نفوسهم بغير إذن أستاذهم، وما فسد مرید إلا بالأسفار ومعاشرة الأضداد، وكان يقول: لا ينبغي لفقير قط أن يضيف إلى نفسه شيئاً من المال قط ألا ترى إلى موسى ﷺ حيث قال: هي عصاي، وادعى الملك لها قال الله عز وجل:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ (النمل: ١٠) فلما قلب العين فيها نجاً وهرب فقيل ارجع ولا تخف^(١)، وكان ﷺ يقول: رأيت رجلاً بالبادية فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا الخضر الموكل بالأولياء أرد قلوبهم إذا شردت عن الله عز وجل يا أبا تراب التلف في أول قدم والنجاة في آخر قدم ﷺ.

(١) هو مثال زجرى لأهل الخرقة حتى لا يضيفوا إلى أنفسهم شيئاً من ملك الله ويدعو ملكيته مع خالقهم، بل الواجب ترك الكل والتعلق برب الكل، قال سبحانه: «قل الله ثم ذرهم».

ومنهم أبو محمد عبد الله بن حنيف الأنطاكي رحمته الله

صحب يوسف بن أسباط وهو من زهاد الصوفية الأكياس في أكل الحلال
وإلبرعين في جميع الأحوال، أصله من الكوفة وطريقته في التصوف طريقة
الثوري رحمته الله فإنه صحب أصحابه رحمته الله م.

ومن كلامه رحمته الله: إذا دنا الرجل القارئ من المعصية ناداه القرآن من صدره
والله ما لهذا حملتي فلو أن العاصي سمع ذلك الصوت لمات حياء من الله
تعالى، وكان رحمته الله يقول: بلغنا أن حبراً من أحبار بني إسرائيل كان يقول: يا رب
كم أعصيك ولم تعاقبني فأوحى الله تعالى إلى نبي من بني إسرائيل قل لفلان
كم أعاقبك وأنت لا تدري ألم أسلبك حلاوة مناجاتي. وكان يقول: أنت لا تطيع
من يحسن إليك فكيف تحسن إلى من يسيء إليك رحمته الله.

ومنهم أبو علي أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمته الله

هو من أقران بشر بن الحارث الحافي والسري السقطي والحارث المحاسبي
وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته ⁽¹⁾ رحمته الله وكان
يقول: ما كنت أظن إنني أدرك زماناً يعود الإسلام فيه غربياً فقليل له: وهل عاد
الإسلام غربياً؟ قال: نعم أن ترغب فيه إلى عالم تجده مفتوناً بالدنيا يحب
الرياسة والتعظيم، ويأكل الدنيا بعلمه ويقول: أنا أولى بها من غيري وإن ترغب
فيه إلى عابد معتزل في جبل تجده مفتوناً جاهلاً في عبادته مخدوعاً لنفسه
ولإبليس قد صعد إلى أعلى درجات العباد، وهو جاهل بأدائها فكيف بأعلاها
فقد صارت العلماء والعباد سباعاً ضارية وذئباً مختلصة فهذا وصف أهل
زمانك من أهل العلم والقرآن ورعاة الحكمة "فاعتبروا يا أولى الأبصار" وكان
رحمته الله يقول: إذا جالستم أهل الصدق من الفقراء فجالسوهم بالصدق فإنهم

(1) قلت: فراسة الولي هو نور يلقيه الحق سبحانه في قلوب أوليائه به يستكشفون ما كان مخبياً وما
كان مدسوساً في قلوب الخلق.

جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها وأنتم لا تشعرون ﷺ .

ومنهم منصور بن عمار الواعظ ﷺ

هو من أهل مرو وأقام بالبصرة وكان من أحسن الواعظين ومن حكماء المشايخ كبير الشأن في التقلل والورع . كان ﷺ يقول: إذا سخر الشيطان برجل، جعله ينقل إلى الناس النميمة والقاذورات، ولو أن إبليس كان يهابه ما حملة شيئاً من ذلك وكان ﷺ يقول: سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية للذكر وقلوب أهل الدنيا أوعية للطمع، وقلوب الفقراء أوعية للقناعة، وكان يقول عجبت للقراء كيف يجرون إخوانهم سنين على زلة وقعت ولا يحملونهم على القناعة والتوبة، وإذا رأوا ظالماً يأخذ مالا بغير حق ثم يتوارى عنهم بجدار يقولون : هذا حلال لاحتمال أن يكون بدله بغيره ولا يرون أن ذلك الواقع في الزلة تاب عن زلته بعد مدة والقاعدة واحدة ﷺ .

ومنهم حمدون بن أحمد القصار النيسابوري ﷺ

وهو شيخ الملامية بنيسابور ومنه انتشر مذهب الملامية صحب أبا تراب النخشبى والنصراباذي ﷺ وكان فقيهاً عالماً يذهب مذهب الثوري ﷺ وطريقته لم يأخذها عنه أحد من أصحابه كأخذ عبد الله بن محمد بن منازل صاحبه . مات حمدون سنة إحدى وسبعين ومائتين بنيسابور ودفن في مقبرة الحيدة، وكان ﷺ يقول: من ظن أن نفسه خير من نفس فرعون فقد أظهر الكبر، وكان يقول: من نظر في سير السلف عرف تقصيره، وتخلفه عن درجات الرجال^(١) وقيل له ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا فقال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا واعتقاد الخلائق لنا، وكان يقول للفقهاء إذا أشكل عليكم علم فاسألوا عنه القوم لكن بذل النفوس وإظهار الضعف والاعتراف بالجهل يزيل عنكم الإشكال، وكان

(١) وصدف فإن التابعين عيال على الصحابة في التصوف والأخلاق وتابى التابعين عيال في التصوف والأخلاق على التابعين، وهكذا تنقص كل طبقة عن من جاء قبلها وهي سنة الله في خلقه .

رضي الله عنه يقول جمال الفقير في تواضعه فإذا تكبر فقد زاد على الأغنياء في الكبر وكان رضي الله عنه يقول: إذا صحبت فاصحب الصوفية فإن للقبیح عندهم وجوهاً من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به رضي الله عنه.

ومنهم أبو الحسن المقرئ رضي الله عنه

كان يقول: لو عمل قارئ القرآن بالقرآن لم تحرقه نار الدنيا وكان يقول: يقبح على قارئ القرآن أن يعصي الله ولو مرة في عمره وكان يقول: أعظم الكبائر فساد العلماء، وأشد المصائب زنا القراء، وكان رضي الله عنه يقول: يأتي القرآن يوم القيامة، وحوله المخلصون كالجمال البخت ويدور حوله قوم آخرون فيقول لهم: سحقاً أضعثموني في الدنيا فلا تصحبوني في الآخرة.

ومنهم السيد عبد الله من أولاد إبراهيم بن الحسن

بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

كان رضي الله عنه يقول: رأيت جدي رضي الله عنه فقلت: يا رسول الله من أقرب الناس إليك من أمتك؟ فقال: من ترك الدنيا وراء ظهره وجعل الآخرة نصب عينيه ولقيني وكتابه مطهر من الذنوب. ومات رضي الله عنه ودفن بالقرب من الإمام الليث رضي الله عنه.

ومنهم سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد

بن محمد الزجاج رضي الله عنه

كان أبوه يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريري، أصله من نهاوند مولده ومنشؤه بالعراق وكان فقيهاً يفتي الناس على مذهب أبي ثور صاحب الإمام الشافعي وراوي مذهبه القديم.

صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب وكان من كبار أئمة القوم وسادتهم. وكلامه مقبول على جميع الألسنة. مات رضي الله عنه يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين وقبره ببغداد طاهر يزوره الخاص والعام.

ومن كلامه عليه السلام: إن الله يخلص إلى القلوب من بره على حسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره فانظر ماذا خالط قلبك، وكان يقول: التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله الصرف عن الدنيا كما قال حارثة: صرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى وكان عليه السلام يقول: الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار، وكان يقول: إذا رأيت الفقير فلا تبدأ بالعلم وأبدأ بالرفق فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه، وكان يقول: كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن حضور وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات، وكان يقول: من أشار إلى الله تعالى وسكن إلى غيره ابتلاه بالمحن وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع إلى الله وحده كشف الله عنه المحن وإن دام على السكون إلى غيره نزع الله من قلوب الخلائق الرحمة عليه، وألبسه لباس الطمع فيهم فتزداد مطالبته منهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزاً وموته كمدأ وآخرته أسفاً، ونحن نعوذ بالله من الركون إلى غير الله، وكان يقول: أكثر الناس علماً بالآفات أكثرهم آفات. وسئل عليه السلام عن العارف؟ فقال: إن لون الماء لون إنائه أي هو بحكم وقته^(١)، وكان يقول: مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة، وسئل عن قرب الله تعالى؟ فقال: بعيد بلا اقتراب قريب بلا التزاق وكان يقول: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فلا يلق الناس فإن هذا زمان وحشة فالعاقل من اختار فيه العزلة، وجاءه رجل مرة بخمسمائة دينار فوضعها بين يديه وقال فرقها على جماعتك فقال: ألك مال غير هذا؟ قال: نعم قال: أتطلب زيادة على ما عندك؟ قال: نعم فقال له الجنيد: خذها فإنك إليها أحوج منا ولم يقبلها، وكان عليه السلام يقول: الشكر فيه علة لأن الشاكر طالب لنفسه به المزيد فهو واقف مع الله تعالى على حظ نفسه بالشكر، ولكن الشكر ألا ترى نفسك أملاً للرحمة، وكان عليه السلام يقول: المرید الصادق غني عن علم العلماء وإذا أراد الله بالمرید خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء وكان يقول:

(١) ومقصوده قلبه في الأحوال القبضية والبسيطة وهي أحوال قاهرة لا حكم فيها للعارف سوى ما يتعرض له من قبل حضرة مولاه، فالعارف هو عبد الحضرة وبواب عليها وسادن لها، كالشجرة الخاضعة لما يهب عليها، فيوم مطير ويوم معتدل ويوم شديد الحر وهكذا تتقل في الأحوال.

التصوف إن تكون مع الله تعالى بلا علاقة وتارة يقول: هو عنوة لا صلح فيها^(١)، وتارة يقول: هم أهل بيت لا يدخل معهم غيرهم وكان ﷺ يقول: إذا رأيت الصوفي يعبا بظاهره فاعلم أن باطنه خراب وكان يقول: لقيت إبليس يمشي في السوق عرياناً ويبيده كسرة خبز يأكلها فقلت له: أما تستحي من الناس فقال: يا أبا القاسم وهل بقي على وجه الأرض أحد يستحي منه من كان يستحي منهم تحت التراب قد أكلهم الثرى. وسئل ﷺ مرة عن التوحيد الخالص فقال: أن يرجح العبد إلى قوله فيكون كما كان قبل أن يكون وكان يقول التوحيد الذي انفرد^(٢) به الصوفية هو إفراد القدم عن الحدث والخروج عن الأوطان وقطع المحارب وترك ما علم وجهل ويكون الحق مكان الجميع، وكان ﷺ يقول: علم التوحيد قد طوى بساطه منه عشرين سنة^(٣)، والناس يتكلمون في حواشيه، وسئل عن الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذرية في الميثاق الأول بقوله:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) استقرعت عذوية سماع الكلام الأرواح فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك وكان ﷺ يقول: تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن عند السماع فإنهم لا يسمعون إلا من حق، ولا يقومون إلا عن وجد وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند مجارة العلم فإنهم لا يذكرن إلا أحوال الأولياء.

وكان ﷺ يقول: دخلت يوماً على السري فوجدت عنده رجلاً مفشياً عليه فقلت له: ماله؟ فقال: سمع آية من كتاب الله تعالى فقلت له: يقرأ عليه الآية

(١) لكون المرید فی حرب وجهاد مریر مع نفسه.

(٢) وهو التوحيد الخاص بالعارفين، كما حكى ذلك الشيخ الأكبر في صدر الفتوحات المكية، وهو التوحيد الذي تحدث عنه أبو هريرة ﷺ فقال: (حملت عن رسول الله ﷺ وعائين، فأما أحدهما فبثته فيكم، وأما الآخر فلو بثته فيكم لقطعتم مني الحلقوم).

(٣) قلت: في الحقيقة أن علم التوحيد قد طوى بساطه منذ قبض سيدنا محمد ﷺ وصار الناس بعده يتكلمون في حواشيه.

مرة أخرى فقرئت فأفاق الرجل فقال السري: من أين علمت هذا^(١)؟ فقلت له: إن قميص يوسف عليه السلام ذهب بسببه عينا يعقوب عليه السلام ثم عاد بصره به فاستحسن ذلك مني.

وكان يقول: مبنى التصوف على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: السخاء وهو لإبراهيم، والرضا وهو لإسحاق، والصبر وهو لأيوب، والإشارة وهي لذكريا، والغربة وهي ليحيى، ولبس الصوف وهو لموسى، والسياسة وهي لعيسى، والفقر وهو لمحمد صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين.

وحكي أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يدفن معه جميع ما هو منسوب إليه من علمه فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: أحببت أن لا يراني الله تعالى وقد تركت شيئاً منسوباً إلي وعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهر الناس وكان يقول: لا تصفو القلوب لعلم الآخرة إلا إذا تجردت من الدنيا فانظر في ابتداء أمرك على إخراج الدنيا من شرك واحذر أن لا يبقى عليك منها دفين هوى كامن فيك فيوقفك ذلك عن النفاذ والترقي ولا يقدر شيخك ينقلك عن ذلك خطوة ما دمت كذلك فاسمع له وأطع. وسئل صلى الله عليه وآله عن المعرفة بالله هل هي كسب ضرورة فقال صلى الله عليه وآله: رأيت الأشياء تدرك بشيئين فما كان منها حاضراً فبالحسن، وما كان منها غائباً فبالدليل، ولما كان الحق تعالى غير باد لحواسنا كانت معرفته بالدليل والفحص إذ كنا لا نعلم الغيب والغائب إلا بالدليل ولا نعلم الحاضر إلا بالحس، وكان صلى الله عليه وآله يقول: ما رأيت أحداً عظم الدنيا فقرت عينه فيها أبداً إنما تقر فيها عين من حقرها، وأعرض عنها، وكان يقول: من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله عليه سبعين باباً من التوفيق، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة، فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان من حيث لا يشعر، وكان صلى الله عليه وآله يقول: ما احتشم صاحب من صاحبه أن يسأله حاجة إلا لنقص في أحدهما وكان يقول: إن للعلم ثمناً فلا

(١) قلت: فيه دلالة على جواز اجتهاد المرید المفتوح عليه بين يدي شيخه.

(٢) قلت: وكانت هذه الأخلاق كلها مجتمعة في نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ومن تأمل سيرته جيداً بتبصر وجدها فيه صلى الله عليه وآله.

تعطوه حتى تأخذوا ثمنه قيل له وما ثمنه قال: وضعه عند من يحسن حمله ولا يضيعه. رُقيل له مرة ما بال أصحابك يأكلون كثيراً؟ فقال: لأنهم يجوعون كثيراً قيل له: فما بالهم لا تهمهم قوة شهوة؟ فقال: لأنهم لم يذوقوا طعم الزنا ويأكلون الحلال قيل له: فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون؟ قال: وأي شيء في القرآن يطرب في الدنيا القرآن حق نزل من عند حق لا يليق بصفات الخلق عند كل حرف منه على الخلق واجب لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله عز وجل به، فإذا سمعوه في الآخرة من قائله أطربهم قيل له: فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والغناء فيطربون؟ فقال: لأنها مما عملت أيديهم ولأنه كلام المحبين قيل له: فما بالهم محرومين من أموال الناس؟ فقال: لأن الله تعالى لا يرضى لهم ما في أيدي الناس لئلا يميلوا إلى الخلق فيقطعوا عن الحق تعالى فأفرد القصد منهم إليه اعتناء بهم.

ولما حضرته الوفاة دخل عليه أبو محمد الجريري رحمته الله فقال: ألك حاجة؟ قال: نعم إذا مت ففسلني وكفني وصل علي فبكى الجريري وبكى الناس معه ثم قال له الجنيد وحاجة أخرى فقال: وما هي؟ فقال: تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة، فإذا انصرفوا من الجنازة رجعوا إلى ذلك حتى لا يقع لهم تشتيت، فبكى الجريري ثم قال: والله لئن فقدنا هاتين العينين ما اجتمع منا اثنان أبداً قال أبو جعفر الفرغاني: فكان والله كذلك الأمر بعد وفاة الجنيد وإنما كان كذلك الاجتماع ببركة الشيخ ورؤيته (١). قال الجريري وكان في حوار الجنيد رجل مصاب في خربة فلما مات الجنيد رحمه الله تعالى ودفناه ورجعنا من جنازته تقدمنا ذلك المصاب فصعد موضعاً عالياً وقال: يا أبا محمد أتراني أرجع إلى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد ثم أنشأ يقول:

(١) قلت: وإنما تحدث الفرقة بموت المشايخ لأن الكل كان يستقى من ذلك الشيخ فمنهم من يطمع فيؤدى رسالته في مكان آخر لكي ينفع الله به قوماً آخرين غير إخوانه، ومنهم من يذهب ويكمل سلوكه على يد شيخ آخر وهو الذي لم يطمع بعد، ومنهم من يكره البقاء في المكان لاختفاء الشيخ منه وهو المحب والفاني فيه، ولا يبقى في مكان الشيخ سوى خليفته ومن يتربى تحت نظره.

وأسفني من فراق قومهم المصائب والحصون
 والمدن والمزن والرواسي والخير والأمن والسكون
 لم تفسر لنا الليالي حتى توفيتهم المنون
 فكل جمر لنا قلوب وكل ماء لنا عيون
 قال ثم غاب عنا فكان ذلك آخر العهد به رضي الله عنه.

ومنهم أبو عثمان الحيري النيسابوري رضي الله عنه

أصله من الري صحب قديماً يحيى بن معاذ الرازي وشاه بن شجاع
 الكرمانى ثم رحل إلى نيسابور قاصداً أبا حفص الحداد رضي الله عنه فزوجه ابنته وأخذ
 عنه طريقته وكان رضي الله عنه أوحده المشايخ في سيرته ومنه انتشرت طريقة التصوف
 في نيسابور. مات رحمه الله سنة ثمان وتسعين ومائتين بنيسابور.

ومن كلامه رضي الله عنه: لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء المنع
 والعطاء والذل والعز^(١) وكان رضي الله عنه يقول: صحبت أبا حفص الحداد وأنا شاب
 فطرطني مرة وقال: لا تجلس عندي فقمتم ولم أوله ظهري، فانصرفت إلى ورائي
 ووجهي إلى وجهه حتى غبت عنه^(٢) وجعلت في نفسي أن أحتفر حفيرة على
 بابي ولا أخرج منها إلا بأمره فلما رأى مني ذلك أدناني وجعلني من خواص
 أصحابه، وكان رضي الله عنه يقول: أصل العداوة من ثلاثة أشياء الطمع في المال وفي
 إكرام الناس وفي قبول الناس وكان يقول: انخوف من الله تعالى يوصلك إلى
 الله، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله عز وجل، واحتقار الناس في
 نفسك مرض عظيم لا يداوى، وكان يقول أنت في سجن ما تبعت مرادك فإذا
 فوضت وسلمت استرحت، وكان يقول: اصحبوا الأغنياء بالتعزز، والفقراء
 بالتذلل، فإن التعزز على الأغنياء تواضع والتذلل للفقراء شرف، وقيل له: هل
 (١) وهم أهل الاستواء، وهو مقام ألا ترجح كفة على كفة قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا
 صباح ولا مساء.

(٢) وكان أحد الأبدال ممن صحبناه متخلفاً بهذا الخلق.

يمكن العاقل أن يقيم العذر لمن ظلمه ؟ فقال: نعم يعلم أن الله تعالى هو الذي سلطه عليه، وكان يقول: من سحب أولياء الله تعالى وفق للوصول إلى الطريق إلى الله تعالى وكان يقول: لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال.

وكان رحمته الله يقول: الزهد في الدنيا هو ألا يبالي بمن أخذها وكان يقول: إن الله تعالى يعطي الزاهد فوق ما يريد ويعطي المستقيم موافقة ما يريد، وكان يقول: من لم تصح إرادته لا تزيده الأيام إلا إداراً عن الطريق طوعاً أو كرهاً وكان رحمته الله يقول: إذا صحت المحبة تأكد على المحب ملازمة الأدب.

وكان يقول: السماع على ثلاثة أقسام: قسم منها للمبتدئين والمرادين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ولكن يخشى عليهم في ذلك الفتنة والرياء، والقسم الثاني للصادقين يطلبون به الزيادة في أحوالهم ويسمعون من ذلك ما وافق أوقاتهم، والقسم الثالث لأهل الاستقامة من العارفين رحمته الله.

ومنهم أبو الحسين أحمد بن محمد النوري رحمته الله

بفدادي المنشأ والمولد يعرف بابن البغوي وكان من جملة المشايخ وعلماء القوم لم يكن في وقته أحسن طريقة منه ولا اللف كلاماً منه، سحب سرى السقطي ومحمد بن القصاب وكان من أقران الجنيد رحمه الله تعالى، مات سنة خمس وتسعين ومائتين، وكان يقول: أعز الأشياء في زماننا هذا شيئان عالم يعمل بعلمه وعارف ينطق عن حقيقة وكان يقول: الجمع بالحق تفرقة عن غيره والتفرقة عن غيره جمع به، وكان يقول: ليس التصوف رسوماً ولا علوماً وإنما هو أخلاق، وكان رحمته الله يقول: من لم يعرف الله تعالى في الدنيا لم يعرفه في الآخرة وكان يقول منذ عرفت ربي ما اشتيتها شيئاً ولا استحسنيت شيئاً وكان يقول: من رأيت يركن إلى غير أبناء جنسه ويخالطهم فلا تقرين منه ومن رأيت يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية فلا ترج خيره ومن رأيت من الفقراء غافل القلب عند السماع فاتهمه وكان يقول: لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه

عن الذكر، وكان يقول: هذا زمان المعروف فيه زلل والصواب فيه خطأ والوداد فيه دخل ولما وقع بينه وبين المعتضد ما وقع خرج إلى البصرة فأقام بها إلى أن توفي المعتضد بالله خوفاً أن يسأل الشفاعة إليه في حاجة، فلما مات المعتضد عاد النوري إلى بغداد. وأصل الواقعة أنه مر عليه أذنان من خمر فكسرهما، فحملوه إلى المعتضد فقال له المعتضد: من أنت وكان يسفه قبل كلامه فقال: محتسب فقال: من ولاك الحسبة؟ قال: الذي ولاك الخلافة وأغلظ عليه القول ثم خرج من بلاده وكان يقول: وقفت على شيخ يضرب بالسياط فعددت عليه ألفاً وهو ساكت فاستحسننت صبره مع كبر سنه فلما أدخل الرجل الحبس دخلت عليه فسألته عن صبره مع كبر سنه فقال: يا أخي إنما يحمل البلاء الهمم لا الأجسام قال التفليسي رحمه الله تعالى: وكان النوري إذا دخل مسجد الشونيزية^(١) انقطع ضوء السراج من ضياء وجهه، فلذلك سمي النوري قال وكان إذا حضر معنا لا تؤذينا البراغيث رضي الله عنه.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن يحيى بن الجلاء رضي الله عنه

ويقال أحمد وهو الأصح، بغدادي الأصل أقام بالرملة ودمشق وكان من جملة المشايخ بالشام صحب أبان وذا النون المصري وأبا عبيد البصري وكان عالماً وهو أستاذ محمد بن داود الرقي.

ومن كلامه رضي الله عنه: من استوى عنده الذم والمدح فهو زاهد، ومن حافظ على الفرائض في أول وقتها فهو عابد، ومن رأى الأفعال كلها من الله سبحانه وتعالى فهو موحد، وقيل له: ما تقول في الرجل يدخل البادية بلا زاد؟ فقال: هذا من فعل رجال الله، قيل فإن مات؟ قال: الدية على القاتل^(٢) وكان يقول: من غير الحق تعالى أنه لم يجعل لأحد عليه طريقاً، ولم يؤيس أحداً من الوصول إليه وترك الخلق في مفازة البحر يركضون، في^(٣) بحار الظن يفرقون، فمن ظن أنه

(١) الشونيزية هي أول خانقاه في تاريخ الإسلام أنشأت للصوفية.

(٢) أي علي الله لأنه القاتل الحقيقي.

(٣) الأصح (وفي) حتى يستقيم الكلام.

واصل فاصله، ومن ظن أنه فاصل واصله، فلا وصول إليه ولا مهرب عنه ولا بد منه، وكان يقول من علت همته على الأكوان وصل إلى مكوناتها. ومن وقف نفسه على شيء سوى الحق تعالى فاته الحق لأنه أعز من أن يرضى معه شريكاً، وكان عليه السلام يقول: لو أن رجلاً عصى الله تعالى بين يدي ثم استتر عني بجدار لم يسعني من الله تعالى أن أعتقد عدم توبته لاحتمال أنه تاب عليه السلام.

ومنهم أبو محمد رويم بن أحمد عليه السلام

هو بغدادى الأصل من جملة مشايخ بغداد وكان فقيهاً على مذهب داود الأصفهاني، مات رويم رحمه الله تعالى سنة ثلاث وثلاثمائة ودفن بالشويزية، ومن كلامه عليه السلام: من حكمة الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ويضيق على نفسه فيها فإن التوسعة عليهم اتباع للعلم والتضييق على نفسه من حكم الورع، وكان عليه السلام لا يعبأ بالمريد إذا لم يبذل روحه في الطريق ويقول: لا ينال هذا الأمر إلا ببذل الروح فإن أمكنك الدخول فيه على هذا وإلا فلا تشتغل بزخارف الكلام، وكان يقول من قعد مع القوم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه، وكان عليه السلام يقول: لا تزال الصوفية بخير ما تنافروا^(١) فإذا اصطلحوا هلكوا وسئل عليه السلام عن المحبة فقال: هي الموافقة في جميع الأحوال وأنشد:

ولو قيل مت قلت سمعاً وطاعة وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

وقيل له مرة: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من دينه هواه وهمته شقاه ليس بصالح تقي ولا عارف تقي، وكان عليه السلام يقول: للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه جل وعلا وكان يقول: لي منذ عشرين سنة لم يخطر في قلبي ذكر الطعام حتى يحضر ولي منذ عشرين سنة أصلي الغداة بوضوء العشاء الأخيرة عليه السلام.

(١) قلت: لأن في تنافرهم مصلحة للدين وللخلق قال سبحانه: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، وأقل سبب في ذلك أنهم لو أحبوا بعضهم وجلسوا في مكان واحد لفرغت بقية الأرض منهم ولما استفاد منهم العباد، ومنهم من يقومون في عدة أماكن مختلفة بالأمر الإلهي الذي لا يقبل التفاوض، ولو خيروا لما ظهروا وأقاموا في تلك الأماكن.

ومنهم أبو عبد الله

محمد بن الفضل البلخي رحمته الله

أصله من بلخ ولكنه أخرج منها بسبب المذهب وجاء إلى سمرقند واستوطنها ومات بها سنة تسع عشرة وثلاثمائة وكان من كبار المشايخ بخراسان وصحب أحمد بن حنبل البلخي وغيره من المشايخ ولم يكن أبو عثمان الحيري يميل إلى أحد من المشايخ ميلاً إليه وكان رحمته الله يقول: لو وجدت في نفسي قوة لدخلت إلى أخي محمد بن الفضل سمسار الرجال، وكان رحمته الله يقول: الدنيا بطنك فبقدر زهدك في بطنك تزهد في الدنيا وكان رحمته الله يقول: العجب ممن يقطع المفاوز حتى يصل إلى الكعبة والحرم لأن بهما آثار الأنبياء عليهم السلام كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه لأن فيه آثار ربه عز وجل ؟ وكان رحمته الله يقول: إذا رأيت المرید يستزید من الدنيا وأمتعتها فذلك من علامة إداره وكان يقول: من الشقاء أن يرزق العبد صحبة الصالحين ولا يحترمهم. وروي أن أهل بلخ لما نفوه من البلد دعا عليهم وقال: اللهم امنعهم الصدق فلم يخرج من بلخ بعده صديق^(١) أبداً رحمته الله.

ومنهم أبو بكر نصر

بن أحمد بن نصر الدقاق الكبير رحمته الله

كان من أقران الجنيد ومن كبار مشايخ مصر. قال الكفائي: لما مات الدقاق انقطعت حجة الفقراء في دخولهم مصر وكان رحمته الله يقول: آفة المرید ثلاثة أشياء التزويج وكتابة الحديث^(٢) ومعاشرة الضد، وكان يقول: لا يصلح هذا الأمر إلا لأقوام قد كنسوا بأرواحهم المزابيل على رضا منهم واختيار، وكان يقول: عطشت مرة فاستقبلني جندي فسقاني شربة فعاتت قساوتها في قلبي ثلاثين سنة رحمته الله.

(١) قلت: إنما يكون دعاء الصالحين على أهل النفاق ويأمر إلى صرف لا يد فيه للولى.

(٢) هذا وجهة نظر خاصة به هو وحده في قضية الزواج وكتابة الحديث.

ومنهم أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي رضي الله عنه

كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة ولقي أبا عبد الله الناجي^(١) وأبا سعيد الخراز وغيرهما من المشايخ وكان شيخ القوم في وقته وإمام الطائفة في الأصول والطريقة وله كلام حسن وروى الأحاديث عن محمد بن إسماعيل البخاري وغيره.

مات سنة إحدى وتسعين ومائتين وكان رضي الله عنه يقول: التوبة فرض على جميع المذنبين والعاصين صغر الذنب أو كبر وليس لأحد في ترك التوبة عذر وكان رضي الله عنه يقول: كلما توهمه قلبك أو سنع في مجاري فكرك أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو أنس أو ضياء أو جمال أو شبح أو نور أو شخص أو خيال فالله عز وجل بخلاف ذلك كله هو أجل وأكبر وأعظم وكان رضي الله عنه يقول: لقد وبخ الله عز وجل التاركين للصبر على دينهم بما أخبرنا به عن الكفار أنهم قالوا: «امشوا وأصبروا على أهتكم» فهذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه. وحكى أنه رأى الحسين بن منصور الحلاج يوماً وهو يكتب شيئاً فقال: ما هذا ؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن فدعا عليه وهجره^(٢) قال الشيوخ فالذي أصاب الحلاج وحل به من البلاء كان من ذلك الدعاء رضي الله عنه.

ومنهم أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص رضي الله عنه

سمى نفسه سمنوناً الكذاب صحب السري السقطي وغيره، وكان رضي الله عنه يتكلم في المحبة أحسن كلام، وهو من كبار المشايخ رضي الله عنه مات بعد أبي القاسم الجنيد على ما قيل ومن كلامه رضي الله عنه: لا يعبر عن شيء إلا بما هو أرق منه ولا شيء أرق من المحبة فيم يعبر عنها وقال علي بن الحسين رضي الله عنه: رأيت سمنوناً

(١) وصوابها النبأحي بالحاء كما ورد في طبقات الصوفية للسلمي.

(٢) قلت: هذه الحكاية لا تصح في حق الحلاج، وهي مكذوبة عليه، ولو صحت في حقه لكفر، وكيف يصدر مثل هذا من صوفي موحد مثل الحلاج؟ قد بلغ في الولاية مقعد صدق عند ملك مقتدر، وكان له الرسوخ الكامل في علم الذوق والحقائق، وكتب التاريخ مشحونة بالأكاذيب في حق الأفراد والأعلام.

جالساً يوماً على شاطئ الدجلة وبيده قضيب يضرب به ساقه وفجذه حتى تبدد لحمه، وتناثر وهو ينشد ويقول:

كان لي قلب أعيش به ضاع مني في قلبه
رب فارده على فقد عيل صبري في طلبه
وأغث ما دام لي رمق غيات المستفيث به

وسئل مرة عن التصوف فقال: هو أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء وكان رضي الله عنه يقول: اجتمعت برجل فقير نقر له خشبة في البحر له فيها منذ ثلاثين سنة فقلت له: حدثني بأعجب ما رأيت في البحر فقال: هبت علي في بعض الليالي ريح عظيمة حتى أظلم البحر فداخني من ذلك وحشة عظيمة فطلبت من الله شيئاً يزيل تلك الوحشة وإذا بتين عظيم فاتح فاه فالتقتي الخشبة نحوه فدخلت في فيه وجلست على ناب من أنيابه وصلبت ركعتين فزال تلك الوحشة وحصل عندي أنس عظيم رضي الله عنه (١).

ومنهم أبو عبيد البصري رضي الله عنه

هو من قدماء المشايخ صحب أبا تراب النخشي، ومن كلامه رضي الله عنه: لا تدخل العلة إلا من الأمن ولا يوجد المزيد إلا من الحذر حذر أقوام فسلموا وأمن أقوام فعضبوا، وكان يقول: ذكر الله تعالى باللسان دون القلب رياء رضي الله عنه.

ومنهم أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني رضي الله عنه

كان من أكابر مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة في علوم الأوقاف والرياضات والمجاهدات والمعارف صحب محمد بن علي الترمذي ومحمد بن الفضل رضي الله عنه ومن كلامه رضي الله عنه: من علامة السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه وموافقته لسنة في أفعاله ومحبته لأهل الصلاح وحفظ أخلاقه مع الإخوان (١) وهذا هو مقام التمكين، كما حكى عن قضيب البان الموصلي رضي الله عنه أنه لما ألقى للأسد صار الأسد يشمه وهو متفكر لا يابه له ولم يأكله ومضى، فسئل بمد ذلك عن سبب تفكره بين يدي الأسد فقال: كنت أفكر في سوره أطاهر هو أم نجس؟.

وبذل معروفه للخلق، واهتمامه بأمر المسلمين، ومراعاته لأوقاته، وعلامة الشقاوة على العبد أن يكون بالضد من هذه الصفات، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أصح الطرق إلى الله تعالى وأمرها وأبعدها عن الشبه اتباع السنة قولاً وفعلاً وعزماً وقصداً ونية، لأن الله تعالى يقول: "وإن تطيعوه تهتدوا" ف قيل له كيف الطريق إلى اتباع السنة؟ فقال: مجانبة البدع، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريق الاقتداء بمن سبق قال تعالى:

﴿وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء: ١٢٥) وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الخلق كلهم في ميادين الغفلة يركضون وعلى الظنون يعتمدون وعندهم أنهم على الحقيقة يتقلبون وعن المكاشفة ينطقون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم أبو الفوارس (١)

شاه بن شجاع الكرمانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشي وأبا عبيد البسري وكان من أجل الفتيان وعلماء هذه الطائفة وله رسالات مشهورة.

ومن كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من صحبك ورافقك على ما يحب وخالفك فيما يكره فإنما صحبك لهواه فهو طالب بصحبتك راحة الدنيا لا غير، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لأهل الفضل فضل ما لم يروه فإذا رأوه فلا فضل لهم ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها، فإذا رأوها فلا ولاية لهم، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله تعالى، فإذا أحب أولياء الله فقد أحب الله وإذا أحب الأولياء فقد أحب الله تعالى، وكان يقول: لا يعجب معجب بنفسه إلا وهو محجوب عن ربه، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إذا كان العالم في هذا الزمان قد صار في ظلمة علمه؛ فكيف بالجاهل المقبم في ظلمة جهله مع أن ظلمة العلم أشد لكونها غلبت نور العلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) هو من أبناء الملوك وقد ذكرته في كتابي «طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصفوا».

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رحمته الله

شيخ الري والجبال في وقته وكان عالماً أديباً وكان من طريقته إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشي.

مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وكان رحمته الله يقول: لما علم القوم أن الله عز وجل يراهم استحيوا من نظره أن يراعوا شيئاً سواه، وكان يقول في دعائه: اللهم إنا نبات زرائع نعمتك فلا تجعلنا حصائد نعمتك، وكان يقول: أرغب الناس في الدنيا أكثرهم ذمماً لها عند أبنائها لأن مذمتهم لها عندهم حرفة وما أقبحها حرفة يزهدهم فيها، ثم يأخذها هو منهم في المجلس وكان يقول: نظرت في آفات الصوفية فرأيتها في معاشرة الأضداد^(١) والميل إلى النسوان وكان رحمته الله يقول: للدنيا طغيان وللعلم طغيان فمن أراد النجاة من طغيان العلم فعليه بالعبادة، ومن أراد النجاة من طغيان المال فعليه بالزهد فيه، وكان رحمته الله يقول: بالأدب تفهم العلم وبالعلم يصح لك العمل وبالعمل تتال الحكمة وبالحكمة تغنم الزهد وتوفق له وبالزهد تترك الدنيا وبترك الدنيا ترغب في الآخرة وبالرغبة في الآخرة تتال رضا الله عز وجل، وكان رحمته الله يقول: في معنى حديث: "أرحنا بها يا بلال" أي أرحنا بالصلاة من أشغال الدنيا وحديثها لأنه رحمته الله كانت قرة عينه في الصلاة وكان يقول: إذا أردت أن تعرف العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فإن قبله فاعلم أنه أحمق، وكان يقول: إذا رأيت المرید يشتغل بالرخص وفواضل العلوم فاعلم أنه لا يجيء منه شيء، وكان يقول: من وقع في بحار التوحيد لم يزد على ممر الأيام إلا عطشاً، وكان رحمته الله يقول: توحيد^(٢) الخاصة هو أن يكون بسرره ووجده وقلبه كأنه قائم بين يدي الله يجزي عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته في بحار توحيده بالفناء عن نفسه وذهاب حسه بقيام

(١) ومقصوده بمعاشرة الأضداد هو أن يعاشر الصوفي الأشخاص الذين ليسوا من ثوبه كالنساء وأبناء الدنيا وغيرهم ممن يعطله عن سلوك القوم.

(٢) اعلم أن توحيد الخواص لا يتذوقه غيرهم من الأكابر، إذ الناس عيال على الصوفية في علم تجريد التوحيد، والناس لم يشموا ذرة مما تحقق به الصوفية في توحيد الخالق عز وجل.

الحق تعالى له في مراده منه، فيكون كما هو قبل أن يكون في جريان حكمه عليه، وكان عليه السلام يقول: في كل أمة وديعة أخفاهم الله تعالى عن خلقه فإن يكن منهم في هذه الأمة شيء فهم الصوفية وكان عليه السلام إذا سمع القرآن لا تقطر له دمعة وإذا سمع شعراً قامت قيامته ثم يلتفت إلى الحاضرين ويقول: أتولمون أهل الري على قولهم يوسف بن الحسين زنديق هم معذورون (١) عليه السلام.

ومنهم أبو عبد الله محمد

بن علي بن الحسين الترمذي الحكيم عليه السلام

لقي أبا تراب النخشي وصحب أبا عبد الله بن الجلاء، وأحمد بن حضرويه، وهو من كبار مشايخ خراسان وله التصانيف المشهورة وكتب الحديث، وكان عليه السلام يقول: ما صنفت حرفاً عن تديير ولا لينسب إلي شيء من المؤلفات، ولكن كان إذا اشتد علي وقتي أتسلى به، وسئل مرة عن صفة الخلق ؟ فقال : ضعف ظاهر ودعوى عريضة وكان عليه السلام يقول: من شرائط الخدام التواضع والاستسلام، وكان يقول: كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره، وكان يقول: دعا الله الموحدين للصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهياً لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه سبحانه وتعالى، فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهم عرش الوجدانية، وكان عليه السلام يقول: صلاح الصبيان في المكتب، وصلاح قطاع الطريق في السجن، وصلاح النساء في البيوت وكان عليه السلام يقول: المحدث والمتكلم إذا تحققا في درجتهم لم يخافا (٢) من حديث النفس، كما أن النفوس محفوظة بالنسخ لإلقاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة مصون عن إلقاء النفس محروس بالحق عليه السلام.

(١) ربما كان هذا حجاباً أمام الناس لكي يراه الناس في صورة التقصير، كما حكى عن أبي سعيد الميهني عليه السلام أنه كان يجلس في الحانة ويجلس أمامه صبياً جميلاً وهو ابنه ويضع أمامه زجاجة خل، فيظن الناس أن الشيخ يجلس وأمامه زجاجة خمر ومعه صبي جميل، وكان الكثير من الصوفية يضعون لأنفسهم حجباً، تحجب الناس عنهم ولكي يخفون مقاماتهم ومناقبهم بين الوري.

(٢) يقول الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر. إن الأنبياء غير معصومين من الوسوسة ولكن معصومون من العمل بها، واستشهد بقوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته).

ومنهم أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق رحمته الله

أصله من ترمذ وأقام ببلخ لقي أحمد بن حنبل وصحب محمد بن سعد الزاهد ومحمد بن عمر البلخي له التصانيف المشهورة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات. ومن كلامه رحمته الله لو قيل للطمع من أبوك ؟ لقال : الشك في المقدور، ولو قيل له ما حرفتك لقال اكتساب الذل، ولو قيل له ما غايتك لقال: الحرمان، وكان رحمته الله يمنع أصحابه من السفر والسياحات ويقول مفتاح كل بركة التصبر في موضع إرادتك إلى أن تصح لك الإرادة فإذا صححت لك الإرادة فقد ظهر عليك أوائل البركة، وكان يقول: الناس ثلاثة العلماء، والفقراء، والأمراء فإذا فسد الأمراء فسد المعاش، وإذا فسد العلماء فسدت الطاعات، وإذا فسد الفقراء فسدت الأخلاق، وكان يقول: من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق، ومن اكتفى بالزهد دون الكلام والفقه ابتدع ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والورع تفسق، ومن جمع هذه الأمور كلها تخلص وكان رحمته الله يقول: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين، وكان رحمته الله يقول: عوام الخلق هم الذين سلمت صدورهم، وحسنت أعمالهم وطهرت ألسنتهم وفروجهم، فإذا خلوا^(١) من هذا فهم من الفراعنة لا من العوام، وكان يقول: إذا فسدت العلماء غلبت الفساق على أهل الصلاح والكفار على المسلمين والكذبة على الصادقين والمرآون على المخلصين، وتلف الدين كله لأن العلماء رحمته الله هم الزمام، وكان رحمته الله يقول: إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وبغضهم وجفاهم وهناك يصير شيطاناً، وكان يقول: الخلاف يهيج العداوة والعداوة تستنزل البلاء وكان يقول: ما عشق أحد نفسه إلا عشقه الكبر، والحقد، والذل والمهانة وكان يقول: ازهد في حب الرياسة والعلو في الناس إن أحببت أن تذوق شيئاً من طريقة الزاهدين، وكان يقول لو أن أحداً يعلم علم العلماء، ويفهم فهم الفهماء، ويعرف

(١) اعلم أن هذه العبارة لا تستقيم مع قواعد الشريعة والحقيقة إذ من خلا من هذه الفضائل الباطنية كيف يكون من الفراعنة؟ وأظن أن هناك تحريفاً من الناسخ، وصحيح العبارة أن العوام لا بد أن تصيبهم بعض العلل الباطنية.

سحر كل ساحر لا يستطيع أن يستر عورة من عورات نفسه إلا بالصدق فيما بينه وبين الله تعالى ﷺ.

(١)

ومنهم أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ﷺ

هو من أهل بغداد وصحب ذا النون المصري وسريا السقطي وبشرا الحافي وغيرهم، وهو من أئمة القوم وأجلة المشايخ قيل إن أول من تكلم في علم الفناء والبقاء أبو سعيد الخراز. مات ﷺ سنة تسع وسبعين ومائتين. ومن كلامه ﷺ إن الله تعالى عجل لأرواح الأولياء التلذذ بذكره والوصول إلى قربه وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم فعيش أبدانهم عيش الجثمانيين، وعيش قلوبهم عيش الروحانيين، ولهم لسانان ظاهر وباطن فلسان الظاهر يكلم أجسامهم، ولسان الباطن يناجي أرواحهم، وكان ﷺ يقول: العارف يستعين بكل شيء فإذا وصل استغنى بالله وارتفعت همته عن الوقوف عما سواه وافتقر الناس إليه وكان ﷺ يقول: مثل النفس في الصفات كمثّل ماء طاهر واقف صاف فإذا حركته ظهر ما تحته من الحمأ وكذلك النفس تظهر مرتبتها عند المحن، والفاقة والمخالفة لاهوائها، ومن لم يعرف ما طوي من الصفات في نفسه كيف يدعي معرفة ربه، وكان يقول: العارفون خزائن الله أودع الله تعالى فيها علوماً غريبة وأخباراً عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارات أزلية، وكان يقول: لولا أن الله تعالى أدخل موسى ﷺ في كنفه لأصابه ﷺ ما أصاب الجبل وكان يقول في قوله تعالى: "لعلمه الذين يستتبطنه منهم" المستتبطن هو الذي يلاحظ الغيب أبداً فلا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء وقال في قوله: "آيات للمتوسمين" المتوسم هو الذي يعرف الوسم وهو العارف

(١) نقل الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي النقشبندي أنه كشف له عن مقامات الأنبياء والأولياء فرأى معروفاً الكرخي وأبا سعيد الخراز قد فاقا كثيراً من الأولياء حتى أنهم فاقا شيخ طريقته سيدي محمد بهاء الدين نقشبند ورأى فوق الكل مقام أهل البيت ثم مقامات الأنبياء ثم مقام نبينا محمد ﷺ قد ختمهم في النهاية كالتاج فوقهم.

(٢) أي خفف عنه تعرضه للنور المحض وإلا هلك.

بما في سويداء القلوب والاستدلال والعلامات فيميز أولياء الله تعالى من أعداء الله وكان عليه السلام يقول: إذا أراد الله عز وجل أن يوالي عبداً من عبيده فتح له باب ذكره فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب فأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو فحينئذ، صار العبد فانياً فوق في حفظ الله وبرئ من دعاوى نفسه، وكان يقول: أول مقام لمن وجد علم التوحيد وتحقق به فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراجه بالله وحده، وسئل عليه السلام هل يصل العارف إلى حال يجفو عليه البكاء قال: نعم إنما البكاء في وقت سيرهم إلى الله عز وجل فإذا نزلوا إلى حقائق القرب وذاقوا طعم الوصول من بره تعالى زال عنهم البكاء ولذلك ورد "فإن لم تبكوا فتباكوا" أي تنزلوا في المقام ليقنتدي بكم السائرون، وكان لأبي سعيد ولد صالح فمات فرآه بعد وفاته فقال يا بني أوصني فقال لا تجعل بينك وبين الله تعالى قميصاً، فما لبس أبو سعيد قميصاً منذ ثلاثين سنة وكان عليه السلام يقول: ينبغي للصوفي أن يكون لطيف اللبسة ملازماً للخلوة، حسن الصيانة فلا يطلب إلا عند وجود الفاقات، وإلا فهو والكاذبون سواء، وكان يقول أبعد الناس من الله عز وجل من يدعي المعرفة والقرب وأكثرهم إليه إشارة أمقتهم عنده، وكان يقول: لقيت مرة شخصاً متظاهراً بالجنون فتأديته قف يا مجنون فالتفت لي وقال لي: أتدري من المجنون؟ فقلت له لا فقال المجنون من يخطو خطوة ولم يذكر ربه فيها، وكان يقول: لا يتصف عبد بالشرف حتى تصير الأذكار غذاءه والتراب فراشه، وكان يقول: لا تغتر بصفاء العبودية فإن فيها نسيان الربوبية فقليل له فما الخلاص؟ قال: أن يشهد صنع الربوبية في إقامة العبودية، فينقطع عن نفسه ويسكن إلى ربه، وهناك يسلم من الاستدراج^(١) وسئل عليه السلام عن سبب معاداة الفقراء وبغضهم لبعضهم بعضاً مع أنه لا رياسة عندهم فقال: إنما قدر الله عليهم ذلك غيره منه عليهم أن يسكن بعضهم إلى بعض ولكن إذا وقع لهم كمال (١) قلت: والأصح أنه لا أمن مطلقاً من استدراج الحق سبحانه، وعن ذلك قال الصديق الأكبر: لو كانت إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله تعالى.

السير ذهبت البغضاء لأن الكامل^(١) لا يرى هناك من يرسل غضبه عليه من الخلق، وكان ﷺ يقول: أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شيء ورد الأشياء جميعاً إلى متوليها، حتى يكون المتولي بالمتولي ناظراً إلى الأشياء قائماً بها متمكناً فيها، ثم يخفيهم عن أنفسهم في أنفسهم ويظهرهم لنفسه سبحانه وتعالى ﷻ.

ومنهم أبو عبد الله

محمد بن إسماعيل المغربي رحمته الله

كان أستاذ إبراهيم الخواص وإبراهيم بن شيبان صحب علي بن رزين رحمته الله وعاش مائة وعشرين سنة ودفن على جبل طور سيناء مع أستاذه علي بن رزين وكانت وفاته سنة تسع وسبعين ومائتين وكان يأكل من أصول الحشيش دون ما وصلت إليه يد بني آدم رحمه الله تعالى، ومن كلامه رحمته الله الفقير المجرد من الدنيا وإن لم يعمل شيئاً من أعمال الفضائل أفضل من هؤلاء المتعبدین ومعهم الدنيا بل ذرة من عمل الفقير المجرد أفضل من الجبال من أعمال أهل الدنيا، وكان رحمته الله يقول: إن لله تعالى عبداً أسبغ عليهم باطن العلوم وظاهرها، وأخمل ذكرهم فلا يعدون قط مع العلماء "أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" "الأنعام: ٨٢" وكان يقول: ما فطنت إلا هذه الطائفة لكنها احترقت بما فطنت، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان يقول: اجتمعت بشخص من أصحاب أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام وقال: إنه ساكن في الهواء منذ رمى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمنجنيق، فقلت له: ما حملك في الهواء وأنت من بني آدم فقال: توكلت على الله عز وجل، فقلت: وما التوكل؟ قال: النظر إلى الله تعالى دائماً بلا عين تطرف والذكر له بلسان لا يتحرك والجولان في مصنوعاته بلا روح، تغفل رحمته الله.

(١) وذلك لأن الكامل لم تبق فيه بقية لغير الله عز وجل، بل أصبح كله في حضرة الله عز وجل، فكيف يتنازع الحدث ويشغل نفسه به، وإلا سقطت عنه صفة الكمال.

ومنهم أبو العباس أحمد بن مسروق رضي الله عنه

من أفضل أهل طوس وسكن بغداد ومات بها سنة تسع وتسعين ومائتين صحب الحارث المحاسبي والسري وغيرهما وكان من كبار مشايخ القوم وعلمائهم وكان رضي الله عنه يقول: لا ينبغي للفقير سماع^(١) التفزلات إلا إن كان مستقيماً في الظاهر والباطن قوي الحال إماماً في العلم وأما أمثالنا فلا يليق بنا سماعها لأن قلوبنا لم تألف الطاعات إلا تكلفاً ونخشى إن أبجنا لها رخصة أن تتعدى إلى رخص وكان رضي الله عنه يقول: من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك بعقله وكان يقول من كان مؤدبه ربه لا يغلبه أحد، وكان يقول: الزاهد هو الذي لا يملك مع الله سبباً، وكان يقول: لا أزال أحن إلى بدو إرادتي وقوة همتي وركوبي الأهوال طمعاً في الوصول وها أنا الآن في أيام الفترة أتأسف على أوقاتي الماضية، وأتمنى صفاء وقت فلا أجده^(٢)، وكان يقول: المؤمن يتقوى بذكر الله تعالى كما وقع لسيدتنا فاطمة رضي الله عنها حين طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم خادماً ليطحن معها فعلمها النبي صلى الله عليه وسلم التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقال: هن لك أحسن من خادم وأما المنافق فلا يتقوى إلا بالطعام والشراب فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان يقول: ما سر أحد بغير الحق إلا أورثه ذلك السرور الهموم والأحزان، وجاءه مرة شخص فدخل داره لوليمة كانت عند أبي العباس بلا دعوة، فقال أبو العباس: لله علي أن لا أدعه يمشي إلا على خدي حتى يجلس موضع الأكل، فوضع خده على الأرض ومشى عليه الرجل إلى أن بلغ إلى موضع جلوسه، وصار يقول: مثل هذا الرجل يتواضع لي ويحضر وليمتي بأي شيء أكافئه^(٣)، وكان يقول: رأيت القيامة قد قامت ورأيت موائد نصبت، فأردت أن

(١) فالكامل لا يسمع التفزلات ببقية نقصه، وإنما يسمعا بسماع السر ويراهما بمرآة أخرى لا يراها بها غيره، فهو يرى من حيث لا يرى ويسمع من حيث لا يسمعه سواء.

(٢) قلت: وذلك لأن العارف بعد أن يصل إلى مقامه يستريح من الطلب فلا يجد شوق طلب الوصول إلى المحبوب الذي كان يحس به قبل أن يصل، ولذلك قيل إن أهل النهايات يحنون إلى بداياتهم.

(٣) قلت: الكلام له معنى آخر وذلك أن الصوفية لا يحبون لأحد أن يكون له منة عليهم من الخلق، وذلك لأنه أحسن أنه أخطأ في حق الرجل لكونه لم يدعوه، فأراد أن يظهر له عدم التكبر عليه =

أجلس عليها فقالوا لي هذه للصوفية فقلت: أنا منهم فقال لي ملك: قد كنت منهم ولكن شغلك عن اللحوق بهم كثرة الحديث وحبك التمييز على الأقران، فقلت تبت إلى الله تعالى واستيقظت فأقبلت على طريق القوم وقلت للحديث رجال^(١) غيري وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه عليكم بالثقل من المأكَل، والملابس والنوم فقد كنت في بدء أمري ألبس المسوح والليف، وكنت أجمع بشيوخ في الجامع كل يوم جمعة فلا أنصرف إلا عيلاً من تأثير كلامهم في وكانت رؤيتي لهم قوتي من الجمعة إلى الجمعة تغنيني عن الطعام والشراب وكان يقول كنت أوي إلى مسجد فيه سدرة يأوي إليها بلبلان فققد أحدهما صاحبه وبقي الآخر على غصن ثلاثة أيام لا ينزل يرعى ولا يلتقط من الأرض شيئاً، فلما كان آخر اليوم الثالث مر به بلبل فصاح فذكره صاحبه فسقط عن الغصن^(٢) ميتاً، وفي رواية كان عند الشيخ أربعة من التلامذة فخرؤا موتى عند سماع هذه الحكاية رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم أبو الحسن علي بن سهل الأصفهاني رضي الله عنه

وهو من قدماء مشايخ أصفهان كان ي كاتب الجنيد ويراسله وكان من أقرانه صحب بن معلان رضي الله عنه ولقي أبا تراب النخشي وكان إذا بلغه عن أحد من المسلمين أن عليه ديناً يرسل يوفي عنه الدين بغير علم المديون فيأتي صاحب الدين، فيقول للمديون قد وفى الله عنك ولم يعلم الناس بذلك إلا بعد موته رضي الله عنه. ومن كلامه رضي الله عنه: من لم يصح في مبادئ إرادته لا يسلم في منتهى عاقبته، وكان يقول: حرام على قلب عرف الله تعالى أن يسكن إلى غير، فإن سكن عوقب، وكان يقول: الناس من وقت آدم عليه السلام وإلى الآن يقولون القلب

= ففرش له خده حتى يسبقه في الأجر، والأجر لا يؤخذ إلا بالتواضع للخلق وطرح الجانب لهم.

(١) هذه الرؤية فيها حض له لأن يثبت على رتبته التي أقامه الله فيها ولا يستبد لها بطلب علم الظاهر لكونه يدعو إلى حب الرياسة.

(٢) هذا كلام لا يراه ولا يعرفه سوى العارفين.

القلب وأنا أحب رجلاً يصف لي أيش هو القلب فلا أرى^(١)، وكان يقول الفقيه هو الذي لا يدخل تحت المنسوبات إليه، وكان يقول لأصحابه تعوذوا بالله من غرور حسن الأعمال مع فساد يواطن الأسرار.

وسئل عليه السلام عن حقيقة التوحيد فقال قريب من الطرائق بعيد عن الحقائق وكان يقول: لما استولى علي الشوق في بدايتي ألهاني ذلك عن الأكل والشرب والنوم عليه السلام.

ومنهم أبو محمد أحمد

بن محمد بن الحسين الجريري^(٢) عليه السلام

كان من أكابر أصحاب الجنيد عليه السلام صحب سهل بن عبد الله التستري وأقعد بعد موت الجنيد رحمه الله تعالى في موضعه لتمام حاله وصحة طريقته وغازاة علمه.

مات رحمه الله تعالى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة عليه السلام ومن كلامه عليه السلام: من استولت عليه نفسه صار أسيراً في حكم الشهوات محصوراً في سجن الهوى، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ بكلام الله تعالى، ولا يستحليه، وإن قرأ كل يوم ختمة لأنه تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦) يعني أحجبهم عن فهمها وعن التلذذ بها وذلك لأنهم تكبروا بأحوال النفس والخلق والدنيا فصرف الله عز وجل عن قلوبهم فهم مجاطباته وسد عليهم طريق فهم كتابه وسلبهم الانتفاع بمواعظه وحبسهم في سجن عقولهم وآرائهم فلا يعرفون طريق الحق، ولا يتعرفونه بل ينكرون على أهل الحق، ويحرفون كلامهم إلى معان لم يقصدوها، وغاب عنهم أن الله تعالى ما أعطاهم العلم إلا ليحتقروا نفوسهم، ويذلوا للعباد إجلالاً لمن هم عبيد له

(١) اختلف الناس في حقيقة القلب فمن قائل إنه النفس ومن قائل إنه الروح ومن قائل إنه عضو قائم بنفسه ومن قائل إنه تارة يكون نفساً وتارة يكون روحاً وفيما يتقلب بينهما يسمى قلباً لتقلبه بين الروح والنفس.

(٢) هو الذي حمل سر الجنيد بعد موته وأصبح الخليفة من بعده على المريدين.

سبحانه وتعالى، وكان ﷺ يقول: من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة فإن من لا تقوى عنده فوجهه مطموس ومن لا مراقبة له فحاله منكوس، وكان ﷺ يقول: قدمت من مكة فبدأت بأبي القاسم الجنيد لئلا يتعنى لي فسلمت عليه ثم مضيت إلى منزلي فلما صليت الصبح فإذا أنا به خلفي في الصف فقلت له: إنما جئتك أمس لئلا تتعنى لي فقال لي: ذلك فضلك وهذا ححك وقال في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِينَ﴾ (آل عمران: ٧٩) أي سامعين من الله قائلين بالله وكان يقول: لو رأيت من يهجرني لله تعالى لوضعت له خدي وكان يقول: من قرأ القرآن بقصد الدرجات في الجنة فقد رضي بالقليل بدلا عن الكثير لأن الجنة مخلوقة والقرآن غير مخلوق ومعظم الفائدة في قراءة القرآن، إنما هو وجود الرب وفهم خطابه فكيف بمن يطلب بقراءته عرضاً من الدنيا، ومن فعل ذلك فقد فاته خير القرآن كله وكان يقول: انكسف القمر ليلة الجمعة وأنا في مدينة رسول الله ﷺ، فإذا له أسود مكتوب في وسطه بالنور أنا وحدي فغشي علي إلى الصباح وقال في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾ (مريم: ٢٣) إنما قالت مريم ذلك لأن الله تعالى أطلعها على أن عيسى ﷺ سيعبد من دون الله فغمها ذلك فقالت: ﴿يَا لَيْتِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ (مريم: ٢٣)، أي ولم أحمل بمن يعبد من دون الله تعالى فأنطق الله عيسى ﷺ إني عبد الله فلا يضرني أن يدعوا في الإلهية جهلا وكفراً، ﷺ.

ومنهم أبو العباس أحمد

بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي (١) رضى الله عنه

كان من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم له، لسان في فهم القرآن (٢) مختص به صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني ومن فوقهم من المشايخ وكان أبو سعيد الخراز رضى الله عنه يعظم شأنه حتى قال التصوف خلق وما رأيت من أهله إلا

(١) هو أحد تلاميذ الحلاج المخلصين له والمنتصرين له.

(٢) قلت: ولابن عطاء تفسير صوفي مطبوع في إيران وعندي منه نسخة في خزانتي.

الجنيد وابن عطاء مات سنة تسع أو إحدى عشرة وثلاثمائة هـ، وسئل عنه عن المروءة ف فقال: هي أن لا تستكثر لله عملاً وكان عنه يقول: خلق الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للمشاهدة لقوله تعالى: "أو ألقى السمع وهو شهيد" وخلق الأولياء عندهم للمحاورة لقوله عنه: "عز جارك" وخلق الصالحين للملازمة قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ (الفتح: ٣٦) وهي لا إله إلا الله وخلق العوام للمجاهدة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) وكان عنه يقول: من تأدب بآداب الصالحين صلح لبساط الكرامة، ومن تأدب بآداب الأولياء صلح لبساط القرية، ومن تأدب بآداب الصديقين صلح لبساط المشاهدة، ومن تأدب بآداب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صلح لبساط الأنس والانبساط، وكان عنه يقول: لما عصى آدم عنه بكى عليه كل شيء في الجنة إلا الذهب والفضة فأوحى الله تعالى إليهما لم لا تبكيان على آدم فقالا لا نبكي على من يعصيك فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لأجعلن قيمة كل شيء بكما ولأجعلن بني آدم خدماً لكما وكان يقول: السكون إلى مألوف الطباع يقطع صاحبه عن بلوغ درجات الحقائق، وكان يقول: أدن قلبك من مجالسه الذاكرين لعله ينتبه من غفلته وإياك أن تكون حاضراً عند الذاكرين ولا تذكر معهم فتمقت وكان يقول في قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ١٩) أي اقترب إلى بساط الربوبية نعتك من بساط العبودية انتهى والله أعلم.

قلت: وفي هذا نظر لا يخفى^(١)، وكان عنه يقول: المحبة إقامة العتاب على الدوام^(٢) وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة: ١١٨) ما لم يعطف الرب على العبد بالرحمة لم يعطف العبد على الله بالطاعة^(٣) وقال في قوله

(١) وذلك لأن العبودية لا تسقط بالتقرب إلى حضرة الربوبية قال سبحانه عن هذه الحقيقة في حق عبده أحمد: «سبحان الذي أسرى بعبده» إذ لا يتقرب العبد إلى الربوبية إلا بكمال العبودية.

(٢) قلت: ليس كل أحوال المحبين عتاب على الدوام، بل قد يكون هذا في البداية أكثر، ثم يأتي بعد ذلك دوام الوصال والوفاق وكما قال القوم: إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب.

(٣) لا يصح إطلاق لفظ أن العبد يعطف على الرب، فإن هذا اللفظ لا يليق بالربوبية أن يطلق عليها، فحاشاه سبحانه أن يعطف عليه أحد، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء فلا يصح أن يسمعه شيء.

تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه: ١٢٠) إن آدم ﷺ قال يا رب لم أديتني وإنما أكلت من الشجرة طمعاً في الخلود في جوارك فقال يا آدم طلبت الخلود من الشجرة لأمني والخلود بيدي وملكي فأشركت بي وأنت لا تشفر (١) ولكن نيهتك بالخروج حتى لا تتساني في وقت من الأوقات وكان ﷺ يقول: يقول الله تعالى يا ابن آدم إن أعطيتك الدنيا اشتغلت بها عني وإن منعتها اشتغلت بطلبها فمتى تتفرغ لي وكان يقول من حكم المبتدي أن يهتدي بالحقائق ويسير بالعلم ويجد في العمل ولا يقف ولا يلتفت وقال في قوله تعالى لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة أي في الظواهر من الأخلاق الشريفة والعبادات المرضية دون البواطن والأسرار والإشارات ألا ترى إلى قوله ﷺ يوم الخندق "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" إشارة إلى الكون وإلى ما ينطق بالكون إذ كل ما دون الله هو من الكون وأسراره ﷺ لا يطبق حملها أحد من الخلق لأنه باين أمته بالمكان والمباشرة ومن أجل ذلك قال ﷺ لأنس بن مالك ﷺ: "أحفظ سري تكن مؤمناً" وكان ﷺ يقول: من صعب عليه خدمته لم يصل إلى قربه ومن لم يتنعم بذكره في الدنيا لم يتنعم برؤيته في الآخرة، وكان يقول: الهيبة مقرونة بالورع فمن قل ورعه قلت هيئته، وكان يقول: العارف يريح على ما مضى منه في معصية الله تعالى أضعاف ما يريح غيره على طاعة الله تعالى لأن ذنوبه دائماً نصب عينيه لا يفتر عن ذكرها أبداً، وكان يقول: لما قبض رسول الله ﷺ قام أبو بكر ﷺ يسوس الخلق بقضيب مع قوة نسيم النبوة فلما توفي أبو بكر ﷺ تقدم عمر ﷺ على سياسة الناس فأقام حدود الله بدرته ولم يقدر عثمان على سياسة الناس بالدره، فأخرج السوط فلم يستقم له الأمر كما استقام لصاحبيه، فلما استشهد لم يقدر علي ﷺ على شيء يسوس به الخلق غير السيف إذ رأى ذلك صواباً وفي حكاية أخرى عنه قال: كان أبو بكر ﷺ يشم نسيم الرسالة وعمر ﷺ يشم نسيم النبوة وعثمان ﷺ يشم نسيم الاصطفاء وعلي ﷺ يشم نسيم المحبة، فكان بيان إشاراتهم مما خصوا به من

(١) وهو شرك العارفين لا شرك الكافرين.

الكرامة في هجيرهم فكان هجير أبي بكر لا إله إلا الله وكان هجير عمر الله أكبر وكان هجير عثمان سبحان الله وكان هجير علي الحمد لله فكان أبو بكر رضي الله عنه لم يشهد في الدارين غير الله فكان يقول: لا إله إلا الله وكان عمر رضي الله عنه يرى ما دون الله صغيراً في جنب عظمة الله، فيقول: الله أكبر وكان عثمان رضي الله عنه لا يرى التنزيه إلا لله تعالى إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول فكان يقول سبحان الله، وكان علي رضي الله عنه يرى نعمة الله في الدفع والمنع والمحبوب والمكروه فكان يقول: الحمد لله، وكان يقول: ما ارتفع من ارتفع بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا مجاهدة وإنما ارتفع بالخلق الحسن قال رضي الله عنه: "أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً" وكان يقول: ليس مهر من مهور الجنة أحب إلى الحور العين من إعراض العبد عن الدنيا وليس وسيلة للعبد عند الله تعالى أحب إليه من إعراضك عن نفسك وكان رضي الله عنه يقول: إنما ابتلى الخلق بالفراق لئلا يكون لأحد سكون مع غير الله عز وجل وكان يقول: قوام الإسلام وشرائعه بالمنافقين وقوام الإيمان وشرائعه بالعارفين بالله عز وجل^(١) وكان رضي الله عنه يقول: العارف سكوته تسبيح وكلامه تقديس، ونومه ذكر ويقظته صلاة وذلك لأن أنفاسه تخرج على مشاهدة ومعاينة وكان يقول: العارف لا تكليف عليه أي لزوال التعب والنصب عنه فأفعاله الشاقة على غيره لا يتكلف لها بل هي كخروج النفس ودخوله^(٢).

وسئل رضي الله عنه عن معنى الطهارة فقال: الطهارة بالنفوس والصلاة بالقلوب فبغسل الوجه يعرض عن الدنيا وبغسل يديه يكفي الخلق يمناً ويسرة وبمسح الرأس يبرأ عن نفسه وبغسل القدمين يقوم لمناجاة ربه فإذا كبر للصلاة خرج من جميع كليته لتصح له مناجاة ربه.

وقيل له مرة إذا سمع الإنسان شيئاً من العلم فسكنت نفسه إليه ولكن عنده

(١) ربما مقصوده قلة الصدق في عوام المسلمين، وكثرته بين الخواص من العارفين، وهو قول من قال من العارفين: ما أكثر الصالحين وما أقل المخلصين.

(٢) ومقصوده أن كل ميسر لما خلق له، وأن حقيقة الفعل في الذوات إنما هي لله عز وجل.

اعتراض في نفسه هل يسكت أن يعترض حتى يتبين له الحق فيعمل به؟ فقال: لا يسكت بل يعترض حتى يتبين له الحق. قلت: ومعنى الاعتراض أن يقول لشيخه لا أفهم هذا ومقصودي تفهمه لي لا أنه يرد الكلام جملة والله تعالى أعلم، وكان يقول تولد ورع الورعين من خوف مؤاخذاتهم بالذرة والخردلة والخطرة واللحظة^(١) ولولا ذلك ما صح لهم ورع وأشد الورع أن يحاسب نفسه على مقادير الخردلة وأوزان الذرة، وكيف يزكي نفسه من لا ينفك من الخسران ويخالط أهل العصيان والله تعالى يقول "فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" وكان رضي الله عنه يقول: من علامات الأولياء ثلاثة أشياء يصون سره فيما بينه وبين الله، ويحفظ جوارحه فيما بينه وبين الناس، ويداري الخلق على تفاوت عقولهم وكان يقول تاه بعض أصحابنا في البادية فورد على عين فإذا عليها جارية كالقمر فوقف عندها فقالت إليك عني فقال اشتغل كلي بك فقالت في تلك العين جارية أخرى لا أصلح أن أكون خادمة لها فالتفت إلى ورائه فقالت ما أحسن الصدق وأقبح الكذب زعمت أن الكل منك مشغول بي وأنت تلتفت إلى غيري ثم التفت فلم ير أحداً وكان يقول: القرآن كله شيطان مراعاة أدب العبودية وتعظيم حق الربوبية رضي الله عنه.

ومنتهم أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الخواص^(٢) رضي الله عنه

هو من أجل من سلك طريق التوكل، وكان أوحد المشايخ في وقته، وكان من أقران الجنيد والنوري، وله في الرياضات والسياحات مقام يطول شرحه. مات بجامع الري سنة إحدى وتسعين ومائتين مات بيلة البطن وكان كلما قام توضأ وصلى ركعتين فدخل الماء يوماً فمات وسط الماء، وكان يقول: إنما العلم لمن اتبع

(١) فورعهم ما كان خارجاً عن نطاق الشريعة في التدقيق، كمن حرم غسل النحل برغم أن الشريعة تحله، وكمن كان يأبى أن يجلس في ظل جدار عزيمة، برغم أن الشريعة تبيح ذلك، وكمن حرم على نفسه أكل اللحم بدعوى أن ماشية سرقت في البلد التي يقيم فيها وقد يصله شيء منها، وكمن حرم على نفسه أكل السمك لما بلغه أن أحد شرطة الحاكم أكل على شاطئ النهر وألقى بقية طعام السفارة في النهر.

(٢) ذكرته في ضمن من اجتمع بالخضر رضي الله عنه في كتابي «الجواهر فيمن رأى الخضر من الأكابر».

العلم واستعمله واقتدى بالسنتن، وإن كان قليل العلم، وكان يقول: التاجر برأس مال غيره مفلس، وكان يقول: على قدر إعزاز المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه ويقيم له العز في قلوب المؤمنين، وكان يقول: من صفة التقير أن تكون أوقاته مستوية في الانبساط، صابراً على فقره، لا تظهر عليه فاقة، ولا تبدو منه حاجة، أقل أخلاقه الصبر والقناعة، مستوحشاً من الرفاهية، مستأنساً بالخشونات فهو بصد ما عليه الخليفة، ليس له وقت معلوم، ولا سبب معروف، فلا تراه إلا مسروراً بفقره، فرحاً بضره، مؤنثه على نفسه ثقيلة وعلى غيره خفيفة يعز الفقر ويعظمه، ويخفيه بجهدته ويكتمه، حتى عن أشكاله^(١) يستره، قد عظمت عليه من الله فيه المنة، فلا يرى عليه من الله منه أعظم من خلو اليد من الدنيا، وكان يقول: أربع خصال عزيزة عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة فعله، ورجل قائم لله بلا سبب ومريد ذهب عنه الطمع، وكان يقول: لقيت الخضر عليه السلام في بادية فسألني الصحبة فخشيت أن يفسد علي توكلي بالسكون إليه ففارقته، وكان عليه السلام يقول: المفاخرة والمكاثرة يمنعان الراحة، والعجب يمنع من معرفة قدر النفس، والتكبر يمنع من معرفة الصواب والبخل يمنع من الورع، وكان يقول: ليس من صفة الفقراء مؤالفة الأغنياء ولا من صفة أهل المعرفة مؤالفة أهل الغفلة، وكان يقول: من دواعي المقت ذم الدنيا في العلانية واعتناقها في السر، وكان يقول: الإنسان في خلقه أحسن منه في جديد غيره والهالك حقاً من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل، وكان يقول: يجب على المريد الاجتماع بمن يكشف له عن عيوبه ويدله على مواضع الزيادة ويكون نظره إليه قوة له على تهيج حاله، وكان يقول: لم يؤت الناس من قلة الندم والاستغفار وإنما أتوا من قلة الوفاء بالعهد، قال أبو الحسن النحراي صاحب إبراهيم الخواص: كنت شديد الإنكار على الصوفية في علومهم وأبغض كل من اجتمع بهم فدخلت بغداد وأنا أكتب الحديث، فرأيت إبراهيم الخواص وحوله جماعة يتكلم عليهم، فسمعت كلامه فدخل قلبي صدق قوله فرأيتة علماً صحيحاً لا بد للخلق من

(١) يعني يكتم فقره عن نظرائه وأصحابه.

استعماله، فلزمته من ذلك المجلس ولم أفارقه وفرقت ما كنت جمعته من الكتب وكانت نحو حملين^(١)، ومع هذا فلم يلتفت إلي ولم يكلمني بكلمة أياماً كثيرة، فلما عرف مني الصدق في طلبه أدناني وقريني رضي الله عنهما، وكان إبراهيم رضي الله عنه إذا دعى إلي دعوة فرأى فيها خبزاً يابساً أمسك يده ولم يأكل ويقول: هذا خبز قد منع حق الله تعالى منه إذ يبست ولم يخرج من يومه^(٢) وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ (الزمر: ٥٤) الآية، الإنابة أن يرجع بك منك إليه، التسليم أن تعلم أن ربك أشفق عليك من نفسك والعذاب عذاب الفراق، وكان يقول آفة المرید ثلاثة حب الدرهم، وحب النساء، وحب الرياسة، فيدفع حب الدرهم باستعمال الورع، وحب النساء بترك الشهوات، وترك الشبع، ويدفع حب الرياسة بإثبات الخمول، وكان يقول: المرید الصادق الله مراده والصديقون إخوانه والخلوة بيته والوحدة أنسه والنهار غمه والليل فرحه، يودليه قلبه والقرآن معينه والبكاء ربه والجوع أدمه والعبادة نزهته والمعرفة قياده والحياة سفره والأيام مراحلها والورع طريقه والصبر شعاره والسكون دثاره والصدق مطيته والعبادة مركبه وخوف الفوت خشيته، وكان يقول: إذا تحرك العبد لإزالة منكر، فقامت دونه الموانع، فإنما ذلك لفساد العقد بينه وبين الله تعالى، فلو صححت عقيدته مع الله تعالى واستأذنه في إزالة ذلك المنكر، واستعان به لم يقم دونه مانع قط، وكان يقول: من شرب من كأس الرياسة، فقد خرج من إخلاص العبودية، وكان يقول: عطشت في بادية في طريق الحجاز، فإذا براكب حسن الوجه على دابة شهباء فسقاني الماء وأردفني

(١) ومثل هذا ما حكى عن الشعراني أن شيخه سيدي على الخواص أمره في بدايته ببيع جميع كتبه فباعها كلها، وإنما أمره شيخه بذلك حتى لا يبقى فيه بقية لغير الله.

(٢) قلت: هي اختلاف في وجهات النظر، فقد أكل الخبز اليابس الكثير من أعيان الصوفية والزهاد، وقد ورد في مناقب أحمد بن حنبل أنه كان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فتنفضها من الفبار ثم صب عليها الماء في قصعة ثم أكلها بالملح.

قلت: ولا يمنع مبيت الخبز عدم أكله فريماً كانت كسيرات متبقية عن أكل، فيكون أكلها من أحل الحلال بدلاً من رميها وعدم الاستفادة بها، مادام كان مصدرها من الحلال.

خلفه، ثم قال: انظر إلى نخيل المدينة، فانزل واقراً على صاحبها مني السلام
وقل أخوك الخضر يقرأ عليك السلام.

وقيل له: ما بال الإنسان يتواجد عند سماع الأشعار، ولا يتواجد عند سماع
القرآن فقال: لأن سماع القرآن صدعة لا يمكن أحداً أن يتحرك فيها لشدة
غلبتها، وشدة الأشعار ترويح للنفس فتتحرك فيه والله أعلم.

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد الخراز رضي الله عنه

من كبار مشايخ الري جاور بالحرم سنين كثيرة، وكان من الورعين القائمين
بالحق الطالبين قوتهم من وجه حلال صحب أبا عمران الكبير، ولقي أبا حفص
النيسابوري، وأصحاب أبي يزيد وكانوا جميعاً يكرمونه ويعظمون شأنه، وحكي
عن أبي حفص أنه قال رضي الله عنه: نشأ بالري فتى إن بقي على طريقته وسمته صار
أوحد الرجال.

مات رحمه الله قبل العشر والثلاثمائة، ومن كلامه رضي الله عنه الجوع طعام
الزاهدين والذكر طعام العارفين رضي الله عنه.

ومنهم أبو الحسن بنان

بن محمد بن أحمد بن سعيد الجمال رضي الله عنه (1)

كان أصله من واسط سكن رضي الله عنه مصر، واستوطنها ومات بها، ودفن بالقرافة
بالقرب من الجبل تجاه جامع محمود، سنة ستة عشر وثلاثمائة، وكان من جملة
المشايخ القائمين بالحق، والأميرين بالمعروف له المقامات المشهورة، والكرامات
المذكورة صحب أبا القاسم الجنيد، وغيره من مشايخ الوقت وكان أستاذ النوري
ومن كلامه رضي الله عنه: أجل أحوال الصوفية الثقة بالمضمون والقيام بالأمر والمراعاة
للسر والتخلي من الكونين والتعلق بالحق تعالى وكان يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
في المنام، فقال لي: يا بنان فقلت: لبيك يا رسول الله فقال: من أكل بشره

(1) وقيل الحمال وانظر حلية الأولياء وصفة الصفة.

أعمى الله عين قلبه، فانتبهت، وعقدت أن لا أشبع بعدها أبداً.
وكنت قد أكلت تلك الليلة رغيفين وقصعة عدس وكان ﷺ يقول: اجتمعت
بأبي جعفر الحداد الفرجي ﷺ بمصر فقلت له: اختصر لي من العلم كله كلمة
واحدة أنتفع بها، فقال: عليك بأخذ الأقل من الدنيا وارض فيها بالذل فقلت
حسبي حسبي والله تعالى أعلم.

ومنهم محمد وأحمد ابنا أبي الورد ﷺ

وهما من كبار مشايخ العراقيين، وأقارب الجنيد، ومن جلسائه وصحبا
السري السقطي، والحاتر المحاسبي، وبشرا الحافي وأبا الفتح الحبال
وطريقتهما في الورع قريبة من طريقة بشر ﷺ. ومن كلام محمد رحمه الله
في ارتفاع الغفلة ارتفاع العبودية.

قلت: والمراد بارتفاع الغفلة زوالها، وبارتفاع العبودية علوها والله أعلم،
والغفلة غفلتان غفلة نقمة وغفلة رحمة، فأما الرحمة فإسدال حجاب العظمة
دون العبادات إذ لو انكشف الغطاء لانقطعوا عن العبودية، وأما التي هي نقمة
فالغفلة عن طاعة الله عز وجل وكان ﷺ يقول: الولي هو الذي يوالي أولياء
الله، ويعادي أعداءه، وكان يقول: من كانت نفسه لا تحب الدنيا فأهل الأرض
يحبونه، ومن كان قلبه لا يحب الدنيا، فأهل السماء يحبونه، وكان يقول: من أدب
الفقير تركه الملامة والتعيير لمن ابتلى بطلب الدنيا والرحمة والشفقة عليه،
والدعاء بأن الله تعالى يريجه من التعب فيها.

قلت: والمراد بالتعيير أن يقصد به نقصه بين الناس لا غير دون النصح،
والله أعلم.

وكان يقول: هلاك الناس في حرفين اشتغال بنافلة، وتضييع فريضة^(١)،
وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما منعوا الوصول لتضييعهم الأصول،
وكان أحمد يقول: إنما بسط بساط المجد للأولياء ليأنسوا به، ويرفع به عنهم
(١) ولهذا قيل لبشر الحافي: ألا تتزوج فإن الزواج سنة؟ فقال: أنا مشغول بالفريضة عن السنة.

حشمة بديهة المشاهدة، وإنما بسداً بساط الهيبة للأعداء ليستوحشوا من قبائح أفعالهم، ولا يشاهدون ما يستريحون إليه من المشهد الأعلى، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إذا زاد في الولي ثلاثة أشياء زاد فيه ثلاثة أشياء إذا زاد خلقه زاد تواضعه، وإذا زاد ماله زاد سخاؤه، وإذا زاد عمره زاد اجتهاده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم أبو حمزة محمد

بن إبراهيم البغدادي^(١) البزار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

صاحب السري السقطي، وحسناً المسوحي، وكان ينتمي إلى المسوحي أكثر، وكان فقيهاً عالماً بالقرآن، وكان يتكلم ببغداد في مسجد الرصافة قبل كلامه في مسجد المدينة تكلم يوماً في مسجد المدينة فتغير عليه حاله، وسقط عن كرسيه ومات في الجمعة الثانية، وكان موته قبل الجنيد، وكان من رفقاء أبي تراب النخشبى في أسفاره، وكان الإمام أحمد إذا جرى في مجلسه شيء من كلام القوم يقول لأبي حمزة رحمه الله تعالى ما تقول في هذا يا صوفي^(٢)؟ ودخل البصرة مراراً وصحب بشراً الحافي. مات رحمه الله تعالى سنة تسع وثمانين ومائتين رحمه الله، ومن كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من المحال أن تحبه، ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره، ثم لا يوجدك طعم ذكره، ومن المحال أن يوجدك طعم ذكره، ثم لا يشغلك بغيره، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: وقفت على راهب في طريق الروم، فقلت له: هل عندك شيء من خبر من مضى؟ فقال: نعم فريق في الجنة وفريق في السعير، وكان يقول: حب الفقير شديد، ولا يصبر عليه إلا صديق، وكان يقول: إذا فتح الله عليك طريقاً من طريق الخير فالزمه، وإياك أن تنظر إليه، أو تفتخر به، واشتغل بشكر من وفقك لذلك فإن نظرك إليه يسقطك من مقامك واشتغالك بالشكر يوجب لك فيه المزيد قال الله تعالى: لئن شكرتم لأزيدنكم، وكان يقول: من علم طريقة الحق هان عليه سلوكها، وهو الذي علمها بتعليم الله إياه، وأما

(١) قلت: ذكره ابن الجوزي ضمن أصحاب الإمام أحمد بن حنبل في كتابه «مناقب الإمام أحمد».

(٢) قلت: فيه دليل واضح على تصوف الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واجتماعه لسماع كلام القوم وكذلك اجتماعه بالصوفية في عصره.

من علمها بالاستدلال فمرة يخطئ، ومرة يصيب، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في أفعاله، وأحواله، وأقواله، وكان رضي الله عنه يقول: قد يقطع بقوم في الجنة كما وقع لأدم عليه السلام، وهم الذين يقولون لهم ملائكة الحق كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية فإنه شغلهم عنه بالأكل، والشرب، ولا مكر فوق هذا، ولا حسرة أعظم منها عند العارفين بالله تعالى^(١).

وروي أنه كان حسن الكلام فهتف به هاتف: تكلمت فأحسنت بقي عليك أن تسكت فتحسن، فما تكلم بعد ذلك حتى مات، وسئل هل يتفرغ المحب لشيء سوى محبوبه؟ فقال: لا لأن المحب في بلاء دائم، وسرور منقطع، وأوجاع متصلة لا يعرفها إلا من باشرها رضي الله عنه.

ومنهم أبو بكر محمد بن موسى الواسطي رضي الله عنه

أصله من فرغانة، وكان من قدماء أصحاب الجنيد والثوري، وكان من علماء مشايخ القوم لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثل كلامه، وكان عالماً بأصول الدين، والعلوم الظاهرة دخل خراسان، واستوطن كورة مرو ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة، وكلامه عندهم ليس بالعراق منه شيء لأنه خرج منها، وهو شاب ومشايخه أحياء، وتكلم في خراسان في أبيورد ومرو وأكثر كلامه بمرو، وكان يقول: ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة، وكان يقول: أفقر الفقراء من ستر الحق حقيقة حقه عنه، وكان يقول: الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد، وهو اليأس والرجاء فإن خفته بخلته، وإن رجوته اتهمته كيف يرى الفضل فضلاً من لا يأمن أن يكون ذلك مكرأً؟.

وكان يقول: **الذاكر^(٢)** في ذكره أشد غفلة من الناسي لذكره لأن ذكره سواء،

(١) وذلك لأن الانغمال بالجنة ولذاتها عن الذات الإلهية في عرف أهل الفناء عذاب وحجاب ولذلك لما سمعت رابعة رضي الله عنها قوله تعالى: «وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتون» قالت: وهل نحن أطفال حتى نشغل بمثل هذا.

(٢) يقصد -الذاكر الغافل في ذكره.

وكان يقول: التقوى أن يتقي العبد من تقواه يعني من رؤية تقواه، وكان رضي الله عنه يقول: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة خوف، ولا رجاء، وكان يقول: احذروا لذة العطاء، فإنها غطاء لأهل الصفاء، ولولا شهود نفسه مع الحق ما استلذ، وكان يقول في صفة الصوفية: كان للقوم إشارات ثم صارت حركات، ثم لم يبق إلا حسرات، وكان يقول: من عرف الله انقطع بل خرس، وانقمع، ولا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله أو افتقار^(١) إليه، ولهذا قال النبي ﷺ: "لا أحصي ثناء عليك" هذه أخلاق من بعد مرماهم فأما الذين نزلوا عن هذا الحد فقد تكلموا في المعرفة فأكثرُوا رضي الله عنه أجمعين.

ومنهم أبو عبد الله الشجري رضي الله عنه

صحب أبا حفص الحداد، وهو من كبار مشايخ خراسان قطع البادية مراراً على التوكل رضي الله عنه. ومن كلامه رضي الله عنه: من لم يقدس فعله لم يقدس بدنه، ومن لم يقدس بدنه لم يقدس قلبه، ومن لم يقدس قلبه لم يقدس نيته^(٢)، والأمور كلها مبنية على النية، وكان يقول: علامة الأولياء ثلاثة تواضع عن رغبة، وزهد عن قدرة، وإنصاف عن قوة، وكان رضي الله عنه يقول: بئس العبد عبد عصى الله بقلبه، وجوارحه ثم اعتذر إليه بلسانه من غير رجوع إليه.

قلت: والمراد بالرجوع إلى الله تعالى انكشاف حجاب العبد عن عجزه بحيث يعلم أن الأمر من الله تقديراً لا محيص له عن فعله، ولا قوة له على دفعه بقرينة حديث "إذا أذنب العبد فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ به" الحديث، والله أعلم.

وكان يقول: لا تعير أحداً حتى تتيقن أن ذنوبك مغفورة، وذلك لا يصح لك وكان يقول: أنفع شيء للمريد صحبة الصالحين، والاقتداء بهم في أفعالهم،

(١) أي يسقط نظرة الاستغناء والافتقار وينصهر في العين فلا يخرج عن دائرة العين ومادام في داخلها فهو في حقيقة المعرفة قائم.

(٢) يقدس: أي يطهر.

وأقوالهم، وأخلاقهم، وشمائلهم، وزيارات^(١) قبور الأولياء، والقيام بخدمة الأصحاب، والرفقاء وكان رحمته يقول: لا ينبغي لبس المرقعة إلا للفتيان قيل: ومن هم؟ قال: من لا يشغلهم شيء عن الله عز وجل^(٢) رحمته أجمعين.

ومنهم محفوظ بن محمود النيسابوري رحمته

من أصحاب أبي حفص النيسابوري، وكان من قدماء مشايخ نيسابور وأجلتهم، وصحب أبا عثمان الحيري إلى أن مات، وكان من أروع المشايخ، وألزمهم لطريقة المتقدمين، وصحب أيضاً حمدون القصار، وسلاماً الباروسي، وعلياً النصراباذي، وغيرهم من المشايخ.

مات سنة ثلاث أو أربع وثلاثمائة بنيسابور، ودفن بجانب أبي حفص، وكان يقول: التائب هو الذي يتوب عن طاعاته فضلاً عن غفلاته، وكان يقول: لا تزن الخلق بميزان نفسك تهلك إنما ينبغي لك أن تزنهم لتعلم فضل الناس وإفلاسك، وكان يقول: من ظن بمسلم فتنة فهو المفتون، وكان يقول: من أراد أن يبصر طريقاً من طريق رشده، فليتهم نفسه في الموافقات فضلاً عن المخالفات والله أعلم.

ومنهم طاهر المقدسي رحمته

وهو من أجلة مشايخ الشام وقدمائهم، رأى ذا النون المصري، وصحب يحيى الجلاء، وكان عالماً وهو الذي سماه الشبلي رحمته حبر الشام، ومن كلامه رحمته إنما سميت الصوفية بهذا الاسم لاستئثارها عن الخلق بلوائح الوجد، وانكشافها بشمائل الفضل، وكان رحمته يقول: لا يطيب العيش إلا لمن وطئ على بساط الأنس، وعلا على سرير القدس، وغيبه الأنس بالقدس، والقدس بالأنس، ثم غاب عن مشاهدتهما بمطالعة القدوس وكان يقول: المفاوز إليه منقطعة، والطرق إليه منطمسة فالعاقل من وقف حيث وقف العوام^(٣) والسلام.

(١) قلت: فيه دليل على أن قدماء القوم كالجنيد وطبقته كانوا يزورون قبور الأولياء ويتبركون بها.

(٢) فهذا هو الفتى الحقيقي في عرفهم، لا الشاب صاحب المضلات كما هو متعارف عليه عند عامة الناس.

(٣) وكان الإمام الغزالي يقول في ذلك: اللهم أرزقنا إيماناً كإيمان العوام.

ومنهم أبو عمرو الدمشقي رضي الله عنه

وهو أوجد مشايخ الشام، وكان علماء الشام كلهم يذعنون إليه لا سيما في علوم الحقائق صحب أبا عبد الله محمد بن الجلاء، وأصحاب ذي النون وله كتاب في الرد على من قال بقدوم الأرواح^(١). مات سنة عشرين وثلاثمائة.

ومن كلامه رضي الله عنه: إن الله تعالى افترض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتن بها الخلق، وأوجب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إظهارها بياناً، وبرهاناً بالحق، وكان يقول: التصوف غض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص وكان يقول: مقام الخطرات بعيد عن مقام الوطنيات لأن الخواطر تلمع، ثم تخفى، والوطنيات تبدو ثم تثبت، والدعاوى تتولد من الخواطر، وذلك لأن المدعي يظن أن ما لاح ثبت، ولا دعوى لصاحب الوطنيات بحال، وكان رضي الله عنه يقول: استحسان الكون على العموم دليل على صحة المحبة، واستحسانه على الخصوص يؤدي إلى الفتن والظلمات^(٢) والله أعلم.

ومنهم أبو بكر بن محمد حامد الترمذي رضي الله عنه

هو من أجل مشايخ خراسان، وأطهرهم خلقاً، وأحسنهم سياسة لقي قدماء المشايخ بيلخ مثل أحمد بن حضرويه، ومن دونه، وله أصحاب ينتمون إليه.

ومن كلامه رضي الله عنه إذا مكثت الأنوار في السر نطقت الجوارح بالبر، وكان يقول: إنكار الآيات للأولياء في قلوب الجهال من ضيق صدورهم عن المصادر،

(١) قال الإمام الكامل تقي الدين الحصري في كتاب «دفع شبهة من شبهة وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد» ما نصه: ومما انتقد علي ابن تيمية قوله بقدوم العالم، وهو من أفتيح القبايح وقد ذكره في مصنفه المسمى بحوادث لا أول لها وهذه التسمية من أقوى الأدلة على جهله فإن الحادث مسبوق بالعدم، والذي لا أول له ليس كذلك، وبنى أمره على اسم من أسماء الأفعال ونقي المجاز في القرآن وهو من الجهل أيضاً فإن القرآن معجز ومحشو بالمجازات والاستعازة حتى أن أول حرف فيه أحد أنواع المجاز، وتضمن هذا المصنف مع صغره شيئين عظيمين تكذيب الله عز وجل في قوله «هو الأول» فجعل معه قديماً وتكذيب النبي ﷺ في قوله: «كان الله ولم يكن شيء قبله».

(٢) يعني أن تستحنه بالنظرة العامة الشاملة الدالة على وجود الصانع بدون أن تتعلق منه بشيء خاص.

ويعد علومهم عن موارد الحكمة والقدرة، وكان رضي الله عنه يقول: الولي دائماً في ستر حاله، والكون كله ناطق عن ولايته، والمدعي ناطق بولايته، والكون كله ينكر عليه⁽¹⁾، وكان يقول الاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله، وما وصل عبد إلى مقام، وهو غير محترم لأهله إلا حرم بركته، وكان ذلك استدراجاً وكان يقول: لا يسمى عالماً إلا من وقف عند حدود الله لم يتجاوزها في وقت من الأوقات وكان يقول: ما استصغرت أحداً من المسلمين إلا وجدت نقصاً في إيماني ومعرفتي، وكان يقول: ما منع القوم من الوصول إلا الاستدلال بغير الدليل، والركض في الطريق على حد الشهوة، وأكل الحرام، والشبهات، وكان يقول: مخالفة أوامر الله، وترك المواظبة على مرور ذكر الله على القلب من اعوجاج الباطن، وكان يقول: رأس مالك قلبك، ووقتك، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون، وضيعت أوقاتك باشتغالك بما لا يعنيك، فمتى يريح من خسر رأس ماله؟ والله أعلم.

ومنهم أبو الحسن محمد بن سعيد الوراق رضي الله عنه

من كبار المشايخ، وقدماء أصحاب أبي عثمان رحمه الله تعالى، وله كلام على سنن كلامه، وكان عالماً بعلوم الظواهر، والكلام في علوم دقائق المعاملات، وغيوب الأفعال مات قبل العشرين والثلاثمائة، ومن كلامه رضي الله عنه الكرم في العفو أن لا تذكر جنابة أخيك بعدما عفوت عنه، وكان يقول: اللئيم لا ينفك عن ضيق الصدر أبداً، وكان يقول: حياة القلوب التي تموت في ذكر الحي الذي لا يموت، وأهنا العيش الحياة مع الله تعالى لا غير.

وكان يقول: كانت أحكامنا في مبادئ أمرنا بمسجد أبي عثمان الحيري الإيثار بما يفتح علينا، وأن لا نبيت على معلوم، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم منه لأنفسنا بل نعتذر إليه، ونتواضع له، وإذا وقع في قلبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته، والإحسان إليه حتى يزول ذلك، وكان رضي الله عنه يقول: من لم يفن عن نفسه وغيره ورؤية الخلق لا يحيا سره بمشاهدة الخيرات والمنن وكان يقول: أنفع (1) لأن ما في قلب الولي من العلوم والمعارف والأحوال لا يعرفها سوى خالقه، فلا يطلع على خصوصيات الولي سوى خالقه، فكيف لا ينكر عليه كل من حوله؟

العلوم العلم بأمر الله، ونهيه، ووعده ووعيده، وثوابه، وعقابه. وأعلى العلم العلم بالله وأسمائه، وصفاته، وكان يقول: خوف القطيعة أذبلت نفوس المحبين، وأحرقت أكباد العارفين^(١)، وكان يقول: الأنس بالخلق وحشة، والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومنهم أبو الحسن

علي بن سهل الصائغ الدينوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

كان من كبار المشايخ أقام بمصر، ومات بها في سنة ثلاثين وثلاثمائة، وكان كبير الهيبة يهابه كل من رآه، وكان من المخلصين في معاملة الله تعالى، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: ينبغي للمريد أن يترك الدنيا مرتين الأولى: يتركها بنضارتها، ونعيمها، وألوان مطاعمها، ومشاربها، وجميع ما فيها، ثم إذا عرف بترك الدنيا ويجل وأكرم بسبب تركها، ينبغي له إذ ذاك أن يستر^(٢) حاله بالإقبال على أهلها لئلا يكون تركه للدنيا هو أعظم من الإقبال عليها، وطلبها وأي فتنة أعظم منها، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول إذا سئل عن الاستدلال بالشاهد على الغائب كيف يستدل بصفات من يشاهد، ويعاين، وذو مثل على صفات من لا يشاهد ولا يعاين ولا مثل له ولا نظير له، وكان يقول: من تعرض لمحبة الله تعالى جاءته المحن، والبلايا، والآفات من سائر الأقطار، وكان يقول: يجب على الإخوان كلما اجتمعوا أن يتواصوا بالحق، ويتواصوا بالصبر لقوله تعالى:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (المصر: ٣) وكان يقول: محبتك لنفسك هي التي تهلكها والله تعالى أعلم.

(١) قطيعة الحجاب هي أشد أنواع القطيعة، وكما قال أحدهم: اللهم مهما عذبتني فلا تعذبني بذل الحجاب.
(٢) هي نظرة خاصة به، إذ ليس كل من زهد في الدنيا، استتر من ذلك بالإقبال على أهلها، واتخذ ذلك حجاباً له عن مقامه، كي يستر الناس بتلك الصحبة عن حقيقة مقامه فافهم، بل أن معظم السلف فروا من الدنيا وزهدوا فيها، وكذلك فروا من صحبة أهلها.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن داود القصار الرقي رحمته الله

من كبار مشايخ الشام، ومن أقران الجنيد، وابن الجلاء إلا أنه عمر عمراً طويلاً، وصحب أكثر المشايخ من الشام، وكان رحمته الله ملازماً للفقير مجرداً فيه محبباً لأهله.

مات سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وكان يقول: حبك من الدنيا شيئان صحبة فقير، وحرمة ولي، وكان يقول: الأبصار قوية، والبصائر ضعيفة والله أعلم.

ومنهم ممشاد الدينوري رحمته الله

كان من كبار مشايخ القوم صحب ابن الجلاء، ومن فوقه من المشايخ عظيم المرمى في علوم القوم كبير الحال ظاهر الفتوة مات سنة سبع وتسعين ومائتين، وكان يقول: طريق الحق بعيد، والصبر مع الله شديد، وكان يقول: لو جمعت حكمة الأولين والآخرين، وادعيت أحوال الأولياء والمقربين لن تصل إلى درجات العارفين حتى يسكن سرك إلى الله تعالى، وتثق بضمانه فيما وعدك، وقسم لك، وكان يقول: من يكن الله همته لم تستطعه الأقدار، ولم تملكه الأخطار، وكان يقول: ما دخلت على فقير قط إلا وأنا خال من جميع النسب، والعلوم، والمعارف أنتظر بركات ما يرد علي من رؤيته، أو كلامه، وذلك لأن من دخل على شيخ بحظ انقطع بحظه عن بركات رؤيته^(١)، ومجالسته، وأدبه، وكلامه، وكان رحمته الله يقول: رأيت في بعض سياحتي شيخاً توسمت فيه الخير فقلت له: عطني بكلمة فقال همتك احفظها فإن الهمة مقدمة الأشياء فمن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من الأعمال والأحوال، وكان يقول: أحسن الناس حالاً من أسقط عن نفسه رؤية الخلق، وراعى سره في الخلوات مع الله واعتمد عليه في جميع الأمور، وكان رحمته الله يقول: أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حال الكشف، والمشاهدة، وأرواح الأولياء في القرية، والاطلاع، وكان رحمته الله يقول:

(١) لأن حقيقة الداخل أن يتبرا من حوله وقوته كما تبرا سيدي عبد القادر رحمته الله لما دخل على غوث البغدادي وامتنحه آخرون، ففاز هو وخسر غيره.

فقدت قلبي منذ عشرين سنة مع الله تعالى، وتركت قولي للشيء كن فيكون منذ عشرين سنة أدباً مع الله عز وجل^(١) قال بعضهم معناه أنه كان يرجع إلى قلبه ثم يرجع بقلبه إلى الله ومعنى تركت قولي للشيء كن فيكون أنه كان مجاب الدعوة كلما دعا أجيب ثم ارتفع عن ذلك إلى الله تعالى فصار بمراد الله لا بمراده فترك الدعاء، وكان يقول: كان عندنا رجل أخذ في التقلل حتى وقف على نواة ثم صار قوته الماء، وقيل له: إذا جاع الفقير ايش يعمل؟ قال يصلي قيل: فإن لم يقدر؟ قال ينام قيل له: فإن لم يقدر ينام؟ قال: إن الله تعالى لا يخلي فقيراً عن إحدى ثلاث إما قوى^(٢)، وإما غذاء، وإما أخذ والله أعلم.

ومنهم أبو الحسين خير النساج رحمته الله

أصله من سر من رأى، إلا أنه أقام ببغداد وصحب أبا حمزة البغدادي ولقي السري السقطي، وهو من أقران النوري، وعمر طويلاً على ما قيل مائة وعشرين سنة وتاب في مجلسه الخواص، والشبلي، وكان أستاذ الجماعة، ومن كلامه رحمته الله: الصبر من أخلاق الرجال، والرضا من أخلاق الكرام، وكان رحمته الله يقول: العمل الذي يبلغ فيه العبد إلى الغايات هو رؤية التقصير، والعجز، والضعف، وكان رحمته الله يقول: قص موسى يوماً في بني إسرائيل فزعق واحد من القوم فانتهره موسى رحمته الله فأوحى الله تعالى إليه يا موسى بطيبي باحوا، وبوجدي صاحوا فلم تتكر على عبادي؟

ومنهم أبو حمزة الخراساني رحمته الله

يقال إن أصله من نيسابور من محلة ملقباد صحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد رحمته الله، وسافر مع أبي تراب النخشي وأبي سعيد الخراز، وكان من أفتى المشايخ، وأدينهم، وأورعهم مات سنة تسع وثلاثمائة، وكان الإمام أحمد

(١) يعني أنه أعطي مقام التصرف منذ عشرين سنة وتركه تادياً مع الله وترك الحق سبحانه يتصرف له، كما قال أبو السعود بن شبلي رحمته الله عندما أعطي مقام التصرف تركنا الحق يتصرف لنا.

(٢) صحيحها إما قوة.

ﷺ إذا عرضت عليه مسألة تتعلق بطريق القوم يقول له: ما تقول في هذه المسألة يا (١) صوفي، وكان يقول: بقيت محرماً في عبادة أسافر ألف فرسخ كل سنة كلما تحللت أحرمت جديداً سنين عديدة. قلت: وعري البدن للفقير إشارة للتجرد بالباطن عن الكون، وقوله كلما تحللت أحرمت أي كلما ملت إلى شهوة جددت توبة، والله أعلم.

ومنهم أبو عبد الله الحسين

بن عبد الله بن أبي بكر الصنجي ﷺ

كان من كبار أهل البصرة مكث في سرب في داره لم يخرج منه ثلاثين سنة، وكان اجتهاده متوالياً لا يفتر حتى أخرجه أهل البصرة منها فخرج إلى السوس، ومات بها، وقبره هناك ظاهر يزار، وكان عالماً بعلوم القوم، وبالأصول وكان صاحب ورع ولسان، وكان ﷺ يقول: السماع بالتصريح جفاء، والسماع بالإشارة تكليف والطف السماع ما يشكل إلا على مستمعه، وكان ﷺ يقول: لا يقطعك شيء عن شيء إلا إذا كان القاطع أتم، وأكمل، وأعلى عندك فإن كان مثله أو دونه فلا يقطعك فالحكم لما غلب على القلب، والسلام وكان يقول: ابتلى الخلائق بأسرهم بالدعاوي العريضة في المغيب فإذا أظلمت هيبة المشهد خرسوا، وانقمعوا وصاروا لا شيء، ولو صدقوا في دعاويهم لبرزوا عند المشاهدة كما برز نبينا محمد ﷺ للشفاعة دون غيره، ويقول: أنا لها أنا لها، ولم ترعه هيبة الموقف لما كان عليه من قدم الصدق، وكان يقول: الغريب هو البعيد عن وطنه، وهو مقيم فيه لقلّة جنسه ﷺ.

(١) قلت: حدث وهم هنا، حيث أن الذي كان يسأله الإمام أحمد هو أبو حمزة البغدادي وليس الخراساني، والذي سبقت ترجمته، واسمه محمد بن إبراهيم أبو حمزة البغدادي البزار.

ومنهم أبو جعفر أحمد

بن حمدان بن علي بن سنان رضي الله عنه

هو من كبار مشايخ نيسابور صحب أبا عثمان ولقي أبا حفص، وهو أحد الخائفين الورعين جاور بمكة في آخر عمره عشرين سنة متوالية نعى بموت أبي بشر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وكان بمكة، وكان أوحد مشايخ الحرم في وقته، ومات أبو جعفر بن حمدان سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وكان رضي الله عنه يقول: تكبر المطيعين على العصاة بطاعتهم شر من معاصيهم، وأضر عليهم منها كما أن غفلة العبد عن توبة ذنب ارتكبه شر من ارتكابه، وكان يقول: أنت تبغض العاصي بذنب واحد تظنه، ولا تبغض نفسك بذنوب كثيرة تتيقنها وكان رضي الله عنه يقول: من سكنت عظمة الله قلبه عظم كل من انتسب إلى الله تعالى بالعبودية، وكان يقول: من علامة صدق من انقطع إلى الله تعالى أن لا يرد عليه قط ما يشغله عنه من مصائب الدنيا وغيرها رضي الله عنه.

ومنهم أبو بكر بن جحدر ^(١) الشبلي رضي الله عنه

ومكتوب على قبره جعفر بن يونس خراساني الأصل بغدادي المولد والمنشأ تاب في مجلس خير النساج كما مر، وصحب أبا القاسم الجنيد، ومن عاصره من المشايخ، وصار أوحد أهل الوقت علماً، وحالا وظرفاً، تفقه على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وكتب الحديث الكثير، عاش سبعاً وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودفن ببغداد في مقبرة الخيزران، وقبره فيها ظاهر يزار رضي الله عنه، ورحمه، وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد وكان رضي الله عنه يقول: اكتحلت بالملح كذا وكذا ليلة لأعتاد السهر، ولا يأخذني النوم فلما زاد علي الأمر حميت الليل، واكتحلت به ^(٢).

(١) ذكرته في كتابي المسمى (طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصوفوا).

(٢) هذا يكون لأصحاب البدايات، وأما إذا تمكنت الروح فإنها تكون هي المسيطرة على الجسد وتتحكم فيه متى ينام.

وكان يقول عن علم القوم: ما ظنك بعلم علم العلماء فيه تهمة، وقيل له: إن أبا تراب النخشي جاع يوماً في البداية فرأى البداية كلها طعاماً فقال هذا عبد رفق^(١) به ولو بلغ إلى محل التحقيق لكان كما قال رسول الله ﷺ: "إني أظن هند ربي يطعمني ويسقيني" وقيل له متى يكون الشخص مريداً؟ قال: إذا استوت حالاته في السفر، والحضر، والمشهد، والمغيب وقيل له مرة: كيف الدنيا فقال: قدر يغلي، وكثيف يملا، وكان يقول في مناجاته: أحبك الخلق لنعمائك وأنا أحبك لبلائك، وكان ﷺ يقول: رفع الله قدر الوسائط بعلو هممهم فلو أجرى على الأولياء ذرة مما كشف للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لبطلوا، وانقطعوا. وأخر مرة العصر حتى دنت الشمس إلى الغروب فقام وصلى، وأنشد مداعباً، وهو يضحك، ويقول أحسن ما قال بعضهم:

نسيت اليوم من عشقي صلاتي فلا أدري عشائي من غدائي^(٢)

وكان يقول: كل صديق لا يكون له معجزة^(٣) فهو كذاب فلما دخل البيمارستان دخل الوزير فقال: أين قولك كل صديق بلا معجزة كذاب فأين معجزتك أنت؟ فقال معجزتي موافقة الله في أوامره، ونواهيه، وكان يقول: ليس للمريد فترة، ولا للعارف علاقة، ولا للمحب شكوى، ولا للصادق دعوى، ولا للخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار، وكان يقول لأهل عصره، أنتم قبور فقيل له: لماذا؟ فقال: لأن كل واحد منكم مدفون في ثيابه فقال له رجل ونحن نعد في الأموات؟ فقال: نعم العارفون نيام، والجاهلون أموات، وقيل له مزقت جميع ملبوسك، والعيد قد أقبل، والناس يتزينون، وأنت هكذا فقال زينة الفقير فقره، وصبره على فقره، وكان يقول: إنما تصفر الشمس عند الغروب لأنها عزلت عن

(١) أي رفق به لأن يتحقق بما هو أعلى من المقام الذي هو فيه.

(٢) أي نسي كل شيء سوى المحبوب سواء في ذلك صلاته وعشقه وليله ونهاره، وما قال هذا إلا وهو في مقام الفناء.

(٣) يقصد كرامة لأن المعجزة لا تكون إلا للتبى، ومقصوده أن يأتي الصديق بشيء معجز لأن المعجزة والكرامة في الإعجاز سواء حيث خرجتا من مشكاة انقلاب العوائد وخرقها.

مكان التمام فاصفرت نخوف المقام، وهكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه فإنه يخاف المقام، وإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة منيرة. كذلك المؤمن إذا خرج من قبره خرج، ووجهه مشرق مضيء وقال له رجل مرة : من أنت؟ قال: النقطة التي تحت الباء^(١) فقال أنت شاهدي ما لم تجعل لنفسك مقاماً وكان ﷺ يقول: ذلي عطل ذل اليهود^(٢) قال بعض العارفين في معناه أي لأن ذل الذليل على قدر معرفته بعظمة من ذل له، والشبلي بلا شك أعرف بعظمة الله تعالى من اليهود فذله أعظم من ذل اليهود. وجاءه رجل فقال : يا سيدي كثرت عيالي، وقل حيلي فقال له: ادخل دارك فكل من رأيت رزقه عليك فأخرجه، وكل من رأيت رزقه على الله تعالى فاتركه في الدار، وكان إذا أعجبه صوف أو قلنسوة أو عمامة لفها وأدخلها النار فأحرقها، ويقول كل شيء مالت إليه النفس دون الله تعالى وجب إتلافه فقليل له لم لا تتصدق به ؟ فقال: صورته باقية فربما تبعته النفس إذا رآته على الغير فكان الإحراق أسرع في إتلافه مبادرة للإقبال على الله عز وجل، وقد بادر إبراهيم ﷺ حين أمر بالختان إلى الفأس فاختنن بها فقليل له هلا صبرت حتى تجد الموسى فقال ﷺ تأخير أمر الله عظيم^(٣) وكان يقول: لا أستريح إلا إذا لم أر لله ذاكراً على وجه الأرض^(٤) قال بعضهم مراده لا أستريح إلا إن دخلت حضرة الشهود لأنه لا

(١) التي هي بداية النور المحمدي، ويسميتها بعض الصوفية بعين الجمع، ويطلق عليها بعض المتأخرين لفظ دائرة الإحاطة.

(٢) وذلك لأن ذل العارف هو أعظم ذل، لفناثه عن حوله وقوته وإسقاطه الحول والقوة عن نفسه، فهو كذرات التراب تحت مجاري الأقدار ينقلها الريح حيث شاء وقد يتحقق العارف بمقام أن جميع ذنوب العباد بسببه هو وبسبب معاصيه فيورثه ذلك ذلاً عظيماً يتحقق به في نفسه كما قال بعض السلف: لو خسف بأهل زمني لاستحقوا ذلك بسببي.

(٣) قلت: برغم أن الاختتان بالقدم أصعب بكثير من الاختتان بالموسى، ولكن الأكابر لا يهمهم سوى تنفيذ أمر الله فيهم.

(٤) ربما مقصوده لا أستريح إلا إذا لم أر لله ذاكراً على وجه الأرض أعظم مني، لغيرته أن يذكره أحد أعظم منه وأكثر منه قال محمد بن محمد بن قائد ﷺ رأيت قدماً في الحضرة أمامي فأخذتني غيرة أن يكون أحد سبقني إليه غيري فقليل لي قف هذا قدم نبيك فسكن روعي.

ذكر فيها فإن الذكر إنما يكون مع الحجاب لأنه دليل فإذا شهد المدلول سقط الوقوف عن الدليل بل عن شهود الدليل، ومروره على الخاطر. وقيل له: لم سميت الصوفية بهذا الاسم فقال: لبقية بقيت عليهم^(١)، ولولا ذلك لما تعلق بهم تسمية، وكان يقول: من اطلع على ذرة من التوحيد ضعف عن حمل نبقة لثقل ما حمل^(٢)، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: من طلبه به تعالى صح توحيد، ومن طلبه بنفسه لم يصح له توحيد، وكان أبو بكر الدينوري خادم الشبلي يقول: سمعت الشبلي يقول قبل موته: علي درهم واحد مظلمة ظلمته أيام، ولايتي، وقد تصدقت عن صاحبه بالوف، وما على قلبي أعظم منه وسئل مرة عن المعرفة ؟ فقال : أولها الله، وآخرها ما لا نهاية له^(٣)، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: العارف لا يكون لغيره لاحظاً، ولا لكلام غيره لافظاً، ولا يرى لنفسه غير الله حافظاً، وكان يقول: المحب إذا لم يتكلم هلك والعارف إذا تكلم هلك^(٤)، وكان غيره يقول: العارف إذا تكلم أهلك غيره، وإذا سكت أهلك نفسه فنجاة نفسه أولى، وصلى مرة خلف إمام فقراً: ﴿وَلَنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (الإسراء: ٨٦) الآية فزقق^(٥) زعقة كادت روحه تخرج، وقال هذا خطابه لأحبابه فكيف خطابه لأمثالنا ولأموه في قلة النوم فقال: سمعت الحق يقول لي من نام غفل، ومن غفل

(١) ومعنى الكلام أن الصوفي الكامل لا يستعبد اسم بعينه، لغيابه في الذات واستهلاكه في الهوية فلا يبقى معه قصد، وهو مقام الاستواء قيل لأبي يزيد كيف أصبحت؟ قال: لا صباح ولا مساء.

(٢) أي شحنت هياكلهم وملئت بما استمدت لتلقيه من أنوار يقبله محل الذوات فيهم بحيث أصبح المحل غير قابل لزيادة التلقي، فلو ألقى عليه ذرة لذاب قال سبحانه: «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً».

(٣) هو قول خاطئ ليس فيه رائحة التنزيه لأن ما لا نهاية له هو نفسه الله فكانه عدد وشعب والتوحيد ليس فيه تعدد لأن العين واحدة فهو من الله وإلى الله فافهم.

(٤) وذلك لكون المحب إنأؤه يكون ضيقاً والعارف لا يتكلم لسمة إنائه وقوة تمكنه، ولذلك قال سيدي محيي الدين: إن مقام المعرفة أرقى من مقام المحبة.

قلت: وقد يتكلم العارف ولكن من مقام التمكين والرسوخ لا من باب الشطح وإفشاء الأسرار، بحيث لا يضر من حوله من أهل الحجاب فيحدث الإنكسار عليه.

(٥) قوله زقق هي لفة لا تزال تستعمل بين العامة بمصر لحد الآن ومعناها صاح بصوت عالٍ.

حجب، وكان هذا سبب اكتحالي بالملح حتى لا أنام، وقال للحصري في بداية أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة اثنائية غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرني وكان يقول: في بيت الله الحرام آثار خليله ﷺ، وفي القلب آثار الله عز وجل، وللبيت أركان وللقلب أركان فأركان البيت من الصخر، وأركان القلب^(١) من معادن أنوار معرفته.

وكان ﷺ يقول: قيل لمجنون بني عامر أحب ليلي؟ قال : لا قيل ولم؟ قال لأن المحبة ذريعة للوصلة، وقد سقطت الذريعة فليلي أنا، وأنا ليلي^(٢). وكان (١) قلت: يعتبر القلب عند الصوفية هو بيت الله كما أن الكعبة هي بيت الله، ولكن شرف القلب أعلى من شرف الكعبة، ويستدلون في ذلك بقوله عز وجل في الحديث القدسي: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» ويستدلون كذلك بقوله ﷺ لما أشار إلى الكعبة وقال: «والله إن لك لحرمة وإن حرمة المؤمن عند الله هي أشد من حرمتك».

(٢) قلت: هو مثال تشبيهي لا حقيقي، حيث حكى حاله علي لسان مجنون ليلي، ودائماً يكون الصوفية أحوالهم ويرسلونها على لسان ليلي ومجنونها وقالوا في ذلك أشعاراً يطول سردها، وأحياناً يطلقون اسم الذات الإلهية على ليلي ويكون بها عن الحقيقة الأقدسية، قال شاعرهم:

أتطلب ليلي وهي فيك تجلت
وتحسبها غيراً وغيرك ليست

وقال آخر:

لئن كان هذا الدمع بيكي صباية
على غير ليلي فهو دمع مضيع

وقال آخر:

أعندك من ليلي حديث محرر
بإيراده يعيي الرميم وينشر

وقال ابن الفارض:

أبرق بدا من جانب الفور لامع
أم ارتفعت عن وجه ليلي البراقع

وقال آخر:

ظهرت بسر الحب من بدء نشئتي
فكلى إلى ليلي أسير بفطرتي

وقال الشبلي:

أسائل عن ليلي فهل من مخبر
يخبرنا علماً بها أين تنزل؟

ابن بشار ينهى الناس عن الاجتماع بالشبلي، والاستماع لكلامه فجاءه ابن بشار يوماً يمتحنه فقال له ابن بشار: كم في خمس من الإبل فسكت الشبلي فأكثر عليه ابن بشار فقال له الشبلي في واجب الشرع شاة، وفيما يلزم أمثالنا كلها^(١) فقال له ابن بشار هل لك في ذلك إمام؟ قال: نعم قال: من؟ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث أخرج ماله كله فقال له النبي ﷺ: "ما خلفت لعيالك" قال الله، ورسوله. فرجع ابن بشار، ولم يبق بعد ذلك أحداً عن الاجتماع بالشبلي، وقال في قوله تعالى: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم قال أبصار الرؤوس عما حرم الله تعالى، وأبصار القلوب عما سوى الله.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٩) هو قلب إبراهيم عليه السلام لأنه كان سالماً من خيانة العهد، ومن السخط على مقدور كائناً ما كان، وسئل رضي الله عنه عن حديث إذا رأيت أهل البلاء فاسألوا ريكم العافية فقال: أهل البلاء هم أهل الغفلة عن الله تعالى^(٢)، وليس رضي الله عنه يوم عيد ثوبين جديدين فرأى الناس يسلم بعضهم على بعض لأجل ثيابهم فطرح ثوبيه في تنور فقيل له لم فعلت ذلك؟ قال: أردت أن أحرق ما يعبد^(٣) هؤلاء ثم لبس ثياباً زرقاً، وسوداً، وكان إذا دخل عليه فقير يقول له: أعندك خبر أو عندك أثر؟ ثم ينشد:

أسائل عن ليلى فهل من مخبر يخبرنا علماً بها أين تنزل

ثم يقول: وعزتك، وجلالك ما غيرك في الدارين مخبر، وكان رضي الله عنه يقول: ما ظنك بشمس الشמוש كلها فيها ظلمة.

وحكي أن رجلاً صاح في مجلس الشبلي فرمي به في دجلة، وقال إن كان صادقاً نجاه الله تعالى كما نجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذباً أغرقه الله كما

(١) وذلك لأن الفاني لا يرى له ملكية مع مولاه في الوجود، فلولا أن أبا بكر رضي الله عنه كان فانياً في مولاه لما أعطى الكل، ومن أعطى الكل أخذ الكل.

(٢) لأنه ليس في نظر العارف من هو أعظم بلاء ممن غفل عن مولاه، وهو تخصيص لطيف للعموم، لأن الأنبياء هم أشد الناس ابتلاء، فكان ظاهر لفظه أوهم بخروجهم.

(٣) إشارة إلى حرق الهوى، والذي هو إله يعبد في الأرض مع الله عز وجل.

أغرق فرعون، وكان يقول: من طلب الحق بالمجاهدات فهو بعيد عن وصوله إلى مطلوبه، ومن طلبه به تعالى، وصل إليه ثم أشد:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يهتتممان
هي شامية إذا ما استهلكت وسهيل إذا استهل يمانى

ومنهم أبو محمد عبد الله

بن محمد المرتضى النيسابوري رحمته الله

صحب أبا حفص وأبا عثمان والجنيد، وأقام ببغداد حتى صار أوسع مشايخ العراق، وكانوا يقولون: عجائب بغداد في التصوف ثلاثة الشبلي في الإشارات، والمرتضى في المكاشفات، وجعفر الخلدي في الحكايات، وكان رحمه الله مقيماً بمسجد الشونيزية مات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، ومن كلامه رحمته الله يقول: سكوت القلوب إلى غير الله عقوبة عجلها الله للعبد في الدنيا، وكان رحمته الله يقول: ذهبت حقائق الأشياء، وبقيت أسماؤها فالأسماء موجودة، والحقائق مفقودة، والدعاوى في السرائر مكنونة، والألسنة بها فصيحة، وعن قريب تفقد هذه الألسن، وهذه الدعوى فلا يوجد لسان ناطق، ولا مدع صائب، وكان يقول: المسلم محبوب إلى الخلق، والمؤمن غني عن الخلق، واعتكف مرة في العشر الأخير من رمضان فرأى المتعبدين يتهددون، والقراء يقرءون فقطع الاعتكاف وخرج فقيل له في ذلك فقال: لما رأيت تعظيمهم لطاعتهم⁽¹⁾ واعتمادهم على عبادتهم لم يسعني إلا الخروج خوفاً من نزول البلاء عليهم رحمته الله.

(1) قلت: وذلك لأن الغرض من الطاعة تعظيم الله لا تعظيم طاعته فخاف أن تصيبه المدوى منهم فيعجب بطاعته كما عجبوا هم ويصيبه القرور وهو مرض عظيم.

ومنهم أبو علي الروذباري، واسمه أحمد بن محمد رحمته الله

هو من ذرية كسرى، وهو من أهل بغداد وسكن مصر، وكان شيخها، وبها مات سنة اثنتين وعشرين، وثلاثمائة، ودفن بالقرافة قريباً من ذي النون المصري رحمه الله تعالى. صحب الجنيد والنوري، وأبا حمزة البغدادي، وكان حافظاً للحديث ظريفاً^(١) عارفاً بالطريقة، وكان يفتخر. بمشاخه فيقول: شيخني في التصوف الجنيد، وفي الفقه أبو العباس بن سريج، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي رحمته الله أجمعين.

وكان رحمته الله يقول: الإشارة الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه لا غير، وفي الحقيقة إن الإشارة تصحبها العلل، والعلل بعيدة عن الحقائق، وسئل عن يسمع الملاهي، ويقول: هي لي حلال لأنني قد، وصلت إلى درجة لا تؤثر في الاختلاف فقال: نعم قد وصل، ولكن إلى سقر، وكان يقول: لو تكلم أهل التوحيد بلسان التجريد لما بقي محب إلا مات، وكان يقول: كيف تشهد الأشياء، وبه فنيت بذواتها عن ذواتها أم كيف غابت الأشياء عنه؟ وبه ظهرت بصفاتها فسبحان من لا يشهده شيء، ولا يغيب عنه شيء، وكان يقول: لما تشوقت القلوب إلى مشاهدة ذات الحق ألقى عليها الأسامي فسكنت وركنت إليها^(٢)، والذات مسترة إلى أوان التجلي، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠) الآية أي قفوا معها على إدراك الحقائق، وكان يقول: أظهر الحق الأسامي، وأبداها للخلق ليسكن لها قلوب المحبين ويؤنس بها قلوب العارفين له، وكان يقول المشاهدات للقلوب، والمكاشفات للأسرار، والمعاینات للبصائر والمرئيات للأبصار، وكان يقول: من نظر إلى نفسه مرة عمي عن النظر إلى شيء من الأكوان على وجه الاعتبار، وكان رحمته الله يقول: ما ادعى أحد قط إلا لخلوه عن الحقائق، ولو تحقق في شيء لنطقت عنه الحقيقة، وأغنته عن الدعاوى، وكان

(١) ظريفاً بمعنى أنه غلب عليه الجمال، فصار يرفل في صفات الكمال، ويعطي كل مقام حقه من العلم والإشارة.

(٢) ومراده أن الله سبحانه وتعالى صرف الخلق عن الذات الساذج بالتعرف عليه سبحانه بالأسماء فأخرجهم من عماء الوحدة إلى الكثرة، فبالكثرة والتعدد عرفوه، ولو ظلوا في عماء الوحدة لما وحدوه.

يقول: التصوف هو الإناخة على باب الحبيب، وإن طرد وسئل رضي الله عنه عن التصوف مرة أخرى؟ فقال: هو صفوه القرب بعد كدورة البعد، وكان رضي الله عنه يقول: أدركنا الناس، وكانوا يجتمعون لا عن مواعدة، ويفترقون لا عن مشورة، وكان إذا شاورة فقير بالذهاب يعرض عنه بالجواب، وكان يقول: من علامة مقت الله للعبد أن يتلقى من مجلس الذكر إذا طال لأنه لو أحبه لكان الألف سنة في حضرته كلمح البصر^(١).

وكان يقول: لا ينبغي أن يربي الأحداث إلا الكمل الذين استولت عليهم هيبة الله تعالى^(٢) وقد كان أحدهم يربي الحدث حتى تطلع لحيته لا يعلم بذلك إلا من الناس قال: وكان عندنا ببغداد عشرة فتیان معهم عشرة أحداث كل واحد منهم معه حدث، وكانوا مجتمعين في موضع. فوجهوا واحداً من الأحداث ليأخذ لهم حاجة فأبطأ عليهم فغضبوا لتأخيره عنهم ثم أقبل، وهو يضحك، وييده بطيخة يقلبها فقالوا له: بكم اشتريتها فقال: بعشرين درهماً فقالوا له: ما السبب في غلوها؟ فقال: رأيت فقيراً، وضع يده عليها فالتمست لكم البركة بوضع يده عليها فرضوا منه ذلك، وتقاسموها، وقالوا زادك الله تعظيماً لأهل الطريق فما مات الحدث حتى صار من أكابر أهل الطريق، وكان يطعم الفقراء الحلواء، واتخذ مرة أحمالاً من السكر الأبيض، ودعا جماعة من الحلوانيين حتى عملوا من ذلك السكر جداراً، وعليه شرفات، ومحاريب على أعمدة منقوشة كلها من السكر ثم دعا الصوفية فهدموها، وكسروها، وانتهبوا وهو يتبسم^(٣) رضي الله عنه.

(١) قلت: وهو حال أهل الغناء في ذكهم.

(٢) قلت: انقضت هذه العلة الآن بين الصوفية وزالت من سنين طويلة، والذين يخشى منهم عليهم هم النساء لا المردان، وقد أدخل الفرس هذه العادة السيئة على العرب منذ بداية العصر العباسي، حيث أدخلوا الفلمان المرد الحسان في قصور الخلفاء والأمراء.

(٣) قلت: هو من باب تأنس الصوفية ببعضهم البعض، واجتماعهم تتجلى فيه موارد الرحمة الإلهية كما قال الجنيد رحمه الله: عند اجتماع الإخوان على الطعام تنتزل الرحمات.

ومنهم أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي رحمته الله

لقي أبا حفص، وحمدون القصار، وكان إماماً في أكثر علوم الشرع مقدماً في كل فن منه ثم عطل أكثر علومه، واشتغل بعلم الصوفية، وتكلم عليه أحسن الكلام، وبه ظهر التصوف بنيسابور، وكان أحسن المشايخ كلاماً في عيوب النفس، وآفات الأفعال، مات سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان يقول: كمال العبودية هو العجز، والقصور عن تدارك معرفة علل الأشياء بالكلية، وكان رحمته الله يقول: من صحب الأكابر من غير طريق الخدمة حرم فوائدهم، وبركات نظرهم، ولم يظهر عليه من أنوارهم شيء، وكان يقول: من غلبه هواه توارى عنه عقله.

وكان يقول: الغفلة وسعت على الناس الطرق في معاشهم، وأفعالهم، وأحوالهم، والورع واليقظة ضيقا عليهم ذلك، وكان يقول: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبالغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من أمر له، وناه يريه عيوب أفعاله، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات، وكان رحمته الله يقول: يأتي على هذه الأمة زمان لا تطيب فيه المعيشة لمؤمن إلا بعد استناده لمنافق، وكان يقول في كلامه: يا من باع كل شيء بلا شيء واشترى لا شيء بكل شيء رحمته الله.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن منازل النيسابوري رحمته الله

شيخ الملامتية، وأوحد وقته بنيسابور له طريقة تفرد بها، صحب حمدون القصار، وأخذ طريقه، وكان عالماً بعلوم الظاهر كتب الحديث الكثير، وكان أبو علي الثقفي يحترمه، ويبجله، ويرفع مقداره مات بنيسابور سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، ومن كلامه رحمته الله لا خير في فقير لم يذق ذل المكاسب، وذل الرد، وكان رحمته الله يقول: من رفع ظل نفسه عن نفسه عاش الناس في ظله، وكان يقول: عبر بلسانك عن حالك، ولا تكن بكلامك حاكياً لأحوال غيرك، وكان يقول: إذا لم تنتفع أنت بعلمك فكيف ينتفع به غيرك، وكان يقول: من التزم شيئاً لا يحتاج إليه ضيع من أحواله ما يحتاج إليه، ولا بد منه، وكان يقول: لم يضيع أحد من

الفقراء فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يبتل أحد من الفقراء بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتل بالبدع، وكان يقول: لا يجتمع التسليم، والدعوى لأحد بحال، وكان يقول: لو صح لعبد في عمره نفس واحد من غير رياء، ولا شرك لأثر بركات ذلك عليه إلى آخر الدهر، وكان يقول: لم تظهر دعوى العبودية، وتضمير أوصاف الربوبية؟ وكان يقول: من احتجت إلى شيء من علومه فلا تنظر إلى شيء من عيوبه فإن نظرتك إلى عيوبه يحرمك بركة الانتفاع بعلومه وكان يقول: أفضل أوقاتك، وقت يسلم الناس فيه من سوء ظنك ﷺ.

ومنهم أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (أ) ﷺ

وهو من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق، صحب الجنيد، والنوري، وعمرو بن عثمان المكي، والقوطي، وغيرهم رحمهم الله أجمعين، والمشايخ في أمره مختلفون، رده أكثر المشايخ ^(٢)، ونفوه، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف، وقبله بعضهم منهم أبو العباس بن عطاء، ومحمد بن حنيف، وأبو القاسم النصراباذي، وأثنوا عليه، وصححوا حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين حتى كان محمد بن حنيف يقول: الحسين بن منصور عالم رباني، قتل رحمه الله تعالى ببغداد بباب الطاق يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة. قلت: ورأيت في تاريخ ابن خلكان ما نصه: قتل الحسين الحلاج، ولم يثبت عليه ما يوجب القتل ﷺ، وقد أشار القشيري إلى تزكيته حيث ذكر عقيدته مع عقائد أهل السنة أول الكتاب فتحاً لباب حسن الظن به ثم ذكره في أواخر الرجال لأجل ما قيل فيه، وقد تقدم بسط ذلك في مقدمة الكتاب، والله

(١) لنا فيه مصنفات منها (سيرة الحلاج الكبرى) و (شرح على تفسيره للقرآن) و (شرح لكتابه الطواسين).

(٢) اعلم أن هذه العبارة من اغلوطات المؤرخين، وقد نقلها الشعرائي عن المؤرخين فيما اعتقده وذلك لأن الحلاج لم يرد أكثر المشايخ، بل رده القليل منهم وقبله الكثير منهم، وشهدوا بصحة طريقه، وكفى أن الشيخ الأكبر ﷺ استدل بكلامه كثيراً في كتبه وشرح بعض كتبه وصح له حاله سيدي عبد القادر الجيلاني وأقام له عذره وقال لو كنت في عصره لأخذت بيده وانتصرت له وقد انتصر له القشيري في رسالته وذكر عقائده مع عقائد أهل السنة.

تعالى أعلم. ومن كلامه عليه السلام حجبهم بالاسم فعاشوا ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم عن الحقيقة لما تواروا، وكان يقول: أسماء الله من حيث الإدراك اسم، ومن حيث الحق حقيقة، وكان يقول: إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخواطره، وحرس سره أن يسبح فيه غير خاطر الحق، وعلامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة. وسئل عن المرید فقال: هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى فلا يعرج حتى يصل وسئل عن التصوف، وهو مصلوب؟ فقال للسائل أهونه ما ترى^(١)، وكان يقول: ومن لاحظ الأعمال حجب عن المعمل له، ومن لاحظ المعمل له حجب عن رؤية الأعمال، وكان يقول: لا يجوز لمن يرى غير الله أو يذكر غير الله أن يقول: عرفت الله الأحد الذي ظهرت منه الأحاد وكان يقول: من أسكرته أنوار التوحيد، حجبته عن عبارة التجريد، بل من أسكرته أنوار التجريد نطق عن حقائق التوحيد، لأن السكران هو الذي ينطق بكل مكنون، وكان يقول: من التمس الحق بنور الإيمان، كان كمن طلب الشمس بنور الكواكب، وكان يقول: ما انفصلت عنه، ولا اتصلت به^(٢)، وكان يقول: المتوكل المحق لا يأكل وفي البلد من هو أحق منه بذلك الأكل^(٣)، وسئل عن الصوفي فقال: هو وحداني الذات لا يقبله أحد^(٤)، وهو المشير عن الله تعالى، وإلى الله، ووقف عليه رجل فقال: من الحق الذي تشيرون إليه؟ فقال: معل الأنام فلا يعل، وسئل عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال: بدا لموسى من

(١) لأنه كان يرى نفسه أنه لا يزال في عين التقصير قائماً وإن كان على خشبة الصليب، ولسان غيره يقول: أصعبه ما رأي.

قلت: وهو نهاية العطاء فإن الصوفية قدموا كل ما يملكونه لخالقهم.

(٢) وهو قمة التوحيد وهو رأي جمهور الصوفية على أن الحق سبحانه ما اتصل بشيء ولا انفصل عنه، وهو دليل كاف لنفي شبهة الاتحاد والحلول عنهم، وقوله هذا فيه دليل لبراءته من تهم كثيرة نسبوا إليه من أخصها تهمة الحلول.

(٣) وقد أخذه من تصوف الصحابة، قلت: وهو توكل الصحابة كعمر وغيره، فإنه روي عن عمر رضي الله عنه أنه حرم علي نفسه أكل اللحم عام الرمادة وكان لا يأكل سوى الزيت حتى أسود جلده.

(٤) قلت: لأن في نسخته علوم لم توضع إلا فيه هو ومن هنا نافرته غيره، لأن الحق عز وجل لم يتجل بتجليين متشابهين قط.

الحق باد فلم يبق لموسى ثم أثر فني موسى عن موسى، ولم يكن لموسى خبر عن موسى ثم كلم فقال المكلم هو المتكلم بحصول موسى في حال الجمع، وفنائه عنه، ومتى كان موسى يطيق حمل الخطاب أو يأباه، ولكن بالله قام، وبه سمع، وكان يقول: إذا دام البلاء بالعبد ألفه، وقال أبو العباس الرازي: كان أخي خادماً للحسين بن منصور قال: فسمعتة يقول لما كان الليلة التي وعد من الغد بقتله قلت: يا سيدي أوصني قال عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك فلما كان من الغد، وأخرج للقتل قال: حسب الواحد أفراد الواحد^(١) له ثم خرج يتبختر في قيده ويقول:

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف
سقاني مثل ما يشرب كفعل الضيف للضيف
فلمما دارت الكاسا ت دعاء بالنطع، والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

ثم قال: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ثم ما نطق بعد ذلك بشيء حتى فعل به ما فعل. قال القضاعي، وقتل في خلافة جعفر بن المعتضد، وقطعت يداه، ورجلاه أولاً ثم جز^(٢) رأسه، وأحرق بالنار رحمه الله.

وقال الفناد: لقيت الحلاج يوماً فأنشدني:

(١) وورد في بعض الروايات حسب الواجد بدلاً من الحاء.

(٢) اعلم أن الحلاج لم يحس بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وذلك لقوة فنائه في الحق واستهلاكه في الذات وغيابه فيها، ودليل كلامنا أن من بقي إحساسه حياً كعوام الناس يصرخ بأعلي صوته لو دخل في رجليه مسمار ويتلوى، وأما عالم الفناء فهو أقوى من عالم الإحساس فلو شوي العارف بالنار لما أحس، ولذلك ورد عن ابن مسعود أنه دخل إلى حانوت حداد وأمسك بيده حديدة محمأة حمراء ولم يحس بها، وورد عن علي كرم الله وجهه أنهم أخرجوا من جسده نضلاً وهو في الصلاة ولم يحس، وقال عمر لخباب: ماذا فعلت مع المشركين؟ فقال: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها سوى ودك ظهري، وكان بلال رضي الله عنه قد فني في الأحذية وهم يمدبونه بأشد أنواع العذاب فلا ينطق سوى بأحد أحد.

ولي نفس ستختلف أو ستترقى لممرك بي إلى أمر عظيم
وقال:

لم يبق بيني وبين الحق إثنان ولا دليل بآيات وبرهان
كأن الدليل له منه إليه به حقاً وجدناه في علم وفرقان
هذا وجودي وتصريحي ومعتدي هذا توحد توحيدتي وإيماتي
هذا تجلي نور الحق نائرة قد أزهرت في تلاليتها. بسلمطان
لا يستدل على الباري بصنمته وأنتم حدث ينبي عن أزمانتي

وكتب إلى أبي العباس بن عطاء رحمه الله تعالى: أطال الله حياتك،
وأعدمني وفاتك، على أحسن ما جرى به قدر، أو نطق به خبر، مع مالك في
قلبي من لواعج أسرار محبتك، وأفانين ذخائر مودتك، ما لا يترجمه كتاب، ولا
يحصيه حساب، ولا يفنيه عتاب ثم كتب تحت ذلك:

كتبت ولم أكتب إليك وإنما كتبت إلى روعي بغير كتاب
وذلك أن الروح لا قرب بينها وبين محبتها بفصل خطاب
وكل كتاب صادر منك وارد إليك بلا رد الجواب جوابي

ومنهم أبو الخير الأقطع التيناتي رضي الله عنه

أصله من المغرب، وسكن التينات، وله آيات، وكرامات يطول شرحها، صحب
أبا عبد الله بن الجلاء، وغيره من المشايخ رحمهم الله تعالى، وكان أوحده أهل
زمانه في التوكل كانت السباع، والهوام تأنس به وله فراسة حادة، مات بمصر
سنة نيف وأربعين وثلاثمائة، ودفن بجنب منارة الديلمية بالقرافة الصغرى رضي الله عنه
كان رضي الله عنه يقول: أتيت قبر رسول الله ﷺ، وأنا جائع فقلت: أنا ضيفك يا رسول
الله، وتحتيت، ونمت خلف المنبر فرأيت النبي ﷺ فقبلت ما بين عينيه فدفع لي
رغيفاً فأكلت نصفه، وانتبهت ويدي النصف الآخر، وكتب إلى جعفر الخلدني قد

جهل الفقراء عليكم في هذا الزمان، وأصل ذلك منكم لأنكم تصدروا للمشيجة قبل الكمال فاشتغلتم بتأديب نفوسكم عن تأديبهم، وكان يقول: الذاكِر لله لا يقوم له في ذكره عوض فإذا قام له عوض خرج عن ذكره.

ودخل عليه جماعة من البغداديين يتكلمون بشطحهم فضاق صدره من كلامهم فخرج عنهم فجاء السبع فدخل البيت فانضم بعضهم إلى بعض، وسكتوا وتغيرت أحوالهم، وألوانهم وخافوا منه خوفاً شديداً فدخل عليهم أبو الخير، وقال: يا إخواني أين تلك الدعاوى؟ ثم طرد السبع عنهم، وكان إبراهيم الرقي يقول: قصدت أبا الخير التيناتي مسلماً عليه فصلى المغرب فما قرأ الفاتحة مستوياً فقلت في نفسي ضاعت^(١) سفرتي فلما سلمت خرجت للطهارة فقصدني السبع فعدت إليه، وقلت له: إن الأسد قصدني فخرج، وصاح عليه، وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني فتتحى الأسد، ومضيت أنا، وتطهرت فلما رجعت قال لي اشتغلتم بتقويم الظواهر فحفتم الأسد واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد، وكان يقول: إياك أن تطلب من الله أن يصبرك، ولكن أسأل الله اللطف بك فهو أولى لأن تجرع مرارات الصبر شديد على أمثالنا، ولما هرب السيد زكريا عليه الصلاة والسلام من اليهود، ونادته الشجرة إلي يا زكريا، وانفجرت له، ودخل في جوفها، وانطبقت عليه لحقه العدو، فتعلق بعباءته، وناداهم إن هذا زكريا فأخرجوا المنشار فنشروه مع الشجرة فلما بلغ المنشار إلى زكريا عليه السلام أن منه أنه فأوحى الله إليه يا زكريا، وعزتي وجلالي لئن سعدت منك أنه ثانية لأمحونك من ديوان النبوة فعرض زكريا على الصبر حتى قطع شطرين.

وكان سبب قطع يده أنه عقد مع الله عقداً أن لا يمد يده إلى شيء مما تثبت الأرض بشهوة فنيسي، وتناول عنقوداً من شجرة البطم فبينما هو يلوكه إذ

(١) كان يجب عليه ألا يعترض، وذلك لأن الكامل لا يعترض عليه، وعدم استوائه أشاء قراءة الفاتحة ربما حدث له لعة في جسمه كمرض أو تعب بغير تكلف منه، وربما أقام الكامل مثلاً خيالياً لمن أمامه لأجل اختباره.

تذكر العقد فرمى بالعنقود وبقي ما في فمه فبصقه، وجلس نادماً قال : فما استقر بي الجلوس حتى دار بي فرسان، ورجال وقالوا : قم فساقوني إلى أن أخرجوني إلى ساحل بحر الإسكندرية فرأيت هناك أميراً، وبين يديه سودان قد قطعوا الطريق فوجدوني أسود اللون، ومعى ترس، وحرية، وسيف فقالوا: هذا منهم بلا شك فقطع أيديهم، وأرجلهم إلى أن وصل إلي فقال لي: قدم يدك فمدتها فقطعها فقال: مد رجلك فمدتها، ثم رفعت رأسي، وقلت: إلهي وسيدي ومولاي يدي جنت فرجلي ماذا صنعت فدخل عليه فارس، ورمى بنفسه على الأمير وقال: هذا رجل صالح يعرف بأبي الخير التيناتي فرمى الأمير نفسه إلى الأرض، وأخذ يدي المقطوعة من الأرض يقبلها، وتعلق بي يبكي، ويعتذر إلي فقلت له: جعلتك في حل من أول ما قطعتها، وقلت: يد جنت فقطعت (١) ﷺ أجمعين.

ومنهم أبو بكر بن محمد

بن علي بن جعفر الكتاني ﷺ

أصله من بغداد، وصحب الجنيد، والنوري، وأبا سعيد الخراز، وأقام بمكة، وجاور بها إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وكان أحد الأئمة المشار إليهم في علم الطريق، وكان المرتعش ﷺ يقول: الكتاني سراج الحرم.

ومن كلامه ﷺ إذا سألت الله التوفيق فابتدر العمل، وكان يقول: كن في الدنيا بيدك، وفي الآخرة بقلبك، وكان يقول: روعة عند انتباه من غفلة، وانقطاع عن حظ نفس، وارتعاد من خوف قطيعة أفضل من عبادة الثقلين، ونظر مرة إلى رجل شيخ كبير يسأل الناس، فقال : هذا رجل ضيع أمر الله في صفره فضيعة الله في كبره، وكان يقول: إذا صحت مرتبة الافتقار إلى الله تعالى

(١) هذا حدث له برغم أنه لم ينقض العهد حقيقة، وإنما مد يده عن طريق النسيان، ولكن آداب الكمل تقتضى عدم الغفلة عن الله ولو للحظة، فعاقبه الحق عز وجل عن تلك اللحظة التي غفل عنه فيها ومد يده إلى ما لا ينبغى له، وهذا هو عقاب الحق عز وجل للكمل من خلقه، وأما العوام فإنه سبحانه ياملهم باللطف والتجاوز، وكلما زاد علم الإنسان ومعرفة بالله زادت محاسبته وعوقب أكثر إذا أخطأ.

صحت العناية لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه، وكان يقول: الشهرة زمام الشيطان، ومن أخذ بزمام الشيطان كان عنده، وسئل عن السنة التي لم ينازع فيها أحد من أهل العلم؟ فقال: الزهد في الدنيا، وسخاوة النفس، ونصيحة الخلق، وسئل عن الزهد في الدنيا ما هو؟ قال: هو سرور القلب بفقد الشيء؛ وملازمة تحمل الأذى من جميع الخلائق، وكل شيء أتاه منهم يقول: أنا أستحق أعظم من ذلك، ويرى أنه استحق النار، ووصلح بالرماد.

وقيل له: من العارف؟ فقال: من وافق معروفه في أوامره، ولم يخالفه في شيء من أحواله، ويتحجب إليه بمحبة أوليائه، ولا يفتر عن ذكره طرفة عين، وكان يقول: الصوفية عبيد الظواهر أحرار البواطن، وكان رضي الله عنه يقول: حقائق الحق إذا تجلت لسر أزالته عنه الظنون والأمانى لأن الحق إذا استولى على سر قهره، فلا يبقى لغيره معه أثر، وكان يقول: العلم بالله من أتم العبادة له، وكان يقول: إن الله نظر إلى طائفة من عبيده فلم يرهم أهلاً لمعرفته فشفغهم بخدمته، وكان يقول: كنا معاشر الفقراء في بداية أمرنا نصلي إلى الصباح بوضوء العشاء فإذا وقع منا أن أحداً ينام نراه أفضلنا^(١)، وكان يهجر الفقير إذا بلغه أنه مشى خطوة في طلب الدنيا، ويقول: هذا خروج عن الطريق وإنما شأن الفقير أن تتبعه الدنيا، وكان رضي الله عنه يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت: يا رسول الله ادع الله لي أن لا يميت قلبي، فقال: قل في كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، وكان يقول: رأيت في المنام حوراء فقلت لها من أنت فقالت: من حور الجنة فقلت: زوجيني نفسك فقالت: اخطبني من سيدي قلت لها: فما مهرك؟ قالت: حبس نفسك عن مآلوفاتها، وكان رضي الله عنه يقول: النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، والنجباء مصر، والأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، والغوث مسكنه بمكة فإذا عرض حاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد ثم الغوث فلا يتم

(١) وذلك لقطع العجب عن المرادين.

الفوئ مسألته حتى تجاب دعوته، وكان يقول: الأفس بالمخلوقين عقوبة، والقرب من الدنيا وأبنائها معصية، والركون إليهم مذلة، وكان يقول: العبادة اثنان وسبعون باباً، أحد وسبعون منها في الحياء من الله عز وجل وواحد في جميع أنواع البر وكان يقول: يقول الله تعالى: "ما من عبد أصبح في الدنيا وفي قلبه همان إلا وأنا منه بريء هم المعاصي وهم المال ﷺ".

ومنهم أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري ﷺ

صحب الجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبا يعقوب السوسي، وغيرهم من المشايخ، أقام بالحرم مجاوراً سنين كثيرة، ومات سنة ثلاثين وثلاثمائة ﷺ، وكان يقول في معنى قولهم احترسوا من الناس بسوء الظن: أي سوء الظن بأنفسكم لا بالناس،^(١) وكان يقول: من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً، ومن مال باطنه إلى العطاء من الخلق لم يزل محروماً، ومن استعان على أمر بغير الله لم يزل مخذولاً، وكان يقول: طلب أهل الله الحقائق فسادوا الخلائق، ولذلك قالوا: لا يطلب الحق لأن الطلب لا يكون إلا لمفقود، ولا يطلب دركه لأنه لا غاية له، ومن أراد وجود الموجود فهو مفرور، وإنما الموجود عندنا معرفة حال، وكشف علم بلا حال، وقال في قوله تعالى: "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين" لو جعلوا ثمنه ﷺ الكونين لكان بخساً في مشاهدته، وما خص به ﷺ، وكان ﷺ يقول: مشاهدة القلوب تعريف، ومشاهدة الأرواح تحقيق، وكان يقول: أعرف^(٢) الناس بالله أشدهم فيه تحيراً، وسئل ﷺ مرة عن التصوف فقال آه آه تلك أمة قد خلت ثم قال ﷺ للسائل: يا أخي زفرات القلوب بودائع الحضور من حيث خاطبها الحق، وهي في صورة الذرة فأخبر عنها بقوله: ألسنت بركم قالوا بلى، وكان يقول: ما رأته العيون ينسب إلى العلم، وما رأته القلوب ينسب إلى اليقين، وسئل

(١) قلت: وهو من تمام أدبه فالعارف الكامل من يتهم نفسه دوماً لا من يتهم الناس.

(٢) روى الشيخ الأكبر في الفتوحات حديثاً عنه ﷺ أنه قال (اللهم زدني فيك تحيراً) وهو حديث وإن كان لا سند له عند المحدثين فربما يكون صحيحاً عند أهل المعرفة.

ﷺ عن الطريق إلى الله تعالى ؟ فقال للسائل: اجتنب الجهلاء واصحب العلماء، واستعمل العلم، وداوم الذكر، وأنت إذن من أهل الطريق ﷺ.

ومنهم علي بن محمد المزين ﷺ

صحب سهل بن عبد الله، والجنيد بن محمد، ومن في طبقتهما من البغداديين، أقام بمكة مجاوراً، ومات بها سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان من أروع المشايخ، وأحسنهم حالاً، وكان ﷺ يقول: متى ما ظهرت الآخرة فنيت منها الدنيا، ومتى ما ظهر ذكر الله تعالى فنيت فيه الدنيا، والآخرة، وإذا تحققت الأذكار فني العبد، وذكروه، وبقي المذكور وصفاته، وسئل ﷺ عن التوحيد؟ فقال: أن توحّد الله بالمعرفة، وتوحّد بالعبادة، وتوحّد بالرجوع إليك في كل مالك، وعليك، وتعلم أن ما خطر بقلبك، أو أمكنك الإشارة إليه، فالله بخلاف ذلك، وتعلم أن أوصافه سبحانه وتعالى مبيّنة لأوصاف خلقه، باينهم بصفاته قدماً كما باينوه بصفاتهم حدثاً، وكان ﷺ يقول: كانت الطريق إلى الله تعالى بعدد النجوم، وما بقي منها إلا طريق واحد وهي طريق الفقه وهو أنهج الطرق^(١)، وكان يقول: من طلب الطريق بنفسه تاه في أول قدم^(٢)، ومن أريد به الخير دل على الطريق رأى عين حتى بلغ المقصد، وكان يقول: المعجب بعمله مستدرج، والمستحسن لأحواله السيئة ممكور به، ومن ظن أنه موصول فهو مغرور، وأحسن العبيد حالاً من كان مجهولاً في أحواله لا يشاهد غير واحد، ولا يستأنس إلا به، ولا يشناق إلا إليه، وكان يقول: من أعرض عن مشاهدة ربه سبحانه وتعالى، شغله الله تعالى بطاعته وخدمته، ومن بدا له نجم الاحتراق^(٣) غيبه عن وساوس الافتراق، وكان ﷺ يقول: لو زكيت رجلاً حتى جعلته صديقاً لا يعبأ

(١) قلت: ولاتزال لحد الآن الطريق بعدد نجوم السماء ببركة سيدنا محمد ﷺ، وكان سيدي أبو العباس السبتي ﷺ يقول: إن الطريق إلى الله بعدد نجوم السماء.

(٢) لأنه لو كان معه شيخ لحماه من هذا التيه.

(٣) يريد بالإحراق نهاية مجاهدة المارف كما قال سيدي ابن عطاء في الحكم: من كانت بدايته إحراقاً فنهايتها إشراقاً.

الله به، وهو يساكن الدنيا بقلبه طرفة عين حتى لو ساكنها لأجل إخوانه ليصرفها عليهم لا يفلح، ومن أبقى عنده منها فوق قوت فقد ساكنها، وقد درج السلف الصالح على عدم المساكنة للدنيا، وجعلوه من رهبانية الريانيين، وأحوال الحواريين فقال له رجل فإذا سكن إلى الدنيا لينفقها على نفسه وعياله وغيرهم من الملازم فقال له: دعونا من هذه الزلقات من أراد الله بهذا الأمر فليصدق الله فيه، ويسد باب الدنيا جملة وإلا فليرجع إلى ظاهر العلم ورعايته فيأخذ به ويعطي الناس، ويعم ويخص، والله ما هلك من هلك من أهل الطريق إلا من حلاوة الغنى في نفوسهم، وقبول الظواهر المدخولة مع الوقوف مع ظاهرها، والله الذي لا إله إلا هو أني لأعرف من يدخل عليه عرض الدنيا فيقسمها إلى حقوق الله تعالى دون خصوص نفسه فيصير ذلك مع براءة ساحته منه حجاباً قاطعاً له عن الله تعالى، وكان يقول: إذا عرض على أحدكم طعام من حيث لا يحتسب فليأكله^(١) فإنني عرض علي مرة طعام، فامتعت من أكله فضريت بالجوع أربعة عشر يوماً حتى إذا علمت أني قد عوقبت تبت إلى الله فزال ما كان عندي من الجوع، وما كنت إلا هلكت، وكان يقول: العجب في العبد مقت من الله عز وجل له. وهو يؤدي إلى مقت الأبد نسأل الله العافية.

ومنهم أبو علي الحسين بن أحمد الكاتب رحمته الله

من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصري، وأبا علي الروذباري وغيره، وكان أوجد المشايخ في وقته حتى قال فيه أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: أبو علي بن الكاتب من السالكين، وكان يعظمه، ويعظم شأنه.

مات سنة نيف وأربعين وثلاثمائة رحمه الله تعالى، وكان يقول: المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا، والصوفية نزهوا الله من حيث العلم فأصابوا.

(١) بشرط خلوه من الشبهات، فلا يجب على العارف أن يأكل من كل ما تقع عليه يده أو يعرض عليه، وحكايات لقوم في التورع مشهورة.

وكان رضي الله عنه يقول: من سمع الحكمة فلم يعمل بها فهو منافق، وكان رضي الله عنه يقول: قال الله عز وجل: "من صبر علينا وصل إلينا"، وكان يقول: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم، وكان رضي الله عنه يقول: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين، وإن كتموها، وتظهر عليهم، وإن أخفوها، وتدل عليهم، وإن ستروها، وكان رضي الله عنه يقول الهمة مقدمة الأشياء فمن صحح همته أتت عليه بتوابعه على الصدق، والصحة فإن الفروع تتبع الأحوال، ومن أهمل همته أتت عليه توابعه مهملة، المهمل من الأحوال، والأفعال لا يصلح لبساط الحق تعالى، وكان يقول: إن الله تعالى يرزق العبد حلاوة ذكره فإن فرح به، وشكره أنسه بقربه، وإن قصر في الشكر أجرى الذكر على لسانه، وسلبه حلاوته رضي الله عنه.

ومنهم أبو الحسين بن حبان الجمال رضي الله عنه

من كبار مشايخ مصر صحب الخراز والبيرسمي، مات رضي الله عنه في التيه.

وسبب ذلك أنه ورد على قلبه شيء فهمام على وجهه فالحقوه في وسط التيه في الرمل ملقى ففتح عينيه، وقال: أربع فهذا مربع الأحباب، وكان (يقول: الناس يعطشون في البراري، وأنا عطشان على شاطئ النيل، وكان يقول: كل صوفي يكون هم الرزق قائماً في قلبه فلزوم العمل أقرب له إلى الله تعالى، والمراد بالعمل الكسب، والاحتراف بالصنائع وغيرها، وكان يقول: علامة ركون القلب، وسكونه إلى الله تعالى أن يكون قوياً إذا زالت عنه الدنيا، وأدبرت، وفقد الرغبة بعد أن كان موجوداً عنده بلا كلفة، وكان يقول: اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبوا الحرام، وكان رضي الله عنه يقول: ذكر الله تعالى باللسان يورث الدرجات، وذكره بالقلب يورث القربات، وكان يقول: الإكثار من الوحدة حيلة الصديقين، وكان يقول: لا يعظم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله عز وجل.

(١) وذلك لكون العارف لا تطفى نار وجده مياه الدنيا كلها، ففي إشارته إلى أن الماء الحقيقي لا يطفى غلة وجده ونيران محبته، وأنشدوا في ذلك:

لى سكرتان وللنعمان واحدة

شئ خصصت به من بينهم وحدي

ومنهم أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري رحمته الله

من كبار مشايخ الجبل، وهو من أقران الشبلي رحمته الله صحب يوسف بن الحسين الرازي، وأبا مظفر القرمسيني، وغيرهما من المشايخ، وكان عالماً ورعاً مات رحمته الله قريباً من ثلاثين وثلاثمائة، ومن كلامه رحمته الله الجمع جمع المتفرقات، والتفرقة تفرقة المجموعات فإذا جمعت قلت الله، وإذا فرقت نظرت إلى الكونين، وكان رحمته الله يقول: إن الله تعالى أطلع نبيه ﷺ على ما يكون في أمته من بعده من الخلاف، وما يصيبهم في عار الدنيا فكان إذا ذكر ذلك وجد غانة في قلبه منه، فاستغفر الله لأمته، وقيل له: ما بال الإنسان يحتمل من معلمه ما لا يحتمل من أبويه؟ فقال: لأن أبويه سبب حياته الفانية، ومؤدبه سبب حياته الباقية⁽¹⁾، وتصديق ذلك قوله ﷺ: "اغد عالماً أو متعلماً ولا تكن فيما بين ذلك فتهلك" وكان رحمته الله يقول: المحن ثلاثة: تطهير، وتكفير، وتذكير، فالتذكير من الكبائر، والتكفير من الصغائر، والتذكير لأهل الصفاء، وكان رحمته الله يقول: همة الصالحين الطاعة بلا معصية، وهمة العلماء المزيد في الصواب، وهمة العارفين إعظام الله تعالى في قلوبهم، وهمة أهل الشوق سرعة الموت، وهمة المقربين سكون القلب إلى الله تعالى.

ومنهم مظفر القرميسيني رحمته الله

من كبار مشايخ الجبل، وأجلتهم، ومن الفقراء الصادقين صحب عبد الله الخراز، ومن فوقه من المشايخ، وكان واحداً في طريقته، وكان رحمته الله يقول: الصوم على ثلاثة أوجه صوم الروح بقصر الأمل، وصوم العقل بخلاف الهوى، وصوم النفس بالإمساك عن الطعام، والشراب، والمحارم، وكان رحمته الله يقول: من صحب الأحداث على شرائط السلامة والنصيحة، أداه ذلك إلى البلاء فكيف من يصحبهم على غير شروط السلامة؟ وكان رحمته الله يقول: أخس الفقراء قيمة من يقبل رفق النسوان على أي حال كان.

(1) وذلك لأن أستاذه يحيى روحه ويكشف عنه حجابيه، وأما أبوه فهو سبب في إحيائه وولادته الجسمانية ولا يكون سبباً في نجاته وتخليصه من النار وفي كشف حجابيه.

قلت: وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤) ومن رضي لنفسه بقيام المرأة عليه لا يفلح أبداً مع أن قبول الرفق يميل قلب الفقير إلى المرأة زيادة على ميل الوازع الطبيعي فيتلف الفقير بالكلية والله أعلم، وكان يقول: خير الأرزاق ما فتح الله به من وجه حلال من غير طلب، ولا سعي، وكان يقول: ليس لك من عمرك إلا نفس واحد إن لم تفنه بمالك فلا تفنيه بما عليك، وكان رضي الله عنه يقول: من تأدب بآداب الشرع تأدب به متبوعه، ومن تهاون بالآداب هلك وأهلك، ومن لم يأخذ الآداب عن حكيم لا يتأدب به مرید، وكان رضي الله عنه يقول: الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله حاجة^(١).

قلت: معناه أنه يكتفي بعلم الله بحاجته، وأنه أشفق عليه من نفسه فلا يحوجه إلى سؤاله لأنه لا يستغني عن مولاه طرفة عين كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥) رضي الله عنه.

ومنهم أبو الحسين علي بن هند القرشي الفارسي رضي الله عنه

من كبار مشايخ الفرس وعلمائهم، صحب جعفرأ الحداد، وعمرو بن عثمان المكي، ومن فوقه، له الأحوال العالية، والمقامات الزكية، كان رضي الله عنه يقول: شرط المتمسك بكتاب الله وسنة رسوله أن لا يخفى عليه شيء من أمر دينه ودنياه على ممر أوقاته على المشاهدة والكشف لا على الغفلة والظن، وأن يأخذ الأشياء من معدنها، ويضعها في معدنها، وكان رضي الله عنه يقول: استرح مع الله، ولا تسترح عن الله فإن من استراح مع الله نجا، ومن استراح عن الله هلك فالاستراحة مع الله تروح القلب بذكره، والاستراحة عن الله مداومة الغفلة، وكان رضي الله عنه يقول: من أكرمه الله تعالى بحرمة الأكابر أوقع حرمة في قلوب الخلق ومن حرم ذلك نزع الله حرمة من قلوب الخلق فلا تراه إلا ممقوتاً^(٢)، وإن حسنت أخلاقه،

(١) أي لا يعرف الله إلا لأجل الله.

(٢) كبعض فرق غلاة الشيعة فإنهم لما بفضوا الشيخين أبا بكر وعمر وبعض الصحابة كعائشة صاروا ممقوتين في الأرض وفي السماء، وكان سيدي علي زين العابدين بن الحسين يطرد من مجلسه من يبعض أبا بكر وعمر.

وصلحت أحواله لأن النبي ﷺ يقول: "من تعظيم جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم" ﷺ.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني ﷺ

كان شيخ الجبل في وقته له المقامات في الورع والتقوى يعجز عنها أكثر الخلق صحب أبا عبد الله المغربي، وإبراهيم الخواص، وكان شديداً على المدعين متمسكاً بالكتاب، والسنة ملازماً لطريقة المشايخ والأئمة، حتى قال فيه عبد الله بن منازل: إبراهيم بن شيبان حجة الله على الفقراء، وأهل الأدب والمعاملات، وكان ﷺ يقول: من أراد أن يتعطل ويبطل فيلزم الرخص، وكان يقول: ما قطع الفقراء عن الطريق، وأهلكهم إلا ميلهم إلى ما عليه أبناء الدنيا، وكان يقول: علم البقاء، والفناء يدور على الإخلاص للوحدانية وصحة العبودية، وما كان غيرها فهو المغاليط، والزندقة، وكان يقول: سفلة الناس، من يخطر العطاء على قلبه على وجه المنة به، وكان ﷺ يقول: من ترك حرمة المشايخ ابتلى بالدعاوى الكاذبة فافتضح بها⁽¹⁾، وكان يقول: من تكلم في الإخلاص، ولم يطالب نفسه بذلك ابتلاه الله تعالى بهتك ستره عند أقرانه وإخوانه.

ومنهم أبو بكر الحسين بن علي بن بزردانيار ﷺ

من أهل أرمينية له طريقة في التصوف يختص بها، وكان ينكر على بعض المشايخ بالعراق أقاويلهم، وكان عالماً بعلوم الظاهر، والمعارف، والمعاملات، وكان علي بن إبراهيم الأرموي يقول: سمعت ابن بزردانيار يقول: تراني تكلمت في الصوفية بما تكلمت به إنكاراً على التصوف، والصوفية؟ والله ما تكلمت به إلا غيرة عليهم حيث أفشوا أسرار الحق، وأظهروها بين من ليس من أهلها، وإلا

(1) قلت: وأساس حرمة المشايخ خدمتهم بلا غرض ولو أخذ ذلك من عمر المرید سنين، وكما قال سيدي محيي الدين بن عربي ﷺ وأنشد في ذلك: «ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله»، وقال أبو مدين:

إفاصحهم وتادب في مجالسهم

وخل حظك مهما قدموك ورا

فهم السادة بمحبتهم أتقرب إلى الله تعالى.

ومن كلامه ﷺ رضا الخلق عن الله تعالى رضاهم بما يفعل^(١)، ورضاه عنهم أن يوقفهم للرضا عنه، وكان يقول: من استغفر الله، وهو ملازم للذنب حرم الله عليه التوبة، والإنابة إليه، وكان يقول: الحياء على أقسام: منها حياء الجناية كما روى أن آدم ﷺ هام على وجهه بعد الجناية في الجنان فأوحى الله إليه أفراراً مني يا آدم قال: لا بل حياء منك يا رب.

ومنها حياء التقصير كقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

ومنها حياء الإجلال كما روى أن إسرافيل تسربل بجناحيه حياء من ربه عز وجل.

ومنها حياء الغيرة كما روى أن عيينة بن حصن الفزاري دخل على النبي ﷺ، وعنده عائشة رضي الله عنها فرفع النبي ﷺ يده فسترها عنه فقال له: يا محمد ما هذا؟ قال^(٢) النبي ﷺ: "هذا الحياء الذي أعطيناه، ومنعتموه". أو لفظة هذا معناها" ومنها حياء الكرم لقوله تعالى في تأديب الصحابة:

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

ومنها حياء المعروف كما أنه قيل للنبي ﷺ: "يا رسول الله إن الله لم يكلفك هذا فقال: ما أصنع يسألوني، وبأبي الله لي البخل".

ومنها حياء الخلق لما روى أن عمر بن الخطاب دخل في الصلاة فذكر أنه على غير طهر فخرج من الصلاة، فقال: إنني أردت أن أمر في الصلاة حياء من الناس.

ومنها حياء التحقيق، وإسقاط رؤية الخلق لما روى أن بعض الصحابة فاتته الصلاة، وهو يأتي المسجد فتلقاه الناس منصرفين فانصرف بوجهه حياء بلا علة حتى مروا.

(١) أى أن يروا أحكامه فيهم مصبوبة من عين الحكمة وفي محلها الذى لا محيد عنه ولا خروج.

(٢) المفروض فقال النبي ﷺ حتى يستقيم الكلام.

ومنها حياء الاستحغار لما روي أن موسى عليه السلام قال في بعض مناجاته إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألك يا رب فقال الله له: سلني عن ملح عجيبك، وعلف حمارك^(١).

ومنها حياء الصيانة والعفة كقول عثمان رضي الله عنه ما زنيت في جاهلية ولا إسلام.^(٢)
ومنها حياء الوقار كحياء رسول الله صلى الله عليه وسلم من عثمان، وقوله: "آلا أستحي ممن تستحي منه الملائكة"

ومنها حياء الحشمة كقول علي رضي الله عنه للمقدادين الأسود سل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنا المذي فإن ابنته عندي، وأنا أستحي أن أسأله لمكانها مني.

ومنها حياء التعجب، والاستبعاد كما روي: "أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت أم سليم رضي الله عنها تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة إذا رأت في المنام كما يرى الرجل أتغتسل؟ قال: نعم إذا رأت الماء فقالت عائشة رضي الله عنها وغطت وجهها حياء أو ترى المرأة كما يرى الرجل؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "تريت يمينك، وإلا فمن أين يكون الشبه".

ومنها حياء الغربة كقوله تعالى في حق ابنة شبيب: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (القصص: ٢٥).

ومنها حياء الأمثال لبيان الحق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦).

ومنها حياء الحق كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

وكقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن".

ومنها حياء المراقبة في الاتعاظ لذی الوعظ قال تعالى لعيسى عليه السلام: يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعض الناس، وإلا فاستحي مني.

(١) وهو من ضمن اعتناء الحق به سبحانه، وذلك لكونه صنع على عينه يقول سبحانه: «ولتصنع على عيني»، ولكونه كان له كلام ومناجاة مع ربه عز وجل وهناك من الأولياء من تكون له جمعية بحضرة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم فلا يفعل صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر منه صلى الله عليه وسلم كان منهم ابن أبي جمره وأبو المواهب الشاذلي.

(٢) وهو الصنع على العين كما قيل لموسى عليه السلام: «ولتصنع على عيني»، وهناك بعض الأولياء من هذه الأمة لم تكتب عليه سيئة واحدة: كملی بن أبی طالب وأبی یزید البسطامي وغيرهم.

ومنها حياء المراجعة ليلة الإسراء لقوله ﷺ: "إني قد استحييت من ربي".
ومنها حياء قصر الأمل كما قال ﷺ: "استحيوا من الله حق الحياء الحديث.
ومنها حياء الإحسان كما أخبر النبي ﷺ في حق المتورعين عن محارم الله عز
وجل فقال: إن الله تعالى يقول: "إني لأستحي أن أحاسبهم إذا حاسبت
الخلائق"^(١) وإنما قلنا الإحسان لقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:
٦٠) فجازاهم بإحسان ورعهم إحسان ترك المحاسبة.

ومنها حياء المعاودة في السؤال كما روي في الخبر: "إن العبد إذا دعا الله
تعالى يا رب فيعرض عنه ثم يقول: يا رب فيعرض عنه فيقول الثالثة، والرابعة
فيقول الله إني استحييت من عبدي من كثرة ما يقول يا رب".

ومنها حياء المعاتبة كما روي أن الله تعالى يعاتب عبده يوم القيامة فيقول:
يا رب عذابك أولى من عتابك^(٢).

قلت: لأن العبد إذا عوقب فهو بمثابة من أدى الحق الذي عليه فيحمل
عقبه الراحة بخلاف من عوتب فإنه لا يزال خجلاً مستحياً من ربه عز وجل فلا
يزال في تعب والله أعلم.

ومنها حياء التوكل كما قال عمر رضي الله عنه: "إني لأستحي من ربي عز وجل أن
أخاف شيئاً سواه.

ومنها حياء الصلاح كما روي في الخبر: "استح من الله كما تستحي من
صالح قومك"^(٣).

ومنها حياء العين كما روي أن سفيان الثوري دخل على رابعة العدوية رضي الله عنها
فذكر لها ما ذكر إلى أن قالت: إني لاستحي أن أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف
ممن لا يملكها؟

(١) لأن صحائفهم ليس فيها ما يستدعى حسابهم.

(٢) كما روي عن رسول الله ﷺ أنه إذا عاتب يوم القيامة تارك سنته سقط لحم وجهه حياء منه.

(٣) قلت: وذلك لأن كثيراً من الناس من يستحي من رؤسائه وأصحاب المناصب أكثر من حيائه من
الحق عز وجل ومن عباده الصالحين، وهو نقص في الإيمان، ولذلك قالوا: لا تجعل الله أهون
الناظرين إليك.

ومنها حياء الواجب كما روي أن عائشة رضي الله عنها أتت على نساء الأنصار بقولها: "إنهن لم يكن يمتعن الحياء أن يسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفرة والكدرية يعني من دم الحيض".

ومنها حياء الحرمة كما روي أن أبا موسى الأشعري قال لعائشة: إنني أريد أن أسألك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك عنه فقالت: سل ما كنت سائلا عنه أمك فقال: إن الرجل يجامع أهله ولا ينزل أفعليه غسل؟ فقالت: "إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل فعلت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم واغتسلنا".

ومنها حياء الرحمة كما روي في الحديث: "إن الله يستحي من ذي الشيبة أن يعذب بالنار".

ومنها حياء الغرور كقول أبي الدرداء رضي الله عنه لأهل حمص ألا تستحيون من ربكم تبون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون.

ومنها حياء المعرفة كما رأى بعض الصالحين في منامه قائلا يقول: يا أهل البصرة يا أشباه اليهود كونوا على حياء من ربكم.

ومنها حياء الإيمان كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحياء من الإيمان الحياء في الجنة".

ومنها حياء الزينة كما روي في الحديث: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه. ومنها حياء الخير وهو قوله صلى الله عليه وسلم: وقد سئل عن الحياء فقال: "الحياء خير كله خير للدين وللدين" وكان صلى الله عليه وسلم يقول: إذا ابتليت بمعاشرة الناس، ومجالستهم فاحذر ثم احذر لا يحفظ عليك فعل تسقط به عن عين الله تعالى، وعين من يسمعك بترك الأدب، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: باب الله مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها فأبى وقت دفعت فيه إلى هفوة أو شيء لا يحبه الله منك فارجع إلى الله تعالى فإنه أولى بك، وأمل أنه يقبلك بفضلته وكرمه صلى الله عليه وسلم.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن المولد رضي الله عنه

هو من كبار مشايخ الرقة وفتيانهم، ومن أحسنهم سيرة صحب أبا عبد الله بن الجلاء الدمشقي، وإبراهيم بن داود القصار الرقي كان صلى الله عليه وسلم يقول: من تولاه

رعاية الحق أجل ممن تؤدبه سياسة العلم.

قلت: لأن رعاية الحق تعالى تصيره سالماً من العلل التي تنقصه^(١) بخلاف رعاية العلم، فلا يخلص صاحبها من ورطة إلا وقع في أخرى فمن تولته رعاية الحق حكم من يسلك على يد شيخ، ومن تولته رعاية العلم حكم من يسلك بنفسه من غير شيخ^(٢) والله أعلم.

وكان رضي الله عنه يقول: خلقت الأرواح في الأفراح فهي تعلقو أبدأ إلى محل الفرح من المشاهدة، وخلقت الأجساد من الاكمام فهي لا تزال ترجع إلى كمدتها من طلب الشهوات الفانية، والاهتمام بها.

وكان يقول: من قال به أفناه عنه ومن قال منه أبقاه له ثم أنشد:

لولا مدامع عشاق ولوعتهم لبان في الناس عز الماء والنار

فكل نار فمن أنفاسهم قدحت وكل ماء فمن دمع لهم جاري

وكان يقول: من آداب الفقراء في الأكل أن لا يمدوا أيديهم إلى الأرفاق إلا في وقت الضرورات ثم يأكلون بقدر سد الرمق، ولو كان هناك طعام كالجبال، ويتركون الباقي لغيرهم، وكان رضي الله عنه يقول: من قام إلى أوامر الله بنفسه كان بين قبول ورد، ومن قام إليها بالله كان مقبولاً بلا شك، وكان رضي الله عنه يقول: الفترة بعد المجاهدة من فساد الابتداء، والحجب بعد الكشف من السكون إلى الأحوال، وكان يقول: نفسك سائرة بك، وقلبك طائر بك فكن مع أسرعهما وصولاً، وأنشدوا في ذلك:

فسيرك يا هذا كسير سفينة بقوم جلوس، والقلوع^(٣) تطير

(١) وهم الذين يخبأهم الحق سبحانه لنفسه، وهم المخدرون الذين لا يطلع عليهم أحد، يرضن سبحانه على أن يعرف بهم أحداً، وهم الذين سلموا من علل الأكوان.

(٢) كابي يزيد البسطامي وسيدى أحمد التجاني رضي الله عنه.

(٣) القلوع جمع قلع وهو شراع السفينة، ولا تزال تستعمل هذه اللفظة لحد الآن بصعيد مصر.

ومنهم أبو عبد الله محمد

بن أحمد بن سالم البصري رحمته الله

صاحب سهل بن عبد الله التستري رحمته الله وراوي كلامه لا ينتمي إلى غيره من المشايخ، وكان من أهل الاجتهاد، وطريقته طريقة أستاذه سهل، وله بالبصرة أصحاب ينتمون إليه، وإلى ولده أبي الحسن أيضاً، وكان رحمته الله يقول: من أطاق التوكل فالكسب غير مباح له^(١) بحال إلا على وجه المعاونة دون الاعتماد عليه فإن التوكل حال رسول الله ﷺ، والكسب سنته، ومن ضعف عن حال التوكل التي هي حال رسول الله ﷺ، فليكتسب لئلا يسقط عن درجة سنة النبي ﷺ كما سقط عن درجة حاله، وقيل له بم تعرف الأولياء رضي الله عنهم في الخلق؟ فقال: بلطف لسانهم، وقبول عذر من اعتذر إليهم، وكمال الشفقة على جميع الخلق برهم وفاجرهم، وكان رحمته الله يقول: من أراد أن عورته تستر ولا تهتك فليحلم على من جنى عليه، وليتكرم على الناس بما في يديه، وكان رحمته الله يقول: من شأن كل عاقل الزهد في أبناء الدنيا، وذلك لأنهم يشغلونه بذكرها، وما هم عليه عما هو متوجه إليه من مصالح دينه ودنياه رحمته الله.

ومنهم محمد بن عليان النسوي رحمته الله

من كبار مشايخ نسا، ومن أصحاب أبي عثمان الحيري الذي قيل فيه إنه إمام أهل المعارف كان رحمته الله يخرج من نسا قاصداً إلى أبي عثمان في مسائل واقعات، فلا يأكل ولا يشرب في الطريق حتى يدخل نيسابور فيسأله عن تلك المسائل، وكان رحمته الله من أعلى المشايخ همة، وله الكرامات الظاهرة، ومن كلامه رحمته الله الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة، وكان رحمته الله يقول: آيات الأولياء وكراماتهم رضاهم بما يسخط العوام من مجاري المقدور، وكان يقول: لا يصفو للسخي سخاؤه إلا بتصغير ما أعطاه ورؤية الفضل لمن أخذه منه، وكان رحمته الله يقول: من خدم الله لطلب ثواب أو خوف عقاب فقد أظهر خسته، وأبدى طمعه،

(١) وهم أهل التقيؤس وقليل ما هم.

وقبيح بالعبد أن يخدم سيده لغرض دنيوي، أو أخروي وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من أظهر كرامته فهو مدع^(١)، ومن ظهرت عليه الكرامات فهو ولي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن سعدان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بغدادى الأصل صحب الجنيد، والثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من أعلم شيوخ وقته بعلم هذه الطائفة، وكان عالماً بعلم الشرع مقدماً فيها ينتحل مذهب الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذا لسان وبيان.

وطلبوا مرة من يرسلونه إلى الروم من أهل طرطوس فلم يجدوا مثله في فضله، وعلمه، وفصاحته، وبيانه حتى قالوا في ذلك الزمان لم يبق في هذا الزمان لهذه الطائفة إلا رجلان أبو علي الروذباري بمصر، وأبو بكر بن سعدان بالعراق، وأبو بكر أفهمهما كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من أراد صحبة الصوفية فليصحبهم بلا نفس، ولا قلب، ولا ملك، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من تعلم علم الرواية ورث علم الدراية، ومن تعلم علم الدراية ورث علم الرعاية، ومن عمل بعلم الرعاية هدي إلى سبيل الحق.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من جلس للمناظرة على الغفلة لزمه ثلاثة عيوب الأول الجدل والسياح، وذلك منهي عنه الثاني حب العلو على الخلق، وذلك منهي عنه أيضاً الثالث الحقد، والغضب، وذلك منهي عنه أيضاً ومن جلس للمناصفة كان كلامه أوله موعظة، وأوسطه دلالة، وآخره بركة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إذا بدت الحقائق طمست آثار المفهوم، والعلم وكان يقول: خلقت الأرواح من النور، وأسكنت الهياكل فإذا قوي الروح جانس العقل، وتواترت الأنوار، وزالت ظلم.

(١) أى أن غير الكمل هم الذين يظهرون كرامتهم وهم الذين بقيت فيهم بقية من حظوظ النفس وهم أولياء لا محالة، وأما الكامل فكرامته يظهرها الحق عز وجل عليه بغير طلب منه وبغير حظ نفسى وبغير استدعاء منه، لأن الكامل لا نفس له، فهذا طلب أن يتصرف فى ملك الله والآخر رفض أن يتصرف فى ملك مولاة لكونه لا ملك له مع مولاة، فالأول مدع لأن دعواه التصرف نقص لأن حقيقة التصرف لله سبحانه، والثانى تبرأ من حوله وقوته فتصرف الله عنه فظهر للخلق أنه هو المتصرف ولا تصرف له فى الحقيقة، قال سبحانه: «ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، أى نحن رمينا عنك وبنينا عنك لإسقاطك دعوى نفسك.

الهيكل، وصارت الهياكل روحانية بأنوار الروح والعقل، وانقادت ولزمت طريقها، ورجعت الأرواح إلى معدنها من الغيب تطالع مجاري الأقدار، وترضى بموارد القضاء والقدر، وكان رضي الله عنه يقول: الصوفي هو الخارج عن النعوت والرسوم (١) رضي الله عنه.

ومنهم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد رضي الله عنه

ابن بشر بن درهم بن الأعرابي الأموي رضي الله عنه بصري الأصل سكن بمكة وكان أوحده وقته وكان في وقته شيخ الحرم ومات بها سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وصنف للقوم كتباً كثيرة، وصحب الجنيد، والثوري، وعمراً المكي، والمسوحى، وأبا جعفر الحداد، وكان من كبار مشايخ هذه الطائفة، وعلمائهم، ومن كلام رضي الله عنه قد ثبت الوعد، والوعيد من الله تعالى فإذا كان الوعد قبل الوعيد، فالوعيد تهديد، وإذا كان الوعيد قبل الوعد فالوعيد منسوخ، فإذا اجتمعاً معاً فالغلبة والثبات للوعد، لأن الوعد حق العبد، والوعيد حق الله، والكريم يفضل بترك حقه.

وكان رضي الله عنه يقول: قل من ادعى قوة في أمر إلا خذل ووكل إلى قوته (٢) وكان رضي الله عنه يقول: لو قيل للعارف تبقى في الدنيا لمات كمدأ، ولو قيل لأهل الجنة تخرجون منها لماتوا كمدأ فما طابت الدنيا للعارفين إلا بذكرهم الخروج منها، وما طابت الجنة لأهلها إلا بذكرهم الخلود فيها، وكان رضي الله عنه يقول: مدارج العلوم تكون بالوسائل، وأما مدارج الحقائق فلا تكون إلا بالمكاشفة، وكان يقول: أحسن أوقات، وقت يكون الحق فيه راضياً عني، وكان رضي الله عنه يقول: من أخلاق الفقراء السكون عند الفقد، والاضطراب عند الوجود، والأنس بالهموم، والوحشة عند فرح الناس بالدنيا رضي الله عنه.

(١) وذلك لمخالفته للحوادث البشرية، والموائد النفسية.

(٢) ولذلك تبرأ الكمل من قوتهم، حيث قال سبيد الأولين والآخرين رضي الله عنه: اللهم بك أصول وبك أجول وبك أقاتل.

ومنهم أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي رحمته الله

نيسابوري الأصل صحب الجنيد، والثوري وأبا عثمان وروبما والخواص، ودخل مكة، وأقام بها، وصار شيخها، والمنظور إليه فيها، وحج رحمته الله قريباً من ستين حجة، ومات في الحرم سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وكان يجتمع هو والكتاني، والنهرجوري، والمرتعش وغيرهم، فيكون صدر الحلقة، وإذا تكلم في شيء رجعوا كلهم إلى كلامه، وفضائله أكثر من أن تحصى رحمه الله تعالى ومكث بمكة أربعين سنة فلم يبيل قط ولم يتغوط في الحرم بل كان يخرج كلما قضى حاجته إلى الحل، وكان رحمته الله يقول: من تكلم على حال لم يصل إليه وكان كلامه فتنة لمن يسمعه، وهوى يتولد في قلبه، وحرم الله عليه الوصول إلى تلك الحال وبلوغه، وكان رحمته الله يقول: من جاور بالحرم، وقلبه متعلق بشيء سوى الله تعالى فقد أظهر خسارته، ومن سرق شيئاً بالحرم من الحجاج الأفاقية ليتوسع به أبعد الله، ووكل قلبه بالشح، وأطلق لسانه بالشكوى، ونسخ قلبه من المعارف، وخرجت منه أنوار اليقين، ومقته بين خليقته.

قلت: ويقاس على ذلك من جاور بيت الله المقدس، والحرم النبوي، والمساجد المعظمة^(١) كالجامع الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة بالمغرب، وغيرها من المساجد والله أعلم. وكان رحمته الله يقول: مما جربناه لرد الضالة: اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع بيني، وبين ضالتي، وبقراً قبله سورة والضحى ثلاثاً قال: وقد وقع مني فص في دجلة فدعوت به فوجدت الفص في وسط أوراق كنت أتصفحها^(٢)، وسئل رحمته الله عن حديث: تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقال المراد: بذلك التفكر نسيان النفس، والله أعلم.

(١) عظمت هذه المساجد لكثرة من دخلها ودرس فيها من العلماء العاملين والأولياء الواصلين على مدى قرون وبعضهم أقام فيها خلوات للذكر والتأمل والعبادة، وكان كثير من الأولياء من يقيم خلوات على سطح الجامع الأزهر كسيدي محمد أبي المواهب الشاذلي والشيخ زكريا الأنصاري.

(٢) هذا ليعلم الناس أن الصوفية هم أول من أنشأ علم الفوائد وخواص الأدعية.

ومنهم جعفر بن محمد بن نصير الخواص رضي الله عنه

ويعرف بالخلدي بفسادى المولد والمنشأ ، صحب الجنيد رضي الله عنه ، وعرف بصحبته ، وإليه كان ينتمى ، وصحب الثوري ، وروياً . وميموناً ، والجريري ، وغيرهم من المشايخ ، وكان المرجع إليه في كتب القوم ، وحكاياتهم ، وسيرهم حتى قال يوماً عندي مائة ونيف وثلاثون ديواناً من دواوين الصوفية فقبل له : هل عندك من كتب علي بن محمد الترمذي شيء ؟ فقال : ما عدته من الصوفية (١)

قلت : الحق أنه كان من أكابر الصوفية ، وأنه كان من الأوتاد ، ولو لم يكن له من المناقب إلا ما وضعه من الأسئلة التي لا يعرف الجواب عنها أحد غير ختم الأولياء لكان في ذلك كفاية لبيان مقامه فإنه لا يعرف الجواب عنها أحد غير الختم كما صرح بذلك الشيخ محيي الدين بن العربي ، وقد عده الأستاذ القشيري ممن عليه مدار الطريق .

وأما سبب جمع العارف دواوين القوم فهو للإطلاع على طرقهم في معاملتهم مع الله تعالى ليرشد المريدين ، والإخوان إليها إذ الأولياء أبواب الله فمن لم يكن عنده استعداد يدخل به من طريق ذلك الولي أدخل من طريق غيره ، وفي ذلك تأييد عظيم للداعي إلى الله يكون غيره سبقه إلى ما دعا إليه ، ومنه فافهم ، والله أعلم ، وكان رضي الله عنه من أفتى المشايخ ، وأحسنهم ، وأكملهم حالاً حج رضي الله عنه قريباً من ستين حجة ، ومات ببغداد سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وقبره بالشونيزية عند قبر السري السقطي ، والجنيد ، وكان رضي الله عنه يقول : أهل الحقائق قطعوا العلائق التي تقطعهم عن الحق قبل أن تقطعهم العلائق ، وكان يقول : لا يقدح في الإخلاص كونه يعمل ليصل ، وكان يقول : المتأهي في حاله يؤثر في كل شيء ، ويدخل في كل شيء ولا يؤثر فيه شيء ، ولا يأخذ منه شيئاً ، ودليل ذلك أنه رضي الله عنه في أوائل حاله كان إذا نزل عليه الوحي قال : دثروني دثروني حتى

(١) وذلك لأنه لم يشارفه في المقام والرتبة والدرجة ، ولو شارفه لعلم درجته في الولاية والعلم ، ومن كلامه يتضح تدنى مقامه عن مقام الحكيم الترمذي ومن ذاق عرف .

(٢) قلت : بل كان خاتم أولياء عصره ، وكان هو أول من تكلم في علم خاتم الأولياء فيما نعلم وكفى به منقبة أن الشيخ الأكبر شرح كتابه ختم الأولياء .

تمكن ﷺ، وكان ﷺ يقول: سعي الأحرار في الدنيا يكون لإخوانهم لا لأنفسهم.
قلت: ولما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة جعلت دعائي حول البيت،
وفي البيت وفي مواضع الإجابة كله لإخواني لأن من الفتوة أن يؤخر الإنسان
حفظ نفسه، ويقدم حظ إخوانه ليكون الحق تعالى في حاجته بالقضاء،
والتيسير فالحمد لله رب العالمين.

وكان ﷺ يقول: سمعت الجنيد ﷺ يقول: من أخلص في المعاملة أراحه
الله تعالى من الدعاوى الكاذبة، وكان يقول: جاع بعضهم في الحرم فسأل ربه
في حجر إسماعيل فوقع في حجره مسامير فضة من مسامير الميزاب فقضى به
حاجته، وكان ﷺ يقول: لا أعرف شيئاً أفضل من العلم بالله، وبأحكامه فإن
الأعمال لا تزكو إلا بالعلم، ومن لا علم عنده فليس له عمل، وإنما يكره من العلم
تضييعه، ونبذه خلف الظهر فقليل له: فهل طلب العلم عمل؟ فقال: هو من أكبر
الأعمال، وبالعلم عرف الله، وأطيع، وبالعلم استحيا من الله المستحيون، وهو قبل
الأعمال قال الله تعالى: "علم الإنسان ما لم يعلم" وقال الله تعالى: "علمه
البيان"، ولا يكره العلم إلا منقوص، وكان ﷺ يقول: إذا رأيت الفقير يأكل فاعلم
أنه لا يخلو من إحدى ثلاث إما لوقت قد مضى عليه أو لوقت يريد أن يستقبله
أو للوقت الذي هو فيه.

قلت: ومعنى ذلك أن من شأن الفقير أن لا يكون مقصوده بالأكل محض
قضاء الشهوة، والتبسط إنما كله ضرورة، والله أعلم.

وكان ﷺ يقول: عليكم بصحبة الفقراء فإنهم كنوز الدنيا، ومفاتيح الآخرة.

ﷺ.

(١) قلت: لعل فيه تطاول ونقص في المقام أن يأكل الولي بمسامير ميزاب الحرم ويقضى بها حاجته
وكان الأولى به الصبر وهو مقام الكمل، وقد يظن بعضهم أنه من باب الكرامة له سقوط تلك
المسامير عليه عند سؤاله ليقضى بها حاجته، وأما الكامل فيصبر ويتأدب ويظن ذلك أنه من باب
الاستدراج ولا ينتهك حرمان الملك وحرمان بيته واعلم أنه ليس كل ما يحكى عن الصوفية يجب
العمل به أو يجب تصديقه، وقد أرسل لى شيخنا محمد زكى إبراهيم رسالة وأنا شاب أمرنى فيها
أن لا أصدق كل ما ورد عن الصوفية في الكتب.

ومنهم أبو العباس بن القاسم بن مهدي رضي الله عنه

ابن بنت أحمد بن سيار رحمه الله كان من أهل مرو، وهو شيخهم، وأول من تكلم عندهم في حقائق الأحوال، وكان فقيهاً عالماً كتب الحديث ورواه، وصحب أبا بكر الواسطي، وإليه كان ينتمي في علوم هذه الطائفة، وكان من أحسن المشايخ لساناً في وقته يتكلم في علوم التوحيد، لجميع من يلوذ به من أهل السنة والجماعة.

مات رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وكان رضي الله عنه يقول: كيف السبيل إلى ترك ذنب كان عليك في اللوح المحفوظ مخطوطاً؟ وكيف السبيل إلى صرف قضاء دين كان به العبد مريبوطاً؟ وقيل له يوماً: بماذا يروض المرید نفسه؟ فقال رضي الله عنه: بالصبر على الأوامر، واجتتاب النواهي وصحبة الصالحين، وخدمة الرفقاء، ومجالسة الفقراء، والمرء حيث وضع نفسه.

وكان رضي الله عنه يقول: حقيقة المعرفة الخروج عن المعارف، وكان رضي الله عنه يقول: ما التذ عاقل قط بمشاهدة لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيه لذة، ولا التذاذ، ولا حظ، ولا احتفاظ^(١)، وكان رضي الله عنه يقول: ما نطق أحد عن الحق إلا وهو محجوب عن الحق،^(٢) وكان رضي الله عنه يقول: الخطرة للأنبياء، والوسوسة للأولياء، والفكرة للعوام، وكان رضي الله عنه يقول: ظلمة الأطماع تمنع أنوار المشاهدة، وكان يقول: لباس الهداية للعامة ولباس الهيبة للمعارفين، ولباس الزينة لأهل الدنيا، ولباس اللقاء للأولياء، ولباس التقوى لأهل الحضرة قال تعالى: "ولباس التقوى ذلك خير" وكان رضي الله عنه يقول: من دقق النظر في دينه وسع عليه الصراط في دقته^(٣) ومن وسع النظر في دينه ضيق عليه الصراط في دقته، ومن غاب عن حقوقه بحقوقه غاب عن كل شدة، وعقوبة.

(١) ربما يقصد حدوث الرهبة للفاني في الحق، وهو مقام خاص به، لأنه قد يقع لبعض الفانيين العكس فيجد في فئاته في الحق لذة وشوقاً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك لذة النظر إلى وجهك».

(٢) ما عدا الأنبياء فإنهم يتلقون أحياناً عن الحق سبحانه وتعالى كلامه الأصلي مباشرة بغير الوسائط، مثل كلام موسى عليه السلام مع ربه أحياناً مباشرة بغير واسطة ومثل كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع ربه ليلة الإسراء ومشاهدته له سبحانه وهم في هذا التلقى تكون لهم جمعية مع الحق بغير حجاب بخلاف غيرهم.

(٣) لأن صراطك هو عمك الصادر منك لا غير.

ومنهم أبو بكر بن داود الدينوري الرقي رحمته الله

أقام بالشام، وكان من أقران أبي علي الروذباري إلا أنه عمر زيادة على مائة سنة صحب أبا عبد الله بن الجلاء وأبا بكر الرقاعي الكبير، وأبا بكر المصري غير أنه كان ينتمي إلى ابن الجلاء أكثر، وكان من أجل مشايخ وقته، وأحسنهم حالاً، وأقدمهم صحبة للمشايخ. مات رحمته الله بعد الخمسين والثلاثمائة، وسئل رحمته الله عن الفرق بين الفقر والتصوف؟ فقال: الفقر حال من أحوال التصوف فقيل له: ما علامة المتصوف؟ فقال: أن يكون مشغولاً بما هو أولى في كل وقت، وكان يقول: إذا انحط الفقراء عن حقيقة العلم إلى ظاهر العلم أساءوا الأدب مع الله تعالى، في أحوالهم بخلاف غيرهم، وكان رحمته الله يقول: أهل المعرفة أحياء لحياة معروفهم فلا حياة حقيقة إلا لأهل المعرفة لا غير رحمته الله.

ومنهم أبو محمد عبد الله

بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الرازي رحمته الله

عرف بالشعراني رحمته الله رازي الأصل، ومولده ومنشؤه بنيسابور صحب الجنيد، وأبا عثمان الحيري، ورويماً، ومحمد بن الفضل، وسمنون، والجوزجاني، ومحمد بن حامد، وغيرهم من مشايخ القوم، وهو من أجلة أصحاب أبي عثمان، وكان أبو عثمان رحمته الله يكرمه كثيراً، ويبجله، ويعرف له محله وكان من كبار مشايخ نيسابور في وقته، له من الرياضات ما يعجز الأسماع، وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة، وكتب الحديث الكثير، وكان ثقة نقيماً مات رحمته الله سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وقيل له مرة ما بال الناس يعرفون عيوبهم، ويحبون ما هم فيه، ولا ينتقلون عن ذلك، ولا يرجعون إلى طريق الصواب؟ فقال رحمته الله: لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم، ولم يشتغلوا باستعماله، واشتغلوا بأبحاث الظواهر، وتركوا أبحاث البواطن فأعمى الله تعالى قلوبهم عن النظر إلى الصواب، وقيد جوارحهم عن العبادة، وكان رحمته الله يقول: العارف لا يعبد إلا الله تعالى على الموافقة للخلق، وإلا فهو مع الله بما يريد، وكان رحمته الله يقول: المعرفة تهتك الحجب بين العبيد وبين مولاهم رحمته الله.

ومنهم أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن سالم بن خالد السلمي رحمه الله تعالى

وهو جد الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي شيخ القشيري صحب أبا عثمان رضي الله عنه، وكان من أكبر أصحابه ولقي الجنيد وكان من أكبر مشايخ وقته، وله طريقة ينفرد بها عن تلبيس الحال، وصون الوقت، وهو آخر من مات من أصحاب أبي عثمان في سنة ست وستين وثلاثمائة، وسمع الحديث ورواه، وكان ثقة.

ومن كلامه رضي الله عنه: كل حال يكون نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه، وكان رضي الله عنه يقول: من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه، وكان يقول: من لم تهذبك⁽¹⁾ رؤيته فاعلم أنه غير مهذب، وكان رضي الله عنه يقول: لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله كلها عنده رياء، وأحواله كلها عنده دعاوى.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا أراد الله بعبده خيراً رزقه خدمة الصالحين والأخيار، ووفقه لقبول ما يشيرون به عليه، وسهل عليه سبيل الخيرات، وحجبه عن رؤيتها، وقيل له من أين تتولد الدعاوى؟ فقال: من الاغترار، وتشويش الأسرار، وكان رضي الله عنه يقول: إنما تتولد الدعاوى من فساد الابتداء فمن صحت بدايته صحت نهايته، ومن فسدت بدايته فريماً هلك في حال من أحواله، وكان رضي الله عنه يقول: الملامتي لا يكون له دعوى قط لأنه لا يرى لنفسه شيئاً يدعي به، وكان يقول: احترم عامة المسلمين، ولا تتصدر في أمر ما أمكنك، وكن خاملاً في الناس فبقدر ما تتعرف إليهم وتشتغل بهم تضيع حظك من أوامر ربك، وكان يقول: من أظهر محاسنه لمن لا يملك ضرره، ولا نفعه فقد أظهر جهله، وكان رضي الله عنه يقول: من

(1) هي ليست قاعدة فريماً كان بذلك الشخص الرائي علة باطنية منعه من الوصول إلى طريق القوم، ولم تكن رؤية الشيخ تنفع فيه ولذلك لم يؤمن كل من شاهد الأنبياء وهم أولى بذلك من الأولياء ولذلك لما سئل أحد العارفين عن الكفار الذين شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمنوا به لماذا لم يؤمنوا به؟ قال: لأنهم شاهدوه في صورة يتيم أبي طالب.

استقام حد الاستقامة لا يعوج به أحد، ومن اعوج لا يستقيم به أحد رحمته.

ومنهم أبو الحسن بن أحمد بن سهل البوسنجي (١) رحمته

كان من أوحد فتیان خراسان لقي أبا عثمان، وصحب بالعراق ابن عطاء والجريري، وبالشام طاهراً المقدسي وأبا عمرو الدمشقي، وتكلم رحمته مع الشبلي (، في مسائل، وهو من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد، وعلوم المعاملات، ومن أحسنهم خلقاً، وطريقة في الفتوة، والتجريد، وكان معظماً للفقراء حسن الخلق مات رحمته سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة رحمته، وسئل عن التصوف فقال: هو اليوم اسم لا حقيقة، وقد كان حقيقة، ولا اسم، وكان يقول: من كان باطنه أفضل من ظاهره فهو الولي، ومن كان باطنه وظاهره سواء فهو العالم، ومن كان ظاهره أفضل من باطنه فهو الجاهل، ولذلك لا ينصف من نفسه، ويطلب الإنصاف من غيره، وقيل له: من الظريف ؟ فقال: الخفيف في ذاته، وأفعاله، وأخلاقه، وشمائله من غير تكلف، وكان يقول: الخير منا زلة، والشر لنا صفة رحمته.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن خفيف الضبي رحمته

أقام بشيراز، وهو شيخ المشايخ، وأوحدهم في وقته كان عالماً بعلوم الظاهر، والحقائق حسن الأحوال في المقامات، والأحوال، وجميع الأخلاق، والأعمال مات رحمته سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وكان رحمته يقول: التصوف تصفية القلوب، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والنصح لجميع الأمة واتباع النبي ﷺ في الشريعة، وكان رحمته يقول: ليس شيء أضر بالمرید من مسامحة النفس في ركوب الرخص، وقبول للتأويلات، وكان رحمته يقول: الذكر على قسمين ظاهر وباطن فالظاهر التهليل، والتحميد، والتمجيد، وقراءة القرآن، والباطن تنبيه القلوب على شرائط التيقظ على معرفة الله تعالى، وصفاته، وأسمائه،

(١) تكتب أحياناً بالشين بدلاً من السين، وهو الأصح نسبة إلى بوشنج أو بوشنك وهي بلدة بالقرب من هراة وانظر ذلك في الباب ١٥٢/١ وانظر الكواكب الدرية للمناوي ٥١٨/١.

وافعاله، ونشر إحسانه، وإمضاء تدبيره، ونفاذ تقديره على جميع خلقه، وكان يقول: ذكر الله منفرد، وهو ذكر المذكور بانفراد أحديته عن كل مذكور سواه لقوله عليه السلام: "أفضل الذكر لا إله إلا الله"، وكان عليه السلام يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، وهو يقول: "من عرف طريقاً إلى الله فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين"، وكان عليه السلام يقول: عليك بمن يعظك بلسان فعله، ولا يعظك بلسان قوله عليه السلام.

ومنهم أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي عليه السلام

سكن أذربيجان، وكان عالماً بالأصول واللسان، وله اللسان المشهور في علم الحقائق، وكان الشبلي عليه السلام يعظمه، ويعظم قدره، وكان بينه وبين ابن خفيف مفاوضات في مسائل شتى مات عليه السلام سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وغسله أبو زرعة الطبري.

وسئل عليه السلام عن الفرق بين الصوفية، والمتصوفة؟ فقال: الصوفي من اختاره الله لنفسه فصافاه من غير تكلف، والمتصوف هو المتكلف بنفسه المظهر لزهده مع كون رغبته في الدنيا، وتربية بشريته، وكان يقول: لا تخاصم نفسك فإنها ليست لك دعها لما لكها يفعل بها ما يريد^(١)، وكان يقول: ليس من الأدب أن تسأل رفيقك إلى أين؟ أو في أي شيء؟ وكان عليه السلام يقول: من لم يجعل قبلته على حقيقه ربه فسدت صلاته، وكان يقول: رؤي مجنون بني عامر في المنام بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وجعلني حجة على المحبين^(٢).

وكان عليه السلام يقول: من أقبل على الآخرة وركن إليها أحرقتة بنورها، وصار سبيكة ذهب ينتفع به ومن أقبل على الله أحرقه بنور التوحيد، وصار جوهراً لا قيمة له، وقيل له مرة: ما هي الدنيا؟ فقال عليه السلام ما دنا من القلب، وشغل عن الحق. عليه السلام.

(١) ويقصد بكلامه هذا أن الحق عز وجل وضع في كل طينة صبغتها التي أرادها منها، فالولى لا يغير أصل الفطرة الإلهية، فإن كل ميسر لما خلق له.

(٢) يستشهد الصوفية بأمثال هذه الحكايات للدلالة على صدق المجنون في حبه ولو كان حياً دنيوياً، فكانهم أرادوا أن يقولوا هو حجة على المحبين من أهل الدنيا، فلأجل صدقه يجوز لنا أن نفتدى به.

ومنهم أبو بكر الطمستاني رحمته الله

كان من أجل المشايخ وأعلامهم حالاً منفرداً بحاله، ووقته لا يشاركه أحد فيه من أبناء جنسه، ولا يدانيه، وكان الشبلي رحمته الله يقول به، ويجله، ويكرمه، صحب إبراهيم الفارسي، وغيره من مشايخ الفرس، وكانوا جميعاً يحترمونه.

ورد نيسابور، ومات بها سنة أربعين وثلاثمائة، وكان رحمته الله يقول لأصحابه جالسوا الله كثيراً، وجالسوا الناس قليلاً، يريد بذلك العزلة، وكان يقول: خير الناس من رأى الحق في غيره، وعلم أن السبيل إلى الله غير السبيل الذي عليه هو زلو ارتفع في المرتبة، وذلك ليرى تقصير نفسه عما كلف به، وكان رحمته الله يقول: من اتبع الكتاب، والسنة، وهاجر إلى الله بقلبه، واتبع آثار الصحابة لم تسبقه الصحابة إلا بكونهم رأوا رسول^(١) الله صلى الله عليه وسلم، وكان رحمته الله يقول: اليقظة لأهل اليقظة لعمارة الآخرة كما أن الغفلة لأهل الغفلة لعمارة الدنيا.

قلت: هذا إذا لم يقصد المحترف بحرفته نفع العباد واقتصر على جمع الدنيا فقط فإذا نوى بحرفته نفع العباد فقد عمر الدنيا، والآخرة، والله أعلم. وكان رحمته الله يقول: كل من استعمل الصدق بينه، وبين الله تعالى شغله صدقه مع الله عن الفراغ إلى خلق الله.

قلت: وكان شيخنا الشيخ محمد بن عنان رحمته الله من أهل هذا المقام فكان لا يقدر أن يرد على أحد كلاماً أبداً رحمته الله.

وكان يقول: ماذا أصنع، والكون كله عدو لي^(٢)، وكان يقول: الوصل بلا فصل فإذا جاء الفصل فلا وصل، وكان يقول: النفس كالنار إذا طفئت في موضع تأججت في موضع كذلك النفس إذا هذبت من جانب تأثرت من جانب، وكان

(١) وبهذا فضل الصحابة الناس كلهم، وإن قل عملهم، ولذلك لما سئل الحسن البصري رحمته الله: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: التراب الذي مشى عليه معاوية رحمته الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمر بن عبد العزيز رحمته الله.

(٢) وذلك لأن الصوفي لا يريد من الدارين سوى الحق عز وجل، وإذا أراد شيئاً غير الحق عز وجل نادته شواهد الملك الجبار: ارجع يا كذاب، وكما قال سيدي أحمد الرفاعي رحمته الله: متسلل لا يصل.

ﷺ يقول: إن لم تقدروا على أن تصحبوا الله بالأدب فاصحبوا من يصحبه ليوصلكم بركات صحبته إلى صحبة الله ﷻ.

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري ﷺ

صحب يوسف بن الحسين، وعبد الله بن الخراز، وأبا محمد الجريري، وأبا العباس بن عطاء، ولقي رويماً وورد نيسابور، إلى سمرقند، ومات بها بعد الأربعين والثلاثمائة، وكان ﷺ يقول: العلماء متفاوتون في ترتيب مشاهدات الأشياء فقوم رجعوا من الأشياء إلى الله فشاهدوا الأشياء حيث الأشياء ثم رجعوا عنها إلى الله، وقوم رجعوا من الله إلى الأشياء من غير غيبتهم عنه فلم يروا شيئاً إلا ورأوا الحق قبله، وقوم بقوا مع الأشياء لأنهم لم يكن لهم طريق منهم إلى الله، وكان يقول عن أهل زمانه نقضوا أركان التصوف، وهدموا سبيلها، وغيروا معانيها بأسام أحدثوها سموا الطمع زيادة، وسوء الأدب إخلاصاً، والخروج عن الحق شطحاً، والتلذذ بالمذموم طيبة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع إلى الدنيا وصولاً، وسوء الخلق صولة، والبخل حلاوة، والسؤال عملاً، وبذاءة اللسان سلامة، وما كان هكذا طريق القوم إنما درجوا على الحياء، والأدب، والزهد في الحظوظ^(١) ﷻ.

ومنهم أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي ﷺ

من القيروان من قرية يقال لها كوكب أقام بالحرم الشريف مدة، وكان شيخه، وصحب أبا علي بن الكاتب حبيباً المصري. وأبا عمرو الزجاجي، ولقي النهرجوري، وأبا الحسين بن الصائغ الدينوري، وغيرهم من المشايخ، ولم ير مثله في علو الحال، وصون الوقت وصحة الحكم بالفراسة، وقوة الهيبة، ورد نيسابور، ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وأوصى أن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك، وكان يقول: من حفظ جوارحه تحت الأوامر فهو في اعتكاف على الدوام، وكان ﷺ يقول: أبي الملك الجبار إلا أن يختبر أوليائه بتسليط عدوهم عليهم

(١) قلت: وهذا هو حال التصوف اليوم في زمننا هذا.

ليرى كيف صبرهم عليه فإن صبروا على بلوى عدوهم جللهم بعلمه، وحباهم بوصله، وأسكنهم في جواره، ونعمهم بمشاهدته، ولذذهم بذكره، وأوصلهم بمعرفته، وجعلهم أئمة يقتدى بهم، ونجاة لعباده، ورحمة في أرضه.

قلت: ومعنى صبرهم على عدوهم أن يصبروا على مجاهدته في ترك ما يأمرهم به، ولا يتلقوا من كثرة وساوسه فيطيعوه والله أعلم، وكان رضي الله عنه يقول: إن الله جعل أنس عباده في رؤية أوليائه، وكان يقول في معنى حديث أكثر أهل الجنة البله معناه الأبله في دنياه الفقيه في دينه، وكان رضي الله عنه يقول: من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله تعالى بموت القلب، وكان يقول: العاصي خير من المدعي لأن العاصي يطلب طريق التوبة، والمدعي يتخبط في خبال دعواه، وكان يقول: أضواء العارفين فاغرة لمناجاة^(١) القدرة، وكان يقول: الولي قد يكون مستوراً، ولكن لا يكون مفتوناً، وكان يقول: من لم يسمع من نهيق الحمار مثل ما يسمع من صوت العود، ودواخل المغنين فهو كذاب.^(٢) رضي الله عنه.

ومنهم أبو القاسم إبراهيم

بن محمد بن محمود النصراباذي رضي الله عنه

شيخ خراسان في وقته نيسابوري الأصل والمولد والمنشأ يرجع إليه في أنواع من العلوم من حفظ السنن، وجمعها، وعلوم التواريخ، وعلم الحقائق، وكان أوجد المشايخ في وقته علماً وحالاً، صحب أبا بكر الشبلي وأبا علي الروذباري وأبا محمد المرتعش، وغيرهم من المشايخ، أقام بنيسابور ثم خرج في آخر عمره إلى مكة، وحج سنة ست وستين وثلاثمائة، وأقام بالحرم مجاوراً، ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة، وكتب الحديث، ورواه، وكان ثقة، وكان رضي الله عنه يقول: من الأدب (١) وقد رأينا بمناسبة هذا الكلام في مشهد عرفاني الشيخ صلاح الدين التجاني رضي الله عنه وهو يقول: لي: تعال حتى أرقبك ففتح فمه فكاد أن يبتلع الكون.

(٢) قلت: مقصوده استواء الحال عنده فإن الكامل من يستوى عنده الذم والمدح والفقر والغنى والفناء والمويل، قيل لأبي يزيد رضي الله عنه كيف أصبحت قال: لا صباح ولا مساء ومنه قول الشيخ الأكبر رضي الله عنه:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمزعى لغزلان ودير لرهبان

إذا اشتهر الإنسان بالزهد، ورمى الدنيا أن يتظاهر بإمسакها بين الناس ليقطع نسبة الزهد إليه، والمدار على القلب فإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وكان عليه السلام يقول: إذا بدا لك شيء من بوادي الحق فلا تلتفت معه إلى جنة، ولا إلى نار، ولا تخطرهما ببالك ثم إذا رجعت عن ذلك الحال فعظم ما عظم الله، وقيل له إن بعض الناس يجالس النسوان، ويقول: أنا معصوم في رؤيتهن فقال عليه السلام: ما دامت الأشباح باقية فالأمر والنهي مخاطب بهما العبد لا سيما العزاب، وكان يقول: من عمل على رؤية الجزاء كانت أعماله بالعدد، والإحصاء، ومن عمل على المشاهدة أذهلته المشاهدة عن التعداد، والعدد، وفي رواية من عمل بالعدد كان ثوابه بالعدد قال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠) ومن عمل على المشاهدة كان أجره لا عد له لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) وكان عليه السلام يقول: دماء المحبين تجيش، وتغلي وهم واقفون مع الحق على مقام إن تقدموا غرقوا، وإن تأخروا حجبوا^(١)، وكان يقول: الجذب أسرع من السلوك فإن كل جذبة من الحق تفني العبد عن أعمال الثقلين، وكان يقول: أصل التصوف هو ملازمة الكتاب، والسنة، وترك الأهواء، والبدع، وتعظيم حرمان المشايخ، وإقامة المعاذير للخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص، والتأويلات، وما ضل أحد عن هذا الطريق إلا انحط عن مقام الرجال، وكان عليه السلام يقول: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في^(٢) الآخرة، وكان عليه السلام يقول: إنما سمى الله تعالى أصحاب الكهف فتية لأنهم آمنوا بلا واسطة وكان عليه السلام يقول: ليس للأولياء سؤال إنما هو الذبول، والخمول وكان يقول: نهايات الأولياء بدايات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (١) إن تقدموا غرقوا وذلك لعدم تحملهم المزيد وإن تأخروا حجبوا لانشغالهم بالمحبة ولوازمها عن المحبوب وسبق غيرهم لهم فلا بد من متابعة السير إلى المحبوب بغير كل.

(٢) لكونه لا يريد غير الله فلا يشغله زخرف الآخرة عن التعلق بربه عز وجل ولذلك قال أحد العارفين: لولا تجلى الحق عز وجل في الجنة لأهل المعرفة لراوها جحيماً فكان العارف في الجنة غريباً بين أهلها لكون حياته في رؤية الحق عز وجل.

والسلام، وكان رضي الله عنه يقول: الجمع عين التوحيد، والتفرقة حقيقة التجريد، وهو أن يكون العبد فانياً لله (١) تعالى يرى الأشياء كلها به وله وإليه ومنه.

ومنهم أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري رضي الله عنه

بصري الأصل سكن بغداد، ومات بها يوم الجمعة في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة كان شيخ العراق في وقته، ولم ير مثله في زمانه من المشايخ، ولا أتم مقالا منه، ولا أحسن لساناً، ولا أعلى مكاناً متوحداً في طريقته ظريفاً في شمائله، وحاله.

له لسان في التوحيد يختص به، ومقام في التجريد والتفريد لم يشاركه فيه أحد بعده، وهو أستاذ العراقيين، وبه تأدب من تأدب منهم صحب الشبلي، وإليه كان ينتمي، وصحب غيره من المشايخ، وكان رضي الله عنه يقول: مكثت زماناً إذا قرأت القرآن لا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقول من الشيطان الرجيم حتى يحضر كلام الحق (٢).

قلت: ولعل هذا وقع منه قبل الكمال فإن الكامل يقرأ المراتب، ولا ينفي منها شيئاً، وقد أمر الله عز وجل أشرف المرسلين صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان فلو كان عدم شهوده كمالاً لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بذلك والله أعلم.

وكان رضي الله عنه يقول: عرضوا، ولا تصرحوا التعريض أستر رضي الله عنه.

ومنهم أبو عبد الله أحمد

بن عطاء بن أحمد الروذباري رضي الله عنه

ابن أخت أبي علي الروذباري رضي الله عنه شيخ الشام في وقته يرجع إلى أحوال يختص بها، وأنواع من العلوم من علم الشريعة، والقرآن، وعلم الحقيقة، وأخلاق،

(١) أي فانياً في الله تعالى وهو أليق بالكلام.

(٢) هي تنزيه ابتدائي من قبل العارف لا بد أن يمر به في بدايات السلوك وأما الكامل فهو الذي يلتزم بما ورد عن أبي القاسم رضي الله عنه ولا يخرقه وإن كان الكلام لا يؤثر في حقيقة الشهود.

رشمائل تفرد بها، وتعظيم للفقر، وصيانتها، وملازمة آدابها، ومحبة الفقراء، والميل إليهم، والرفق بهم مات بصور سنة تسع وستين وثلاثمائة، وكان رحمته يقول: أهل الغيبة إذا شربوا طاشوا، وأهل الحضور إذا شربوا عاشوا^(١)، وكان يقول: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح.

قلت: والمراد هنا بالشح أن يمنع بخلا لا على وجه الحكمة فإن المنع لبعض الناس من أخلاق الله عز وجل فافهم، والله أعلم، وكان رحمته يقول: التصوف ينفي عن صاحبه البخل، وكتابة الحديث تنفي عن صاحبها الجهل فإذا اجتمعا في شخص فتناهيك به مقاماً، وكان يقول في مجالسة الأضداد ذوبان الروح وفي مجالسة الأشكال تلقيح المقول، وكان رحمته يقول: من خدم الأولياء بلا أدب هلك، وكان يقول ليس كل من يصلح للمجالسة يصلح للمؤانسة، وليس كل من يصلح للمؤانسة يؤتمن على الأسرار فإنه لا يؤتمن على الأسرار إلا الأمانة والسلام، وكان رحمته من عاداته إذا ذهب لمكان أن يمشي على أثر الفقراء لا يتقدمهم رحمته.

ومنهم أبو عبد الله محمد

بن محمد بن الحسن الروغندي رحمته

من أجلة مشايخ طوس صحب أبا عثمان الحيري، وطائفة من طبقته من المشايخ، وكان قد صار أوحده وقتها في طريقته، وظهرت له آيات، وكرامات، وكان مجرداً على الحال كبير الهمة، مات بعد الخمسين والثلاثمائة، وكان رحمته يقول: من ترك الدنيا للدنيا فهو من علامة حبه جمع الدنيا، وكان رحمته يقول: من ضيع حق الله تعالى في صغره أذله الله في كبره.

قلت: محل ذلك إذا لم يقع منه توبة مقبولة، ومعنى إذلال الله له استحقاقه للإذلال وقد لا يقع، وكان رحمته يقول: إياك والتمييز في الخدمة فإن أرباب التمييز قد مضوا، اخدم الكل ليحصل لك المراد، ولا يفوتك المقصود، وما رأينا

(١) ومقصوده بأهل الحضور، الذين لا يفقدون فناء هم بحضورهم.

أحداً خدم الفقراء إلا ولحقته بركاتهم، وريح العز في الدنيا قبل الآخرة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الزاهد في حظ نفسه والصوفي في حظ ربه^(١)، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ينزل الله عز وجل على كل عبد من البلاء بحسب ما وهبه من المعرفة في ذلك لتكون معرفته عوناً له على بلائه فأعلامهم معرفة أكثرهم بلاء، وأقلهم معرفة أقلهم بلاء، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما جزع النبي ﷺ قط إلا لأمته فإنه بعث بالرافة، والرحمة فكان إذا كوشف له عن أمته أنهم يقعون في مخالفة جزع لهم، وعليهم قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لا تصح الأحوال إلا إن كانت عن نتائج العلم فلولا العلم ما خاف القلب، ولا اطمأن، ولا سكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم أبو الحسن علي

بن بندار بن الحسين الصوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

هو من أجلة مشايخ نيسابور، ومقدميهم رزق من رؤية المشايخ، وصحبتهم ما لم يرزق غيره صحب بنيسابور أبا عثمان ومحفوظاً، وبيغداد الجنيد، وروما، وسمنونا، وابن عطاء، والجريري، وبالشام المقدسي، وابن الجلاء، وبمصر أبا بكر المصري، والزقاق، والروذباري، وكتب الحديث الكثير، ورواه، وكان ثقة، وكان يقول لمن يدخل بلده، ويبدأ بالمحدثين، والعلماء قبله شغلتك السنة عن الفريضة^(٢) لأن الصوفية ينظفون محل العلم من قلبك ليصلح قلبك لإقامة العلم فيه، وسئل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التصوف؟ فقال: هو إسقاط رؤية الخلق ظاهراً، وباطناً، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: فساد القلوب على حسب فساد الزمان، وأهله وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لا يكمل

(١) أي أن الزاهد هو الذي لا يزال متعلقاً بالحدث فيصارع ويدافعه ولذلك يريد أن يزهد فيه، وأما الصوفي فهو الذي غاب عنه الكون جملة وتفصيلاً فسقطت عنه حقيقة الزهد في الأشياء، فلا يصح له هناك زهد لأنه لا يرى في الكون إلا الله، فهو قد بقى بلا نفس تدافعه وتحته على الزهد في الأشياء، ولذلك قال الحلاج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

(٢) أي أن أرباب القلوب من العارفين هم الذين يعرفون المرید بأسباب نجاته في الدارين، وأما أرباب العلم الظاهر فلا فضل لهم سوى توصيل العلم للناس بدون تعريفهم بملهم الباطنية ومساعدتهم على التخلص منها، ولذلك أخطأ من ابتدأ بزيارة علماء الظاهر وتجاهل البدء بأهل الباطن.

الميل إلى غير الله تعالى ثم إذا دام البلاء بالعبد قوي قلبه، وضعف هواه، وكان ﷺ يقول: ارض بالدون، ولا تتازع ربك في قضائه فيقصمك، ولا تغفل عنه فيسلمك ولا تقل في دينه بهواك فيرديك، ولا تسكن إلى نفسك فتبلى بها، وبمن هو شر منها، ولا تظلم أحداً ولو بسوء ظنك به، وحملك له على محامل السوء فإنه لا يجاوز ربك ظلم ظالم، وكان ﷺ يقول: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فاعرض أفعاله على الكتاب، والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحبه، وإن كانت مكروهة فاكروهه لئلا تحبه بهواك، وتبغضه بهواك^(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦) ولا تهجر أحداً إلا لله، وذلك إذا رأيت مرتكباً كبيرة أو مصراً على صغيرة. قلت: ومعنى رأيت مرتكباً كبيرة: العلم بذلك، ولو بيينة فلا يشترط في جواز الهجر رؤية الهاجر لذلك العاصي ببصره، ولذلك قال سيدي على الخواص (يشترط جواز الهجر علم الهاجر بوقوع المهجور فيما هجر لأجله يقيناً لا ظناً، وتخميناً فلا يجوز لك الهجر من غير تحقق، وثبت، وهذا الباب هلك فيه خلق كثير، ولم يموتوا حتى ابتلاهم الله تعالى بما رموا به الناس، والله أعلم. وكان ﷺ يقول: إذا أحب الله عبداً لم يزد له مالا، ولا ولداً وذلك ليزول اشتراكه في المحبة لربه تعالى، والحق غيور لا يقبل الشركة. قلت: فإن بلغ الولي إلى مقام لا يشغله عن الله شاغل فلا بأس بالمال، والأولاد وكان ﷺ يقول: لا تطمع أن تدخل زمرة الروحانيين حتى تعادى جملتك، وتباين جميع الجوارح والأعضاء، وتتفرد عن وجودك، وسمعك، وبصرك، وبطشك، وسعيك، وعملك، وعقلك، وجميع ما كان منك قبل، وجود الروح، وما أوجد فيك بعد كنفخ لأن جميع ذلك حجابك عن ربك عز وجل كما قال الخليل للأصنام في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشمراء: ٧٧) فاجعل أنت جملتك، وأجزاءك أصناماً مع سائر الخلق، ولا ترى لغير ربك، وجوداً مع لزوم الحدود، وحفظ الأوامر، والنواهي فإن انخرم فيك شيء من

(١) قلت: وهذا هو حب وبقض الكمل الذين لا يحبون ولا يكرهون سوى لله عز وجل.

(٢) قلت: ولا يرضى كل الصوفية بهذا المبدأ، بل منهم من يولد له قبل التمكين.

الحدود فاعلم أنك مفتون قد لعب بك الشيطان فارجع إلى حكم الشرع، والزمه ودع عنك الهوى لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلة، وكان ﷺ يقول: كثيراً ما يلاطف الحق تعالى عبده المؤمن فيفتح قبالة قلبه باب الرحمة، والمنة، والإنعام فيرى بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من مطالعة الغيوب، والتعريف، والكلام اللطيف، والوعد الجميل، والدلائل، والإجابة في الدعاء، والتصديق، والوعد، والوفاء، والكلمات من الحكمة ترمي إلى قلبه، وغير ذلك من النعم الفائقة كحفظ الحدود، والمداومة على الطاعات فإذا اطمأن العبد إلى ذلك واغتر به واعتقد دوامه فتح الله عليه أنواع البلايا والمحن في النفس والمال والولد وزال عنه جميع ما كان فيه من النعم فيصير العبد متحيراً منكسراً إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسره، وإن نظر إلى باطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل الله تعالى كشف ما به من الضر لم يرح إجابة، وإن طلب الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وإن عمل بالرخص تسارعت إليه العقوبات، وتسلمت الخلائق على جسمه وعرضه وإن طلب الإقالة لم يقل وإن رام الرضا والتعم بما به من البلاء، لم يعط فحينئذ تأخذ النفس في الذوبان والهوى في الزوال، والإرادات والأمانى في الرحيل، والأكوان في التلاشي فيدام له ذلك ويشدد عليه حتى تفنى أوصاف بشريته، ويبقى روحاً فقط فهناك يسمع النداء من قلبه:

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٢) وردت عليه جميع الخلع، وأزيد منها وتولى الحق سبحانه وتعالى تربيته بنفسه ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧).

وكان ﷺ يقول: ما سأل أحد الناس من دون الله تعالى إلا لجهله بالله وضعف إيمانه، ومعرفته، ويقينه، وقلة صبره، وما تعفف من تعفف عن ذلك إلا لو فور علمه بالله عز وجل، ووفور إيمانه، وحيائه منه سبحانه وتعالى، وكان ﷺ يقول: إنما كان الحق تعالى لا يجيب عبده في كل ما سأله فيه إلا شفقة على العبد أن يقلب عليه الرجاء والغرة فيتعرض للمكربة، ويففل عن القيام بأدب

ومنهم أبو محمد عبد الله

بن محمد الراسبي رحمته الله

بغدادى الأصل من أجلة مشايخهم صحب ابن عطاء، والجريري، ورحل إلى الشام ثم عاد إلى بغداد، ومات بها سنة سبع وستين وثلاثمائة، وكان يقول: إذا امتحن القلب بالتقوى ترحل عنه حب الدنيا، وحب الشهوات، واطلع على المغيبات، ومن لم يمتحن قلبه بالتقوى لا يبرح عن حب الدنيا، ولم يزل محجوباً عن المغيبات.

قلت: ولذلك استعمل النصابون الرياضات لاستخدام الجان ليخبروهم بالمغيبات حين عدموا الصدق في الزهد في الدنيا فأخطأوا، ومقتوا نسأل الله السلامة لنا، وإخواننا المسلمين فيما بقي من العمر إنه سميع مجيب، وكان رحمته الله يقول: المحبة إذا ظهرت افتضح فيها المحب، وإذا كتمت قتلت المحب كمدأ، وكان يقول: خلق الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للمجالسة، وخلق العارفين للمواصلة، وخلق الصالحين للملازمة، وخلق المؤمنين للمجاهدة، والعبادة، وكان رحمته الله يقول في قوله تعالى: "تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة" جمع بين إرادتين فمن أراد الدنيا دعاه الله إلى الآخرة، ومن أراد الآخرة دعاه الله إلى قربه قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾
(الإسراء: ١٩) والسعي المشكور هو البلوغ إلى منتهى الآمال من القرب، والدنو، وكان رحمته الله يقول: من البلاء العظيم صحبتك من لا يوافقك، ولا تستطيع تركه^(١) رحمته الله.

(١) كصحة المريد للشيخ المحجوب، أو كصحبته لغير الكامل.

ومنهم أبو عبد الله محمد

بن عبد الخالق الدينوري رحمته الله

من أجلة المشايخ، وأكبرهم حالاً وأعلامهم همة وأفصحهم في علوم هذه الطائفة مع ما كان يرجع إليه من صحة الفقر، والتزام آدابه، ومحبة أهله، وأقام بوادي القرى سنين ثم عاد إلى دينور، ومات بها، وكان رحمته الله يقول: صحبة الأصاغر مع الأكابر من التوفيق، والفتنة، ورغبة الأكابر في صحبة الأصاغر من الخذلان، والحمق.

وكان رحمته الله يقول: لا يفرنك من الفقراء ما ترى عليهم من هذه اللبسة الظاهرة فإنهم ما زينوا الظواهر إلا بعد أن خربوا البواطن، وكان يقول: تعب الزهد على البدن، وتعب المعرفة على القلب، وكان رحمته الله يقول: أرفع العلوم علم الأسماء والصفات، وإخلاص أعمال الظواهر تصحيح أحوال البواطن، وكان رحمته الله يقول: رأيت في بعض أسفاري رجلاً يقفز بإحدى رجليه فقلت له: مالك وللسفر مع فقدان الآلة فقال: أمسلم أنت؟ فقلت: نعم فقال: أما تقرأ قوله تعالى:

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الإسراء: ٧٠) إذا كان هو الحامل حمل بلا آلة لاستغنائه تعالى عنها^(١)، وكان رحمته الله يقول: إن كثرة الكلام تشف الحسنة كما تشف الأرض بعد الماء رحمته الله.

ومنهم أبو صالح

سيدي عبد القادر الجيلي رحمته الله

وهو ابن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رحمته الله أجمعين ولد رحمته الله سنة سبعين وأربعمائة، وتوفي سنة

(١) قلت: هو كلام أهل الفناء من القوم.

إحدى وستين وخمسمائة، ودفن بيغداد رضي الله عنه وقد أفرده الناس بالتأليف، ونحن نذكر إن شاء الله تعالى ملخص ما قالوه مما به نفع وتأييد للسامع فنقول وبالله التوفيق: كان رضي الله عنه يقول: عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذ بيده، وأنا لكل من عثر مركوبه من أصحابي، ومريدي، ومحبي إلى يوم القيامة آخذ بيده، يا هذا فرسي مسرج، ورمحي منصوب، وسيفي شاهر، وقوسي موتر أحفظك، وأنت غافل، وحكى عن أمه رضي الله عنها، وكان لها قدم في الطريق أنها قالت: لما وضعت ولدي عبد القادر كان لا يرضع ثديي في نهار رمضان، ولقد غم على الناس هلال رمضان فأتوني وسألوني عنه فقلت لهم: إنه لم يلتقم اليوم له ثدياً^(١) ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من رمضان، واشتهر ببلدنا في ذلك الوقت أنه ولد للأشراف ولد لا يرضع في نهار رمضان، وكان رضي الله عنه يلبس لباس العلماء، ويتطيلس، ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه، ويتكلم على كرسي عال، وربما خطا في الهواء خطوات على رؤوس الناس ثم يرجع إلى الكرسي، وكان رضي الله عنه يقول: بقيت أياماً كثيرة لم أستطعم فيها بطعام فلقيني إنسان أعطاني صرة فيها دراهم فأخذت منها خبزاً سميداً وخبيصاً فجلست آكله فإذا برقعة مكتوب فيها قال الله تعالى في بعض كتبه المنزلة: "إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي ليستعينوا بها على الطامعات أما الأقوياء فما لهم وللشهوات" فتركت الأكل، وانصرفت.

وكان رضي الله عنه يقول: إنه لترد على الأثقال الكثيرة لو وضعت على الجبال تفسخت فإذا كثرت على الأثقال وضعت جنبي على الأرض، وتلوت «فإن مع العسر يسراً» إن مع العسر يسراً ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال، وكان رضي الله عنه يقول: قاسيت الأهوال في بدايتي فما تركت هولا إلا ركبته وكان لباسي جبة صوف وعلى رأسي خريقة وكنت أمشي حافياً في الشوك وغيره

(١) وذلك لكون المعارف يكون معرفاً للخلق فيما جهلوه وأشكل عليهم، ولا يمنعه صغره من ذلك، وذلك لانعكاس آثار تجليات الحق على صورته وتحققه بالأسماء الإلهية.

أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من شاطئ النهر^(١)، ولم أزل أخذ نفسي بالمجاهدات حتى طرقتني من الله تعالى الحال فإذا طرقتني صرخت، وهمت على وجهي سواء كنت في صحراء أو بين الناس، وكنت أظهار بالتخارس، والجنون^(٢)، وحملت إلى البيمارستان، وطرقتني مرة الأحوال حتى مت، وجاءوا بالكفن، والغاسل، وجعلوني على المغتسل ليغسلوني ثم سري عني وقمت وقال له رجل مرة كيف الخلاص من العجب ؟ فقال ﷺ: من رأى الأشياء من الله، وأنه هو الذي وقفه لعمل الخير، وأخرج نفسه من البين فقد سلم من العجب. وقيل له مرة مالنا لا نرى الذباب يقع على^(٣) ثيابك ؟ فقال: أي شيء يعمل الذباب عندي، وأنا ما عندي شيء من دس الدنيا، ولا غسل الآخرة.

وكان ﷺ يقول: أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستي خفف الله عنه العذاب يوم القيامة، وكان رجل يصرخ في قبره، ويصيح حتى آذى الناس فأخبروه به فقال: إنه رأني^(٤) مرة، ولا بد أن الله تعالى يرحمه لأجل ذلك فمن ذلك الوقت ما سمع له أحد صراخاً. وتوضأ ﷺ يوماً فبال عليه عصفور فرفع رأسه إليه، وهو طائر فوق ميتاً فغسل الثوب ثم باعه، وتصدق بثمنه، وقال هذا بهذا، وكان ﷺ يقول: يا رب كيف أهدي إليك روحي، وقد صح بالبرهان أن الكل لك وكان ﷺ يتكلم في ثلاثة عشر علماً، وكانوا يقرءون عليه في مدرسته درساً من التفسير، ودرساً من الحديث ودرساً من المذهب، ودرساً من الخلاف،

(١) بعضهم يرى أن الأكل من عمل اليد أفضل، فربما كانت فضلات الطعام هذه لظالم.

(٢) وذلك لأجل الفرار من الخلق.

(٣) قلت: هذه الخاصة للسادة الأشراف ورثوها عن جدهم حضرة النبي الأكرم ﷺ.

(٤) اعلم أن حقيقة رؤية وجه الولي وسبب نجاته الرائي بهذه الرؤية، أن الرائي وقع بصره على وجه تشيع برؤية أنوار الذات والصفات الإلهية، ومنهم من يقع وجهه على وجه النبي ﷺ، ومنهم من يقع وجهه على وجه كبار الملائكة والروحانيين، ثم يدخل هذا الوجه في أماكن شريفة يصعب أن يدخلها غيره كالعرش والجنان والسدرة ومنطقة العرش، ولا شك أن وقع بصره على كل ذلك يكسبه أنواراً قوية، ثم يحيا بهذه الأنوار من يشاهده من الناس، وكان سيدي أحمد بن يوسف الملياني ﷺ يقول: لا يدخل النار كل من رأى، ورأى من رأى إلى سبعة.

وكانوا يقرءون عليه طرفي النهار التفسير، وعلوم الحديث، والمذهب، والخلاف، والأصول، والنحو وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ القرآن بالقراءات، بعد الظهر.

وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشد الإعجاب فيقولون سبحان من أنعم عليه، ورفع إليه سؤال في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فماذا يفعل من العبادات؟ فأجاب على الفور يأتي مكة ويخلي له المطاف، ويطوف سبعمائة وحده، وينحل يمينه فأعجب علماء العراق، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها، ورفع له شخص ادعى أنه يرى الله عز وجل بعيني رأسه فقال: أحق ما يقولون عنك؟ فقال: نعم فانتهره، ونهاه عن هذا القول، وأخذ عليه أن لا يعود إليه فقيل للشيخ أمحق هذا أم مبطل؟ فقال هذا محق ملبس عليه^(١)، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره لمعة فرأى بصره ببصيرته، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده فظن أن بصره رأى ما شاهده ببصيرته، وإنما رأى بصره ببصيرته فقط، وهو لا يدري قال الله تعالى: «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان»، وكان جمع من المشايخ، وأكابر العلماء حاضرين هذه الواقعة فأطربهم سماع هذا الكلام، ودهشوا من حسن إفصاحه عن حال الرجل، ومزق جماعة ثيابهم، وخرجوا عرايا إلى الصحراء، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: تراءى لي نور عظيم ملاً الأفق ثم تدلى فيه صورة تتاديني يا عبد القادر أنا ربك، قد حللت تلك المحرمات فقلت أخساً يا لعين فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان ثم خاطبني يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق فقلت لله الفضل فقيل له كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله وقد حللت لك المحرمات.

(١) أي لُبِسَ عليه، فلم ير سوى أنوار الصفات والأسماء فظن أنه رأى حقيقة الذات، وأما حقيقة الذات الإلهية فلم يشاهدها سوى سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الدار.

وسئل عليه السلام عن صفات الموارد الإلهية، والطوارق الشيطانية؟ فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستدعاء، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت مخصوص، والطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالباً. وسئل عليه السلام عن الهمة؟ فقال: هي أن يتعري العبد بنفسه عن حب الدنيا، وبروحه عن التعلق بالعقبى، وبقلبه عن إرادته مع إرادة المولى، ويتجرد بسرّه عن أن يلمح الكون أو يخطر على سرّه، وسئل عليه السلام عن البكاء؟ فقال: ابك له وابك منه وابك عليه، ولا حرج.

وسئل عليه السلام؟ عن الدنيا فقال: أخرجها من قلبك إلى يدك فإنها لا تضرك. وسئل عليه السلام عن الشكر؟ فقال: حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، ومشاهدة المنّة، وحفظ الحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر وكان يقول: الفقير الصابر مع الله تعالى أفضل من الغني الشاكر له والفقير الشاكر أفضل منهما والفقير الصابر الشاكر أفضل منهم وما خطب البلاء إلا من عرف المبلى، وسئل عليه السلام عن حسن الخلق؟ فقال: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق واستصغار نفسك، وما منها معروفة بعيوبها، واستعظام الخلق، وما منهم نظروا إلى ما أودعوا من الإيمان والحكم. وسئل عليه السلام عن البقاء؟ فقال: البقاء لا يكون إلا مع اللقاء واللقاء يكون كلمح البصر أو هو أقرب، ومن علامة أهل اللقاء أن لا يصحبهم في وصفهم به شيء فإن لأنهما ضدان، وكان يقول: متى ذكرته فأنت محب، ومتى سمعت ذكره لك فأنت محبوب، والخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربك، وما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك، ولما اشتهر أمره في الآفاق اجتمع مائة فقيه من أذكيا بغداد يمتحنونه في العلم فجمع كل واحد له مسائل، وجاء إليه فلما استقر بهم المجلس أطرق الشيخ فظهرت من صدره بارقة من نور فمرت على صدور المائة فمحت ما في قلوبهم فبهتوا، واضطربوا، وصاحوا صيحة واحدة، ومزقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم ثم صعد الكرسي وأجاب الجميع عما كان عندهم فاعترفوا بفضله، وكان من أخلاقه أن يقف مع

جلالة قدره مع الصغير، والجارية^(١)، ويجالس الفقراء ويفلي لهم ثيابهم وكان لا يقوم قط لأحد من العظماء ولا أعيان الدولة، ولا ألم قط بيباب وزير، ولا سلطان، وكان الشيخ علي بن الهيثمي رحمته الله يقول عن الشيخ عبد القادر رحمته الله: كان قدمه على التفويض والموافقة مع التبزي من الحول والقوة وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية لا بشيء ولا لشيء، وكان الشيخ عدي بن مسافر رحمته الله يقول: كان الشيخ عبد القادر رحمته الله طريقته الذبول^(٢) تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضرر، والقرب والبعد، وكان الشيخ بقاء^(٣) بن بطو رحمته الله يقول: كان طريق الشيخ عبد القادر رحمته الله اتحاد القول، والفعل، والنفس، والوقت، ومعانقة الإخلاص والتسليم، وموافقة الكتاب والسنة في كل نفس وخطرة ووارد، وحال الثبوت مع الله عز وجل، وفي روايه كانت قوة الشيخ عبد القادر رحمته الله في طريقه إلى ربه كقوى جميع أهل الطريق شدة ولزوماً، وكانت طريقته التوحيد وصفاً، وحكماً، وحالاً، وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً، ووصفه قلب فازع، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرة لا تتجاذبها الشكوك، وسر لا تنازعه الأغيار، وقلب لا تفارقه البقايا رحمته الله. وكان أبو الفتح الهروي رحمته الله يقول: خدمت الشيخ عبد القادر رحمته الله أربعين سنة فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان كلما أحدث جدد في وقته وضوءه ثم يصلي ركعتين، وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته، ولا يمكن أحداً أن يدخلها معه فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر ولقد أتاه الخليفة يريد الاجتماع به ليلا فلم يتيسر له الاجتماع إلى الفجر قال الهروي: وبنت عنده ليلة فرأيته يصلي أول الليل يسيراً ثم يذكر الله تعالى إلى أن يمضي الثلث الأول يقول: المحيط الرب الشهيد

(١) انظر إلى أخلاق العظماء كيف لا يقوم للملوك ويقوم للضعفاء كالجواري وانصبيان وهو من نواذر أخلاق الصوفية.

(٢) أى الاستسلام لها.

(٣) ومنهم من يخفف الاسم فيقول بقا بن بطو بحذف الهمزة.

الحسيب الفعال الخلاق الخالق البارئ المصور فتتضاءل جثته مرة، ونعظم أخرى، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن بصري مرة ثم يصلي قائماً على قدميه يتلو القرآن إلى أن يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل سجوده جداً ثم يجلس متوجهاً مشاهداً مراقباً إلى قريب طلوع الفجر ثم يأخذ في الدعاء، والابتهاال والتذلل، ويفشاه نور يكاد يخطف الأبصار إلى أن يغيب فيه عن النظر قال، وكنت أسمع عنده سلام عليكم سلام عليكم وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر، وكان الشيخ عبد القادر رحمته يقول: أقمت في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرداً سائحاً لا أعرف الخلق ولا يعرفوني يأتيني طوائف من رجال الغيب، والجان أعلمهم الطريق إلى الله عز وجل.

ورافقني الخضر^(١) عليه السلام في أولى دخولي العراق، وما كنت عرفته، وشرط أن لا أخالفه وقال لي : اقعد هنا فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرة ويقول لي: مكانك حتى آتيك^(٢) قال: ومكثت سنة في خرائب المدائن أخذ نفسي بطريق المجاهدات فأكل المنبوذ^(٣)، ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة أشرب الماء، ولا أكل المنبوذ وسنة لا أكل، ولا أشرب، ولا أنام، ونمت مرة بإيوان كسرى في ليلة باردة فاحتلمت فقممت، وذهبت إلى الشط، واغتسلت ثم نمت فاحتلمت فذهبت إلى الشط، واغتسلت فوقع لي ذلك في تلك الليلة أربعين^(٤) مرة، وأنا أغتسل ثم سعدت إلى الإيوان خوف النوم ودخلت في ألف فن حتى أستريح من دنياكم، وكان رحمته يرى الجلوس على بساط الملوك، ومن داناهم من العقوبات المعجلة للفقير، وكان رحمته إذا جاءه خليفة أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له إعزازاً للطريق في أعين الفقراء، واجتمع

(١) ذكرته ضمن من اجتمعوا بالخضر عليه السلام في كتابي «الجواهر فيمن رأى الخضر من الأكابر».

(٢) يهياه لمقام الصبر قبل دخوله في مقام التمكين بقوله له: مكانك حتى آتيك.

(٣) مقصوده بالمنبوذ من الطعام، أي الذي نبذه الناس كأوراق الخس الملقاة التي لا يؤبه لها.

(٤) هو نوع من أنواع الاختبار ليرى قوة المعارف ومدى ثبوته على الطهارة.

عنده جماعة من الفقهاء، والفقهاء في مدرسة النظامية فتكلم عليهم في القضاء، والقدر فبينما هو يتكلم إذا سقطت عليه حية من السقف ففر منها كل من كان حاضراً عنده ولم يبق إلا هو فدخلت الحية تحت ثيابه، ومرت على جسمه، وخرجت من طوقه، والتوت على عنقه، وهو مع ذلك لا يقطع كلامه، ولا غير جلسته ثم نزلت على الأرض، وقامت على ذنبها بين يديه فصوتت ثم كلمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين ثم ذهبت فرجع الناس، وسألوه عما قالت فقال: قالت لي: لقد اختبرت كثيراً من الأولياء فلم أر مثل ثباتك^(١) فقلت لها: وهل أنت إلا دويذة يحركك القضاء، والقدر الذي أتكلم فيه قال الشيخ عبد القادر رحمته الله ثم إنها جاءتني بعد ذلك، وأنا أصلي ففتحت فمها موضع سجودي فلما أردت السجود دفعتها بيدي، وسجدت فالتفت على عنقي ثم دخلت من كمي وخرجت من الكم الآخر ثم دخلت من طوقي ثم خرجت فلما كان الغد دخلت خربة فرأيت شخصاً عيناه مشقوقتان طولاً فعلمت أنه جني فقال لي: أنا الحية التي رأيتها البارحة، ولقد اختبرت كثيراً من الأولياء بما اختبرتك به فلم يثبت أحد منهم لي كتابتك، وكان منهم من اضطرب باطنه، وثبت ظاهره، ومنهم من اضطرب ظاهراً، وباطناً، ورأيتك لم تضطرب ظاهراً ولا باطناً، وسألتني أن يتوب على يدي فتوبته، وكان رحمته الله يقول: ما ولد لي قط مولود إلا أخذته على يدي وقلت: هذا ميت فأخرجه من قلبي أول ما يولد^(٢) قال ابن الأحض رحمه الله تعالى وكنا ندخل على الشيخ عبد القادر رحمته الله في الشتاء، وقوة برده، وعليه قميص واحد، وعلى رأسه طاقيّة، والعرق يخرج من جسده، وحوله من يروحه

(١) قلت: وكيف يهتز ثباته وهو القطب، والذي يكون أشد الأولياء فناء في الله، والفاني لا يرى في الوجود شيئاً غير الله، كما لم تهز النار إبراهيم الخليل عليه السلام، ورفض تخليص جبريل عليه السلام له منها، ولم يطلب التخليص سوى ممن خلقها، وهي صفة الفاني، الذي تحقق أن الأشياء لا تتحرك إلا بالله عز وجل.

(٢) ومقصوده أنه أخرج حبه من قلبه، فلا يهتز له إذا فقدته أو مات، قلت: وهو مقام لا يحدث سوى لأهل الفناء.

بمروحة كما يكون في شدة^(١) الحر.

وكان ﷺ يقول لأصحابه اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا، ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تياسوا، واجتمعوا على الذكر، ولا تتفرقوا، وتطهروا عن الذنوب، ولا تتلطفوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا، وكان ﷺ يقول: إذا ابتلى أحدكم ببليّة فليحرك أولاً لها نفسه فإن لم يخلص منها فليستعن بغيره من الأمراء، وغيرهم فإن لم يخلص فليرجع إلى ربه بالدعاء، والتضرع، والانطراح بين يديه فإن لم يجبه فليصبر حتى ينقطع عنه جميع الأسباب، والحركات، ويبقى روحاً فقط لا يرى إلا فعل الحق جل، وعلا فيصير موحداً ضرورة، ويقطع بأن لا فاعل في الحقيقة إلا الله فإذا شهد ذلك تولى أمره الله فعاش في نعمة ولذة فوق لذة ملوك الدنيا^(٢) لا تشمئز نفسه قط من مقدور قدره الله عليه، وكان ﷺ يقول: إذا مت عن الخلق قيل لك رحمك الله، وأماتك عن هواك فإذا مت عن هواك قيل لك يرحمك الله، وأماتك عن إرادتك، ومناك فإذا مت عن إرادتك، ومناك قيل لك رحمك الله وأحياك فحينئذ تحيا حياة طيبة لا موت بعدها، وتغنى غنى لا فقر بعده، وتعطى عطاء لا منع بعده، وتعلم علماً لا جهل بعده وتأمين أمناً لا تخاف بعده، وتكون كبريتاً أحمر لا يكاد يرى وكان ﷺ يقول: أفن عن الخلق بحكم الله تعالى وعن هواك بأمر الله، وكان ﷺ يقول: إشراك الخواص أن يشركوا إرادتهم بإرادة الحق على وجه السهو، والنسيان وغلبة الحال، والدهشة فيتداركهم الله باليقظة، والتذكير فيرجعوا عن ذلك، ويستغفروا ربهم إذ لا معصوم من هذه الإرادة إلا الملائكة كما عصم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبقية الخلق من الجن، والإنس المكلفين لم يعصموا منها غير أن الأولياء يحفظون عن الهوى، والأبدال عن الإرادة، وكان

(١) قلت: هي إراثة من جده مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقد روى عنه أنه كان يلبس ملابس الصوف الغليظة في أيام الحر الشديد وكان يلبس الثياب الرقيقة في أيام الشتاء القارص.
(٢) قلت: لأن العارف منعم في هذه الدار في مشاهدته أعظم من تنعم أعظم ملوك الأرض بديانهم وملكهم، فذرة مما يذوقه العارف تمدل أطناناً مما يحس به أعظم ملوك الأرض ويتذوقه، وشتان بين مذاق هذا وهذا.

ﷺ يقول: اخرج عن نفسك، وتتح عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل إلى مولاك، وكن بوابه على باب قلبك فأدخل ما يأمرك بإدخاله، وأخرج ما يأمرك بإخراجه، ولا تدخل الهوى قلبك فتهلك، وكان ﷺ يقول: احذر، ولا تركز، وخف ولا تأمن وفتش، ولا تفعل فتطمئن، ولا تضيف إلى نفسك حالا ولا مقالا ولا تدع شيئاً من ذلك، ولا تخبر أحداً به فإن الله تعالى كل يوم هو في شأن في تغيير، وتبديل يحول بين المرء، وقلبه فيزلك عما أخبرت به، ويعزلك عما تخيلت ثباته فتخجل عند من أخبرته بذلك بل احفظ ذلك، ولا تعده إلى غيرك فإن كان الثبات والبقاء، فتعلم أنه موهبة فتشكر، واسأل الله التوفيق، وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم، ومعرفة، ونور، وتيقظ، وتأديب قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (البقرة: ١٠٦) وكان ﷺ يقول: إذا أقامك الله تعالى في حالة فلا تختَر غيرها أعلى منها أو أدنى منها. قلت: أما طلب الأدنى فظاهر لاستبداله الأدنى بالذي هو خير منه، وأما في الأعلى فلما يطرق الطالب للعلو من الهوى، والإدلال فالنهي في كلام الشيخ ﷺ لمن لم يخرج عن هوى نفسه أما من خرج عن ذلك فله السؤال في مراتب الترقى عبودية محضة، والله أعلم. وكان ﷺ يقول: إن كنت تريد دخول دار الملك فلا تختَر الدخول إلى الدار بالهوى حتى يدخلك إليها جبراً أعني بالجبر^(١) أمراً عنيفاً متكرراً، ولا تقنع بمجرد الأمر بالدخول لجواز أن يكون ذلك بمكر أو خديعة لكن اصبر حتى تجبر على الدخول فتدخل الدار جبراً محضاً، وفضلاً من الملك فحينئذ لا يعاقبك الملك على فعله، وإنما تتطرق إليك العقوبة من شؤم شرك، وقلة صبرك، وسوء أدبك، وترك الرضا بحالتك التي أقامك الحق فيها ثم إذا دخلت الدار فكن مطرَقاً غاضباً بصرك متأدباً محافظاً لما تؤمر به من الخدمة غير طالب للترقى إلى الطبقة الوسطى، ولا إلى الذروة العليا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ﴾ (الحجر: ٨٨) الآية.

(١) يعني بالجبر القهر - الغير مصطنع - والذي ليس فيه تكلف إذ أن أحوال الأولياء أحوال قاهرة لهم، قد فرضتها عليهم الحضرة.

وكان ﷺ يقول: لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى فإن النعماء واصله إليك بالقسمة استحليتها أم كرهتها، والبلوى حالة بك، ولو كرهتها، ودفعتها فسلم لله تعالى في الكل يفعل ما يشاء فإن جاءتك النعماء فاشتغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوى فاشتغل بالصبر والمواقفة، والرضا والتنعم بها، والعدم والفناء عنها على قدر ما تعطي من الحالات، وتنتقل فيها حتى تصل إلى الرفيق الأعلى، وتقام في مقام من تقدم ومضى من الصديقين والشهداء فلا تجزع من البلوى، ولا تقف بدعائك في وجهها وقربها فليس نارها أعظم من نار جهنم وفي الخبر: «إن نار جهنم تقول للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» وليس نور المؤمن الذي أطفأ لهب النار إلا الذي صحبه في دار الدنيا وتميز به عن عصى فليطفئ بهذا النور لهب البلوى فإن البلية لم تأت العبد لتهلكه، وإنما تأتيه لتختبره، وكان ﷺ يقول: لا تشكون لأحد ما نزل بك من ضر كائناً ما كان صديقاً أو قريباً، ولا تتهمن ربك قط فيما فعل فيك، ونزل بك من إرادته بل أظهر الخير، والشكر، ولا تسكن إلى أحد من الخلق، ولا تستأنس به ولا تطلع أحد على ما أنت فيه لا فاعل سوى ربك "وكل شيء عنده بمقدار" «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو" واحذر أن تشكو الله وأنت معافي وعندك نعمة ما طلباً للزيادة، وتعامياً لما له عندك من النعمة والعافية ازدرأ بها فربما غضب عليك، وأزالها عنك، وحقق شكواك، وضاعف بلاءك، وشدد عليك العقوبة، ومقتك، وأسقطك من عينه، وأكثر ما ينزل بابن آدم من البلايا لشكواه من ربه عز وجل.

وكان ﷺ يقول: لا يصلح لمجالسة الملوك إلا المطهر من رجس الزلات، والمخالفات، ولا تقبل أبوابه تعالى إلا طيباً من الدعاوى، والهوسات، وأنت يا أخي غارق ليلاً ونهاراً في المعاصي، والقاذورات، ولذلك ورد "حمى يوم كفارة سنة" فالأمراض والشدائد جعلها الله تعالى مطهرات لك لتصلح لقربه، ومجالسته لا غير، وقد ورد أيضاً "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة" ودوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى، وذلك ليكونوا أبدأ في الحضرة، ويمتنعوا من

الفقير حتى يكتف فقره، ويكتم عن إخوانه رضاه به، وأنسه، وفرحه به، وكان رضي الله عنه يقول: زمان يذكر فيه أمثالنا بالصلاح لا يرجى فيه الصلاح، وكان إذا لقي أحداً ممن لقي من المشايخ من لم يلقه يقبل يده ولا يمشي إلا وراءه، ويقول: إنك لقيت فلاناً، وأنا لم ألقه رضي الله عنه.

ومنهم أبو بكر محمد

بن أحمد بن جعفر النيسابوري رضي الله عنه

كان رضي الله عنه من أفتى مشايخ نيسابور في وقته صحب أبا عثمان الحيري ومات قبل الستين، والثلاثمائة، ومن كلامه رضي الله عنه: الفتوة حسن الخلق، وبذل المعروف إلى كل بر، وفاجر، وكان رضي الله عنه يقول: إذا شهد فيكم أحد بشر فخافوا فإن النبي صلى الله عليه وآله قال للمسلمين: أنتم شهداء الله في الأرض^(١).

قلت: وهذا باب أغفله كثير من الفقراء فلا يعبأون بمن يجرحهم استناداً إلى الإكتفاء بما يعلمه الله منهم، وهو مقصور عن درجة العرفان، فإن الله تعالى زكى من جرحهم وسماهم شهداء الله، فيجب تصديقهم بما أخبروا به فافهم، والله أعلم.

ومنهم أبو عبد الله محمد

بن أحمد بن حمدون القراد رضي الله عنه

من كبار مشايخ نيسابور صحب أبا علي الثقفي، وعبد الله بن منازل، والشبلي، وأبا بكر بن طاهر، وغيرهم من المشايخ، وكان أوحده وقته في طريقته، ومن كلامه رضي الله عنه: كتمان الحسنات أولى من كتمان السيئات، فإنه بذلك يرجو النجاة، وكان رضي الله عنه يقول: لن يدخل نور المعرفة قلباً من القلوب حتى يؤثر صاحبه الحق تعالى على كل شيء رضي الله عنه.

(١) قلت: هو أدب خفى باطنى راق قل من يفعله اليوم، بل انقرض منذ قرون، وهو عدم تكذيب شهادة أحد من المسلمين فيه ولو كانت غير صحيحة وتكلم الشعرائى فى المن أن كان لا يكذب أحداً من الفقراء ولو ادعى مقام القطبانية.

ومنهم أبو عبد الله وأبو القاسم

ابنا أحمد بن محمد المقرئ رحمهما الله

فأما أبو عبد الله فإنه صحب يوسف بن الحسين الرازي، وعبد الله الخراز الرازي، ومظفر القرميسيني، ورويماً، والجريري، وابن عطاء، وكان من أفتى المشايخ، وأسخاهم، وأحسنهم خلقاً، وأعلاهم همة مات رحمهما الله سنة ست وستين وثلاثمائة، وأما أبو القاسم فكان أوجد المشايخ بخراسان في وقته وطريقته عالي الحال شريف الهمة حسن السمات والوقار في مشيه، وجلوسه صحب ابن عطاء، والجريري، وابن أبي سعدان، وابن ممشاد الدينوري، والروذباري، ومات رحمهما الله سنة ثمان وسبعين، وثلاثمائة بنيسابور.

وكان رحمهما الله يقول: الفقير الصادق هو الذي يملك كل شيء، ولا يملكه شيء يعني أنه لقربه كل شيء دعا ربه به أجابه فلا يركن لغير الله، وكان رحمهما الله يقول: من أخلاق الفتيان أن يحسن خلقه مع من ييفضه، ويبذل المال لمن يكرهه، ويحسن الصحبة مع من ينفر منه قلبه، وموافقة الإخوان في كل ما لا يخالف العلم، وكان يقول: أوائل بركات الدخول في طريق القوم أن تصدق الصادقين في كل ما أخبروا به عن أنفسهم، وعن مشايخهم فمن توقف في شيء من ذلك حرم بركتهم، وكان رحمهما الله يقول: العارف هو من شغله معروفه عن النظر إلى الخلق بعين القبول، والرد، وكان رحمهما الله يقول: من تعزز عن خدمة إخوانه أورثه الله ذلاً لا انفكاك له منه أبداً.

وكان أبو القاسم رحمهما الله يقول: السماع على ما فيه من اللطافة فيه خطر عظيم إلا لمن سمعه بعلم عزيز، وحال صحيح، ووجد غالب من غير حظ له فيه (١) رحمهما الله.

(١) قلت: وهذا هو الفرق بين سماع الكمل من العارفين وسماع غيرهم من الجاهلين المموهين، ادعياء التصوف، الذين ادعوا الوجد ادعاء وكذباً وقد ابتلى به التصوف، وراجع في ذلك كتاباً «إعلام الصوفية في كل مكان ببعض بدع المتصوفة في هذا الزمان» وهو مطبوع فليراجع.

الخدمة فيهلك والمطلوب من العبد أن لا يركن لغير ربه والسلام وكان عليه السلام يقول: علامة الابتلاء على وجه العقوبة، والمقابلة عدم الصبر عند وجود البلاء والجزع، والشكوى إلى الخلق، وعلامة الابتلاء تكفيراً، وتمحيصاً للخطيئات، وجود الصبر الجميل من غير شكوى، ولا جزع ولا ضجر، ولا ثقل في أداء الأوامر، والطاعات، وعلامة الابتلاء لارتفاع الدرجات، وجود الرضا والموافقة، وطمأنينة النفس والسكون للأقدار حتى تتكشف، وكان عليه السلام يقول: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا ومن أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة، وما دام قلب العبد متعلقاً بشهوة من شهوات الدنيا أو لذة من لذاتها من مأكول أو ملبوس أو منكوح أو ولاية أو رياضة أو تدقيق في فن من الفنون الزائدة على الفرض كرواية الحديث الآن، وقراءة القرآن بالروايات السبع^(١)، وكالنجوى، واللغة، والفصاحة فليس هذا محبباً للآخرة، وإنما هو راغب في الدنيا وتابع هواه، وكان عليه السلام يقول: تعام عن الجهات كلها، ولا تعرض على شيء منها فإنك ما دمت تنظر إليها فباب فضل الله عنك مسدود فسد الجهات كلها بتوحيديك، وامحها بيقينك ثم بفنائك ثم بمحوك ثم بعلمك، وحينئذ تفتح من عيون قلبك جهة الجهات، وهي جهة فضل الله الكريم فتراها بعين رأسك فلا تجد بعد ذلك فقراً، ولا غنى وكان عليه السلام يقول: كلما جاهدت النفس، وغلبتها، وقتلتها بسيف المجاهدة أحيانا الله عز وجل، وكلما نازعتك وطلبت منك الشهوات، واللذات

(١) قلت: هذه وجهة نظره هو عليه السلام وهي ليست حجة على أقطاب الأمة وإلا فأي الأقطاب والأغوات الذين ذبوا عن حديث رسول الله ﷺ وتبحروا فيه رواية ودراية ومنهم إمام مذهبه وغوث زمانه أحمد بن حنبل عليه السلام الذي كان يحفظ ألف ألف حديث وتبحر في شتى فنون الحديث وذب عن الأمة وإلا فمن يدافع عن حديث رسول الله ﷺ وعن شريعته الفراء إن ترك هؤلاء علم الجرح والتعديل وغيره من فنون الحديث وكان منهم مالك بن أنس غوث زمانه - قلت وكيف يترك قراءة القرآن بالروايات السبع وهي من أسس الدين وعموده؟ وقد دأب عليها كبار الصحابة ورووا طرقها وحفظوا بها الدين وأولهم مولانا غوث عصره عثمان بن عفان عليه السلام والذي شغله جمع المصحف.

قلت: وقد كانت طائفة من أوائل التابعين من السلف شغلتهم العبادة عن العلم برواية الحديث إلا أن هؤلاء كانوا قلة ضئيلة ومذهبهم خاص بهم وإلا فأي عبد الله بن المبارك وسفيان الثوري والحسن البصري ومالك بن أنس وغيرهم.

المحرمات منها والمباح فعد معها إلى المجاهدة، والمقاتلة ليكتب لك نوراً، وثواباً دائماً وهو معنى قول النبي ﷺ: "رجعنا من الجهاد الأصفر إلى الجهاد الأكبر" وكان ﷺ يقول: كل مؤمن مكلف بالتوقف، والتفتيش عند حضور ما قسم له فلا يتناوله، ويأخذه حتى يشهد له الحكم بالإباحة، والعلم بالقسم كما قال عليه الصلاة والسلام: "المؤمن فتاش والمنافق لفاف" والله تعالى أعلم.

ومنهم أبو بكر بن هوار البطائحي رضي الله عنه

كان شاطراً^(١) يقطع الطريق فوق له سماع هاتف بالليل أما آن لك أن تخاف من الله تعالى فتأب من ساعته رضي الله عنه، وهو أول من ألبسه أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخرقه ثوباً، وطاقيه في النوم فاستيقظ فوجدهما عليه وكان رضي الله عنه يقول: أخذت من ربي عز وجل عهداً أن لا تحرق النار جسداً دخل تربتي، ويقال إنها ما دخلها سمك، ولا لحم قط فأنضجته النار أبداً، وانعقد إجماع المشايخ من أهل عصره على جلالته، وعلو مقامه، ومن كلامه رضي الله عنه التوحيد أفراد القدم عن الحدوث، وخروج أكوان، وقطع الحجاب، وترك الوقوف مع كل ما علم، وكل ما جهل فإن علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مفارق لعلمه فإذا تنهى، فإلى الحيرة، وكان (يقول: التصوف ذكر باجتماع، ووجد باستماع، وتحمل باتباع وكان رضي الله عنه يقول: الخوف يوصلك إلى الله، وهو أن لا تأمن وقوع البطش بك مع الأنفاس، وكان يقول: الجمع بالحق تفرقة من غيره، والتفرقة من غيره جمع به وكان رضي الله عنه يقول: احتقارك للناس مرض عظيم لا يداوى. وكان رضي الله عنه يقول: أوتاد العراق ثمانية: معروف الكرخي، وأحمد بن حنبل، وبشر الحافي ومنصور بن عمار، والجنيد، والسري السقطي، وسهل بن عبد الله التستري، وعبد القادر الجيلي فقليل له: ومن عبد القادر؟ فقال: أعجمي شريف يسكن بغداد يكون ظهوره في القرن الخامس، وهو أحد الصديقين، وأعيان أقطاب الدنيا رضي الله عنه .

(١) أى لصاً.

ومنهم الشيخ أبو محمد الشنكي رحمته الله

انتهت إليه رياسة هذا الشأن في وقته وبه تخرجت السالكون الصادقون مثل الشيخ أبي الوفاء، والشيخ منصور رحمته الله ما، وغيرهما وكان رحمته الله شريف الأخلاق كامل الأدب وافر العقل كثير التواضع، وكان في بدايته يقطع الطريق على القوافل فتاب على يد أبي بكر بن هوار البطائحي رحمته الله فصار يبيري الأكمه، والأبرص، والمجنون بدعوته ومن كلامه رحمته الله: أصل الطاعة الورع والتقوى وأصل التقوى محاسبة النفس، وكان يقول: من لم يسمع نداء الله تعالى كيف يجيب داعيه؟ ومن استغنى بشيء دون الله فقد جهل قدر الله وكان رحمته الله يقول: من قهر نفسه بالأدب فهو الذي يعبد الله بالإخلاص وكان يقول: حجاب الخلق عن الحق تعالى هو تدبيرهم لنفوسهم، ومن نظر قرب الحق منه بعد من قلبه كل شيء سواه، وكان رحمته الله يقول: شهوة الصديقين المجاهدة، وشهوة الكاذبين النوم، والكسل وكان يقول: من ادعى سراً مع الله لا يشهد له حفظ ظاهره. فاتهمه في دينه، وكان رحمته الله يقول: لا تأكل قط من طعام فقير رجع إلى الدنيا بعد زهده فيها، ولو مت جوعاً فإن أكلت قسا قلبك أربعين صباحاً وكان رحمته الله يقول: صلاح القلب في الاشتغال بالعلم على وجه الإخلاص، وفساده في الاشتغال به على وجه الرياء، والسمعة وكان رحمته الله يقول: ملاك القلب السبق إلى المعالي في إصلاح الباطن اكتفاء بمراعاة الحق، وإسقاط رؤية الخلق، وكان يقول: الولي من ستر حاله أبداً، والكون كله ناطق عن ولايته من غير ظهور أعمال تميزه ^(١) رحمته الله.

ومنهم الشيخ عزازين مستودع البطائحي رحمته الله

انتهت إليه رياسة الطريق في البطائح، وأخذ عنه جماعة من الصلحاء، والعلماء الطريق، ونتجوا فيها، وأجمع المشايخ على تعظيمه، ومن كلامه رحمته الله الغفلة غفلتان غفلة رحمة، وغفلة نقمة فأما التي، هي رحمة فكشف الغطاء

(١) أي هو عامل على ستر ولايته والكون عامل على فضح ولايته.

ليشاهد القوم العظمة والجلال فيذهلوا عن العبودية إلا الفرائض والسنن، ويففلوا عن مراعاة السر إلا مراقبة وارادات الهيبة، وأما التي هي نعمة فاشتغال العبد عن طاعة الله عز وجل بمعصيته، والتفاتته إلى الكرامات، وغفلته عن طريق الاستقامة، وكان يقول: إنما بسط بساط السطوة للأعداء ليستوحشوا من قبيح أفعالهم فلا يشاهدون قط ما يبتهجون به، ولا يطمثون إلى ما يأنسون به، وكان ﷺ يقول: الأرواح تلطفت بالأشواق فتعلقت عند دعاة الحقيقة بأذيال المشاهدة فلم تر غير الحق تعالى معبوداً، وأيقنت أن المحدث لا يدرك القديم بصفات معلولة فصفات الحق تعالى واصلة إليه فهو الذي أوصله، ولم يصل هو بنفسه، وكان ﷺ يقول: الإرادة تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء، والجلوس مع الله بلا هم، وكان ﷺ يقول: إذا مازجت المحبة الأرواح طارت، وإذا خالطت العقول أدهشت، وإذا لابت الأفكار حارت، وكان ﷺ يقول: كمال العلم انقطاع الرجاء عن كنه صفات الجمال، وكان يقول: من أنس بالله أنس به كل شيء، ومن خاطبه الله خاطبه كل شيء، ومن وصل إلى الله تأخر عنه كل شيء إجلالاً له، ومن عرف الله جهله كل شيء⁽¹⁾ لعظيم ما أودعه الله عز وجل من العلوم والأسرار ﷺ.

ومنهم الشيخ منصور البطائحي ﷺ

هو خال أحمد بن الرفاعي وبصحبته تخرج ينتمي إليه جماعة كثيرة من ذوي الأحوال، وأرباب المقامات، وكانت أمة تدخل، وهي حامل على شيخه الشيخ محمد الشنبكي فينهض لها قائماً، وتكرر منه ذلك فسألوه عن ذلك فقال ﷺ: أنا أقوم للجنين الذي في بطنها فإنه أحد المقربين إلى الله تعالى أصحاب المقامات، وسيصير له شأن عظيم لم يكب به جواد الطريقة حتى مات على الإقبال على الله عز وجل. ومن كلامه ﷺ من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الله أثر رضاه، ومن لم يعرف نفسه فهو في أعظم الغرور، وكان ﷺ (1) ومن هنا قالوا: الإنسان الكامل غير موجود، وإذا وجد لا يعرف.

يقول: ما ابتلى الله عز وجل عبداً بشيء أشد من الغفلة عنه والفترة، وإذا أحب الله عبداً أعاده من الغفلة، والنام، وكان ﷺ يقول: كلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة عليه أسرع، وكان ﷺ يقول: الصبر زاد المضطرين، والرضا درجة العارفين، فمن صبر على صبره فهو بر الصابر، وكان ﷺ يقول: من فر بدينه إلى الله عز وجل، وهو يتهمه في رزقه فهو يفر له لا إليه وكان ﷺ يقول: كل موجود في الدنيا لا يكون عوناً على تركها فهو عليك لا لك، وكان يقول: لك ثلاث خصال من صفات الأولياء الثقة بالله تعالى في كل شيء، والفناء بالاستعداد إليه عن كل شيء، والرجوع إليه في كل حال، وكان ﷺ يقول: الإرادة هي أن تشير إلى الله تعالى فتجده أقرب من الإشارة، والتوكل رد الأمر كله إلى واحد، ونقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، وكمال شهوده الرياء في إخلاصه، وكان يقول: الأنس بالله استبشار القلوب بقرب الله عز وجل وسرورها به، ونظرها في سكونها إليه، وغفلتها عن كل ما سواه، وأن لا تشير إليه حتى يكون هو المشير إليها.

وكان ﷺ يقول: من اغتر بصفاء العبودية داخله نسيان الربوبية، ومن شهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فقد انقطع عن نفسه وسكن إلى ربه عز وجل، وحينئذ يسلم من الاستدراك وهو هنا فقدان اليقين لأنه باليقين يستبين فوائد الغيب، وكان ﷺ يقول: الكشف سواطع نور لمعت في القلوب بتمكين معرفة حملة السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب حتى يشهد الأشياء من حيث يشهدا الحق فيتكلم عن ضمائر الخلق، وإذا ظهر الحق على السرائر لم يبق لها فضلا لرجاء، ولا خوف وكان ﷺ يقول: سمعت خالي منصوراً ﷺ يقول: المحب لم يزل سكران في خماره حيران في شرابه لا يخرج من سكرة إلا إلى حيرة، ولا من حيرة إلا إلى سكرة. سكن الشيخ منصور ﷺ نهر دقل من أرض البطائح، واستوطنها إلى أن مات بها، وقبره ظاهر يزار ولما حضرته الوفاة قالت له زوجته أوص لولدك فقال بل لابن أختي أحمد فكررت عليه القول فقال لابنه

ولابن أخته: اثنياني بنجيل من أرض كذا فأتاه ابنه بنجيل كثير، ولم يأتته ابن أخته بشيء فقال له: يا أحمد لم تأت بنجيل؟ فقال: وجدته كله يسبح الله عز وجل فلم أستطع أن أقلع منه شيئاً فسكتت زوجته (١) رحمته.

ومنهم الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء رحمته

كان من أعيان مشايخ العراق في وقته له الكرامات الخارقة، وقد انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في زمانه، وتلمذ له خلق لا يحصون من العلماء، والصلحاء، وكان له أربعون خادماً من أرباب الأحوال. ولما أخذ عليه شيخه الشنكي العهد قال قد وقع اليوم في شبكتي طائر لم يقع مثله في شبكة شيخ، وكانت مشايخ البطائح يقولون عجباً لمن يذكر أبا الوفاء، ولم يمر يده على وجهه، ويسمى الله كيف لا يسقط لحم وجهه من هيبتته؟ وكان سيدي عبد القادر الجيلي رحمته يقول: ليس على باب الحق تعالى كردي مثل أبي الوفاء، وهو أول من سمى بتاج العارفين بالعراق. ومن كلامه رحمته من هيمه أثر النظر أقلقه سماع الخبر، ومن انقطع في مفاوز الأشواق لم يلتفت إلى الآفاق، وكان رحمته يقول: الذكر ما غيبك عنك بوجوده، وأخذك منك بشهوده فإن الذكر شهود الحقيقة، وخمود الخليفة، وكان رحمته يقول: الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس، والوجد حسرة تلهب ثم نظرة تسلب، والقوة محادثة السر عند اصطلام العبد بشاهد الحضور، واستغراق القلب في بحر المشاهدة لغلبة المشهود، وكان رحمته يقول: التسليم إرسال النفس في ميادين الأحكام، وترك الشفقة عليها من الطوارق، وكان رحمته يقول: لو صدق الوارد على شيخه وهو نائم لأجابه كل ذرة من الشيخ عن سؤاله، ولم يحتج إلى استيقاظ الشيخ (٢) رحمته.

(١) قلت: وهؤلاء هم الأولياء الكمل الذين لا يورثون أولادهم الصليبين إذا رأوهم لا يستحقون الإرث الباطنية وقد ذكرت هذه العلة في كتابي «إعلام الصوفية في كل مكان يبعث بدع المتصوفة في هذا الزمان» وهو مطبوع.

(٢) لأن روح الشيخ الواصل لا يحجبها شيء عن تلبية المرید الصادق، بل تستمر تأثيراتها أثناء الموت والنوم.

ومنهم الشيخ حماد بن مسلم الدباس رضي الله عنه

هو أحد العلماء الراسخين في علوم الحقائق انتهت إليه رياسة تربية المريدين، وانعقد عليه الإجماع في الكشف عن مخفيات الموارد وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد، وصوفيتهم في وقته وهو أحد من صحب الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وأثنى عليه وروى كراماته. ومن كلامه رضي الله عنه القلوب ثلاثة قلب يطوف في الدنيا وقلب يطوف في الآخرة وقلب يطوف بالمولى لا في المولى فمن طاف في المولى تزندق، وكان رضي الله عنه يقول: طهر قلبك باليقين لتجري فيه الأقدار، وكان يقول: أقرب الطرق إلى الله تعالى حبه، ولا يصفو حبه حتى يبقى المحب روحاً بلا نفس، وما دام له نفس لا يذوق قط محبة الله تعالى أبداً، وكان يقول: أزل الهوى من القدر تعرف، وأزل الهوى من الخلق، والأمر تخلص، وعلى قدر ما عندك من الأمر تسلّم وبقدر ما عندك من القدر تعرف، وكان رضي الله عنه يقول: لا توجد هواك في وجودك تكن موحداً، ولا مرادك في تدبيره تكن فانياً، ولكن إن دعاك أجب، وإن وعدك توكل، وإن قدر عليك استسلم فإن قال لك اختر قل قد فوضت وإن قال: لك اطلب قل: قد صدقت، وإن قال لك اعبدي قل وفقني، وإن قال: لك وحدني قل: اجذبني فإن جاءت المعرفة صارت أفعالاً ريبانية، وزالت الأكوان وصرت في القبضة صاحب قلب لا يكون لك شيء إلا به عز وجل، وما كان به كان له، وما كان بك كان لك فبالإيمان تشتغل عن أقسام الدنيا لأن فيه تصديقه، وبالعلم تشتغل عن أقسام الأخرى لأن فيه معرفته، وبالمعرفة تشتغل عن الكل حيث كنت لأنه معك من حيث معرفتك على قدرك رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ أبو يعقوب

يوسف بن أيوب الهمداني رضي الله عنه

هو أوجد الأئمة وانتهت إليه تربية المريدين بخراسان، واجتمع عنده بخانقائه^(١) من العلماء، والصلحاء جماعة كثيرة، وانتفعوا به وبكلامه رضي الله عنه ومن

(١) الخانقاه كلمة فارسية ومعناها زاوية الفقراء.

كلامه ﷺ: السماع سفر إلى الحق ورسول من الحق، وهو لطائف الحق وزوائده، وفوائد الغيب، وموارده، وبوادي الفتح، وعوائده، ومعاني الكشف، وبشارته فهو للأرواح قوتها وللأشباح غذاؤها، ولقلوب حياتها، وللأسرار بقاؤها فطائفة أسمعها الحق بشاهد التنزيه، وطائفة أسمعها بنعت الربوبية، وطائفة أسمعها بنعت الرحمة، وطائفة أسمعها بوصف القدرة فقام لهم الحق مسمعاً، وسامعاً فالسمع هتك الأستار، وكشف الأسرار، وبرقة لمعت، وشمس طلعت، وسماع الأرواح باستماع القلوب على بساط القرب بشاهد الحضور من غير نفس تكون هناك فتراهم في السماع والهيئ حيارى رامقين أسارى خاشعين سكارى واعلم أن الله خلق من نور بهائه سبعين ألف ملك من الملائكة المقربين، وأقامهم بين العرش والكرسي في حضرة الأنس لباسهم الصوف الأخضر، ووجوههم كالقمر ليلة البدر فقاموا متواجدين والهيئ حيارى خاشعين سكارى منذ خلقوا مهرولين من ركن العرش إلى ركن الكرسي لما بهم من شدة الوله فهم صوفية أهل السماء فإسرافيل قائدهم، ومرشدهم، وجبرائيل رئيسهم ومتكلمهم والحق تعالى أنيسهم، ومليكمهم فعليهم السلام من الله عز وجل.

وقال إبراهيم بن الحوفي كان الشيخ يوسف الهمداني يتكلم على الناس فقال له فقيهان كانا في مجلسه اسكت وإنما أنت مبتدع فقال لهما اسكتا لا عشتما فماتا مكانهما، وجاءته امرأة من همدان باكية فقالت له إن ابني أسره الإفرنج فصبرها فلم تصبر فقال: اللهم فك أسره، وعجل فرجه ثم قال لها: اذهبي إلى دارك تجديه بها فذهبت المرأة فإذا ولدها في الدار فتعجبت، وسألته فقال إنني كنت الساعة في القسطنطينية العظمى، والقيود في رجلي، والحرس علي فأتاني شخص فاحتملني وأتى بي إلى هنا كلمح البصر.

ولد ﷺ في حدود سنة أربعين وأربعمائة، وتوفي سنة خمس وثلاثين وخمسائة، ودفن بيا من على طريق مرو مدة ثم حملت جثته إلى مرو، ودفن بها في الحضرة المنسوبة إليه ﷺ.

ومنهم الشيخ عقيل المنبجي رحمته الله

هو شيخ شيوخ الشام في وقته تخرج بصحبته جمع من الأكابر منهم الشيخ عدي بن مسافر، وهو أول من دخل بالخرقة العمرية إلى الشام، وأخذت عنه، وكان يسمى الطيار لأنه لما أراد الانتقال من قريته التي كان بها مقيماً ببلاد الشرق صعد إلى منارتها ونادى لأهلها فلما اجتمعوا طار في الهواء والناس ينظرون إليه فجاءوا فوجدوه في منبج رحمته الله، ومن كلامه رحمته الله: المعرفة إنما هي فيما استأثر به تعالى، والعبودية إنما هي فيما أمر، والخوف ملاك الأمر كله . لكن خوف العارفين أن توجد راحتهم في أفعاله وخوف الأولياء أن يوجد هواهم في أمره عز وجل، وخوف المتقين أن يوجد أنفسهم في رؤيتهم للمخلق إن أوجد الخلق فيك أشركت وإن أقدرك عليك نازعتهم، وكان رحمته الله يقول: يا هذا قل إلهي أنقذني من قدرك^(١)، وأرحمني من خلقك فإذا جاء الأمر فقل إلهي ارحمني منهم وإذا جاء القدر قل إلهي ارحمني مني فإذا جاء الفضل قال إلهي فضلك لصنعك بلا أنا فإذا شئت فقد حصل لك عند الخشوع عبودية، وعند الدلال توحيد فعبوديتك بفقرك إليه، ودلاله أنه ما ثم غيره فإذا جاءت الإلهية ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١). فبمجاهدة الهوى تعرفه، وبخروجك عن الخلق توحده، وكان رحمته الله يقول: طريقتنا الجد والكد ولزوم الحد حتى تنفذ فإما أن يبلغ الفتى مناه وإما أن يموت بدائه، وكان يقول: من طلب لنفسه حالاً أو مقالاً فهو بعيد من طرقات المعارف، وكان يقول: الفتوة رؤية محاسن العبيد، والغيبة عن مساوئهم وكان يقول: المدعي من أشار إلى نفسه، وكان رحمته الله يقول: فقد الأسف، والبكاء في مقام السلوك علم من أعلام الخذلان، وكان رحمته الله إذا نادى وحوش الفلوات جاءت لدعوته صاغرة حتى تسد الأفق، وكان عكازه لا

(١) ربما بدل الحق تعالى قدره لبعض أكابر العارفين، وقد قالوا: إن الشيخ الواصل من يمسح اسم مريده من ديوان الشقاوة ويثبته في ديوان السعداء، كما حكى عن بعض أكابر العارفين أنه اطلع في اللوح المحفوظ فرأى أن مريداً له سيزنى سبعين مرة فسأل الله عز وجل أن يجعلها في النوم فكان كذلك، وأخرج ابن عساكر والبيهقي أن سعداً بن أبي وقاص قال: يا رب إنى لى بنين صفاراً فأخر عنى الموت حتى يبلغوا فأخر عنه الموت عشرين سنة أى بعد مرض شديد كاد يموت فيه .

يستطيع أحد حمله سكن رضي الله عنه منبج، واستوطنها نيفاً وأربعين سنة وبها مات وبها قبره ظاهر يزار رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ أبو يعزى المغربي رضي الله عنه

انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب، وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها، وأعلام زهادها، وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون، ومن كلامه رضي الله عنه: الأحوال مالكة لأهل البدايات فهي تصرفهم كيف شاءت، ومملكة لأهل النهايات فهم يصرفونها كيف شاءوا، وكان رضي الله عنه يقول: كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسومه فليست بحقيقة، وكان يقول: من طلب الحق من جهة الفضل وصل إليه، ومن لم يكن بالأحد^(١) لم يكن بأحد وكان رضي الله عنه يقول: أنفع الكلام ما كان إشارة عن مشاهدة أو نبأ عن حضور، وكان يقول: لا يكون الولي ولياً حتى يكون له قدم، ومقام، وحال، ومنازلة، وسر، فالقدم ما سلكته من طريقك إلى الحق، والمقام ما أقرتك عليه سابقتك في العلم الأزلي، والحال ما بعثك في فوائد الأصول لا من نتائج السلوك، والمنازلة ما خصصت به من تحف الحضور بنعت المشاهدة لا بوصف الاستتار، والسر ما أودعته من لطائف الأزل عند هجوم الجمع ومحق السوى وتلاشي ذاتك، فحفظ حكم المقام يفيد الفقه في الطريق ويفيد الاطلاع على خبايا معانيه، وحفظ حكم الحال يفيد بسطه في التصريف لله بالله، وحفظ حكم المنازلة يؤيد سلطان قهره بجيوش الفتح اللدني، وحفظ حكم السر يوسع قدرة الاطلاع على مكامن المكنونات، وحفظ حكم الوقت يورث المراقبة، وحفظ الأنفاس يوصل إلى مقام الغيبة في الحضور قال الشيخ أبو محمد الإفريقي رحمه الله تعالى: أقام الشيخ أبو يعزى في بدايته خمس عشرة سنة في البر لا يأكل إلا من حب الشجر في البادية، وكانت الأسد تأوي إليه، والطير يعكف عليه وكان إذا قال للأسد: لا تسكني هنا تأخذ أشبالها، وتخرج بأجمعها، قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: وزرته مرة في الصحراء وحوله الأسد، والوحوش، والطير، تشاوره على أحوالها، وكان الوقت وقت غلاء فكان يقول

(١) وهم أهل الفناء كابى سعيد الخزار والحلاج وغيرهم.

لذلك الوحش: اذهب إلى مكان كذا، وكذا فهناك قوتك، ويقول للطير مثل ذلك فتتقاد لأمره ثم قال: يا شعيب إن هذه الوحوش، والطيور أحبت جوارى فتحملت الم الجوع لأجلي ﷺ.

ومنهم الشيخ عدي بن مسافر الأموي ﷺ

هو أوحده أركان هذه الطريقة وأعلى العلماء بها وكان الشيخ عبد القادر ﷺ ينوه بذكره ويثني عليه وشهد له بالسلطة وقال: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر بالغ في المجاهدة في بدايته حتى أعجز المشايخ بعده وكان إذا سجد ﷺ سمع لمخه في رأسه صوت وقع الحصاة في القرعة الناشفة من شدة المجاهدة⁽¹⁾ وأقام في أول أمره زماناً في المغارات والجبال والصحارى مجرداً سائحاً يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات، وكانت الحيات، والهوام، والسباع تألفه فيها، وهو أول من قصد بالزيارات وتربية المريدين الصادقين ببلاد المشرق، وقصده الناس بالزيارة من سائر الأقطار. ومن كلامه ﷺ لا يخلو أخذك، وتركك أن يكونا بالله عز وجل أوله فإن كانا به فهو مباديك بالعطاء، وإن كانا له فاسترزقه بأمره، واحذر ما فيه الخلق فإنك متى كنت معهم استعبدوك، ومتى كنت مع الله تعالى حفظك، ومتى كنت مع فضل الله كذلك، وإذا كنت مع الأسباب فاطلب رزقك من الأرض فإنك لم تعط من السماء، وإذا كنت مع التوكل فإن طلبت بهمتك فلن يعطيك، وإن أزلت همتك أعطاك، وإذا كنت واقفاً مع الله تعالى صارت الأكوان خالية لك من الموطن، وأنت في القبضة فان، والكون كله فيك ولك وكان ﷺ يقول: لا تنتفع بشيخك إلا إن كان اعتقادك فيه فوق كل اعتقاد، وهناك يجعلك في حضوره، ويحفظك في مغيبه، ويهذبك بأخلاقه، ويؤدبك بإطراقه، وينور باطنك بإشراقه وإن كان اعتقادك فيه ضعيفاً لا تشهد فيه شيئاً من ذلك بل تنعكس ظلمة باطنك عليك فتشهد صفاته هي صفاتك فلا تنتفع به أبداً، ولو كان أعلى الأولياء درجة. وكان

(1) وأورد التاذهفي في ترجمته في كتابه «قلائد الجواهر» أنه اشتهر عن الشيخ عدي قولهم فيه: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر.

ﷺ يقول: حسن الخلق معاملة كل شخص بما يؤنسه ولا يوحشه، فمع العلماء بحسن الاستماع وإن كان مقامه فوق ما يقولونه، ومع أهل المعرفة بالسكون والانكسار، ومع أهل التوحيد بالتسليم، وكان ﷺ يقول: إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات، وتخرق له العادات فلا تغتروا به حتى تنظروه عند النهي والأمر، وكان يقول: من لم يأخذ أدبه من المؤدبين أفسد من اتبعه، ومن كانت فيه أدنى بدعة فاحذروا مجالسته لئلا يعود عليكم شؤمها، ولو بعد حين، وكان ﷺ يقول: من اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته انقطع، ومن اكتفى بالتعبد دون فقه حرج، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر ومن قام بما يجب عليه من الأحكام نجا، وكان يقول: توحيد الباري عز وجل لا تجري ماهيته في مقال ولا تخطر كلفيته ببال، جل عن الأمثال والأشكال، صفاته قديمة كذاته، ليس بجسم في صفاته، جل أن يشبه بمبتدعاته أو يضاف إلى مخترعاته، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، لا سمي له في أرضه وسماواته، لا عدل له في حكمه وإرادته، حرام على العقول أن تمثل الله عز وجل، وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الظنون أن تقطع، وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى النفوس أن تفكر، وعلى الفكر أن يحيط، وعلى العقول أن تتصور إلا ما وصف به ذاته تعالى في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ، وكان ﷺ يقول: أول ما يجب على سالك طريقتنا هذه ترك الدعاوى الكاذبة، وإخفاء المعاني الصادقة.

قلت: وذلك لأن المعاني الصادقة نور وكلما تراكمت الأنوار في قلب العبد تمكن، وقوى استعداداه، وكلما أظهر معنى خرج النور أولاً فأولاً فلا يثبت له قدم في الطريق والله تعالى أعلم، وكان ﷺ أكثر إقامته في الجزيرة السادسة من البحر المحيط ﷺ^(١)، وكان ﷺ يأمر الريح أن تسكن فتسكن لوقتته، سكن جبل الهكار واستوطن بالس إلى أن مات بها سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ودفن بزاويته المنسوية إليه، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ.

(١) هذا القول في إقامته ورد عن طريق الكشف.

ومنهم الشيخ علي بن وهب السنجاري رحمته الله

انتهت إليه تربية المريدين بسنجار وما يليها وتلمذت له جماعة من الأكابر
مثل الشيخ سويد السنجاري، والشيخ أبي بكر الجاري، والشيخ سعد
الصنابحي، وغيرهم. مات رحمته الله عن أربعين مريداً كلهم من أرباب الأحوال
وحكي أنه لما مات اجتمع هؤلاء المريدون في روضة تجاه زاويته فجعل كل منهم
يأخذ من تلك الروضة قبضة من نباتها، ويتنفس عليها فتزهر من جميع
الأزهار المختلفة الألوان من أصفر، وأخضر، وأزرق، وأبيض، وغير ذلك حتى
أقر بعضهم لبعض بالتمكين والتصريف.

وكان رحمته الله يقول: حفظت القرآن العظيم وأنا ابن سبع سنين ثم اشتغلت
بالعلم، وكنت أتعبد في مسجد بظاهر البرية فبينما أنا نائم ليلة رأيت أبا بكر
الصديق رحمته الله فقال: يا علي أمرت أن ألبسك هذا الطاقية، وأخرج من كمة
طاقية ووضعها على رأسي ثم جاءني الخضر عليه السلام بعد أيام وقال لي: يا علي
أخرج إلى الناس ينتفعوا بك فتثبت في أمري ثم رأيت أبا بكر الصديق رحمته الله
في النوم فقال لي كمقالة الخضر عليه السلام فاستيقظت، وتثبت في أمري ثم رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليلة الثالثة فقال لي كمقالة الصديق رحمته الله فاستيقظت،
وعزمت على الخروج، ونمت في آخر الليل من ليلتي تلك فرأيت الحق جل،
وعلا فقال لي، يا عبدي قد جعلتك من صفوتي في أرضي، وأيدتك في جميع
أحوالك بروح مني، وأقمتك رحمة لخلي فأخرج إليهم، واحكم فيهم بما
علمتك من حكمي، وأظهر لهم بما أيدتك به من آياتي فاستيقظت، وخرجت
إلى الناس فهرعوا إلي من كل جانب رحمته الله (١). ومن كلامه رحمته الله: معرفة الله عز
وجل عزيزة لا تدرك بالعقل بل يقتبس أصلها من الشرع ثم تتفرع حقائقها
على قدر القرب فقوم عرفوه بالوحدانية فاستراحوا إلى الصمدانية، وقوم
عرفوه بالقدرة فتحيروا، وقوم عرفوه بالعظمة فوقفوا على أقدام الدهشة،
(١) تصريح له بالخلافة من الأدنى إلى الأعلى.

وأيقنوا أن لن يدرك أحد عينه، وقوم عرفوه بعزة الإلهية فتزهوا عن الكيفية، والماهية، وقوم عرفوه بصنائه، واستدلوا عليه ببدائعه، فشاهدوه بإبداعه، وصنعه، وراوه في إعطائه ومنعه، وقوم عرفوه بالتكوين فعرفوه بالثبات والتمكين، وقوم عرفوه بلا غيره فأراهم من آياته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكان رضي الله عنه يقول: من أحبه الحق وأراده أسكن في قلبه الإرادة، فالمريد محب طالب، والشوق لقلبه غالب، والتوق للبه سالب، والمراد محبوب مطلوب، مأخوذ مسلوب إلى الجناب مجذوب، قد ظهر عليه الشوة وغلب، إذ قد وجد ما طلب، قد قطع الطريق وطواها، وأزال نفسه ونحائها ومحائها، ومحا الأكوان من نظره فما يراها.

وكان رضي الله عنه يقول: الزهد فريضة وفضيلة وقرية، فالفريضة في الحرام، والفضيلة في المتشابه، والقرية في الحلال، والزهد أعظم من الورع لأن الورع إبقاء، والزهد قطع الكل، وكان رضي الله عنه يقول: علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق، وكان يقول: بقاء الأبد في فنائك عنك، وكان يقول: من سكن بسره إلى غير الله تعالى نزع الله تعالى الرحمة من قلوب الخلق عليه، وألبسه لباس الطمع فيهم. مات رحمه الله تعالى بسنجان، وقبره بها يزار رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ موسى بن ماهين الزولي رضي الله عنه

هو أوجد الأئمة أبرز الله تعالى له المغيبات، وخرق له العادات، وأوقع له الهيبة في القلوب وانعقد عليه إجماع المشايخ وقصد بالزيارات، ولحل المشكلات، وكشف خفيات الموارد، وكان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يثني عليه، ويعظم شأنه وقال مرة: ي أهل بغداد ستطلع عليكم شمس ما طلعت عليكم بعد فقيل له: ومن هو؟ قال الشيخ موسى الزولي.

ومن كلامه عليه السلام: الرقائق معاني تفصيل المنازلات، وشعائر تجميل المحاضرات، وهي بالنظر إلى الجمل الكليات متحدة متصلة بالالتفات إلى الصور الجزئيات، والدقائق أرواح في الرقائق وهي مقدمة الحكمة الأزلية فتحيط الأغيار بالأغيار وتنكشف الأنوار للأنوار ولو رفع لك هذا الحجاب على بساط الروحانية لكلمك من ذاتك بعدد ولد آدم من الخلق، ولرايت رقائق ذاتك راكعة مع الراكعين، وساجدة مع الساجدين، وكان عليه السلام يقول: الحقائق ذوائب العلا، وروائح أرواح السنا وهي اللحم اللوامع، والفتح الطالع من وطئ بساطها استوى، ومن ركب براقها بلغ سدرة المنتهي وهي تنفق عليه المعاني العلوية من نور الحجب، ونعيم القرب فتجرد عليها البساط العلي والنور الكشفي والحضور الأدنى فيصعد عليها العرف على معارج أنوار من صور فرائد الوصل إلى بين يدي حضرة الجلال، ومشرق الإقبال بما يشيعها من نور، وسناء وروح طيب، وخياء فيقوم المقام الأحمد، ولا يزال الأمر كذا عوداً على بدء ورداً على رد ففروج وحضور ونور وإنفتاح، وتفرد ونشاط ونهوض إلى ما لا آخر له فكل باطن حقيقة لكل ظاهر، وكان عليه السلام كثير المشاهدة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت أغلب أفعاله بتوقيف منه (١) عليه السلام، وكان عليه السلام إذا مس الحديد بيده لان حتى يصير كاللبان (٢)، وكان عليه السلام يقول: للصبي الذي عمره أربعة أشهر فأقل اقرأ سورة كذا فيقرؤها الصبي بلسان فصيح، ولا يزال يتكلم من ذلك الوقت. استوطن عليه السلام ماردين وبها مات رحمه الله تعالى وقد كبر سنه وقبره بها ظاهر يزار، ولما وضعوه في لحدّه نهض قائماً يصلي واتسع له القبر، وأغمي على من كان نزل قبره عليه السلام.

(١) فهو على قدم بعض الأولياء الذين كان النبي صلى الله عليه وآله يعتمى بهم كسيدي أبي المواهب الشاذلي وسيدي أحمد التجاني، كانوا لا يفعلون جليلاً أو دقيقاً من الأمور إلا بإذن منه عليه السلام.

(٢) لكونه كان داودي المقام كداود عليه السلام فإن الحق عز وجل قال في حقه: «والنا له الحديد».

ومنهم الشيخ أبو النجيب

عبد القادر السهروردي رحمته الله

ويلقب بضياء الدين، وبنجيب^(١) الدين، ونسبه ينتهي إلى أبي بكر الصديق رحمته الله، وكان رحمته الله يتطيلس، ويلبس لباس العلماء، ويركب البغلة، وترفع الغاشية بين يديه، انعقد عليه إجماع المشايخ، والعلماء بالاحترام وأوقع الله عز وجل له القبول التام في الصدور، والمهابة الوافرة في القلوب، وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر مثل الشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ عبد الله بن مسعود الررسي وغيرهما، واشتهر ذكره في الآفاق، وقصد من كل قطر.

ومن كلامه رحمته الله: الأحوال معاملات القلوب، وهي ما يحل بها من صفاء الأكدار، وفوائد الحضور، ومعاني المشاهدة، وكان رحمته الله يقول: أول التصوف علم وأوسطه عمل، وآخره موهبة فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يعين على الطلب، والموهبة تبلغ غاية الأمل، وأهل التصوف على ثلاث طبقات مريد طالب، ومتوسط طائر، ومنته واصل فالمرید صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال والمنتهي صاحب يقين، وكان رحمته الله يقول: أفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس. فمقام المرید المجاهدات، والمكابدات وتجرع المرارات ومجانية الحظوظ، وكل ما للنفس فيه منفعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصديق في الأحوال، واستعمال الأدب في المقامات، وهو مطالب بأداب المنازل، وهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال، وهو في الزيادة. ومقام المنتهي الصحو، والثبات، وإجابة الحق من حيث دعاه قد جاوز المقامات، وهو في محل التمكين لا تغيره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال قد استوى في حالة الشدة، والرخاء، والمنع، والعطاء، والجفاء، والوفاء أكله كجوعه، ونومه كسهره، وقد فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه ظاهرة مع الخلق وباطنه مع الحق، وكل ذلك من أحوال النبي صلی الله علیه وسلم.

(١) والأشهر أنه نجيب الدين وهو عم السهروردي صاحب عوارف المعارف.

وكان إذا جلس فقير في خلوة يدخل عليه في كل يوم يتفقد أحواله، ويقول له يرد عليك الليلة كذا، ويكشف لك عن كذا، وتقال حال كذا، وسيأتيك شخص في صورة كذا، ويقول لك كذا فاحذره فإنه شيطان، فيقع للفقير جميع ما أخبره به الشيخ^(١). سكن بغداد إلى أن مات بها سنة ثلاث وستين وخمسمائة ودفن بمدرسته على شاطئ دجلة، وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله عنه

منسوب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب، وسكن أم عبيدة بأرض البطائح إلى أن مات بها رحمه الله تعالى وكانت انتهت إليه الرياسة في علوم الطريق، وشرح أحوال القوم، وكشف مشكلات منازلهم، وبه عرف الأمر بتربية المريدين بالبطائح، وتخرج بصحبته جماعة كثيرة، وتلمذ له خلائق لا يحصون ورثاه المشايخ والعلماء، وهو أحد من قهر أحواله، وملك أسرارها، وكان له كلام عال على لسان أهل الحقائق، وهو الذي سئل عن وصف الرجل المتمكن فقال: هو الذي لو نصب له سنان على أعلى شاهق جبل في الأرض، وهبت الرياح الثمان ما غيرته.

وكان رضي الله عنه يقول: الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنيع إلى فيضه، ثم يتقاذف نوره منعكساً بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعاً إلى عالم العقل فيتصل به اتصالاً معنوياً، له أثر في استفاضة نور العقل على ساحة القلب، فيشرق نور العقل على إنسان عين السر، فيرى ما خفي عن الأبصار موضعه، ودق عن الأفهام تصوره، واستتر عن الأغيار مرآه.

وكان رضي الله عنه يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله،

(١) انظر إلى مدى اعتناء المشايخ بمريديهم أثناء الخلوة وهو قلما تجده اليوم بين المشايخ، بل هو في حكم الشيء الذي انقرض.

والمتوكلين على الله، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الفقراء أشرف الناس لأن الفقر لباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وتاج المتقين، وغنيمة العارفين، ومنية المريدين، ورضا رب العالمين، وكرامة لأهل ولايته، وكان يقول: الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته، وصفا ذكره، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله تعالى به وأراد به بحق حقائق الأنس، فأخذه عن وجد طعم الخوف لما سواه، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين، وحقائق حق اليقين، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: التوحيد وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعطيل والتشبيه، وكان يقول: لسان الورع يدعو إلى ترك الآفات، ولسان التعبد يدعو إلى دوام الاجتهاد، ولسان المحبة يدعو إلى الذوبان والهيمنة، ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو، ولسان التوحيد يدعو إلى الإثبات والحضور، ومن أعرض عن الأعراض أدباً فهو الحكيم المتأدب.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لو تكلم الرجل في الذات والصفات كان سكوته أفضل، ومن خطا من قاف إلى قاف كان جلوسه أفضل، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لما مررت وأنا صغير على الشيخ العارف بالله تعالى عبد الملك الخرنوتي أوصاني وقال لي: يا أحمد احفظ ما أقول لك فقلت: نعم فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ملتفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان فخرجت من عنده، وجعلت أكررها سنة ثم رجعت إليه فقلت له أوصني فقال: ما أقبح الجهل بالألباء، والعلّة بالأطباء، والجفاء بالأحباء، ثم خرجت وجعلت أرددتها سنة فانتفعت بموعظته، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أكره للفقراء دخول الحمام وأحب لجميع أصحابي الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك، وكان يقول: الشفقة على الإخوان مما يقرب إلى الله تعالى، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إذا جئتم ولم تجدوا عندي ما يأكله ذو كبد فاسألوني الدعاء أدع لكم فإنني حينئذ لي أسوة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الشيخ يعقوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادمه: نظر سيدي أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النخلة فقال: يا يعقوب انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله

تعالى ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت وانظر إلى شجرة اليمطين لما وضعت نفسها ألقت خدها على الأرض جعل ثقل حملها على غيرها، ولو حملت مهما حملت لا تحس به.

وكان عليه السلام يقول: الصدقة أفضل من العبادات البدنية والنوافل^(١) وكان عليه السلام يقول: أخوك الذي يحل لك أكل ماله بغير إذنه هو الذي تسكن نفسك إليه ويستريح قلبك فيه، وكان إذا رأى على فقير جبة صوف يقول له: يا ولدي انظر بزي من تزييت، وإلى من قد انتسبت قد لبست لبسة الأنبياء، وتحليت بحلية الأتقياء هذا زي العارفين فاسلك فيه مسالك المقربين، وإلا فانزعه، وكان عليه السلام يقول: إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار، والأنوار، والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم، والشياطين، وإذا صلح القلب أخبرك بما وراءك، وأمامك، ونبهك على أمور لم تكن تعلمها بشيء دونه، وإذا فسد حدثك بباطلات يغيب معها الرشد، وينتفي معها السعد، وكان عليه السلام يقول: من شرط الفقير أن يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر فيودع كل نفس أعز ما يصلح له فلا يضيع له نفس وكان عليه السلام يقول: السفر للفقير يمزق دينه ويشتت شمله^(٢)، وكان يقول: لمن شاوره في التزويج قال رسول الله ﷺ: "من تزوج لله كفى ووقى" وكان عليه السلام يقول: من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي وكان يقول: الأمر أعظم مما تظنون وأصعب مما تتوهمون وكان يقول: كل أخ لا ينفع في الدنيا لا ينفع في الآخرة وكان عليه السلام يقول: إذا تعلم أحدكم شيئاً من الخير فليعلمه الناس يثمر له الخير، وكان يقول: طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء لا تسأل، ولا ترد ولا تدخر، وكان يقول: من علامة إقبال المرید أن لا يتعب شيخه في تربيته بل يكون سميعاً مطيعاً للإشارة، وأن يفتخر شيخه به بين الفقراء لا أنه يفتخر هو بشيخه، وكان

(١) هو رضى الله عنه يتحدث عن حاله، وقد كان هذا حال سيدى أحمد السبتي فإنه ما وصل وتقطب إلا بالصدقة والإنفاق، وهناك أحوال أخرى قد يصل فيها العارف بالأعمال البدنية الشاقة كصيام الدهر وصلاته في الليل والنهار بمئات الركعات، وكل له طريق يوصله إلى حضرة ربه.

(٢) ولذلك اشترطوا على المرید أن لا يسافر إلا بإذن من شيخه، فربما سافر المرید بغير إذن فعوقب على ذلك.

يقول: الفقير إن غضب لنفسه تعب وإن سلم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة، ولا أهل وكان يقول: ما من ليلة إلا وينزل فيها نثار من السماء إلى الأرض يفرق على المستيقظين وكان يقول: والله مالي خيرة إلا في الوحدة فإيا ليتي لم أعرف أحداً، ولم يعرفني أحد، وكان عليه السلام يقول: ما نظر أحد إلى الخلائق ووقف مع نظرهم في العبادات إلا سقط من عين الله عز وجل وكان عليه السلام يقول: من شرط الفقير أن لا يكون له نظر في عيوب الناس.

وكان يقول: كم طيرت طقطقة النعال حول الرحال من رأس وكم أذهبت من دين، وكان عليه السلام يقول: من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له فإن مد يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجله، ومن تقدم عليكم فقدموه، وكونوا آخر شعرة في الذنب فإن الضربة أول ما تقع في الرأس، وكان عليه السلام يقول: وعدني^(١) ربي أن لا أعبر عليه، وعلى شيء من لحم الدنيا قال يعقوب الخادم ففني لحمه بأجمعه قبل خروجه من الدنيا، وكان يقول: إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى وصارت همته خارقة للسبع السموات، وصارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا لا يعجزه شيء، وصار الحق تعالى يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه قال: ويدل لما قلناه ما ورد في بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل: يا بني آدم أطيعوني أطعكم، واختروني اختركم، وارضوا عني أرض عنكم وأحبوني أحبكم، وراقبوني أراقبكم، وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون يا بني آدم من حصلت له حصل له كل شيء ومن فته فاته كل شيء.

قلت: وقوله وصار صفة من صفات الحق تعالى لعله يريد التخلق والاتصاف بصفاته تعالى من الحلم، والصفح، والكرم لأنه لا يصلح لأحد أن يكون عين صفات الحق^(٢) فهو كقوله: "قبي يرى وبني يسمع وبني ينطق" وما

(١) يرد كثيراً في كلام الصوفية وعدني ربي أو قال لي ربي أو قلت لربي أو حدثني قلبي عن ربي، وهي ألفاظ تدور من حيث الإلقاء في نفس الولي في أثناء غيبته أو فتائه أو كلام رب العزة له في النوم، وقد يحدث له ذلك بين النوم واليقظة، وقد يحدث له ذلك عن طريق بشارة الملك له من حيث أن الأولياء لهم اجتماع بالملائكة، وأما يقظة فلم تقع جمعية بالحق عز وجل سوى لسيد الخلق عليه السلام وانظر في ذلك كتابنا «معجم من رأى الله في النوم».

(٢) قلت: مراده نفي الاتحاد فالحق حق والعبد عبد ومراده نفي الاتحاد الحقيقي في الصفة =

أشبه ذلك، وكان ﷺ إذا صعد الكرسي لا يقوم قائماً وإنما يتحدث قاعداً، وكان يسمع حديثه البعيد مثل القريب حتى إن أهل القرى التي حول أم عبيدة كانوا يجلسون على سطوحهم يسمعون صوته، ويعرفون جميع ما يتحدث به حتى كان الأطرش والأصم إذا حضروا يفتح الله أسماعهم لكلامه، وكانت أشياخ الطريق يحضرونه وسمعون كلامه، وكان أحدهم يبسط حجره فإذا فرغ سيدي أحمد ﷺ ضموا حجورهم إلى صدورهم وقصوا الحديث إذا رجعوا على أصحابهم على جليته قلت: وهذا يشبه ما وقع لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام من النداء لما بنى للبيت فإنه قال: يا رب كيف أسمع جميع الخلائق فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم عليك النداء، وعلينا البلاغ فنأدى إبراهيم بالحج فأجابوه في الأصلاب من سائر أقطار الأرض البعيدة مثل القريب فالإبلاغ من الله تعالى لا من إبراهيم فإن البشرية لا تقدر على ذلك، وكان ﷺ يقول: إذا أراد الله عز وجل أن يرقي العبد إلى مقامات الرجال يكلفه بأمر نفسه أولاً فإذا أدب نفسه، واستقامت معه كلفه بأهله فإن أحسن إليهم، وأحسن عشرتهم كلفه بجيرانه، وأهل محلته فإن هو أحسن إليهم وداراهم كلفه ببلده فإن هو أحسن إليهم، وداراهم كلفه جهة من البلاد فإن هو داراهم، وأحسن عشرتهم، وأصلح سريرته مع الله تعالى كلفه ما بين السماء، والأرض فإن بينهن خلقاً لا يعلمهم إلا الله تعالى ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث ثم ترتفع صفته إلى أن تصير صفة من صفات الحق تعالى، وأطلعه على غيبه حتى لا تثبت شجرة، ولا تخضر ورقة إلا بنظره، وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا يسعه عقول الخلائق لأنه بحر عميق غرق في ساحله خلق كثير، وذهب به إيمان جماعة من العلماء، والصلحاء فضلاً عن غيرهم.

وكان ﷺ يقول لولده صالح: إن لم تعمل بعلمي فلست لك أبا ولا أنت لي ولداً، وكان ﷺ يقول: اللهم اجعلنا ممن فرشوا على بابك لفرط ذلهم نواعم

= المشتركة بين الحق والعبد بل الاتحاد الصفاتي يكون في فناء العبد في ربه من باب المحبة والتعلق فافهم وقد قال شيخنا محمد الحافظ التجاني ﷺ في مقدمة الأوراد ما نصه: من زعم أن ذاته هي عين الذات الإلهية فقد كفر.

الخدود، ونكسوا رؤوسهم من الخجل، وجباههم للسجود ببركة صاحب اللواء المحمود أمين، وكان إذا جلس على جسمه بعوضة لا يطيرها، ولا يمكن أحداً يطيرها ويقول: دعوها تشرب من هذا الدم الذي قسمه الحق تعالى لها^(١)، وكان إذا جلس على ثوبه جراداة وهو مار في الشمس، وجلست على محل الظل يمكث لها حتى تطير، ويقول: إنها استظلت بنا^(٢).

وكان إذا نام على كفه هرة، وجاء وقت الصلاة يقطع كفه من تحتها ولا يوقظها فإذا جاء من الصلاة أخذ كفه، وخاطه ببعضه، ووجد ﷺ مرة كلباً أجرب أخرجه أهل أم عبيدة إلى محل بعيد فخرج معه إلى البرية وضرب عليه مظلة، وصار يطليه بالدهن، ويطعمه ويسقيه، ويحت الجرب منه بخرقاة فلما برئ حمل له ماء مسخناً، وغسله، وكان قد كلفه الله تعالى بالنظر في أمر الدواب والحيوانات، وكان ﷺ إذا رأى فقيراً يقتل قملة أو برغوثاً يقول له لا وأخذك الله شفيت غيظك بقتل قملة، وسمع مرة رجلاً يقول: إن الله تعالى له خمسة آلاف اسم فقال قل إن لله تعالى أسماء بعدد ما خلق من الرمال والأوراق وغيرها، وكان ﷺ يمشي إلى المجذومين والزمني يغسل ثيابهم، ويفلي رؤوسهم ولحاهم، ويحمل إليهم الطعام، ويأكل معهم، ويجالسهم ويسألهم الدعاء، وكان ﷺ يقول: الزيارة لمثل هؤلاء واجبة لا مستحبة، ومر يوماً على صبيان يلعبون فهربوا منه هيبة له فتابهم، وصار يقول: اجعلوني في حل فقد روعتكم ارجعوا إلى ما كنتم عليه. ومر يوماً على صبيان يتخاصمون فخلص بينهم، وقال لواحد منهم: ابن من أنت؟ فقال له: وأيش فضولك فصار يرددها، ويقول: أدبتي يا ولدي جزاك الله خيراً، وكان يبتدئ من لقيه بالسلام حتى الأنعام والكلاب، وكان إذا رأى خنزيراً يقول له: أنعم صباحاً فقليل له في ذلك؟ فقال: أعود نفسي الجميل^(٣) وكان إذا سمع بمريض في قرية ولو على بعد يمضي إليه يعوده، ويرجع بعد يوم أو يومين، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان حتى إذا جاءوا

(١) وهو نهاية التفويض.

(٢) وهو نوع من أنواع الفتوة الصوفية.

(٣) قلت: وهي الرؤية الجمالية المطلقة في الأكوان، كخوفهم من لعن الكافر كي لا يعود اللسان على ذلك.

يأخذ بأيديهم، ويقودهم، وكان إذا رأى شيخاً كبيراً يذهب إلى أهل حارته ويوصيهم عليه ويقول: قال النبي ﷺ: "من أكرم ذا شيبة يعني مسلماً سخر الله له من يكرمه عند شيبته"، وكان إذا قدم من السفر، وقرب من أم عبيدة يشد وسطه، ويخرج حبلًا مدخراً معه ويجمع حطباً ثم يحملة على رأسه فإذا فعل ذلك فعل الفقراء كلهم فإذا دخل البلد فرق الحطب على الأرامل، والمساكين، والزمنى، والمرضى، والعميان، والمشايخ، وكان ﷺ لا يجازي قط بالسيئة السيئة، وكان إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد شيئاً فشيئاً حتى يرد إلى جسمه المعتاد، ويقول: لولا لطف الله تعالى بي ما رجعت إليكم⁽¹⁾، ولقيه مرة جماعة من الفقراء فسبوه، وقالوا له يا أعور يا دجال يا من يستحل المحرمات يا من يبذل القرآن يا ملحد يا كلب فكشف سيدي أحمد ﷺ رأسه، وقبل الأرض وقال: يا أسيادي اجعلوا عبيدكم في حل، وصار يقبل أيديهم وأرجلهم، ويقول: ارضوا علي وحلمكم يسعني فلما أعجزهم قالوا ما رأينا قط فقيراً مثلك تحمل منا هذا كله ولا تتغير فقال هذا ببركتكم ونفحاتكم ثم التفت إلى أصحابه وقال: ما كان إلا خيراً أرحناهم من كلام كان مكتوماً عندهم، وكنا نحن أحق بهم من غيرنا فريما لو وقع منهم ذلك لغيرنا ما كان يحميهم، وأرسل إليه الشيخ إبراهيم البستي كتاباً يحط عليه فيه فقال سيدي أحمد ﷺ للرسول اقراه لي فقراه فإذا فيه أي أعور أي دجال أي مبتدع يا من جمع بين الرجال والنساء حتى ذكر الكلب بن الكلب، وذكر أشياء تغيظ فلما فرغ الرسول من قراءة الكتاب أخذه سيدي أحمد ﷺ وقراه وقال: صدق فيما قال جزاه الله عني خيراً ثم أنشد:

فلست أبالي من رمانى بريبة إذا كنت عند الله غير مربوب

ثم قال للرسول: اكتب إليه الجواب من هذا اللاش حميد إلى سيدي الشيخ إبراهيم البستي ﷺ أما قولك الذي ذكرته فإن الله تعالى خلقني كما يشاء، وأسكن في ما يشاء، وإني أريد من صدقاتك أن تدعو لي ولا تخليني من حلك

(1) قلت: انقضت مثل هذه الأحوال الآن بين الصوفية لقلّة درجة الرجال عن سبقتهم.

وحلمك فلما وصل الكتاب إلى البستي هام على وجهه، فما عرفوا إلى أين ذهب، وكان عليه السلام إذا علم أن الفقراء يريدون أن يضرّبوا أحداً من إخوانهم لزلّة وقعت منه يستعير منه ثيابه، ويلبسها، وينام في موضعه فيضربونه فإذا فرغوا من ضربه، واشتفوا منه يكشف لهم عن وجهه فيغشى عليهم فيقول لهم: ما كان إلا الخير كسبتمونا الأجر والثواب فيقول بعض الفقراء لبعضهم تعلموا هذه الأخلاق^(١)، وقال عليه السلام لأصحابه يوماً من رأى في حميد منكم عيباً فليعلمه به فقام شخص فقال: يا سيدي فيك عيب عظيم فقال: وما هو يا أخي؟ فقال: كون مثلنا من أصحابك فبكى الفقراء وعلا نحيبهم وبكى سيدي أحمد معهم، وقال: أنا خادمكم أنا دونكم، وكان لسيدي أحمد شخص ينكر عليه وينقصه في نواحي أم عبيدة فكان كلما لقي فقيراً من جماعة سيدي أحمد عليه السلام يقول: خذ هذا الكتاب إلى شيخك فيفتحه سيدي أحمد فيجد فيه أي ملحد أي باطلاي أي زنديق، وأمثال ذلك من الكلام القبيح ثم يقول سيدي أحمد عليه السلام: صدق من أعطاك هذا الكتاب ثم يعطي الرسول دريهمات، ويقول: جزاك الله عني خيراً كنت سبباً لحصول الثواب فلما طال الأمر على ذلك الرجل وعجز عن سيدي أحمد مضى إليه فلما قرب من أم عبيدة كشف رأسه، وأخذ مئزره، وجعله في وسطه، وأمسكه إنسان، وصار يقوده حتى دخل على سيدي أحمد فقال: ما أحوجك يا أخي إلى هنا فقال: فعلي فقال له سيدي أحمد عليه السلام: ما كان إلا الخير يا أخي، ثم طلب منه أخذ العهد عليه فأخذه عليه، وصار من جملة أصحابه إلى أن مات، وكان عليه السلام يقول: إذا قمت إلى الصلاة كأن سيف القهر يجذب في وجهي، وكان عليه السلام يقول: لا يحصل للعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شيء من الخبث لا لعدو ولا لصديق ولا لأحد من خلق الله عز وجل، وهناك تستأنس الوحوش بك في غياضها، والطير في أوكارها، ولا تنفر منك، ويتضح لك سر الحاء والميم وقال له شخص من تلامذته: يا سيدي أنت القطب فقال: نزه شيخك عن القطبية فقال له: أنت الغوث فقال: نزه شيخك عن الغوثية

(١) قلت: قد انقضت تماماً مثل هذه الأخلاق اليوم بين الصوفية .

عن الغوثية (١).

قلت: وفي هذا دليل على أنه تعدي المقامات، والأطوار لأن القطبية والغوثية مقام معلوم، ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام، وإن كان له في كل مقام مقام والله أعلم.

قال يعقوب الخادم رحمته الله: ولما مرض سيدي أحمد رحمته الله مرض الموت قلت له تجلى العروس في هذه المرة قال: نعم فقلت له: لماذا؟ فقال: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشريته بما بقي من عمري فباعني وكان يمرغ وجهه وشيبتته على التراب ويبكي ويقول: العفو العفو، ويقول: اللهم اجعلني سقف البلاء على هؤلاء الخلق وكان مرض الشيخ رحمته الله بالبطن فكان يخرج منه في كل يوم ما شاء الله فبقي المرض بالشيخ شهراً فقليل له من أين لك هذا كله، ولك عشرون يوماً لا تأكل، ولا تشرب؟ فقال: يا أخي هذا اللحم يندفع ويخرج. ولكن قد ذهب اللحم، وما بقي إلا المخ اليوم يخرج، وغداً نعبّر على الله تعالى فخرج منه شيء أبيض مرتين أو ثلاثاً، وانقطع ثم توفي يوم الخميس وقت الظهر ثاني عشر جمادى الأولى سنة سبعين وخمسائة، وكان يوماً مشهوداً، وكان آخر كلمة قالها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ودفن في قبر الشيخ يحيى البخاري، وكان الشافعي المذهب قرأ كتاب التتبيه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي وما تصدر قط في مجلس، ولا جلس على سجادة تواضعاً، وكان لا يتكلم إلا يسيراً، ويقول: أمرت بالسكوت رحمته الله.

(١) قلت: وذلك لأن العارف لا يزال يترقى حتى بعد موته فلا يمرف له مقام، ولو توقف ترقيه لدل ذلك على عجز الحق سبحانه، ولا يزال العارف يزداد علماً بربه فينكر ما كان فيه من قبل، ولو توقف ترقيه لدل ذلك على توقف الربوبية وعجزها عن نقله من مقام إلى مقام وحاشاها من ذلك، والعارف يكون كما وصفه النبي ﷺ في الحديث أنه هو الحال المرتحل يقال له: اقرأ وارتنق.

ومنهم الشيخ علي بن الهيتي رحمته الله

هو من أكابر مشايخ العراق وأعيان العارفين وهو أحد من ينسب إلى القطبية العظمى، وكانت عنده الخرقتان اللتان ألبسهما أبو بكر الصديق رحمته الله لأبي بكر بن هوار في النوم واستيقظ فوجدهما عليه، وهما ثوب وطاقية وكان أعطاهما ابن هوار للشنبيكي وأعطاهما الشنبيكي لتاج العارفين أبي الوفاء وأعطاهما تاج العارفين للشيخ علي ابن الهيتي وأعطاهما ابن الهيتي للشيخ علي بن إدريس ثم فقدتا، ومكث رحمته الله ثمانين سنة ليس له خلوة ولا معزل بل ينام بين الفقراء، وذلك لأن فتحه أتاه من طريق الوهب، وكان الشيخ عبد القادر رحمته الله يقول لما دخل بغداد كل من دخل بغداد من الأولياء في عالم الغيب والشهادة فهو في ضيافتنا، ونحن في ضيافة الشيخ علي بن الهيتي^(١)، وكان الشيخ عبد القادر يقول: انفتق رتق قلب علي بن الهيتي، وهو ابن سبع سنين فكان يخبر عن المغيبات، وتظهر على يديه الكرامات، وأجمعت العلماء على جلالة وعلو منصبه رحمته الله.

ومن كلامه رحمته الله: الشريعة ما ورد به التكليف، والحقيقة ما حصل به التعريف، فالشريعة مؤيدة بالحقيقة، والحقيقة مقيدة بالشريعة، والشريعة وجود الأفعال لله، والقيام بشروط العلم بواسطة الرسل، والحقيقة شهود الأحوال بالله تعالى، والاستسلام لغلبات الحكم بتقدير لا بواسطة.

وكان رحمته الله يقول: ما دام التمييز باقياً كان التكليف متوجهاً، وكان يقول: علامة صحة الحال أن يكون صاحبه محفوظاً في أحوال غلبته كما كان مغلوباً في أوقات صحوه، وكان يقول: الأحوال كالبروق لا يمكن استجلابها إذا لم تكن، ولا استبقاؤها إذا حصلت إلا أن يجعل بعض الأحوال غذاء لأحد فيريه الحق فيه فيصير وطاء له ومثوى، وكان رحمته الله يقول: الحق تعالى وراء كل ما أدركه الخلق بأفهامهم أو أحاطوا به بعلومهم، وأشرفوا عليه بمعارفهم، وكان رحمته الله يقول: كل من كوشف بشيء على قدر قوته وضعفه ربط به، وكان يقول: كل من

(١) قلت: وهذا كان في بداية دخوله لبغداد ولم يكن تقطب بعد، وكان القطب حينذاك هو الشيخ علي بن الهيتي رحمته الله كما يدل عليه الكلام.

كوشف بالحقيقة أو شاهد الحق أو اختطف عن مشاهدته بوجود الحق أو استهلك في عين الجمع، أو لم يشهد سوى الحق تعالى، أو لم يحس سوى الحق أو هو محو في حق الحق، أو مصطلم فيه بسلطان الحقيقة، أو متجل له الحق بجلال الحق إلى آخر ما يعبر عنه معبر، أو يشير إليه مشير، أو ينتهي إليه علم وإنما هي شواهد الحق، وحق من الحق له، وكل ما بدأ على الخلق فذاك مما يليق بالخلق، وهو من حيث الخلق، وجميع ما تحقق بوصفه خلق فهي أحوال، والأحوال من صفات أهل المعرفة، ولا سبيل لمخلوق إلا إلى الأحوال، والغيبة عن الأحوال والتفتي عن الأحوال حالة من جملة الأحوال، والتوحيد فوق المعارف، وكان عليه السلام يتمثل كثيراً بهذه الآيات:

إن رحمت أطلبه لا ينقضني سفري أو جئت أحضره أوحشت في الحضر
فلا أراه ولا ينفك عن نظري وفي ضميري ولا ألقاه في عمري
فليتني غبت عن جسمي برؤيته وعن فؤادي وعن سمعي، وعن بصري

سكن عليه السلام رزيران بلدة من أعمال نهر الملك إلى أن مات بها سنة أربع وستين وخمسمائة، وقد علت سنه على مائة وعشرين سنة، وبها دفن وقبره بها ظاهر يزار ورزيران على وزن قفيزان.

ومنهم الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي (عليه السلام) (١)

هو من أكابر مشايخ العراق، وأعيان العارفين، وصدور المقربين، صاحب الأحوال الفاخرة، والكرامات الظاهرة، والتصريف النافذ.

وكان عليه السلام يقول: أنا بين الأولياء كالكركي بين الطيور أطولهم عنقاً، وكان عليه السلام يتكلم في الشريعة والحقيقة بطفسونج على كرسي عال، ويحضره المشايخ والعلماء، ويلبس لباس العلماء، ويركب البغلة، ومن كلامه عليه السلام: المراقبة لعبد راقب الحق بالحق، وتابع المصطفى صلى الله عليه وآله في أفعاله وأخلاقه وآدابه، والله عز

(١) في فلائد الجواهر للتادفي وفي جامع كرامات الأولياء بالفاء وليس بالفين وهو الصواب.

وجل قد خص أحبابه وخاصته بأن لا يكلمهم في شيء من أحوالهم إلى نفوسهم، ولا إلى غيره فهم يراقبون الله تعالى، ويسألونه أن يرعاهم فيها، والمراقبة تقتضي حال القرب، والله عز وجل قرب القلوب إليه بما هو قريب منها فهو يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر بماذا يقرب من قلبك، وحال القرب يقتضي حال المحبة وهي تتولد من نظر القلب إلى الله عز وجل، وجلاله، وعظمته، وعلمه، وقدرته، فطويى لمن شرب كأساً من محبته وذاق نعيماً من مناجاته فامتلاً قلبه حباً فطار بالله طرباً، وهام به اشتياقاً ليس له سكنى ولا مألوف سواه فهو محب خرج من رؤية المحبة إلى المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هو بالمحبة فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً بلا علة، والمحبة تقتضي الذكر فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل في ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه وصار كالفافل عن نفسه ثم يغفل عن ذهوله عن نفسه وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الإحساس فيقال اندرج في رؤية المذكوره، ويقال فني عن نفسه ويقال فني بربه، ويقال فني عن فئاته أي غفل عن ذكر غفلته عن نفسه باستيلاء ذكر ربه عليه، وصار ليس يشهد غيره.

وهاهنا يكون مصطلماً عن مشاهده مختطفاً عن نفسه ممحوماً عن جملته فانياً عن كله، وما دام هذا الوصف باقياً فلا تمييز، ولا إخلاص، ولا صدق، وهذا جمع الجمع وعين الوجود، وهذا هو الوصول الذي يرد على أحوال التمييز والتكليف فيحجب عن هذا الوصف بنوع ستر ليفوز بحق الشرع، والمغاليط هاهنا كثيرة، والمحفوظ من رجوع إلى أداء أحكام الشريعة، وكان ﷺ يقول: من اشتغل بطلب الدنيا ابتلى بالذل فيها، ومن تعامى عن نقائص نفسه طغى وبغى، ومن تزين بباطل فهو مفرور، وكان يقول: أنفع العلوم العلم بأحكام العبودية، وأرفع العلوم علم التوحيد، وكان يقول: لا يضر مع التواضع بطالة إذا قام بالواجبات والسنن، ولا ينتج مع الكبر عمل مندوب، ولا علم مطلوب، وكان يقول: إذا أقامك ثبت، وإذا قمت بنفسك سقطت.

سكن عليه السلام طفسونج بلدة بأرض العراق، وبها مات مسناً وقبره بها ظاهر يزار. عليه السلام.

ومنهم الشيخ بقاء^(١) بن بطو عليه السلام

هو من أعيان مشايخ العراق، وأكابر الصديقين صاحب الأحوال النفيسة، والمقامات الجليلة، والكرامات الباهرة. وكان الشيخ عبد القادر الجيلي عليه السلام يثني عليه كثيراً ويقول: كل المشايخ أعطوا بالكيل إلا الشيخ بقاء بن بطو فإنه أعطى جزافاً انتهى إليه علم الأحوال، وكشف موارد الصادقين بنهر الملك، وما يليه وتلمذ له خلائق من الصالحاء، والعلماء وقصد بالزيارات والندورات^(٢).

ومن كلامه عليه السلام: الفقر تجرد القلب عن العلائق، واستقلاله بالله سبحانه وتعالى وحده، والتخلي من الأملاك أحد أوصاف الفقر لأنها شواغل، وقواطع لكل عبد سكن بقلبه إليها وعلامة صحة التجرد عن الأملاك أن لا يتغير عليه الحال بوجود الأسباب، وعدمها لا في القوة، ولا في الضعف، ولا في السكون، ولا في الانزعاج، ولا تؤثر فيه المهالك فإذا كان كذلك فهو فقير لا يأسره رق الأسباب، ولا يهزه وجودها، ولا يستفزه عدمها فإن ملك فكأن لم يملك، وإن لم يملك فكأن ملك فلا يرى لنفسه في الدنيا، والآخرة مقاماً، ولا قدراً، وكما لا يرى لا يطلب وكما لا يطلب، ولا يتمنى فهو مشغول به واقف بلا طمع لا يسقط بالرد، ولا ينهض بالقبول، ولا يعتقد أن طريقته أفضل من غيرها، وهو موقف رفيع، والأمر فيه دقيق، وما لم يصل العبد إلى ربه عز وجل لا يصل إلى حقيقة هذا الوصف، وكان عليه السلام يقول: الفقر وصف كل مستغن عن غيره، ولا يكون

(١) ورد في ترجمته في قلائد الجواهر للتادفي وفي جامع كرمات الأولياء بتخفيف الهمزة هكذا بقا بن بطو وهو المشهور.

(٢) إذن كانت مسألة الندوات مسألة قديمة عند الصوفية، وحقيقتها أن ينذر الناظر أن يمشى لزيارة ذلك الولي، للتبرك به وإعطاؤه بعض الهدايا برسم تقديمها للفقراء، لا أن ينذر لعين ذاته كما يدعى الوهابية.

قلت: ومن نذر لذات شخص لأجل أنه يضر وينفع فقد أشرك.

العبد صادقاً في فقره حتى يخرج عن فقره بانتفاء شهود الفقر، وكان رحمته يقول: أنصف الناس من نفسك واقبل النصيحة ممن دونك تدرك شرف المنازل.

وكان رحمته يقول: من لم يجد في نفسه زاجراً فقلبه خراب، وكان يقول: من لم يستغن بالله على نفسه صرعته، وكان يقول: من لم يقيم بأداب أهل البداية كيف يستقيم له مقام أهل النهاية وزاره ثلاثة من الفقهاء فصلوا خلفه العشاء فلم يقوم القراءة كما يريد الفقهاء فساء ظنهم به وباتوا في زاويته فأجنبوا ثلاثتهم، وخرجوا إلى نهر على باب الزاوية فنزلوا فيه يغتسلون فجاء أسد عظيم الخلق، وبرك على ثيابهم، وكانت ليلة شديدة البرد فأيقنوا بالهلاك فخرج الشيخ من الزاوية فجاء الأسد، وتمرغ على رجله فاستغفروا الله وتابوا.

سكن رحمته نانبوس قرية من قرى نهر الملك وبها توفي قريباً من سنة ثلاثة وخمسين وخمسائة، وقبره بها ظاهر يزار. رحمته.

ومنهم الشيخ أبو سعيد القلوري رحمته (١)

هو من أكابر العارفين، والأئمة المحققين صاحب الأنفاس الصادقة، والأفعال الخارقة، والكرامات، والمعارف، وكان يمضي ببلده، وما حولها، وكان يتكلم بقلورية (٢) على علوم الشرائع، والحقائق على كرسي عال، وقصد بالزيارات من سائر أقطار الأرض. ومن كلامه رحمته: من شرط الفقير أن لا يملك شيئاً، ولا يملكه شيء وأن يصفو قلبه من كل دنس، ويسلم صدره لكل أحد، وتسمح نفسه بالبذل والإيثار.

كان رحمته يقول: التصوف التبيري مما دون الحق كما قال إبراهيم عليه السلام: فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، وكان رحمته يقول: لا يكمل الصوفي حتى يستتر عن الخلق بلوائح الوجد، وكان يقول: التوحيد غض الطرف عن الأكوان بمشاهدة

(١) الصواب القيلوي نسبة إلى قيلوية قرية من قرى نهر الملك في بلاد العراق كما ورد في جامع كرمات الأولياء وكما ورد في قلائد الجواهر للتاذفي وهو المشهور.

(٢) الصواب قيلوية كما مر ذكره.

مكونها سبحانه وتعالى، وكان عليه السلام يقول: العارف، وحداني الذات لا يقبله أحد، ولا يقبل أحداً، وكان الخضر عليه السلام يأتيه كثيراً. سكن عليه السلام قلورية من قرى نهر الملك قريبة من بغداد وبها مات قريباً من سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وقبره بها ظاهر يزار، وكان يلبس لباس العلماء، ويتطيلس، ويركب البغلة ودعي مرة إلى طعام هو وأصحابه فمنعهم من أكل ذلك الطعام، وأكله وحده فلما خرجوا قال لهم: إنما منعتكم من أكله لأنه كان حراماً ثم تنفس فخرج من أنفه دخان أسود عظيم كالعمود، وتصاعد في الجو حتى غاب عن أبصار الناس ثم خرج من فمه عمود نار، وصعد إلى الجو حتى غاب عن النظر ثم قال هذا الذي رأيتموه هو الطعام الذي أكلته عنكم (١) عليه السلام.

ومنهم الشيخ مطر الباذراني عليه السلام

هو من أجل مشايخ العراق وسادات العارفين، أجمع العلماء عليهم السلام على جلالته وزهده ومهابته، وكان شيخه تاج العارفين أبو الوفا يقول: الشيخ مطر وارث حالي ومالي وكان من أخص خدامه، وكان الغالب عليه حالة السكر.

ومن كلامه عليه السلام لذة النفوس في مناجاة القديس، ولذة القلوب في مزامير أنس، تطرب في مقاصير قدس، بألحان توحيد، في رياض تمجيد، بمطريات المعاني من تلك المثاني، الرافعة لأربابها في مدارج الأمانى، إلى مقعد صدق عند ملك مقتدر، ولذة الأرواح الشرب بكأس المحبة، من أيدي عرائس الفتح اللدني في خلوة الوصل على بساط المشاهدة، والهيام بين عالم الكون في نور العزة، وقراءة ما كتب على صفحات ألواح نسيمات ذرات الوجود بقلم التوحيد: كلا بل هو الله العزيز الحكيم ولذة الأسرار مطالعة نسيم الحياة الدائمة، والوصول إلى حقائق الغيوب بضمائر القلوب، والمعاينة بالأفكار لسائر الأسرار، ولذة العقول ملاحظة أسرار الملكوت الخفية عن الأبصار. بالسرائر المحيطة بالأفكار، فتعاين القلوب حقائق الغيوب، وتصحبه قبول شواهد الأسرار، فتلج الضمائر بحار

(١) وذلك لأن الفقير يحمل عن مريديه وإخوانه ويدفع عنهم.

الأفكار، وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به من العالم المحجوب، فكلما كشفت عن الغيوب أذيال دلالتها على إتقان صنع وأبداع فطرة قابلتها من العقول هيبة وفكرة، ويخرج الاعتبار من القلب، فإذا كان القلب طاهراً بعد الاعتبار بالشواهد، وسمت به النعمة ورفي به الفكر، ولم يمنعه مانع فالفكر طريق إلى الحق ودليل على الصدق والفكر أصل ثمرته المعرفة، والمعرفة ثمرة طعمها العمل، ولذتها الإخلاص، والإخلاص لذة غايته النعيم، والنعيم غاية ليس لها انقضاء. وكان عليه السلام يقول: أيدي العقول تمسك أعنة النفوس، والنفوس مسخرة للعقل، والعقل يستمد من الأنوار الإلهية، وعنه تصدر الحكمة التي هي رأس العلوم، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة الأرواح، ونور الأشباح، وميزان الحقائق، وأنس المستوحشين، ومتجر الراغبين، ومنية المشتاقين، وكان عليه السلام يقول: الحكمة⁽¹⁾ إصابة الحق فإذا أوردت على القلب دلت على مكانم الهوى، وجلت أصداء القلوب، وأماتت عيوب البواطن، وكان عليه السلام من الأكراد، وسكن باذراء قرية من أعمال اللحف بأرض العراق، وقبره بها ظاهر يزار، وبها مات عليه السلام.

ومنهم الشيخ أبو محمد ماجد الكردي عليه السلام

هو من أعيان مشايخ العراقيين، وصدور المقربين، وأئمة المحققين، وانعقد عليه إجماع المشايخ بالاحترام والتعظيم. ومن كلامه عليه السلام: قلوب المشتاقين منورة بنور الله عز وجل، وإذا تحرك فيها الاشتياق أضاء نوره ما بين السماء والأرض، فيباهي الله عز وجل بهم الملائكة ويقول: أشهدكم أنني إليهم أشوق، وكان عليه السلام يقول: من اشتاق إلى ربه أنس، ومن أنس طرب، ومن طرب قرب، ومن قرب سار، ومن سار حار، ومن حار طار، ومن طار قرت عينه بالاقتراب، وكان عليه السلام يقول: الزاهد يعالج الصبر، والمشتاق يعالج الشكر، والواصل يعالج الولاية، وكان يقول: الشوق نار الله تضرم في قلوب الأحباب، ولا تهدأ إلا بلاقائه والنظر إليه،

(1) إلقاء إلهي لا يد فيه للعارف لكونه بغير تكلف أو اجتهاد منه يقول سبحانه: «وعلمناه من لدنا علماء».

وكان عليه السلام يقول: نار الهيبة تذيب القلوب، ونار المحبة تذيب الأرواح، ونار الشوق تذيب النفوس، وكان يقول: الصمت عبادة من غير عناء، وزينة من غير حلي، وهيبة من غير سلطان، وحصن من غير سور، وراحة للكاتبين، وغنية عن الاعتذار، وكان عليه السلام يقول: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله تعالى، وكفى به جهلاً أن يعجب بنفسه، والعجب فضله حمق يغطي به صاحبه عيوب نفسه فلا تتغطي، وكان يقول: ما خلق الله تعالى من عجيبة إلا ونقشها في صورة الأدمي ولا أوجد أمراً غريباً إلا وسلطه فيها، ولا أبرز سراً إلا وجعل فيها مفتاح علمه فهو نسخة مختصرة من العالم، وكان يقول: السكر من مقامات المحبين خاصة فإن عيون الفناء لا تقبله، ومنازل العلم لا تبلغه. وكان يقول: للسكر ثلاث علامات الضيق عن الاشتغال بالسوى، والتعظيم قائم، واقتحام لجة الشوق والتمكين دائم، ومن كانت سكرته بالهوى كان صحوه إلى ضلالة، وجاءه رجل يودعه، وهو يريد الحج على قدم التجريد والوحدة، ولا يستصحب زاداً، ولا أحداً فأخرج له الشيخ ماجد ركوته، وأعطاهما له، وقال إنك تجد فيها ماء إن أردت الوضوء، ولبناً إن عطشت، وسويقاً إن جعت، فكان الرجل من طول سفره من جبل حمرين بالعراق إلى مكة، وفي مدة إقامته في الحجاز، وفي رجوعه من الحجاز إلى العراق إذا أراد الوضوء توضع منها ماء مالحاً وإذا أراد الشرب شرب منها ماء حلوا وإذا أراد الغذاء شرب لبناً وعسلاً وسويقاً أحلى من السكر، سكن عليه السلام جبال حمرين من أرض العراق واستوطنه إلى أن مات سنة إحدى وستين وخمسائة، وقبره بها ظاهر يزار عليه السلام.

ومنهم الشيخ جاكير عليه السلام

هو من أكابر المشايخ، وأعيان العارفين المقربين، وأئمة المحققين، وهو أحد أركان هذه الطريقة، وكان تاج العارفين أبو الوفاء يثني عليه، وينوه بذكره، ويعث إليه طاقية مع الشيخ علي بن الهيتي وأمره أن يضعها على رأسه نيابة عنه، ولم يكلفه الحضور إليه وقال سألت الله تعالى أن يكون جاكير مريدي فوهبه لي، وكان

المشايخ بالعراق يقولون: انسلخ الشيخ جاكير من نفسه كما انسلخت الحية من جلدها، وكان يقول: ما أخذت العهد قط على مرید حتى رأيت اسمه مكتوباً في اللوح المحفوظ^(١) وأنه من أولادي^(٢) ومن كلامه ﷺ: المشاهدة هي ارتفاع الحجب بين العبد وبين الرب فيطلع بصفاء القلوب على ما أخبره به من الغيب فيشاهد الجلال والعظمة، وتختلف عليه الأحوال والمقامات فتداخله الحيرة والدهشة، ثم تخرجه الحيرة إلى البهتة فتراه شاخصاً بالحق إلى الحق، وتارة يشاهد الجلال، وتارة يطالع الجمال، وتارة يرى البهاء، وتارة ينظر إلى الكمال، وتارة يلوح له الكبرياء والعزة، وتارة يبدو له الجبروت والعظمة، وتارة يشهد اللطف والبهجة، فهذا يبسطه وهذا يقبضه، وهذا يطويه وهذا ينشره، وهذا يفقده وهذا يوجد، وهذا يبيده وهذا يعيده، وهذا يفنيه وهذا يبقيه، فهو زائل عن نعوت البشرية قائم بصفات العبودية لا يحس بالأغيار، ولا يشهد غير عظمة الجبار.

وكان ﷺ يقول: إذا قدحت نار التعظيم مع نور الهيبة في زناد السر تولد منها شعاع المشاهدة، فمن شاهد الحق عز وجل في سره سقط الكون من قلبه، وإذا توالى المشاهدة على القوم تولاهاهم الحق تعالى ثم حجبهم، فاجذبوا من الحيرة في نور المشاهدة إلى الحيرة في نور الأزل، ثم اختطفوا من الدهشة إلى الحيرة في نور الأزل، ثم اختطفوا من الدهشة في قدس الأنس إلى الدهشة في عين الجمع، فمن حائر بين الاستتار والتجلي، ومن هائم بين البعد والتداني، ومن هائم بين الوصل والتعالي، وهو محل الاستقامة والتمكين، وذلك صفة الحضرة ليس فيها سوى الذبول تحت موارد الهيبة قال الله عز وجل: فلما (١) وكان سيدي محمد أبو بطانية الخلوتي يقول: إن الشيخ الواصل هو الذي يرى اسم مریده مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل أن يأخذ العهد عليه، ورأى سيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ في اللوح المحفوظ أن أحد تلاميذه سيرزى ٧٠ مرة فسأل الله عز وجل أن يجعلها في النوم فكان ذلك، واعلم أن الشيخ الواصل هو الذي لا يعطى العهد لكل من جاءه - كما يفعل الكثير من المحجوبين - فيعطون الطريق لكل من هب ودب، ولو كان لهم اطلاع لوحى لرفضوا بعض من ليسوا من أولادهم ومریدهم.

(٢) قلت: وهذا هو شأن المشايخ المتمكنين لا مشايخ الجهل الذين يعطون الطريق لكل من هب ودب بدون أوامر صريحة من حضرة الله عز وجل.

حضره قالوا أنصتوا، وقال في قوله تعالى: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" معناه استقاموا على المشاهدة لأن من عرف الله تعالى لا يهاب غيره، ومن أحب شيئاً لا يطالع سواه، وكانت نفقته من الغيب، وكان عليه السلام من الأكراد، وسكن صحراء من صحاري العراق بالقرب من قنطرة الرصاص على يوم من سامرا، واستوطنها إلى أن مات عليه السلام بها ممناً، وبها دفن وقبره ظاهر يزار، وعمر الناس عنده قرية يطلبون البركة بذلك عليه السلام.

ومنهم الشيخ أبو محمد القاسم

بن عبد الله البصري عليه السلام

هو من أعيان مشايخ العراق، وعظماء العارفين، وأجلاء المقربين، وصاحب العجائب والغرائب، وكان يفتي على مذهب الإمام مالك عليه السلام، وكان يتكلم في علمي الشريعة والحقيقة على كرسي عال، وله كلام كثير متداول بين الناس مشهور، ومن كلامه عليه السلام: الوجد جحود ما لم يكن عن شهود، وكان عليه السلام يقول: شاهد الحق يبقى، وينفي شاهد الوجد وينفي عن العين الوسن، وسكره يزيد على سكر الشراب.

وكان عليه السلام يقول: أرواح الواجدين عطرة لطيفة، وكلامهم يحيي موات القلوب، ويزيد في العقول، وكان عليه السلام يقول: الوجد يسقط التمييز، ويجعل الأماكن مكاناً واحداً، والأعيان عيناً واحداً، وأوله رفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومجازبة السر، وإيناس البعيد، وكان عليه السلام يقول: شرط صحة الوجد انقطاع البشرية عن التعلق بمعنى الوجد⁽¹⁾ حال وجوده، ومن لا فقد له لا وجد، وأهله على مقامين ناظر ومنظور إليه، فالناظر مخاطب يشاهد الذي وجد، والمنظور إليه مغيب قد اختطفه الحق بأول وارد ورد عليه، وكان عليه السلام يقول: الوجود نهاية الوجد لأن التواجد يوجب استبعاد

(1) أي يجب على العارف حتى يصح وجوده أن يتعلق بالحق عز وجل أثناء وجوده لا أن يتعلق بحقيقة الوجد، وأما من تعلق بالوجد نفسه فقد بقيت بشرته.

العبد، والوجد يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، وترتيب هذا الأمر حضور ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمول فبمقدار الوجد يحصل الخمول، وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوه بقاؤه بالحق، وحال محوه فناؤه بالحق، وهاتان الحالتان متعاقبتان عليه أبداً، وكان رحمته يقول: الوجود اسم لثلاثة معان الأول وجود علم يقع به علم الشواهد في صحة مكاشفة الحق إياك، والثاني وجود الحق وجوداً غير منقطع عن مساغ الإشارة، والثالث وجود مقام اضمحلال رسم الوجود بالاستغراق في الأولية فإذا كوشف العبد بوصف الجمال سكر القلب فطرب الروح، وهام السر.

وكان رحمته يقول: الصحو إنما هو بالحق فإذا كان بغير الحق فلا يخلو من حيرة يعني حيرة في مشاهدة نور العزة لا حيرة شبهة، وكان يقول: المواجه ثمرات الأوراد، ونتائج المنازلات، وكان يقول: ترك الأحوال قبل وجود الله تعالى محال، وطلب الأحوال بعد وجود الله تعالى محال، وكان يقول: من تهاون بسر الله تعالى أنطق الله تعالى. لسانه بعيوب نفسه، وكان رحمته إذا خرج من خلوته لا يمر على شجرة يابسة إلا أورقت، ولا بذى عاهة إلا عوفي، سكن رحمته بالبصرة، وبها مات قبل سنة ثمانين، وخمسائة، ودفن بظاهرها، وقبره هناك ظاهر يزار. ولما صلى عليه سمع في الجو أصوات طبول تضرب، وكانوا كلما رفعوا أيديهم في التكبير للصلاة عليه سمعوها رحمته.

ومنهم الشيخ أبو عمرو عثمان بن مرزوق القرشي رحمته

وهو من أكابر مشايخ مصر المشهورين، وصدور العارفين، وأعيان العلماء المحققين صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والأفعال الخارقة، والأنفاس الصادقة، وهو أحد العلماء المصنفين، والفضلاء المفتين أفتى بمصر على مذهب الإمام أحمد رحمته، ودرس، وناظر، وأملى، وخرق الله تعالى له العوائد وقلب له الأعيان، وانتهت إليه تربية المريدين الصادقين بمصر، وأعمالها، وانعقد إجماع المشايخ عليه بالتعظيم، والتبجيل، والاحترام، وحكموه فيما اختلفوا

فيه، ورجعوا إلى قوله. ومن كلامه ﷺ: الطريق إلى معرفة الله تعالى وصفاته الفكر، والاعتبار بحكمه وآياته، ولا سبيل للأسباب إلى معرفة كنه ذاته، وكان يقول: لو تناهت الحكم الإلهية في حد العقول، وانحصرت القدرة الربانية في درك العلوم لكان ذلك تقصيراً في الحكمة، ونقصاً في القدرة، ولكن احتجبت أسرار الأزل عن العقول كما استترت سبحات الجلال عن الأبصار فقد رجع معنى الوصف في الوصف، وعمي الفهم عن الدرك، ودار الملك في الملك، وانتهى المخلوق إلى مثله، واشتد الطلب إلى شكله، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً، وكان ﷺ يقول: جميع المخلوقات من الذرة^(١) إلى العرش طرق متصلة إلى معرفته، وحجج بالغة على أزيلته، والكون جميعه ألسن ناطقة بوحدانيته، والعالم كله كتاب يقرأ حروفه المبصرون على قدر بصائرهم. وكان ﷺ يقول: إذا هبت ريح السعادة، وتألق برق العناية على رياض القلوب، وأمطرت، ودق الحقائق من جلال سحائب الغيوب ظهرت فيها أزهار قرب المحبوب، وأينعت ببهجة أنوار نيل المطلوب فوجدت ريح القرب في لذة المشاهدة، واستجلاء الحضور بالسمع، وآنست نار الهيبة حين أضرمتها ضوء المحبة مع الشخوص عن الأنس إلى المقام إلى نور الأزل بصولة الهميمان، وقامت بأقدام الفناء في خلوة الوصل على بساط المسامرة بمناجاة تشبث الكون بصفاء اتصال تعرف نهايات الخير في بدايات العيان، وتطوي حواشي الحدث في بقاء عز الأزل فهناك رسخت أرواحهم في غيب الغيب، وغاصت أسرارهم في سر السر فعرفهم مولاهم ما عرفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا بحار العلم اللدني بالفهم العيني لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن تحت كل ذرة من ذرات الوجود علم مكنون، وسر مخزون، وسبب يتصل بحضرة القدس يدخلون منه على سيدهم عز وجل فأراهم من عجائب ما عنده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١) أعلم أن المعارف تكشف له مواد الوجود من الذرة إلى العرش كشف عرفانياً ذوقياً ويرى خضوعها لباريها وتسبيحها له عز وجل ويقول سبحانه: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض).

وكان عليه السلام يقول: من عرف نفسه لم يغير عليه ثناء الناس عليه، وكان يقول: من لم يصبر على صحبة موله ابتلاه الله بصحبة العبيد، ومن انقطعت آماله إلا من موله فهو العبد حقيقة، وكان يقول: من تحقق بالرضا استلذ بالبلاء، وكان يقول: حلية العارف الخشية، والهيبة، وكان يقول: إياكم ومحاكاة أصحاب الأحوال قبل إحكام الطريق، وتمكن الأقدام فإنها تقطع بكم عن السير، وكان يقول: دليل تخليطك صحبتك للمخلطين، ودليل بطالتك ركونك للبطالين، ودليل وحشتك أنسك بالمستوحشين، وكان يقول: من غلب حاله عليه لا يحضر مجلسنا في السماع. حكى أن أصحابه قالوا له يوماً: لم لا تحدثنا بشيء من الحقائق؟ فقال لهم: كم أصحابي اليوم؟ قالوا ستمائة رجل فقال: استخلصوا منهم مائة ثم استخلصوا من المائة عشرين ثم استخلصوا من العشرين أربعة فكان الأربعة ابن القسطلاني، وأبا الطاهر، وابن الصابوني، وأبا عبد الله القرطبي. فقال الشيخ عليه السلام: لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رؤوس الأشهاد لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة^(١)، وكان عليه السلام متتابع الكشف، وزاد النيل سنة زيادة عظيمة كادت مصر تفرق وأقام على الأرض حتى كاد وقت الزرع يفوت فضج الناس بالشيخ أبي عمرو بسبب ذلك فأتى الشيخ إلى شاطئ النيل، وتوضأ منه فنقص في الحال نحو الذراعين، ونزل عن الأرض حتى انكشف، وزرع الناس في اليوم الثاني، ووقع في بعض السنين أن النيل لم يطلع البتة، وفات أكثر وقت زراعته، وغلت الأسعار، وخيف الهلاك، وضج الناس بالشيخ أبي عمرو فجاء إلى شاطئ النيل، وتوضأ فيه بإبريق كان مع خادمه فزاد النيل في ذلك اليوم، وتتابعت

(١) قلت: وفي ذلك أنشدوا:

الشرع مسور قد أحاط بظاهري

وحقيقتي تغنى عن الجهال

تسمون بعبراً قد جرت في باطني

ما غيبته عن حقيقة حالي

موسى كلّم الله يحكم ظاهراً

والخضر يحكم بالقضاء في الحال

زيادته إلى أن انتهى إلى حده^(١)، وبلغ الله به المنافع، وزرع الناس تلك السنة الزرع الكثير، وصلى العشاء مرة بمنزله بمصر ثم خرج هو وخادمه أبو العباس المقرئ يتماشيان فدخلوا مكة فصلياً في الحجر ساعة طويلة ثم خرجا إلى المدينة فدخلوها فزارا رسول الله ﷺ ثم خرجا إلى بيت المقدس فصلياً فيه ساعة ثم رجعا إلى مصر قبل الفجر قال أبو العباس، ولم أحس تلك الليلة بتعب، وكان الرجل العربي إذا اشتهى أن يتكلم بالعجمية أو العجمي يريد أن يتكلم بالعربية يتفل في فمه فيصير يعرف تلك اللغة كأنها لفته الأصلية، مات ﷺ بمصر سنة أربع وستين، وخمسائة، وقد جاوز السبعين، ودفن بقرافتها شرقي الإمام الشافعي ﷺ مما يلي سارية، وقبره ثم ظاهر يزار ﷺ.

ومنهم الشيخ سويد السنجاري ﷺ

هو من أعيان مشايخ المشرق وصدور العارفين، وأكابر المحققين صاحب الكرامات، والمقامات السنية، والإشارات العلية، وهو أحد من ملكه الله تعالى التصرف في العالم، وجمع له بين علمي الشريعة، والحقيقة وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين الصادقين بسنجان، وما يليها، وأجمع المشايخ على تبجيله، واحترامه، وقصد بالزيارات من سائر الأقطار، ومن كلامه ﷺ مقام العارفين على سبعة أصول القصد إلى الله تعالى بالسير، والاعتصام بالله في الأمور، والجلوس مع الله تعالى بالأمر، والنصيحة لعباد الله في السر، والجهر، وكنتم أسرار الله تعالى في الطي، والنشر، وثبوت الحال مع العلم بالصبر، وذكر لا إله إلا الله الملك الحق المبين فإذا قطع العارف هذه الأحوال، ورقى عن رؤية الأفعال فتح الله تعالى عليه في القصد إلى الله بالسرياب النفس، وعلامته أن يستروح القلب إلى أنوار التجلي بنفس السرور، وسراج الأنس في مشكاة الكشف وهذا

(١) وذلك لأنه كان قطب عصره، فالقطب تكون بيده زيادة النيل، وتخضير الزرع والإشراف عليه، ورفع الفلاء عن الناس، قلت: وله سند في السنة وذلك أنه لما امتنع النيل عن الزيادة في عهد عمر، لم يرفع زيادته سواء كما هو مشهور عنه.

النفس لا يكون إلا في حضرة الشهود بعد غيبة الأرواح، في معارج الأحوال، واستفراق الأسرار في مدارج روح القدس بحسم مادة الجهات، واتحاد العلم، وذهاب الرسم، وهذا أول ملابس العارفين وأول استرواح أرواح العارفين هذا الذي لا يطفى نور شهوده نور وجوده، ولا يحجب نور وجوده حقيقة شهوده، وحقيقة القصد إلى الله تعالى بالسر ظهور الحقيقة بادية في حجاب العلم ثم يفتح الله تعالى له في الاعتصام بالله باب العناية، وعلامته أن يفتح الله تعالى له من بصيرته عيوناً ثلاثة عين يدرك بها المعرفة، وعين يدرك بها أنوار الحقائق، وعين يدرك بها أنوار المعرفة كما أن العيون ثلاثة عين البصر، وعين البصيرة، وعين الروح، فعين البصر تدرك المحسوسات، وعين البصيرة تدرك المعنويات، وعين الروح تدرك الملكوتيات ثم يفتح الله تعالى له في الجلوس مع الله باب الاستفراق في عين التفريد، وله خمسة أركان فناء القرب في عين المشاهدة، واضمحلال العلم في بحر الجمع، واستهلاك الفناء في بحر الأزل، واستفراق الوجود في طي العدم، واستعداد البقاء في برق الأبد، ففناء القرب في عين المشاهدة للمرسلين مصافاة الأسرار، وللمقربين عنايات الأبرار، واضمحلال العلم في بحر الجمع للصديقين رؤية، وللأبرار مشاهدة، لأن الرؤية للذات، والمشاهدة لأنوار الصفات، وكان ﷺ يقول: استهلاك الفناء في بحر الأزل للمرسلين حقيقة، وللمقربين حق وطريقة، واستفراق الوجود في طي العدم للصديقين تفريد التوحيد، وللأبرار تحقيق التجريد، واستعداد البقاء في برق⁽¹⁾ الأزل للشهداء حياة قرب، واستدامة رزق، وللصالحين نسيم روح، واسترواح ریحان، ومعارف جنة نعيم، فبفناء القرب في عين المشاهدة كان عقلاً، وباضمحلال العلم في بحر الجمع كان روحاً، وباستهلاك الفناء في بحر الأزل كان سراً، وباستفراق الوجود في طي العدم كان ذراً، وباستعداد البقاء في برق

(1) ويقصد بها اللوائح والبوارق وهي الأنوار التي تلوح لأهل البدايات وقد تكلم عنها القشيري في الرسالة والشيخ الأكبر في الفتوحات.

الأبد كان ذاتاً كاملة الوجود، وتامة التقويم، فبالعقل بين الإيمان، والروح يثبت الخطاب، وبالسري يفهم الأمر، وبالذير ظهر الحكم، وبالذات، وقعت الحركة، فالحركة ظاهر الحكم، والحكم ظاهر الأمر، والأمر ظاهر الخطاب، والخطاب ظاهر الإيمان، والإيمان ظاهر الصفات، والصفات ظاهر الذات، فالإيمان بصيرة العقل، والسري بصيرة الروح، والأمر بصيرة الحكم، والحكم بصيرة الحركة.

وذلك حقيقة ما يكشف للعارف المنتهى في درجة المعرفة، وكان ﷺ يقول: العلوم ثلاثة علم من الله تعالى وهو العلم بالأمر، والنهي، والأحكام والحدود، وعلم مع الله تعالى وهو علم الخوف، والرجاء، والمحبة، والشوق، وعلم بالله تعالى، وهو علم بنعوته وصفاته، وعلم الظاهر علم الطريق، وعلم الباطن علم المنزل، وعلم الحكم علم الشرع، وكل باطن لا يقيمه ظاهر فهو باطل، وكان ﷺ يقول: أصل العقل الصمت، وباطنه كتمان الأسرار، وظاهره الاقتداء بالسنة، وكان يقول: من وقع في أولياء الله تعالى ابتلاه الله تعالى بانعقاد لسانه عن النطق بالشهادتين عند الموت، ولقد كان شخص من أكابر بلدنا يقع في الفقراء فحضرته الوفاة فقالوا له، قل لا إله إلا الله فقال: لا أستطيع ذلك فعلت من أين أتى فدخلت الحضرة، وجعلت أترضى خاطرهم حتى رضوا عنه فأطلق لسانه، وأسأل الله تعالى قبول توبته، ورأى ﷺ رجلاً يحدق إلى امرأة يبصره فنهاه فلم ينته فقال: اللهم أعم بصره فعمى في الحال فجاء بعد سبعة أيام وتاب واستغفر فقال الشيخ: اللهم رد عليه بصره إلا في معاصيك فرد الله عليه بصره في الحال وكان إذا أراد بعد ذلك أن ينظر إلى محرم حجب عنه بصره ثم يعود إليه، وجاءه رجل أعمى فقال: أنا ذو عيال، وقد عجزت عن الكسب فقال اللهم نور عليه بصره فخرج من المسجد بصيراً بعد عشرين سنة، ومات بصيراً. سكن ﷺ سنجان، واستوطنها إلى أن مات بها مسناً، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ.

ومنهم الشيخ حياة بن قيس الحراني رحمته الله

هو من أجلاء المشايخ، وعظماء العارفين، وأعيان المحققين، صاحب الكرامات، والمقامات، والهمم الفخيمة، والبدايات العظيمة صاحب الفتح السني، والكشف الجلي حتى حل به مشكلات أحوال القوم، وهو أحد الأربعة الذين يتصرفون في قبورهم^(١) بأرض العراق، وكان أهل حران يستسقون به فيسقون رحمته الله، ومن كلامه رحمته الله : لا يكون الرجل معدوداً من المتمكنين حتى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، وكان يقول: حقيقة الوفاء إقامة السر عن رقدة الغفلات، و فراغ الهمم عن جميع الكائنات، وكان رحمته الله يقول: من أحب أن يرى خوف الله تعالى في قلبه، ويكشف بأحوال الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سنة أو فريضة، وما حرم من حرم عن الوصول، ومشاهدة الملكوت إلا بشيئين سوء الطعمة، وأذى الخلق، وكان رحمته الله يقول: تعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الذكر، واستجلب نور القلب بدوام الجهد، وكان يقول: من علامات المرید الصادق أن لا يفتر عن ذكره، ولا يمل من حقه، ويلزم السنة، والفريضة فالسنة ترك الدنيا، والفريضة صحبة الحق جل وعلا، وكان رحمته الله يقول: اجعل الزهد عبادتك، واحذر أن تجعله حرفتك، وكان يقول: المحبة سمة المعرفة، وعنوان الطريقة يتوصلون بها إلى بقاء^(٢) المحبوب، سكن رحمته الله حران، واستوطنها إلى أن مات بها سنة إحدى وثمانين وخمسائة ودفن بظاهرها، وقبره ثم ظاهر يزار رحمته الله.

(١) اعلم أن حقيقة تصرف الأنبياء والأولياء في قبورهم بعد موتهم أقوى من تصرفهم حال الحياة، وذلك لكون الروح إذا تحركت كانت دائرة تصرفها أوسع، وقد ثبت هذا في السنة عنه عليه السلام حيث قال: «من صلى عليّ بعد موتي رد الله على روحي في قبري» وثبت إخراج اليد الشريفة من القبر الشريف لسيدى أحمد الرفاعي على مرأى من الحجيج، حتى قال ابن تيمية في أحد كتبه: إن كرامة إخراج اليد الشريفة هي أصح كرامة للسادة الصوفية نقلت إلينا بالتواتر وبالسند عن السادة العلماء.

(٢) أظنها لقاء بدلاً من بقاء وهي أصلح للمعنى والكلام.

ومنهم الشيخ رسلان الدمشقي رحمته الله

هو من أكابر مشايخ الشام وأعيان العارفين، وصدور البارعين، صاحب الإشارات العالية، والهمم السامية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والتصريف النافذ، وانتهت إليه تربية المريدين بالشام، واحترمه العلماء والمشايخ، ويجلوه، وقصده الزائرون من كل فج عميق، ومن كلامه رحمته الله: مشاهدة العارف تقيده تمكين التحكيم في الجمع، وبروز التفرقة في الاطلاع لأن العارف واصل إلا أنه ترد عليه أسرار الله تعالى جملة كلية فهو مصطلم بأنوارها مستغرق في بحارها مستهلك في تنزيلها، وكان رحمته الله يقول: العارف من جعل الله تعالى في قلبه لوحاً منقوشاً بأسرار الموجودات، وبإمداده بأنوار حق اليقين يدرك حقائق تلك السطور على اختلاف أطوارها، ويدرك أسرار الأفعال فلا تتحرك حركة ظاهرة أو باطنة في الملك والملكوت إلا ويكشف الله تعالى له عن بصيرة إيمانه، وعين عيانه، فيشدها علماً وكشفاً، وهذا هو الذي يصعد بسره في أكوان الملكوت كالشمس فلا يطلق النظر إليه، وصفته أن يكمل الأعمال بالعلم، والأحوال بالسر، وهو على ثلاثة أقسام: حاضر، وغائب، وغريب، فالحاضر بلطائف العلم، والغائب بشواهد الحقيقة، والغريب هو من انقطع السبب بينه وبين من سواه، فمن قابله بغير نفسه احترق وحقيقة الغيبة سقوط الأين، ومجو الرسم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (النساء: ١٠٠) وعلامته أن يكشف له تعالى الأسباب ويرتفع عنه الحجاب ويطلع الله تعالى على بواطن الأمور كشفاً وفراسة فبالكشف يدركها جملة، وبالفراسة يدركها تفصيلاً على أصل الوضع، وحقيقة الرسم، فيخاطب الأرواح من حيث وضعها، ويخاطب الأجسام من حيث تركيبها، ويشير إلى العلم برموز الإشارة، ويفهم كشف العبارة، وكان يقول: الحدة مفتاح كل سر، والغضب يقيمك في مقام ذل الاعتذار، وكان رحمته الله يقول: مكارم الأخلاق العفو عند القدرة، والتواضع في الذلة، والعطاء بغير منة، وكان رحمته الله يقول: إذا قدرت

على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً لقدرتك عليه، وكان رضي الله عنه يقول: الكريم من احتمل الأذى، ولم يشك عند البلوى، وكان رضي الله عنه يقول: أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر، وكان يقول: سبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس عليها ممن هو فوقها فإن الغضب يتحرك من باطن الإنسان إلى ظاهره، والحنن يتحرك من ظاهر الإنسان إلى باطنه فيحدث عن الحزن المرض، والأسقام، وعن الغضب السطوة، والانتقام قال الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى، وحضرت سماعاً فيه الشيخ رسلان فأنشد القوال شيئاً فكان الشيخ رسلان رضي الله عنه يثب في الهواء، ويدور فيه دورات ثم ينزل إلى الأرض يسيراً يسيراً يفعل ذلك مراراً، والحاضرون يشاهدون فلما استقر على الأرض أسند ظهره إلى شجرة تين في تلك الدار قد يبست، وقطعت الحمل مدة سنين فأورقت، واخضرت، وأنبعت، وحملت التين في تلك السنة سكن رضي الله عنه دمشق، واستوطنها إلى أن مات بها مسناً، ودفن بظاهرها، وقبره ثم يزار، ولما أن حمل نعشه على أعناق الرجال جاءت طيور خضر، وعكفت على نعشه رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ أبو مدين المغربي ^(٢) رضي الله عنه

هو من أعيان مشايخ المغرب، وصدور المريين، وشهرته تفني عن تعريفه، واسمه شعيب، وولده مدين هو المدفون بمصر بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي ببركة القرع خارج السور مما يلي شرقي مصر عليه قبة عظيمة، وقبره يزار. وأما والده فهو مدفون بتلمسان بأرض المغرب في جبانة العبادلة، وقد ناهز الثمانين، وقبره ثم ظاهر يزار، وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير المؤمنين لما بلغه خبره أمر بإحضاره من بجاية ليتبرك به فلما وصل إلى تلمسان قال ما لنا وللسلطان الليلة نزور الإخوان ثم نزد، واستقبل القبلة، وتشهد، وقال: ها قد جئت ها قد جئت، وعجلت إليك رب لترضى ثم قال الله الحي وفاضت روحه رضي الله عنه قال الشيخ أبو الحجاج الأقسري: سمعت شيخنا عبد

(١) لأنه أحيها بالسر الساري فيه، وذلك لانعكاس آثار اسمه المحيي على مرآة ذاته.

(٢) وهو الذي تخرج به الشيخ الأكبر.

الرزاق رحمته يقول: لقيت الخصر عليه السلام سنة ثمانين وخمسمائة فسألته عن شيخنا أبي مدين؟ فقال: هو إمام الصديقين في هذا الوقت، وسره من الإرادة ذلك آتاه الله تعالى مفتاحاً من السر المصون بحجاب القدس ما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه ثم قال: ومات أبو مدين رحمته بعد ذلك بيسير، وذكر الشيخ محيي الدين رحمته في الفتوحات قال: ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف فمررنا بالحية^(١) المحدقة به فقال لي البدل: سلم عليها فإنها سترد عليك السلام فسلمنا عليها فردت ثم قالت: من أي البلاد؟ فقلنا: من بجاية فقالت: ما حال أبي مدين مع أهلها فقلنا لها: يرمونه بالزندقة، فقالت: عجباً والله لبني آدم، والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالي عبداً من عبیده فيكرهه أحد فقلنا لها: ومن أعلمك به؟ فقالت يا سبحان الله، وهل على الأرض دابة تجهله إنه والله ممن اتخذه الله تعالى ولياً وأنزل محبته في قلوب العباد فلا يكرهه إلا كافر أو منافق انتهى قلت: واجمعت المشايخ على تعظيمه، وإجلاله، وتأديبوا بين يديه، وكان ظريفاً جميلاً متواضعاً زاهداً ورعاً محققاً مشتملاً على كرم الأخلاق رحمته. ومن كلامه رحمته: ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها، وكان يقول: الجمع ما أسقط تفرقتك، ومحا إشارتك، والوصول استغراق أوصافك، وتلاشي نعوتك، وكان رحمته يقول: الغيرة أن لا تعرف، وكان يقول: أغنى الأغنياء من أبدى له الحق حقيقة من حقه، وأفقر الفقراء من ستر الحق حقه عنه، وكان رحمته يقول: الخالي من الأنس والشوق فاقد المحبة، وكان رحمته يقول: من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون، وكل من رأيته يدعي مع الله حالاً لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره، وكان رحمته يقول: إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره، وكان يقول: من تحقق بعين العبودية نظر أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء، وكان رحمته يقول: ما وصل إلى صريح الحرية من بقي عليه من نفسه بقية، وكان رحمته يقول: شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له، كان رحمته يقول: القريب مسرور

(١) هي حية روحانية وليست حيوانية، ولذلك تكلمت بلسان المعرفة الروحانية.

بقربه، والمحب معذب بحبه، وكان يقول: الفقر أمانة على التوحيد، ودلالة على التفريد، وحقيقة الفقر أن لا تشاهد سواه، وكان عليه السلام يقول: للفقر نور ما دمت تستره فإذا أظهرته ذهب نوره، وكان يقول: من كان الأخذ أحب إليه من الإعطاء فما يشم للفقر رائحة، وكان يقول: الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق، وكان عليه السلام يقول: من نظر إلى المكونات نظر إرادة وشهوة حجب عن العبرة فيها، والانتفاع بها، وكان عليه السلام يقول: من عرف أحداً لم يعرف الأحد، والحق ما بان عنه أحد من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل^(١) به أحد من حيث الذات والصفات، وكان يقول: من لم يصلح لمعرفته شغله برؤية أعماله، ومن سمع منه بلغ عنه، وكان يقول: من لم يخلع العذار لم ترفع له الأستار، وكان يقول: الحق لا يراه أحد إلا مات فمن لم يميت لم ير الحق، وكان يقول في نهيم عن صحبة الأحداث: الحدث هو المستقبل للأمر والمبتدي في الطريق هو الذي لم يجرب الأمور، ولم يثبت له فيها قدم، وإن كان ابن سبعين سنة، وقيل: أراد بالأحداث ما سوى الله تعالى من المخلوقات^(٢).

قلت: والمراد صحبتهم من غير إرشاد وتعليم، وإلا فإنشاد مثل هؤلاء هو المطلوب من كل فقير، وكان يقول: الإخلاص ما خفي على النفس درايتة، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته، وعلى الهوى إمالاته، وكان عليه السلام يقول: إياكم والمحاکمات قبل إحكام الطريق، وتمكن الأحوال فإنها تقطع بكم عن درجات الكمال، وكان يقول: كل فقير لا يعرف زيادته ونقصه في كل نفس فليس بفقير، وكان يقول: الفقر فخر، والعلم غنم، والصمت نجاة، والإياس راحة، والزهد عافية، ونسيان الحق طرفة عين خيانية، وكان يقول: الحضور مع الحق جنة، والغيبوبة عنه نار، والقرب منه لذة، والبعد عنه حسرة، والأنس به حياة، والاستيحاش منه موت، وكان يقول: طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة، وكان

(١) قلت: وهو رأى كبار العارفين من الصوفية أن صفات الحق عز وجل وذاته ما اتصلت بشيء ولا انفصلت عن شيء.

(٢) كما قال الصوفية: الكون هو ما سوى الله.

يقول: من قطع موصولا بربه قطع به، ومن أشغل مشغولا بربه أدركه المقت في الوقت. ومكث ﷺ سنة في بيته لا يخرج إلا للجمعة فاجتمع الناس على باب داره، وطلبوا منه أن يتكلم عليهم فلما ألزموه خرج فرأى عسافير على سدره في الدار فلما رآته في الدار فرت فرجع، وقال لو صلحت للحديث عليكم لم تفر مني الطيور ثم رجع وجلس في البيت سنة أخرى ثم جاءوا إليه فخرج فلم تفر منه الطيور فتكلم على الناس، ونزلت الطيور تضرب بأجنحتها، وتصفق حتى مات منها طائفة، ومات رجل من الحاضرين، وكان يقول: كل بدل في قبضة العارف لأن ملك البدل من السماء إلى الأرض، وملك العارف من العرش إلى الثرى،^(١) وكان الله تعالى قد أذل له الوحوش، ومر يوماً على حمار، والسبع قد أكل نصفه، وضاحبه ينظر إليه من بعد لا يستطيع أن يقرب منه فقال لصاحب الحمار: تعال فذهب به إلى الأسد، وقال له: أمسك بأذن الأسد، واستعمله مكان حمارك فأخذ بأذنه، وركبه وصار يستعمله سنين موضع حماره حتى مات، وقيل له مرة في المنام: ما حقيقة سرك في توحيدك؟ فقال: سري مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية التي لا ينبغي بثها لغير أهلها إذ الإشارة تعجز عن وصفها وأبت الفيرة الإلهية إلا أن تسترها، وهي أسرار محيطة بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقوداً، وكان في عالم الحقيقة بسرره موجوداً، يتقلب في الحياة الأبدية، وهو بسرره طائر في فضاء الملكوت، ويسرح في سرادقات الجبروت، وقد تخلق بالأسماء والصفات، وفني عنها بمشاهدة الذات هناك قراري، ووطني، وقررة عيني، ومسكتي، والحق تعالى في غنى عن الكل قد أظهر في وجودي بدائع قدرته، وأقبل علي بالحفظ والتوفيق، وكشف لي عن مكنون التحقيق فحياتي قائمة بالوحدانية، وإشاراتي إلى الفردانية، فروحي راسخ في علم الغيب، يقول لي مالكي، يا شعيب كل يوم جديد على العبيد، ولدينا مزيد ﷺ.

(١) هو قول قاصر لأن العارف لا ملك إلا في الحقيقة مع سيده ومولاه بل لا يريد في الدارين سوى مولاه إذ العبد الحقيقي كعبد الدنيا لا يزاحم سيده في ملكه فافهم.

ومنهم أبو محمد

عبد الرحيم المغربي القناوي رحمه الله

هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين، وعظماء العارفين صاحب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة له المحل الأرفع من مراتب القرب، والمنهل العذب من مناهل الوصل، وهو أحد من جمع الله له بين علمي الشريعة، والحقيقة، وآتاه مفتاحاً من علم السر المصون، وكنزاً من معرفة الكتاب، والحكمة، وكان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله يقول: هو شهدنا^(١) بما شاهدنا، وويل لمن كذب على الله تعالى، ومن كلامه رحمه الله أدركت فهم جميع صفات الله تعالى إلا صفة السمع، وكان يقول: المتكلمون كلهم يدندنون حول عرش الحق لا يصلون إليه^(٢)، وكان يقول: قطع العلائق بقطع بحر الفقد، وظهور مقام العبد بعدم الالتفات إلى السوي، وثقة القلب بترتيب القدر السابق، وكان رحمه الله يقول: التجريد نسيان الزمنين حكماً، والذهول عن الكونين حالاً، وغض البصر عن الأين، وقتاً حتى تتقلب الأكوان باطناً لظاهر ومتحركاً لساكن فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم، والابتهاج بمنفسحات الموارد، وانشراح الصدور بصور الأكوان مع ثبوت المقام بعد التلويح، ورسوخ التمكين فتكون السماء له رداء، والأرض له بساطاً، وكان رحمه الله يقول: الهيبة في القلب لعظمة الله تعالى هو طمس أبصار البصائر عن مشاهدته بمن سواه حساً فلا يرى إلا بأنوار الجلال ولا يسمع إلا بسواطع الجمال وكان يقول: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأقدار بنفي التفرقة حالاً، وعلم التوحيد جمعاً فيشهد القدرة بالقادر والأمر بالأمر وذلك يلزمه في كل حال من الأحوال وكان رحمه الله يقول: التمكن هو شهود العلم كشفاً، ورجوع الأحوال إليه قهراً، والتصرف بالقادح حكماً، وكمال الأمر

(١) أي هو شهد على شهودنا أو هو أذن وهو في قماط الحجاب ونحن تحققنا الأذان كشفاً شهودياً يجلب عن الارتياب.

(٢) أي لا يصلون إلى الحق سبحانه بل إلى العرش وإلا فإن كثيراً من أهل المعرفة يصلون هناك عند العرش كما ورد في كتبهم فافهم.

شرعاً، وكان يقول في الجوع صفاء الأسرار في استغراق الأذكار، وكان يقول: الشوق هو استغراق في مبادئ الذكر طرياً، ثم الغيبة في توسط الذكر شكراً، ثم الحضور في أواخر الذكر صحواً، فهو بين استغراق بهمة، وغيبة بزعجة، وحضور بنعشة، فثلث الوقت للمشتاق استغراق، وثلثه غيبة، وثلثه حضور، وكان عليه السلام يقول: الحياة أن يحيا القلب بنور الكشف فيدرك سر الحق الذي برزت به الأكوان في اختلاف أطوارها. وحكي أنه نزل يوماً في حلقة الشيخ شبح من الجو لا يدري الحاضرون ما هو فاطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء فسألوه عنه؟ فقال؟ هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع^(١)، وكان الشيخ إذا شاوره إنسان في شيء يقول: أمهلني حتى أستأذن لك فيه جبريل عليه السلام فيمهل ساعة ثم يقول له: افعَل أو لا تفعل على حسب ما يقول جبريل، قلت: ومراده بجبريل صاحب فعلته هو من الملائكة لا جبريل^(٢) الأنبياء عليهم السلام، والله أعلم، وكان إذا قال لعامي يا فلان تكلم على العلماء فيتكلم عليهم في معاني الآيات، والأحاديث حتى لو كان هناك عشرة آلاف محبرة لكنت عنه ثم يقول له: اسكت فلا يجد ذلك العامي معه كلمة واحدة من تلك العلوم عليه السلام. وكان بعض العارفين عليه السلام يقول: لو كنت حاضراً عند وفاة الشيخ عبد الرحيم ما مكنتهم من دفنه بل كنت أتركه فوق ظهر الأرض فكل من نظر إليه نطق بالحكمة. توفي عليه السلام بقنا بصعيد مصر، وقبره بها مشهور يزار. ومر عليه مرة كلب فقام له إجلالا فقبل له في ذلك؟ فقال: رأيت في عنقه خيطاً أزرق من زي الفقراء، وقال له مرة رجل: أوصني: فقال كن في الفقراء كتييس الغنم مع الغنم يعني لا ينطق مع عدم غفلته عن مصالحتهم عليه السلام.

(١) قلت: وهو خبر عجيب إذ سمعنا أن الأولياء يشفعون في الأدميين، وأما شفاعتهم في الملائكة فتأخر حدوثها، وهذه الحكاية تدل على علو مقام الشيخ عليه السلام.

(٢) يجوز نزول الملائكة على الأولياء وكذلك يجوز اجتماع الأولياء بهم وصنف في ذلك السيوطي كتاب توير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك وذكر اجتماع بعض الصحابة بهم وبعض الأولياء.

ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الملتزم رحمته الله

هو من أجلاء مشايخ مصر، ومحققهم قصده الناس بالزيارة من سائر الأقطار، وتآدب علماء مصر بين يديه، وكان أبوه ملكاً بالمشرق^(١)، وكان له مكاشفات عجيبة في مستقبل الزمان فكان لا يخبر بشيء إلا جاء كما قال: ويقول: أنا ما أتكلم باختياري، وكان يقف يتمنى فإن أعطوه شيئاً تصدق به على الفقراء، وكان الناس مختلفين في عمره فمنهم من يقول هذا من قوم يونس عليه السلام^(٢)، ومنهم من يقول إنه رأى الإمام الشافعي رحمته الله وصلى خلفه بمصر، ومنهم من يقول إنه رأى القاهرة وهي أخصاص قال الشيخ عبد الغفار القوصي رحمته الله فسألته عن ذلك فقال عمري الآن نحو أربعمئة سنة، وكان أهل مصر لا يمنعون حريمهم منه في الرؤية، والخلوة فأنكر عليه بعض الفقهاء فقال يا فقيه اشتغل بنفسك فإنه بقي من عمرك سبعة أيام، وتموت فكان كما قال، وكان يلبس ما وجد فمرة عمامة صوف خضراء، ومرة بيضاء، ومرة جبة فرجية، ومرة مرقعة لا ينضببط على حال. وأنكر عليه مرة قاض، وكتب فيه محضراً بتكفيره ووضع القاضي المحضر في صندوقه إلى بكرة النهار يدعو للشرع فجاء بكرة النهار فلم يجد المحضر ومفتاح الصندوق معه فأخرج الشيخ المحضر، وقال الذي قدر على أخذ المحضر من صندوقك قادر على أخذ إيمانك من قلبك فتأب القاضي، وخاف، ورجع عما كان أراد. توفي رحمته الله في حدود الستمئة، ودفن بالحسينية بمصر المحروسة، وقبره في مسجده يزار، وسموه^(٣) ثلاث مرات ليموت فعافاه الله تعالى منه، وذلك لشدة ما كانوا ينكرون عليه، وكان رحمته الله يقول: لم تكن الأقطاب أقطاباً والأوتاد أوتاداً، والأولياء أولياء إلا

(١) ذكرته في كتابي المسمى طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصوفوا.

(٢) اعلم أن هذا من باب المدسوسات في كتب الصوفية، فإنه لم يبق الآن من الأمم الماضية على قيد الحياة أحد سوى الخضر عليه السلام، وكما قال سيدي محمد زكي إبراهيم رحمته الله لي: لا تصدقن يا ولدي بكل ما ورد عن الصوفية ونقل عنهم في الكتب.

(٣) وأما الكامل فيؤثر فيه السم، كسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولانا الحسن بن علي رحمته الله وعلى العكس لم يؤثر السم في سيدنا خالد بن الوليد لما شربه في العراق.

بتعظيمهم رسول الله ﷺ، ومعرفتهم به، وإجلالهم لشريعته، وقيامهم بآدابه، وكان يقول: بلغني عن سيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ أنه كان يقول: إذا استولى الحق سبحانه وتعالى على قلب عبد ذهب ما من العبد، وبقي ما من الله تعالى فيبقى العبد كالفخار في ابتداء النشأة لا حراك له من حيث نفسه، وإنما حراكه من الذي يحركه، ولا اختيار له، ولا إرادة، ولا علم، ولا عمل، وكان ﷺ يقول: إذا امتلأ القلب من النور دك كل حجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومنهم الشيخ أبو الحجاج الأقسري ﷺ

كان جليل المقدار، كبير الشأن، كان مجرداً، وكان شيخه الشيخ عبد الرزاق الذي بالإسكندرية قبره من أجل أصحاب سيدي الشيخ أبي مدين المغربي، وله كلام عال في الطريق، وزاويته وضريحه بالأقصر من صعيد مصر الأعلى ومناقبه مشهورة ﷺ، منها أن شخصاً من الأمراء المشهورين في عصره أنكر عليه فقال له تتكر على الفقراء وأنت رقاص عند فلان فما مات ذلك الرجل حتى صار رقاصاً لسوء أدبه واعتقاده. وكان ﷺ يقول: من رأيتموه يطلب الطريق فدلوه علينا فإن كان صادقاً فعلينا وصوله، وإن كان غافلاً طردناه وأبعدناه، لئلا يتلف المريدين فإنه لا يصل إلى المحبوب من هو بغيره محجوب، قال خادمه الشيخ أبو زكريا التميمي: طلب شخص من مريدي أبي الحجاج الأقسري قتل شيخه مرات فلم يقدر، وكان يعتقد أنه ينال مقامه بقتله حين رآه محجوباً بشيخه فأخبر الشيخ بذلك فقال: يا ولدي هذا من الشيطان إذا قتلت شيخك غضب الله عليك فكيف يعطيك مقامه؟ قلت: وقد بلغنا ذلك عن واحد من أصحاب سيدي أبي السعود الجارحي ﷺ، وهرب الشيخ منه⁽¹⁾، والله أعلم.

وحكى أبو العباس الطائفي قال دخلت على الشيخ أبي الحجاج الأقسري يوماً فرأيت له عينين فوق الحاجبين، وكان يقول: كنت أجيئ أنا وأخي أبو الحسن (1) وقرأت في مناقب الشيخ خالد الكردي النقشبندی رحمه الله أن أحد خلفائه تغير عليه وترىص به ليقتله بالسكين.

بن الصائغ بإسكندرية إلى شيخنا فأرى مقامي أعلى من مقامه فأقول: اللهم أعل مقامه فوق مقامي، وكان الآخر إذا رأى مقامه أعلى من مقامي يقول في دعائه كذلك هكذا درجة الإخوان لا حسد بينهم، ولا حقد، وقيل له مرة: من شيخك؟ فقال: شيخي أبو جعران فطنوا أنه يمزح فقال لست أمزح فقيل له كيف فقال: كنت ليلة من ليالي الشتاء سهران، وإذا بأبي جعران يصعد منارة السراج فيزلق، ويرجع لكونها ملساء فعددت عليه تلك الليلة سبعمائة مرة وهو لا يرجع فقلت في نفسي سبعمائة وقعة ولا يرجع فخرجت إلى صلاة الصبح ثم جعت فإذا هو جالس فوق المنارة بجانب الفتيلة فأخذت من ذلك ما أخذت (١).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كنت في بدايتي أذكر لا إله إلا الله لا أغفل فقالت لي نفسي مرة: من ربك؟ فقلت: ربي الله فقالت: لي ليس لك رب إلا أنا فإن حقيقة الربوبية امتالك العبودية فأنا أقول لك أطعمني تطعمني، نم تتم، قم تقم، امش تمشي، اسمع تسمع، ابطش تبطش، فأنت تمتثل أوامري كلها فإذا أنا ربك وأنت عبدي (٢) قال: فبقيت متفكراً في ذلك فظهرت لي عين من الشريعة فقالت لي جادلها بكتاب الله تعالى فإذا قالت لك نم فقل لها: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَمُونَ﴾ (الذاريات: ١٧) وإذا قالت لك كل قل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣١) وإذا قالت امش قل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء: ٣٧) وإذا قالت لك ابطش قل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: ٢٩) فقلت لتلك الحقيقة: فمالي إذا فعلت ذلك؟ فقالت أخلع عليك خلع المتقين، وأتوجك بتاج العارفين، وأمنطقك بمنطقة الصديقين، وأقلدك بقلائد المحققين، وأنادي عليك في سوق المحبين "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون" الآية.

(١) قلت: ما أعظم الصوفية في اقتدائهم بكل شيء تافه فيستفيدون منه خلقا عظيما وعبرة جلية.
(٢) قلت هذا يحدث لأصحاب البدايات الذين لم يتمكنوا بعد في المقامات العرفانية وهو نوع من التأديب الباطني لهم والتربية فافهم.

وكان رضي الله عنه يقول: لا يقدح عدم الاجتماع بالشيخ في محبته فإننا نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وما رأيناهم، وذلك لأن صورة المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صورة الأشخاص بخلاف صورة الأشخاص إذا ظهرت تحتاج إلى صورة المعتقدات فإذا حصل الجمع بينهما فذلك كمال حقيقي.

قلت: وفي هذا دليل عظيم لأهل الخرق من الأحمدية، والرفاعية، والبرهامية، والقادرية، ولا عبرة بمن ينكر عليهم، ويقولون هؤلاء أموات لا ينطقون فإن الاقتداء حقيقة إنما هو بأقوالهم، وأحوالهم المنقولة إلينا فافهم قال الشيخ يعيش بن محمود أحد أصحاب أبي الحجاج : جئت أنا والقلبي السخاوي، وشخص آخر إلى زيارة الشيخ بعد الصبح فوقفنا بالباب متأدبين، وإذا بالخادم قد خرج فقال يدخل يعيش، والقلبي ويروح هذا العلق ^(١) يستحم فإنه جنب قال فدخلنا، وقد هدت أركاننا من الهيبة فوجدنا الشيخ متكئاً. ثم قال الشيخ عن الشاب يستغفر، ويدخل فقال يعيش دستور حضر شيء في لسان حالنا، وحال هذا الشاب على لسان حال القادوس فقال الشيخ: قل فقلت:

المليح قلبي عليه يخفق	لا يمر من يبصره يعشق
مسكين عبدك القادوس كسر	صار شقف من بعدما قد هجر
إن تجد له بالوصال ينجبر	ويعود غصن السرور مورق
قد بلى القادوس بهم طويل	ممتلى للراس، ودمعه يسيل
قد ربط بالطنوس، والسحيل	وجميعه بالحبال موثق

فقام الشيخ وتواجد ودار، وجعل يقول: لي سنين أجري وما ألحق رضي الله عنه.

(١) قلت: قد تدور مثل هذه الألفاظ على السنة الكمل ولا تتقص مقامهم، من باب: إذا صحت المجبه سقطت شروط الأدب.

ومنهم الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر رحمته الله

صحب الشيخ أبا الحجاج الأقمري رحمته الله حين كان بقوص، وتجرد^(١) وهو في بدايته ثم رجع إلى الثياب، والزراعات وغيرها ثم صحب الشيخ إبراهيم بن معضاد الجعبري المدفون بباب النصر من القاهرة المحروسة ثم أقام باخميم، وبهامات على حالة شريفة جليلة لطيفة متظاهراً بالنعم، والغنى عن الناس رحمته الله.

ومنهم الشيخ قطب الدين القسطلاني رحمته الله

كان بالقاهرة يدرس في علمي الظاهر، والباطن، ويدعو الناس إلى الله تعالى وكان يلبس الخرقة من طريق السهروردي رحمته الله.

ومنهم الشيخ أبو عبد الله القرشي رحمته الله

كان رحمته الله جليل القدر وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم، ويقول: إنهم انتسبوا إلى الله تعالى، وكان رحمته الله يقول: ما رأينا أحداً قط أنكر على الفقراء، وأساء بهم الظن إلا ومات على أسوأ حالة وكان رحمته الله يقول: احتقار الفقراء سبب لارتكاب الرذائل، وكان رحمته الله يقول: من غض من عارف بالله أو ولي لله ضرب في قلبه، ولا يموت حتى يفسد معتقده، وكان رحمته الله كثيراً ما يجتمع بالخضر عليهم السلام، وكان يطبخ طعام القمح كثيراً فقيل له في ذلك؟ فقال رحمته الله: إن الخضر عليهم السلام زارني ليلة فقال: اطبخ لي شوربة^(٢) قمح فلم أزل أحبها لمحبة الخضر عليهم السلام لها، وكان رحمته الله يشترط على أصحابه أن لا يطبخوا في بيوتهم إلا لوناً واحداً حتى لا يتميز على أحد على أحد فاتفق أن أحد أصحابه قال لزوجته ما تشتهي حتى نشتره تطبخيه؟ فقالت: شاور بنتك فقال لابنته أي شيء تشتهين؟ قالت ما تقدر على شهوتي فقال: بل أقدر عليها، ولو تكون بألف دينار، وقال لا بد تخبريني بها فقالت تزوجني للقرشي، وكان الشيخ رحمته الله أعمى أجذم لا ترضى بمثله النساء قال: فجئت إلى القرشي وأخبرته فقال: اطلبوا القاضي

(١) أي خلع الملابس الفاخرة ولبس المرقعات والمسوح وترك تدبير نفسه ودينياه وجسده لخالقه، وربما أراد أنه تجرد من ملابسه تماماً.

(٢) لهجة مصرية قديمة لا تزال تستعمل لحد الآن.

فجاء القاضي، وعقدوا عليها، وأصلحوا شأنها، وأحضرها عند الشيخ فلما خرجت النسوة دخل الشيخ إلى المرجاض، وخرج وهو شاب جميل الصورة أمرد بثياب حسنة وروائح طيبة فسترت وجهها منه حياء فقال: لا تستري أنا القرشي فقالت: ما أنت القرشي فحلف لها بالله تعالى فقالت له: ما هذا الحال؟ فقال لها: أبقى معك على هذا الحال، ومع غيرك على تلك الحالة، ولكن لا تخبري بذلك أحداً حتى أموت فقالت: نعم ثم قالت بل أختار حالتك التي تكون بها بين الناس من الجذام، والبرص، والعمى فقال لها: جزاك الله خيراً فلم تزل معه على تلك الحالة فلما قبض الشيخ رضي الله عنه حكى للناس أحواله وكانت حرمتها بين الفقراء كحرمة الشيخ في حال حياته، وكان رضي الله عنه يقول: ألزم العبودية وآدابها، ولا تطلب بها الوصول إليه فإنه إذا أرادك له أوصلك إليه، وأي عمل خلص حتى تطلب به الوصول، وكان يقول: أبت البشرية أن تتوجه إلى الله تعالى إلا في الشدائد فليل له في ذلك؟ قال: عطشت مرة في طريق الحاج فقلت لخدومي: اغرف لي من البحر المالح فغرف لي ماء حلواً فلما ذهب الضرورة غرفت فإذا هو مالح، وكان يقول: لا يكون الابتلاء إلا في الفحول من الرجال، وأخبار القرشي كثيرة مشهورة رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ محمد بن أبي جمرة رضي الله عنه

وهو غير عبد الله بن أبي جمرة، وكان رضي الله عنه كبير الشأن مقبوض الظاهر معمور الباطن غلبت عليه آثار صفة الجلال، كان معظماً للشرع قائماً بشرائعه، وشعائره، وأنكروا عليه في دعواه رؤية رسول الله رضي الله عنه يقظة، وعقدوا له مجلساً فأقام في بيته لا يخرج إلا لصلاة الجمعة، ومات المنكرون عليه على أسوأ حال وعرفوا ببركته، ودفن رحمه الله تعالى بالقرافة بمصر، وقبره بها ظاهر يزار، وكان رضي الله عنه يقول: لا يفهم عنك إلا من أشرق فيه ما أشرق فيك، وكان رضي الله عنه يقول: لما كان العلماء والأولياء ورثة الرسل، والأنبياء فلا بد من حصول فترات تقع بين العالم والعالم والولي، والولي فإذا اندرست طريقة الداعي أتى بعد زمان

من يجددها، ولما كان يحصل في فترات الأنبياء عبادة الأصنام من دون الله كذلك يقع في فترات الأولياء عبادة الأهواء، والبدع وتبديل الأفعال بالأقوال، وغير ذلك مما يشهده أرباب القلوب المنيرة^(١).

وكان عليه السلام يقول: لو قدرت أن أقتل من يقول: لا موجود^(٢) إلا الله فعلت فما يقول هذا في بوله، وغائطه، وعجزه عن دفع الآلام عن نفسه، وشرط الإله أن يكون قادراً فكيف يقول أنا عين الحق هذا من أضل الضلال، وكان عليه السلام يقول: لو تدبر الفقيه في قراءته لاحترق بأنوار القرآن، وهام على وجهه، وترك الطعام، والشراب، والنوم، وغير ذلك، وكان إذا رأى فدان القصب مثلاً يقول: يجيء منه كذا، وكذا قنطار عسل وكذا، وكذا قنطار سكر فلا يزيد، ولا ينقص عما قال، وطلب السلطان لما زاره أن يبني له رباطاً فأخذ السلطان من يده، وأدخله جامع ابن طولون، وقال هذا الجامع كله لي اجلس في أي مكان شئت منه فسكت السلطان، وكان يقول: لا ينبغي للفقير أن يظأ زوجته إذا حملت إلا لغرض صحيح من إعفافها أو إعفافه، ولا ينبغي له وطؤها لمجرد الشهوة^(٣) فإن

(١) قلت: لأن وظيفة الأولياء المتصرفين تنظيف الكون مما لحق به من عبث الصفات الظلامية فبهم يدفع الحق سبحانه الخبث عن الوجود، كما نصر الحق سبحانه الشريعة بأحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن، ونصره بأبي الحسن الأشعري وأبي حامد الغزالي في القضاء على مذهب الاعتزال، ونصره بأبي بكر في مسألة الردة، ونصر الإسلام بصلاح الدين الأيوبي في صد عبث أهل الصليب بالإسلام.

(٢) اعلم أن ظاهر العبارة غامض، ومقصوده أن لا يتلبس الحدث بصفة الألوهية ويدعيها، وهو عاجز في نفسه عن دفع آلام الغائط والتبول، فلا يصح أن يستشرف الطين إلى أوصاف الربوبية ومنه خرجت المفونات والقاذورات؟

قلت: وحقيقة مذهبه هذا أنه خاص به، وذلك لأن الفاني لا يتكلف فناء، وإنما الفناء هو صفة قاهرة للعبد تلقاها عليه الربوبية، وقد حدث الفناء للكبار من القوم كأبي سعيد الخراز والشبلي والبسطامي والحلاج ولم ينكر ذلك عليهم أحد، وقد أقره القشيري في الرسالة والهروي في منازل السائرين والشيخ عبد القادر في فتوح الغيب وابن عربي في الفتوحات، فلا يستطيع منكر أن ينكر على القوم صفة فنائهم في الحق لأنه من جملة نتائج أحوالهم المثمرة.

(٣) قلت: في ظاهر كلامه هذا خطأ، إذ يجوز للولي أن يظأ لمجرد الشهوة، فقد حكى الشيخ الأكبر في الفتوحات أن من صفات القطب أنه كثير النكاح محب له ولا ينكح لغرض الإنجاب بل =

ذلك نقص في الفقير، وكان يقول: إياكم، والإنكار على الناس فيما يحتمل التأويل فإنني رأيت فقيها أنكر على فقير صنعة الخيال مع المخيطين فأخرج الفقير للفقير باباً في الخيال وأجلس الفقيه على مكان، وجاء الفيل فلفه بزلومته، وضرب به الأرض فمات فأصبح الفقيه فوقه له ذلك ودقنوه آخر النهار^(١)، وقال: مررت يوماً على مارس^(٢) قمح وإذا صبي يقطف من السنابل، ويضعه في قفته فقلت له خل يا ولدي زرع الناس فقال: ومن أين ثبت عندك أنه زرع الناس، والله إنه زرع أبي وجدي فخجلت بين الفقراء من كلامه، وقلت له: جزاك الله يا ولدي خيراً أدبتي حين فاتني التأديب^(٣) وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول:

= لمجرد الشهوة قلت: وقد سرى حب هذه الصفة في السادة الأشراف إراثة عن جدهم حضرة النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «حب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة، وكان الجنيد رحمه الله يقول: لا زهد في النكاح، وكان يقول: إنى لأجد لذة في النكاح هي عندي أعظم من لذة الذكر».

(١) وهو من باب التمكين أن نصب له مثلاً خيالياً ثم حققه له في الحقيقة فإن الولاية لا حاصر لها يحصرها وأولياء الله لهم ما يشاؤون عند ربهم وقد حدث لذى النون المصرى مثل ذلك، فقد حكى عنه الجوهرى أنه خرج بالعجيين من بيته إلى الفرن وهو جنب فجاء إلى شط النيل بمصر فنزل الماء ليفتسل فرأى وهو في الماء ما يرى التائم كأنه بيغداد وقد تزوج وأقام مع المرأة ست سنين وأولدها ثم أفاق، وخرج من الماء ولبس ثوبه وجاء إلى الفرن وأخذ خبزه وأتى أهله وأخبرهم بما رأى فبعد أشهر جاءت تلك المرأة التي تزوجها في تلك الواقعة تسأل عن داره فلما رآها عرفها وعرف أولادها فقيل له متى تزوجك؟ قالت: منذ ست سنوات وهؤلاء أولادى منه فخرج في الحس ما حدث في الخيال.

قال سيدى محيي الدين: وهذه من مسائل ذى النون الست التي تحيلها العقول فله قوى في العالم خلقها مختلفة الأحكام في اختلاف حكم العقل في العامة من حكم البصر والسمع وغيرهما، فاختص الحق سبحانه أولياءه بقوى لها مثل هذه الحكاية فلا ينكرها إلا جاهل بما ينبغى للجناب الإلهي من الاقتدار ولا يعرف هذا الضرب إلا من عرف قدرة الله تعالى في وجوه الخيال في العالم الطبيعي.

(٢) صحتها دارس وليس مارس وهو الذى يدرس القمح أى يحصده كما تسميه الفلاحون في قرى مصر فافهم.

(٣) قلت: لا يستكبر قدماء الصوفية التعلم ولو من صبي لم يبلغ الحلم، كما يأنف اليوم الكثير ممن يدعى مقامات القوم أن يتعلموا ممن هم أدنى منهم ويتعالون عن ذلك فضيعوا أنفسهم وأضاعوا غيرهم.

ثلاثة لا يفلحون في الغالب ابن الشيخ، وزوجته وخادمه أما ابنه فإنه يفتح عينه على تقبيل المريدين يده، وحمله على أعناقهم، والتبرك به، ويطيعونه في كل ما يطلبه فتكبر نفسه ويرضع من حب الرياسة من صغره فتتوالى عليه الصفات المظلمة فلا يؤثر فيه وعظ واعظ، ويتجراً على الأكابر، وينفي مشيختهم عليه فإن جاء صالحاً فاق، والده وانتفع بوالده أكثر من كل أحد وأما الزوجة فإنها ترى الشيخ بعين الأزواج لا بعين الولاية فتعتقد أنه محتاج إليها في الشهوة فإن نور الله تعالى بصرها، ورأته بعين الولاية انتفعت به قبل كل أحد للملاصقتها له ليلاً، ونهاراً، وأما الخادم فلتكرار رؤية الشيخ، واطلاعه على أحواله من المآكل، والمشرب، والمنام، ولذلك قالوا: لا ينبغي للشيخ أن يأكل مع المريد، ولا يجالسه إلا عند ضرورة خوفاً على المريد من سقوط حرمة من قلبه فيحرم بركته من قلبه فيحرم بركة الصحبة فإن نظر الخادم إلى الشيخ بالتعظيم انتفع به كذلك، وأفلح أكثر من غيره رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ عبد الغفار القوصي رضي الله عنه

صاحب كتاب التوحيد^(١) في علم التوحيد، كان رضي الله عنه جامعاً بين الشريعة، والحقيقة أماراً بالمعروف ناهياً عن المنكر يبيع نفسه في طاعة الله تعالى، ويحكي أنه أكل مع ولده يقطينا فقال لولده: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب اليقطين فقال: ما هذا إلا قذارة فسل السيف، وضرب عنق ولده، وقدم غرض الشارح رضي الله عنه على ثمرة فؤاده^(٢)، ومن كلامه رضي الله عنه:

(١) صحته الوحيد في علم التوحيد.

(٢) قلت: ربما لو حدث هذا في زمننا لأعدم القاضي الأب أو حبسه، وأما قديماً فكان القضاة يجوزون قتل من يقع في حق الأنبياء ويستبيح حرمتهم بالشتائم وغيرها.

قال علاء الدين الحصكفي في كتابه شرح الدر المختار: يكفر من سب نبياً من الأنبياء ويقتل حداً ولا تقبل توبته مطلقاً، ولو سب الله تعالى قبلت توبته لأنه حق الله تعالى والأول حق عبد لا يزول بالتوبة ومن شك في عذابه وكفره كفر، وتماهه في الدر في فصل الجزية معزياً ذلك للبخارية، وكذا لو أبغضه بقلبه، وفي فتاوى المصنف ويجب إلحاق الاستهزاء والاستخفاف به لتعلق حقه أيضاً، وفيها سئل عن قال لشريف لمن الله والديك والدي الذين خلفوك فأجاب الجمع المضاف بعم خلافاً لإمام الحرمين كما في جمع الجوامع، وحينئذ فيعم حضرة الرسالة فينفي =

فـؤاد لا يقر له قرار
 وليل طال بالأنكاد حتى
 ولم لا والتقى حلت عمراه
 ليك معي على الدين البواكي
 وقد هدت قواعده اعتداء
 وأصبح لا تقام له حدود
 وعاد كما بدا فينا غريباً
 فقد نقضوا عهودهم جهاراً
 وأجفان مدامعها غزار
 ظننت الليل ليس له نهار
 ويان على بنييه الإنكسار
 فقد أضححت مواطنه قفار
 وزال بذاكم عنه الوقار
 وأمسى لا تبين له شمار
 هنالك ماله في الخلق جار
 وأسروا في العداوة ثم ساروا

إلى آخر ما قال. مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة نيف وسبعين، وستمائة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:
 كلام المنكرين على أهل الله تعالى كنفخة ناموسة على جبل فكما لا يزيل الجبل

= القول بكفره، وإذا كفر بسببه لا توبة له على ما ذكره البزازي وتوارده الشارحون، وصرح في آخر
 الشفا بأن حكمه كالمرتد ومفاده قبول توبته، وقد صرح في التنف ومعين الحكام وشرح الطحاوي
 بأن حكمه كالمرتد، ولفظ التنف: أن من سب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه مرتد وحكمه حكم المرتد ويفعل به
 ما يفعل بالمرتد انتهى.

ثم رأيت في معروضات المفتي أبي السعود سؤالاً ملخصه أن طالب علم ذكر عنده حديث نبوي
 فقال: أكل أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدق يعمل بها؟ فأجاب بأنه يكفر أولاً بسبب استفهامه الإنكارى
 وثانياً بإلحاقه الشين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختلف في قبول توبته فعند أبي حنيفة تقبل فلا يقتل وعند
 بقية الأئمة لا تقبل ويقتل حداً، ولذلك ورد أمر سلطاني في سنة ٩٤٤ لقضاة الممالك المحمية
 برعاية رأى الجانبين بأنه إن ظهر صلاحه وحسن توبته وإسلامه لا يقتل ويكتفى بتمزيه
 وحبسه عملاً بقول الإمام الأعظم وإن كان من أناس لا يرجى خيرهم يقتل عملاً بقول بقية
 الأئمة.

وقال اللبوسى: ويكفر من سب الشيخين أو أحدهما أو طعن فيهما ولا تقبل توبته، وبه أخذ أبو
 الليث وهو المختار للفتوى وجزم به فى الأشباه، وأقره المصنف قائلاً: وهذا يقوى القول بعدم
 قبول توبة ساب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذى ينبغى التعويل عليه فى الإفتاء والقضاء رعاية لجانب
 حضرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انتهى كلام الحصكفى.

نقحة الناموسة كذلك لا يتزلزل الكامل بكلام الناس فيه، وكان يقول: السماع من بقية بقيت على الكامل فلو صار أكمل ما تحرك،^(١) وقد استمع السهروردي، والقرشي، وأضرابهما، قال: ولما وشوا بزني النون المصري رضي الله عنه إلى بعض الخلفاء، وادعوا أنه زنديق قال له الخليفة ما هذا الكلام الذي يقال فيك ؟ فقال: ما هو؟ فقال قالوا إنك تقول كما يقول الحسين الحلاج فقال: لا أعرف ذلك إلا عند السماع فأرسل خلف قوال ينشد شيئاً حتى أرىكم فأنشد بين يديه فانتفخ ذو النون حتى بقي كالفيل وقطرت كل شعرة منه الدم فقال الخليفة: ما هذا عن باطل ثم أكرمه ورده إلى مصر مكرماً، وكان إذ ذاك مقيماً بأخميم، وحكي أن سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه قال: التوبة فرض على كل عبد في كل نفس^(٢) فأنكر عليه أهل بلده، وكفروه حتى خرج من تستر إلى البصرة، ومات بها هذا مع علم سهل، واجتهاده، وعلو شأنه، قال: وكذلك شهدوا على الجنيد رضي الله عنه بالكفر مراراً حتى تستر بالفقه، واختفى مع علمه ومعرفته، وهذا من أعجب العجائب، وتقدم جملة من ذلك في مقدمة هذا الكتاب والله أعلم.

ومنهم الشيخ أبو الحسن بن الصائغ السكندري رضي الله عنه

كان من أجل أصحاب سيدي الشيخ عبد الرحيم القناوي، وكان يخرج على أصحابه ويقول لهم: أفيكم من إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم حدثاً أعلمه به قبل حدوثه^(٣)؟ فيقولون لا فيقول ابكوا على قلوب محجوبة عن الله

(١) قلت: مقصوده الحكاية التي وردت عن الجنيد رحمه الله أنه حضر سماعاً مع جماعة فقاموا وتواجدوا وهو جالس لا يتحرك فسألوه عن عدم اهتزازهم وتواجدتهم فقال لهم: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب).

(٢) قلت: قوله هذا هو نهاية الاستقامة لما فيه من قوة المراقبة لخالقه سبحانه ومطالبته لنفسه بالتوبة في كل نفس من أنفاسه وهذا يعجز عنه غيره من العوام، ولذلك أنكروا عليه، فإن الإنكار لا يقع من المنكر على الولي إلا لعجز المنكر عن مجازاة الولي وإتيانه بمثل ما يأتي.

(٣) وفي ذلك يقول الشبلي رضي الله عنه: لو دبت نملة سوداء على صخرة دهماء في ليلة ظلماء ولم أعلم بها لقلت: إنني مكور بي.

عز وجل، ونزل ﷺ مرة كنزاً فوجد فيه سبعة أراذب ذهباً فأخذ منها سبعة دنانير وقال لم يؤذن لي في أخذ شيء غير ذلك^(١)، وكان يقول: لا ينبغي لشيخ رباط الفقراء أن يدع الشباب المرد يقيمون عنده إذا خاف من إقامتهم مفسدة على بعض الفقراء لا سيما جميل الصورة من الشباب اللهم إلا أن يكون الشاب غائباً عن طرق الفساد مقبلاً على طرق عبادة ربه لا يتفرغ للهو ولا للعب، بشرط أن يتولى الشيخ أمره في الخدمة بنفسه دون نقيب الفقراء إلا أن يكون النقيب متمكناً في نفسه يبعد عنه الفساد، وقال لا ينبغي للشباب أن يجلس في وسط الحلقة مع الرجال إنما يجلس خلف الحلقة، ولا يواجه الناس بوجهه، ولا يخالط أحداً من الفقراء حتى يلتحي، وكان ﷺ إذا جاءه شاب جميل الصورة ينزع ثيابه، ويلبسه الخيش، والمرقعات، وحكي أن شخصاً أراد أن يفعل فاحشة في أمرد في مقبرة الشيخ أبي الحسن ﷺ فصاح الشيخ من داخل القبر أما تستحي من الله يا فقير، ﷺ.

ومنهم الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر ﷺ

ابن شعبان بن الطيب الباذيني بلدة بقرب جزائر واسط^(٢) بالعراق ﷺ ومن أجلاء ومشايخ مصر المحروسة، وكان السلطان ينزل إلى زيارته، وتخرج بصحبته سيدي داود المغربي، وسيدي شرف الدين، وسيدي خضر الكردي، مشايخ لا يحصون، وكان يسمع عند خلع نعليه أنين كأنين المريض فسئل ﷺ عن ذلك؟ فقال: هي النفس نخلعها عند النعال إذا اجتمعنا بالناس خشية التكبر، وصام في المهدي ﷺ، مات ﷺ بالقاهرة في يوم الأحد تاسع شوال سنة

(١) هذا ليعلم الناس أن أولياء الله هم أقدر الناس على استخراج اللقايا والكتوز من باطن الأرض لما لهم من اطلاع وكشف وهبه لهم الله عز وجل ولكنهم ﷺ تأدبوا مع الحق سبحانه وتعالى وتعففوا ولم يحبوا أن يستخدموا ككشفهم في الأغراض الدنيوية وقد سئل الحلّاج ﷺ: ما الزهد؟ فقال: أنزه أنتى أرى الذهب في باطن الأرض فلا أمد يدى إليه، وإن نفسى بحاجة إلى لقمة بزيت.

(٢) قلت: قد أقمت مع والدى سنوات بواسطة بالعراق وبها تعلمت ونشأت ببلدة تسمى النعمانية.

أربع وأربعين وستمائة، ودفن من يومه بسفح الجبل المقطم، ومن كلامه عليه السلام: ينبغي للسالك الصادق في سلوكه أن يجعل كتابه قلبه، وكان يقول: من كان الطلب شغله يوشك ألا يضل عن طريق الله تعالى، ومن كان المطلوب شغله يوشك ألا يقف فالطلب شغل الظاهر، والمطلوب شغل الباطن، ولا يستقيم ظاهر إلا بباطن، ولا يسلم ظاهر إلا بباطن، وكان عليه السلام يقول: لا ينصحك من لا ينصح نفسه، ولا تأمن الغش ممن غش نفسه، وكان يقول: من رأته يميل إليك لأجل نفعه منك فاتهمه، وكان يقول: من ذكرك بالدنيا، ومدحها عندك ففر منه، ومن كان سبباً لغفلتك عن مولاك فأعرض عنه، وعليك بحسم مادة الخواطر المشغلة التي يتولد منها محبة الدنيا، وإذا صدر منها خاطر فأعرض عنه، واشتغل بذكره عز وجل عن ذلك الخاطر وكان يقول: احذر أن تساكن الخاطر، فيتولد من الخاطر هم، وربما غفلت عن الهم فيتولد منه إرادة، وربما قويت الإرادة فصارت هوى غالباً فإذا صارت هوى غالباً ضعف القلب وذهب نوره، وربما تلف بالكلية، وانعزل عنه العقل وصار كأن عليه غطاء.

وكان عليه السلام يقول: عليك بالاستغفال⁽¹⁾ بالله تعالى فإن عجزت عن الاستغفال به فعليك بالاشتغال بالله تعالى فإن عجزت عن الاشتغال به فعليك بالاشتغال بطاعة الله تعالى، ولا أرى لك عذراً في عدم الاشتغال بطاعته لأنها أول درجات الترقى.

وكان عليه السلام يقول: صلاح القلب في التوحيد والصدق، وفساده في الشرك والرياء، وعلامة صدق التوحيد شهود، واحد ليس معه ثان مع عدم الخوف والرجاء إلا من الله تعالى، وأما الصدق فهو التجرد عن الكل، ومحو كل ذات ظهرت، وفقد كل صفة بطنت، فإذا رأيت ميل قلبك إلى الخلق فانف عن قلبك الشرك، وإذا رأيت ميل قلبك إلى الدنيا فانف عن قلبك الشرك، وكان عليه السلام يقول: عليك بالإحسان إلى رعيتك، والرعية خصوص وعموم، فالعموم العبد والأمة

(1) يعني أن تكون غفلتك به كما يكون شغلك به أيضاً، فلا تتساه في غفلتك وشغلك.

والولد، والخصوص ما وراء ذلك، فعليك بروحك ثم بسرك ثم بقلبك ثم بعقلك ثم بجسدك ثم بنفسك، فالروح تطالبك بالشوق وسرعة السير إليه من غير فتور، والسر يطالبك بأن تخفي سرك، والقلب يطالبك بالذكر له والمراقبة، وأن تتسى نفسك وسواه^(١) في ذكرك، والعقل يطالبك بالتسليم إليه، والموافقة له، وأن تكون مع مولاك على نفسك وسواك، والجسد يطالبك بالخدمة له، وخلص الطاعة، والنفوس تطالبك بكفها وحجرها عن كل ما مالت إليه، وحبسها وتقييدها، وأن لا تصبحها ولا تستصحبها، وكان يقول: إياك أن تغفل عن مولاك وعمّا تعبدك به مولاك، وتشتغل بما تعبدك به عمن تعبدك بالعبادة، وكان عليه السلام يقول: إذا لم تعن بنفسك فغيرك أخرى أن يضيع نفسك، وكان يقول: أستغفر الله من تقصيري في كل عبادة عدد أنفاسي، وكان يقول: لو أستغفرت الله عز وجل بصدق، وإخلاص منذ ابتداء الخلق إلى انتهاء الخلق من غير فتور نفس واحد من أنفاسي ما وفي استغفاري بنفس واحد غفلت فيه عن الله عز وجل فكيف وأنفاسي كثيرة، واستغفاري خال عن الصدق والإخلاص؟ فقد بان نقصي وتقصيري، وإذا كانت أنفاسي ذنوباً، واستغفاري يحتاج إلى استغفار^(٢) إلى ما لا نهاية له فكيف حالي نسأل الله المغفرة، وكان عليه السلام يقول الأخلاق الشريفة كلها تنشأ من القلوب، والأخلاق الذميمة كلها تنشأ من النفوس، فالصادق في الطلب يشرع في رياضة نفسه، وطهارة قلبه حتى تتبدل أخلاقه فيبدل الشك بالتصديق، والشرك بالتوحيد، والمنازعة بالتسليم، والسخط والاعتراض بالرضا، والتفويض والغفلة بالمراقبة، والتفرقة بالجمعية، والغلظة باللين، واللفظ ورؤية عيوب الناس بالغض عنها، ورؤية المحاسن والقسوة بالرحمة، والغل والحقد بالنصيحة، والإدلال بالخوف وخوف التحويل، ويرى أنه ما وفى حق الله تعالى في ساعة من الساعات، ولا قام بشكر ما أعطاه من فعل الخيرات، وحينئذ تتحقق عبوديته، ويصفو توحيده، ويطيب عيشه، ويعيش مع الله تعالى عيش أهل

(١) أى وما سوى نفسك من الحجب المانعة.

(٢) هو قول لرابعة تعلمه منها الصوفية.

الجنان في الجنان، وهذه أخلاق الأنبياء، والصديقين، والأولياء، والصالحين، والعلماء العاملين، وكان ﷺ يقول: لم يصل أولياء الله تعالى إلى ما وصلوا بكثرة الأعمال، وإنما وصلوا إليه بالأدب. وكان ﷺ يقول ما دامت النفس باقية بأخلاقها، وصفاتها فحركات العبد كلها متابعة لخواطرها، وهي شيئان إما للخلق، وذلك شرك أو لرحمة النفس، وذلك هوى فالشرك لا يترك التوحيد يصفو، والهوى لا يترك العبودية تصفو، وما لم يشتغل السالك بإضعاف هذا العدو الذي بين جنبيه لا يصح له قدم، ولو أتى بأعمال تسد الخافقين، والرجل كل الرجل من داوى الأمراض من خارج، وشرع في قلع أصولها من الباطن حتى يصفو وقته، ويطيب ذكره، ويدوم أنسه، وكان ﷺ يقول: يجب على السالك إذا رأى من نفسه خلقاً سيئاً من كبر أو شرك أو بخل أو سوء ظن بأحد أن يدخل نفسه في ضد ما دعت إليه ثم يقبل على ذكر الله تعالى، ويستجد بحوله، وقوته، ومجاهداته فتضعف أخلاق نفسه، ويكثر نور قلبه فينزل الحق تعالى ذرة من محبته فيترك الأشياء بلا مكابدة، ويقطع كل مألوف بلا مجاهدة، وكان ﷺ يقول: الأصول التي يبني عليها المرید أمره أربعة اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكره، وجبر القلب على مراقبته، ومخالفة النفس والهوى من أجله، وتصفية اللقمة لعبوديته، وهي القطب، وبها تزكو الجوارح، ويصفو القلب فيعطي النفس حظها من المأكّل، والمشرب، ويمنعها ما يطغيها منه لأنها أمانة الله عز وجل عند العبد، وهي مطيته التي يسير عليها فظلمها كظلم الغير بل هو أشد لما ورد في خلود قاتل نفسه دون قاتل غيره، والإكسير الذي يقلب الأعيان ذهباً خالصاً الإكثار من الذكر مع الإخلاص، وكان ﷺ يقول: المراقبة لله عز وجل هي المفتاح لكل سعادة، وهي طريق الراحة المختصرة، وبها يطهر القلب، وتتدحض النفس، ويقوى الأنس فينزل الحب، ويحصل الصدق، وهو الحارس الذي لا ينام، والقيوم الذي لا يغفل، وكان ﷺ يقول: يجب على كل عبد أن يدخل نفسه في كل شيء يفهمها، ويسوءها حتى ترجع مطيعة له فإنها هي العقبة

التي تعبد^(١) الله الخلق باقتحامها، وهي حجاب العبد عن مولاه، وما دام لها حركة لا يصفو الوقت، وما دام لها خاطر لا يصفو الذكر، ويقاء النفس هو الذي صعب على العلماء الإخلاص في تعليمهم فإن النفس إذا استولت على القلوب أسرتها، وصارت الولاية لها فإن تحركت تحرك القلب لها، وإن سكنت سكن من أجلها، وحب الدنيا، والرياسة لا يخرج قط من قلب العبد مع، وجودها فكيف يدعي عاقل حالاً بينه، وبين الله عز وجل مع استيلائها، أم كيف يصح لعابد أن يخلص في عبادته، وهو غير عالم بآفاتها فإن الهوى روحها، والشيطان خادمها، والشرك مركز في طبيعتها، ومنازعة الحق، والاعتراض عليه مجبول في خلقها، وسوء الظن، وما ينتج من الكبر، والدعوى، وقلة الاحترام سيمتها، ومحبة الصيت، والاستهتار بحياتها، ويكثر تعداد آفاتها وهي التي تحب أن تعبد كما يعبد مولاها، وتعظم كما يعظم ربهها فكيف يقرب عبد من مولاه مع بقائها ومصالحتها، ومن أشفق عليها لا يفلح أبداً فيجب على الصادق أن كل ما تمقته النفوس يعانقه، وكل ما تميل إليه يفارقه، ويقبل من الذامين ذمهم فيه، ويقول للمادحين ما مدحتموه من وراء حجاب، ويقول لنفسه في كل نفس لا قرب الله مرادك، وأبعد مرامك فتعوذ بالله من أرض ينبت فيها نزاهة النفوس فإن من لمح نزاهتها، ورأى لها قدراً أو علم أن في الوجود أحسن من نفسه فما عرف نفسه فكيف ينزهها أو يفضب لها أو يؤذي مسلماً لأجلها فيجب اجتنابها كالسم، وما دامت في وجه القلب لا يصل إلى القلب خير لأنها ترس في وجهه، وكلما قويت على القلب زاد شره، ونقص خيره، وما بقى منها بقية فالشيطان لا ينعزل عنها، والخواطر المذمومة لا تنقطع منها وكان ﷺ يقول: يجب على السالك ألا يشتغل بالكلية بمقاومة نفسه فإن من اشتغل بمقاومتها أوقفته^(٢) كما أن من أهملها

(١) أي أن اقتحامها هو نوع من أنواع عبادة الله عز وجل.

(٢) أي صارت هي هدفه الأساسي دون ربه وبذلك تفسد عليه الوصول، وتجعله يتعلق بها، وهناك من الصوفية كالحلاج من يقول: هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك.

وفي الحقيقة أن الكلام موجه لأصحاب البدايات، لأن أصحاب النهايات من الكمل تتبعهم النفس=

ركبته بل يخدعها بأن يعطيها راحة دون راحة ثم ينتقل إلى أقل من ذلك، ومن قاومها، وصار خصمها شغلته، ومن أخذها بالخدع، ولم يتابع هواها تبعته.

وكان عليه السلام يقول: إذا لبست النفس على مرید حالها، وادعت الترك للدنيا وأن عملها، وعلمها، وتعليمها خالص لله تعالى فيجب عليه أن يزنها بالميزان التي لا تتخرم، والمعيار الذي لا يظلم، وهو تصوير ذمها بعد مدحها، وردها بعد قبولها، والإعراض عنها بعد الإقبال عليها، وذلها بعد عزها، وإهانتها بعد إكرامها فإن وجد عندها التغير والانتصار فقد بقي عليه من نفسه بقية يجب عليه مجاهدتها، ولا يجوز له الاسترسال معها، وليعلم حين التغير أنه واقف مع نفسه عابد لها معين لها على حصول آفاتها وصاحب هذا الحال بعيد من الله عز وجل، وكان عليه السلام يقول: إن المرید متى ترك مجاهدة نفسه، ولم يجذبها، وثبت أخلاقها، وعجز عن الخروج عنها، وكأنه في كل يوم يبني على ذلك الأساس، ويشيده في كل لحظة حتى يموت بدائه، وحسرتة فإنه قل من يسر لنفسه الجاه، والصيت فأمكنه الخروج عنه فيجب عليه أن يستغيث بربه عز وجل، وينكس رأسه، ويعتذر إليه، ويسكت عن كل دعوى، وكان عليه السلام يقول: كل من بقي له عدو يخاف أن يشمت به فإنما هو لبقاء نفسه، ولبقاء حب الدنيا في قلبه، وكان عليه السلام يقول: من أعرض الخلق عنه فتغير منه شعرة واحدة فهو واقف معهم مشرك بربه عز وجل^(١)، ومن كسر بكل مرض فتغير منه شعرة واحدة فهو واقف مع نفسه في حجاب عن ربه ومن تغير في حال الذل، ولم يكن كما كان في حال العز فهو محب للدنيا بعيد من ربه وكان عليه السلام يقول: كل ما أغفل القلوب عن ذكره تعالى فهو دنيا، وكل ما أوقف القلوب عن طلبه فهو دنيا، وكل

= في نهاية المطاف إلى حضرة الحق عز وجل يقول أبو يزيد رحمه الله: لم تزل نفسى تسوقنى حتى سقتها إلى حضرة الله.

(١) قلت: اعلم أن هذا من أخلاق الصديقين، والأمر كما قال سيدى أحمد الرفاعى عليه السلام عندما سئل عن صفة الرجل المتمكن؟ فقال: هو الذى إذا وضع على سنان رمح ووضع على قمة جبل شاهق وهبت عليه الرياح من الجهات الأربعة لما تزحزح عن موضعه قدر أنملة.

ما أنزل الهم بالقلب فهو دنيا، وكتب ﷺ رسالة إلى بعض إخوانه: السلام عليك يا أخي ورحمة الله وبركاته وبعد فقد سألتني أيها الأخ أن أدعو لك، والعبد أقل من أن يجاب له دعاء، ولكن ندعو لك امتثالاً فتقول: ألهمك الله يا أخي ذكره، وأوزعك شكره، ورضاك بقدره، ولا أخلاك من توفيقه ومعونته، ولا وكلك إلى نفسك، ولا إلى أحد من خليقته، وجعلك ممن وفى بعهده، وصدق في قوله وفعله، وجعلك ممن أراد الله عز وجل في الطلب بالصدق والأدب وأراد رسول الله ﷺ بالمتابعة والتصديق، وأراد الدار الآخرة بالأعمال الصالحة، واحتمال الأذى، وترك الأذى، وجعلك من المشتهرين أي المواظبين لذكر الله تعالى الوجلين من خشية الله تعالى المخلصين لله عز وجل الموحدون لله عز وجل المصدقين لله المؤثرين لله تعالى على أنفسهم المقدمين حقه على حقوقهم الذين خلت بواطنهم من الحقد، وقلوبهم من سواه، ولم يطلبوا من مولاهم سوى الدين الذين لا يستأثرون، ولا يذاحمون، ولا يتخصصون، ولسوى مولاهم لا يريدون، وبغيره لا يفرحون، وعلى فقد غيره لا يحزنون، الذين هم على جميع أمة محمد ﷺ يشفقون، وبهم يرفقون الذين ينصحون المسلمين ولا يقبحون، ويعرفون ولا يعنفون، وعن عيب من فيه العيب يغمضون ويسترون، ولعورات المسلمين لا يتبعون، الذين هم لله تعالى في جميع الحركات والسكنات يراقبون، الذين غضبهم لله تعالى من غير حقد، ولا تمنى سوء، ورضاهم لله عز وجل من غير هوى الذين لا يأمرهم إلا بما أمرت به الشريعة ولا ينكرون إلا ما أنكرت الشريعة على حسب طاقتهم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، الذين ييغضون الظلم من الظالم، ويمقتون الظالم، ولا يعظمونه، ويسألون الله تعالى تعجيز الظلمة حتى لا يظلمون، ويتوب الله عليهم حتى يتوبون، الذين بما أنزل الله تعالى وقول رسول الله ﷺ يحكمون، الزاهدين في الدنيا والخلق المقبلين بكليتهم على الحق الذين لا يرون من مولاهم إلا ما يرضونه ويستحسنونه ولا يرون من نفوسهم إلا ما يكرهونه ويستوحشونه وجعلك يا أخي من الموحدون، الذين لا

شرك عندهم المنزهين الذين لا تهمة عندهم المصدقين الذين لا شك عندهم
الذاكرين الذين لا نسيان عندهم الطالبين الذين لا فتور عندهم المتبعين الذين
لا ابتداع عندهم المؤثرين، الذين لا شفقة على نفوسهم عندهم الزاهدين، الذين
لا ميل إلى السوى عندهم الذين لا منازعة عندهم الراضين الذين لا سخط
عندهم الراحمين للخلق ولا غلظة عندهم الناصحين الذين لا مصانعة عندهم
الذين الخوف ملازمهم والعظمة^(١) نصب أعينهم الذين لا يخطر ببالهم كيفية
ولا خيال وجعلك يا أخي من المحافظين للطاعة التاركين للعادة الذين لا
يرضيهم سوى مولاهم ولا يرضون نفوسهم وأرواحهم إلا له الذين لا يحقدون،
ولا يبغضون، ويقفون أثر الشارع وبه يقتدون، وعلى جميع أصحابه يترحمون،
وللقرابة يوادون، وبفضل السلف يعترفون، الذين لا يبدعون المسلمين بأرائهم ولا
بأهوائهم ولا يفسقون، الذين خلت بواطنهم من ظن السوء أو تمنيه لمن آمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الذين ليس في بواطنهم إلا الشفقة،
والرحمة الذين لا تعجبهم زينة الدنيا، ولا يرون عزيزها عزيزاً، ولا غنيها غنياً،
ولا ملكها ملكاً، ولا المستريح فيها مستريحاً، ولا الصحيح فيها معافى، الذين
يرحمون من أخذ الدنيا بحذافيرها لأنه ما معه شيء، الذين يطالبون نفوسهم
بالحقوق، ولا يطالبون لنفوسهم، الذين لا يلحقهم هم لأجل مقسوم، ولا خوف
من مخلوق، الذين باينوا صفاتهم حتى انغمرت، ونقوا أخلاقهم حتى ذهب،
وخالفوا نفوسهم حتى عدت، الذين يحببون الله عز وجل إلى خلقه، ويذكرونهم
نعمه، ويحببون خلقه إليه بحثهم على طاعته، والاعتراف بنعمته، والاعتذار من
تقصيرهم في خدمته، الذين أيديهم مقبوضة عن أموال الناس وجوارحهم
مكفوفة عن أذى المسلمين، والمسلمون معهم في راحة لا يقابلون عن السوء إلا
عفواً وصفحاً آمين اللهم آمين انتهى والله أعلم.

قلت: وجميع هذه الرسالة من أخلاق الكمل، وما رأيت في لسان الأولياء

(١) يقصد بها عظمة الله عز وجل.

ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى

سيدي إبراهيم الدسوقي^(١) القرشي رحمته الله

هو من أجلاء مشايخ الفقراء أصحاب الخرق، وكان من صدور المقربين، وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة، ومآثر ظاهرة، وبصائر باهرة، وأحوال خارقة، وأنفاس صادقة، وهمم عالية، ورتب سنية ومناظر بهية، وإشارات نورانية، ونفحات روحانية، وأسرار ملكوتية، ومحاضرات قدسية له المعراج الأعلى في المعارف، والمنهاج الأسنى في الحقائق، والطور الأرفع في المعالي، والقدم الراسخ في أحوال النهايات، واليد البيضاء في علوم الموارد، والباع الطويل في التصريف النافذ، والكشف الخارق عن حقائق الآيات، والفتح المضاعف في معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود وأبرزه رحمة للخلق، وأوقع له القبول التام عند الخاص، والعام، وصرفه في العالم، ومكنه في أحكام الولاية، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات، وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه العجائب، وصومه في المهد رحمته الله، وله كلام كثير عال على لسان أهل الطريق.

ومن كلامه رحمته الله من لم يكن مجتهداً في بدايته لا يفلح له مرید فإنه إن نام نام مریده، وإن قام قام مریده وإن أمر الناس بالعبادة وهو بطل أو توبهم عن الباطل، وهو يفعل ضحكوا عليه، ولم يسمعوا منه. وكان ينشد كثيراً إذا قيل له انصحنأ، وأرشدنا بمثلين من قول بعضهم:

لا تعدلين الحراير حتى تكوني مثلهن يقبح على معلولة تصف دواء للناس^(٢)

وكان رحمته الله يقول: يجب على المرید أن لا يتكلم قط إلا بدستور شيخه إن كان جسمه حاضراً، وإن كان غائباً يستأذنه بالقلب، وذلك حتى يترقى إلى الوصول إلى هذا المقام، في حق ربه عز وجل، فإن الشيخ إذا رأى المرید يراعيه

(١) ولد رحمته الله عام ٦٢ وتوفى عام ٦٧٦ وعاش ٤٢ عاماً، وهو اصفر الأقطاب الأربعة عمراً وقطبانية.

(٢) الدستور في عرفهم هو الإذن فقولهم: دستور يا أسيادي يعني بعد إذنكم أو ائذنوا لي وهو من تمام أدبهم.

هذه المراعاة رياه بلطف الشراب، وأسقاها من ماء التريية، ولاحظه بالسر المعنوي الإلهي فيا سعادة من أحسن الأدب مع مربيه، ويا شقاوة من أساء، وكان ﷺ يقول: من عامل الله تعالى بالسرائر جعله على الأسرة والحضائر، ومن خلص نظره من الاعتكاس سلم من الالتباس، وكان ﷺ يقول: من غاب بقلبه في حضرة ربه لا يكلف في غيبته، فإذا خرج إلى عالم الشهادة قضى ما فاته، وهذا حال المبتدئين، أما حال الكمل فلا يجري عليهم هذا الحكم بل يردون لأداء فرضهم، وسننهم، وكان ﷺ يقول: من لم يكن متشرعاً متحققاً نظيفاً عفيفاً شريفاً فليس من أولادي، ولو كان ابني لصلبي، وكل من كان من المرادين ملازماً للشرعية، والحقيقة، والطريقة، والديانة، والصيانة، والزهد، والورع، وقلة الطمع فهو ولدي، وإن كان من أقصى البلاد، وقيل له مرة: ما تريد؟ فقال: أريد ما أراد الله عز وجل، وكان ﷺ يقول: ما كل من وقف يعرف لذة الوقوف، ولا كل من خدم يعرف آداب الخدمة، ولذلك قطع بكثير من الناس مع شدة اجتهادهم، وكان ﷺ يقول: سألتكم بالله يا أولادي أن تكونوا خائفين من الله تعالى فإنكم غنم السكين، وكباش الفناء، وخرفان العلف، يا من تتور شواهم قد أوهج، ويا من السكين لهم تحد وتجذب: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحریم: ٦)، وكان ﷺ يقول: لا يكمل الفقير حتى يكون محباً لجميع الناس مشفقاً عليهم، ساتراً لعوراتهم، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ما ذكرناه فهو كاذب، وكان يقول: لا تتكروا على فقير حاله، ولا لباسه، ولا طعامه، ولا على أي حال كان، ولا على أي ثوب يلبس، ولا إنكار على أحد إلا إن ارتكب محظوراً صرحت به الشرعية، وذلك أن الإنكار يورث الوحشة والوحشة سبب لانقطاع العبد عن ربه عز وجل، فإن الناس خاص، وخاص الخالص، ومبتدي، ومنته، ومتشبهه، ومتحقق، ويرحم الله تعالى البعض بالبعض، والقوي ما يقدر أن يمشي مع الضعيف وعكسه، والفقراء غيث وهو سيف، فإذا ضحك الفقير في وجه أحدكم فاحذروه، ولا تخالطوه إلا بالأدب، وكان ﷺ يقول: الشرعية أصل، والحقيقة فرع، فالشرعية جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفي، وجميع المقامات مندرجة فيهما.

وكان عليه السلام يقول: يجب على المرید أن يأخذ من العلم ما يجب عليه في تأديته فرضه ونفله، ولا يشتغل بالفصاحة والبلاغة فإن ذلك شغل له عن مراده بل يفحص عن آثار الصالحين في العمل، ويواظب على الذكر، وكان يقول: الرجال منهم رجل، ونصف رجل، وربع رجل، ورجل كامل، وبالع، ومدرک، وواصل، وكان عليه السلام يقول: توبة الخواص محو لكل ما سوى الله تعالى ولا يتطلعون إلى عمل ولا قول، يتويعون عن أن يختلج في أسرارهم أن لي أو يتوهمون أن علي، ويخشون من قول أنا فهم يراعون الخطرات⁽¹⁾، وكان يقول: يا مريدي اجمع همة العزم، وقوة شدة الحزم، لتعرف الطريق بالإدراك لا بالوصف، فأني مقام وقفت فيه حجبتك، بل ارفض كل ما يحجبك عن مولاك، فإن كل ما دون الله تعالى باطل، وكان عليه السلام يقول: الإعراض تورث الاعراض، وكان يقول: دعني يا ولدي من البطالات، وتجرد من قالبك إلى قلبك، وكان عليه السلام يقول: احذر يا أخي أن تدعي أن لك معاملة خالصة أو حالاً، واعلم أنك إن صمت فهو الذي صومك، وإن قمت فهو الذي أقامك، وإن عملت فهو الذي استعملك، وإن رأيت فهو الذي أراك، وإن شربت شراب القوم فهو الذي أسقاك، وإن اتقيت فهو الذي وقاك، وإن ارتضعت فهو الذي رقى منزلتك، وإن نلت فهو الذي نولك، وليس لك في الوسط شيء إلا أن تعترف بأنك عاص مالك حسنة واحدة، وهو صحيح من أين لك حسنة؟ وهو الذي أحسن إليك، وهو الحاكم فيك إن شاء قبلك وإن شاء ردك، وكان عليه السلام يقول: ولد القلب خير من ولد الصلب، فولد الصلب له إرث الظاهر من الميراث وولد القلب له إرث الباطن من السر.

وكان يقول: من أدخل دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، بقي هو بلا هو، فحينئذ يبقى زماناً ما فانياً، ثم يعود في حفظ الله تعالى وكلاءته سواء حضر أو غاب، ولا يبقى له حظ في كرامات، ولا كلام، ولا نظام نفساني، وخلص لجانب العبودية المحضة، وكان عليه السلام يقول: أصحاب العطاء كثير، وأهل

(1) وهي من أصعب مقامات التوبة عند الكمل، فمن كملت خطراته أصبح العبد الكامل وهو الفرد الجامع الذي لا تكون لأحد جمعية كاملة بالحق سواء.

هذا الزمان ما بقي عندهم إلا المناقسة إما يسألون عن معنى الصفات أو معنى الأسماء أو معنى مقطعات حروف المعجم، وهذا لا يليق بالمبتدئ السؤال عنه وأما المتمكن فله أن يلوح بذلك لمن يستحق فإن علمها طريقة الكشف لا غير، وأما من اشتغل بحفظ كلام الناس أو جمع الحقائق، ولسان المتكلمين في الطريق، والطرائق فمتى يعيش عمراً آخر حتى يفرغ من عمر الفناء إلى عمر البقاء ؟ فإن القوم كانوا محبين، وكل منهم يتكلم بلسان محبته وذوقه فهو كلام لا يحصر، وبحر غرق فيه خلق كثير، ولا وصل أحد إلى قعره، ولا إلى ساحله، وإنما يذكر العارف كلام غيره تستراً على نفسه أو تفتيحاً لما يجده من ضيق الكتمان آه آه آه، ولقد شهد الله العظيم أني ما أتكلم قط أو أخط في قرطاس إلا، وأتوخى أن يكون ذلك شاغلاً أو بياناً لمعنى غامض على الناس لا غير فإن الصدق قد ذهب من أكثر الناس وكان ﷺ يقول: جميع المعبرين، والمؤولين، والمتكلمين في علم التوحيد والتفسير لم يصلوا إلى عشر معشار معرفة كنه إدراك معرفة معنى حرف واحد من حروف القرآن العظيم، وكان يقول: أول الطريق الخروج عن النفس، والتلف، والضيق، والحظ فإن الفلاح، والنجاح والصلاح، والهدى، والأرباح لا تصح إلا لمن ترك الحظ، وقابل الأذى، والشر بالاحتمال، والخير، ووسع خلقه والفقير لا يكون له يد، ولا لسان، ولا كلام، ولا صرف، ولا شطح، ولا فعل رديء، ولا يصرفه عن محبوبه صارف ولا ترده السيوف، والمتالف، وكان ﷺ يقول: أكل الحرام يوقف العمل، ويوهن الدين، وقول الحرام يفسد على المبتدئ عمله، والطعام الحرام يفسد على العامل عمله، ومعاشرة أهل الأذناس تورث الظلمة للبصر، والبصيرة، وكان ﷺ يقول: إن الله عز وجل يحب من عباده أخوفهم منه وأطهرهم قلباً، وفرجاً ولساناً ويداً وأعفهم، وأعفاهم، وأكرمهم، وأكثرهم ذكراً، وأوسعهم صدراً.

وكان يقول: من كان في الحضرة نظر الدنيا، والآخرة، وكان يقول: إياكم، والدعوات الكاذبة فإنها تسود الوجه، وتعمي البصيرة، وإياكم ومؤاخاة النساء،

(١) وراجع في ذلك رسالتنا المطبوعة المسماة: «الأنفاس اللطيفة المنبعثة على حروف السور الشريفة».

إطلاق البصر في رؤيتهن، والقول بالشاهد والمشي مع الأحداث في الطرقات فإن هذا كله نفوس، وشهوات، ومن أحدث في طريق القوم ما ليس فيها فليس هو منا، ولا فينا قال الله تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"، وكان ﷺ يتكلم بالعجمي، والسرياني والعبراني، والزنجي، وسائر لغات الطيور، والوحش^(١)، وكتب ﷺ إلى بعض مريديه بعد السلام وإتني أحب الولد، وباطني خلى من الحسد، ولا بباطني شظا، ولا حريق لظى، ولا جوى من مضى، ولا مضمض غضا، ولا نكص نصا، ولا سقط نطا، ولا ثطب غطا، ولا عطل حطا، ولا شنب سرى، ولا سلب سبا، ولا عتب فجا، ولا سمداد صدا، ولا بدع رضا، ولا شطف جوا، ولا حتف حرا، ولا خممش خيش، ولا حفص عفس، ولا خفض خنس، ولا حولد كنس، ولا عنس كنس، ولا عسعس خدس، ولا جيقل خندس، ولا سطاريس، ولا عيطافيس، ولا هطا مرش، ولا سطا مريش، ولا شوش أريش، ولا ركاش قوش، ولا سملاذنوس، ولا كتباً سمطلول الروس، ولا بوس عكسسوس، ولا فتنفاد أفاد، ولا قمداد انكاد، ولا بهداد، ولا شهداد، ولا بد من العون، وما لنا فعل إلا في الخير، والنوال انتهى، وكتب إلى بعض مريديه أيضاً: سلام على العرائس المحشورة في ظل، وابل الرحمة، وبعد فإن شجرة القلوب: إذا هزت فاح منها شذاً يفذي الروح فيستشق من لا عنده زكم فتبدو له أنوار، وعلوم مختلفة مانعة محجوبة معلومة لا معلومة معروفة لا معروفة غريبة عجيبة سهلة شطة فائقة طعم، ورائحة، وشم ميم محل جميل جهد راب علوب نقط نبوط هوبط سهبط جرموا غميظا غلب عمن عسب غلب عرماد علمود على عروس علماس مسرود قدقد فرسم صباع صبع صبوغ نبوب جهمل جما يدحر بو عس قنبود سماع بناع سرنوع ختلوف كداف كروف كمتوف شهدا سهنديل ختلوف ختوف رصص مامن قمن قرفتيود سعى طبوطا طابوطا كمت، كهرجة جهد بيد قيلودات كهلودات كيكل كلوب فافهم مبرم واقرم

(١) اعلم أنه إذا اكتمل حال الرجل صار ينطق بجميع اللغات بدون أن يتعلمها وبدون أن يعلمها له معلم وإنما تحدث العجمة والإسناك لألسنة عوام البشر عن النطق بها من كثرة الذنوب والمعاصي ولو أطاعوا الله عز وجل حق طاعته لنطقت ألسنتهم تتكلم بجميع اللغات واللهجات وكان سيدي محمد الحافظ التجاني ﷺ يقول لمن ينكر كلام الأولياء باللغات المختلفة كالسريانية وغيرها: تعال ونظف قلبك وأدخلك الخلوة فتخرج منها فتكلم بأى لغة شئت

منعم وأخبر سهدم سوس سفيوس كلافيد لا تهتر عن عنيلا سعسد سج تزيد ولا تتكوع زند حدام هدام سكهدل^(١)، وقد سطرنا لك يا ولدي تحفة سنية، ودره مضية، ريانية سريرية، شمسية قمرية كواكب درية، وأنجم خفية علوية، وإنما تصفح المبهم المغلق المغرب الذي سره مغطى بالرموز انتهى.

وكان عليه السلام يقول: عليك بالعمل، وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها، وقد كان عليه السلام يجوع حتى شد الحجر على بطنه، وقام حتى تورمت قدماه ثم تبعه أكابر الصحابة رضي الله عنهم على ذلك فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا تهد يشم لكبده رائحة الكبد المشوي، وأنفق ماله في سبيل الله كله، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد العمل والكد حتى رقع دلقه بالجلود، ولف رأسه بقطعة خيش، وكان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن قائماً كل ليلة على أقدامه، وكان علي رضي الله عنه من زهاد الصحابة، ومجاهديهم، حتى فتح أكثر بلاد الإسلام، هؤلاء خواص الصحابة رضي الله عنهم مع قريهم من رسول الله صلى الله عليه وآله هذا كان عملهم، هذا كان اجتهادهم، وزهدهم، وجوعهم، فأحكموا الحقيقة والشريعة ولا تفرطوا إن أردتم أن تكونوا يقتدى بكم، وما سميت الحقيقة حقيقة إلا لكونها تحقق الأمور بالأعمال، وتنتج الحقائق من بحر الشريعة، وكان عليه السلام يقول: ما دام لسانك يذوق الحرام فلا تطمع أن تذوق شيئاً من الحكم والمعارف.

وكان عليه السلام يقول: للباصر في العين بصر، وللقلب لسان يدق عن الإدراك، وكان عليه السلام يقول: أحببه يحبك أهل الأرضين والسماء، وأطعه يطع لك الجن والإنس، ويجف لك البحر والماء، ويطع لك الهواء، وكان يقول: يا ولدي عليك بالتخلق بأخلاق الأولياء لتنال السعادة، وأما إذا أخذت ورقة الإجازة، وصار كل من نازعك تقول: هذه إجازتي بالمشيخة دون التخلق فإن ذلك لا شيء إنما هو حظ نفس، لكن اقرأ الإجازة، واعمل بما فيها من الوصايا، وهناك تحصل على الفائدة، ويحصل لك الاصطفاء، وهذه طريق مدارج الأولياء قرناً بعد قرن،

(١) قلت: لا حرج في ورود كثير من مثل هذه الكلمات السريانية في كثير من أورداء الصوفية وأحزابهم فلا يجب الإنكار عليهم لأنهم يتلقون عن حكيم عليهم.

وجيلاً بعد جيل إلى آخر الدنيا، وكان ﷺ يقول: إذا اشتغل المرید بالفصاحة والبلاغة فقد تودع منه في الطريق^(١)، وما اشتغل أحد بذلك إلا وقطع به، وأما حكايات الصالحين وصفاتهم فمطالعتها للمرید جند من أجناد الله تعالى ما لم يقنع بها في الطريق، وكان يقول: العلم كله مجموع في حرفين أن يعرف العبودية ويعبده، فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة، وليس في هذا تعطيل العلماء بل العلم ابن للعمل، وإنما قلنا ذلك من أجل قول الله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل: ٢٠) ولكل فرقة منهاج، وإلا فقد يجمع الله العلم والعمل في رجل واحد، يفيد الناس كل الفوائد، فالشريعة هي الشجرة، والحقيقة هي الثمرة، وكان يقول: الطريق إلى الله تعالى تفني الجلال، وتفتت الأكباد، وتضني الأجساد، وتدفع السهاد، وتسقم القلب، وتذيب الفؤاد، فإذا ارتفع الحجاب سمع الخطاب، وقرأ من اللوح المحفوظ الرموز، وأطلع على معان دقت، وشرب بأوان رقت، فكان مع قلبه، ثم يكون مع مقلبه لا مع قلبه، لأن الله يحول بين المرء وقلبه، فإذا خرج عن الكل طال لسانه بلا لسان مع شدة اجتهاده، وأعماله الظاهرة ثم الباطنة، ثم بعد ذلك لا حركة، ولا كلام، ولا تسمع إلا همساً، إنما هو سميت بلا حس ثم يصفو من صفاء الصفاء، ووفاء الوفاء، ويخلص من إخلاص الإخلاص في الإخلاص للإخلاص، ثم يتقرب بما يكون به جليساً فإن المجالسة لها آداب أخر خاصة يعرفها العارفون، وكان ﷺ يقول: إذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة، وأخذ العلوم المكتوبة في ألواح المعاني ففهم رموزها، وعرف كنوزها، وفك طلسماتها، وعلم اسمها ورسمها، وأطلع الله تعالى على العلوم المودعة في النقط، ولولا خوف الإنكار لنطقوا بما يبهر العقول، وكذلك لهم من إشارات العبارات عبارات معجزة، والسنن مختلفة، وكذلك لهم في معاني الحروف، والقطع، والوصل، والهمز، والشكل، والنصب، والرفع ما لا يحصر، ولا يطلع عليه إلا هم، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر، والماء، والهواء، وما في البر،

(١) أي لا ينمق لسان الظاهر ويطفئ لسان الباطن فيمكس الآية.

والبحر، وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء، وما في جباه الإنس والجان مما يقع لهم في الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما فوق الفوق، وما تحت التحت، ولا عجب من حكيم يتلقى علماً من حكيم عليم فإن مواهب السر اللدني قد ظهر بعضها في قصة موسى والخضر عليهما السلام، وكان ﷺ يقول: من الأولياء من لا يدري الخطاب، ولا الجواب، فهو كالحجارة، مودعة أسراراً ناطقة، بلسان حال صامته، عن الكلام مودعة، من غوامض الأسرار والعطاء مفرق فمنهم عارف، ومحِب، ومشغوف، وذاكر، ومذكر، ومعتبر، وناطق، وصامت، ومستغرق، وصائم، وقائم، وهائم، ومفطر، وصائم صائناً، وصائم صائماً، وقائم دائم، ونائم واصل، وواصل سهران، وواقف ذاهل، وداهش واهن، وواهم، وبالك باسم، ومقبوض، وضاحك، وخائف، ومختلط، ومختبط، وموله، ومتوله، وصائح، ونائح، ومجموع بجميعة وجمعه، إن خرج عن إياهما انتفع، ومنهم من مزق الثياب حين حقق وتاب، وغلب عليه الحال، ويرحم الله البعض البعض، وكان ﷺ يقول: يا أولادي طوبى لمن وصل إلى حال تقرب العباد من الله تعالى ثم وقف يدعوهم إليها فكونوا داعين إلى الله تعالى بإذن الله، وكان ﷺ يقول: رأس مال المرید المحبة والتسليم، وإلقاء عصا المعاندة والمخالفة، والسكون تحت مراد شيخه وأمره، فإذا كان المرید كل يوم في زيادة محبة وتسليم سلم من القطع، فإن عوارض الطريق، وعقبات الالتفات والإرادات، هي التي تقطع عن الإمداد، وتحجب عن الوصول.

وكان ﷺ يقول: يا أولادي إذا لم يحسن أحدكم أن يعامل مولاه فلا يقع في أحوال لا يدريها فإن القوم تارة يتكلمون بلسان التمزيق، وتارة بلسان التحقيق، بحسب الحضرات التي يدخلونها وأنت يا ولدي لم تذق حالهم، ولا تمزقت، ولا دخلت حضراتهم فمن أين لك أنهم على الضلال؟ أفتعموم يا ولدي⁽¹⁾ البحر ولست بعوام؟ ثم إذا غرقت فقد مت ميتة جاهلية لأنك ألقيت نفسك للمهالك، والحق قد حرم عليك ذلك بل الواجب عليك يا ولدي أن تطلب دعاء القوم،

(1) يوجد هنا سقط في الكلام والمفروض أن يكون الكلام «أفتعموم يا ولدي في البحر».

وتلتبس بركاتهم هذا إذا لم تجد قدرة على عملهم، فإن وجدت قدرة على ذلك سعدت أبد الأبدین، واعلم يا ولدي أن السن القوم إذا دخلوا الحضرات مختلفة، وفي إشاراتهم وكلماتهم ما يفهم ومنها ما لا يفهم، وكذلك من أحوالهم ما يعبر عنه، ومنها ما لا يعبر وكذلك في أسرارهم ما لا يصل إليه مؤول، ولا معبر، ولا معطل، ولا مفسر، لأن أسرارهم موضع سر الله تعالى، وقد عجز القوم عن معرفة أسرار الله تعالى في أنفسهم فكيف في غيرهم؟ فيجب عليك يا ولدي التسليم لله في أمر القوم وحسن الظن بهم لا غير، فإنني ناصح لك يا ولدي وإذا رميت من يحبه الله تعالى بالبهتان والزور وتجرات على من قربه الله تعالى أبغضك الله تعالى، ومقتك فلا تفلح بعد ذلك أبداً، ولو كنت على عبادة الثقيلين، وكان ﷺ يقول: من قام في الأسحار، ولزم فيها الاستغفار، كشف الله له عن الأنوار، وأسقى من دن الدنو من خمار الخمار، وأطلعت في قلبه شمس المعاني والأقمار، فيا ولد قلبي اعمل بما قلته لك تكن من المفلحين، وكان يقول: كم من يتلو الاسم الأعظم، ولا يدريه، وما فهم معناه، وما لمس الأولياء الشجرة فأثمرت إلا به، ولا سال الماء من صخرة إلا به، ولا سخرت الوحوش لولي إلا به، ولا سأل ولي القطر فنزل إلا به ولا أحيا الموتى إلا به، وكان ﷺ يقول: لا يكون الرجل غواصاً في الطريق حتى يفر من قلبه، وسره، وعمله، وهمه، وفكره، وكل ما يخطر بباله غير ربه فآه آه لو كشف الحجاب عن الأثواب، وأبصر الأعمى الحرف الذي ليس بحرف ولا ظرف، وذلك ما خفي من الفمض، وفتح قفل القفل، وفك أزرار المزور، فواشوقاه لصاحب تلك الحضرات مع أن الشوق لا يكون إلا للبعيد.

وكان ﷺ يقول: كل من تحجبه أعماله، وأقواله عن درك ما شاء فهو محجوب عن مقام التوحيد، ومقام التفريد، ولا يذف الولي إلى ربه حتى يترك الوقوف مع سواه من مقام أو درجة، وكان يقول: إن أردت أن تجتمع على ربك فظهر باطنك، وضميرك من الخبث، والنية الرديئة، والإضمار بالسوء لأحد من خلق الله عز وجل وكان ﷺ يقول: إياك يا ولدي أن تقبل فتوى إبليس لك في

الرخص فتعمل بها بعد عمك بالعزائم فإنه إنما يأمرك بالفي والبغي في حجة رخصة الشرع، لا سيما إن أوقعك في محذور ثم قال لك: هذا مقدور أيش كنت أنت فإنك تهلك بالكلية، واعلم يا ولدي أن الله تعالى ما أمرك إلا باتباع نبيه ﷺ، وقد نهاك عن كل شيء يؤذيك في الدنيا والآخرة فما بالك تخالفه، وإن كنت يا ولدي تقنع بورقة تزعم أنها إجازة^(١) فإنما إجازتك حسن سيرتك، وإخلاص سريرتك، وشرط المجاز أن يكون أبعد الناس عن الآثام كثير القيام والصيام مواظباً على ذكر الله تعالى على الدوام، فإن العبد كلما خدم قدمه سيده على بقية العبيد فهذه هي الإجازة الحقيقية، وأما إذا ادعيت المشيخة، وعصيت ربك قال لك أف لك أما تستحي أين دعواك القرب منا؟ أين غسلك أثوابك المدنسة لمجالستنا؟ كم توعى في بطنك من الحرام؟ وكم تتقل أقدامك إلى الآثام كم تنام وأحبابي قد صفوا الأقسام؟ أنت مدع كذاب والسلام.

وكان يقول: الله خصم كل من شهر نفسه بطريقتنا، ولم يقم بحققها، واستهزأ بنا، وكان يقول: من خان لا كان، ومن لم يتعظ بكلامنا فلا يمشي في ركابنا، ولا يلم بنا، ولا نحب من أولادنا إلا الشاطر المليح الشمائل، وذلك يصلح لوضع السر فيه فإنا أولادي ناشدتك الله تعالى لا تسوؤا طريقي، ولا تلعبوا في تحقيقي، ولا تدلسوا، ولا تلبسوا، وأخلصوا تتخلصوا، فكلما أحببناكم، واخترناكم، فلا تكذبوا علينا ولا ترموا طريقنا بالكلام، وكما وطينا لكم حقكم في التربية والنصح، فوفوا لنا بالاستماع والاعتاظ، وإنما أمرتكم بما أمركم به ربكم فهو أمر الله لا أمري، فإن نقضتم العهد فإنما هو عهد الله، وإن كنتم لا تأخذون منا إلا أوراقاً فلا حاجة لنا بكم، وكان يقول: بايعة الله تعالى على أني لا ألتمس أموالكم، ولا آخذ ترائكم، ولا أدنس خرفتي بما في أيديكم، فاسمعوا وأطيعوا، وعلى أموالكم الأمان مني ومن جماعتي الذين أخلصوا معي، وأسأل الله تعالى أن يلحق بقية أولادي بمن خلص معي، ويجعلهم مثلهم فيشفقون على

(١) أي لا تقنع بإجازة علماء الظاهر لك في العلوم الظاهرة كالفقه والحديث وغيرها، فإن علماء الظاهر هم مجرد حجارة لكثافة حجابهم واقنع بإخلاصك لمولايك وصدقك فإن فيه نجاتك.

إخوانهم، وينصحونهم مع تجنب أموالهم، وكان عليه السلام يقول: من لم يزعم أن هلكته في طاعته فهو هالك فإن طاعتنا من جملة فضله، ومالنا في الوسط شيء، وكان يقول: يا ولدي احذر أن تقول أنا فإن الله يعجز المدعين، ولو كنت على عمل الثقيلين هبطت أو صاحب منزلة سقطت، وكان يقول: والله لو وجدنا إلى الخلوّة سبيلا أو وجدنا إلى الانقطاع عن أعين الناس من سبيل لفعلنا فإن القلب في هذا الزمان متعوب، والكبد كل وقت يذوب، فأين الملجأ، وأين المفر من أهل هذا الزمان زمان كثر فيه القال، والقيل ولكن الذي بلانا بأهله يدبرنا، ويعيننا بحوله، وقوته.

وكان يقول: من غفل عن مناقشة نفسه تلف^(١)، وإن لم يسارع إلى المناقشة كشف، وكان يقول: ما ابتلى الله عز وجل الفقير بأمر إلا وهو يريد أن يرقيه إلى منازل الرجال فإن صبر وكظم الغيظ وحلم، وعفا وتكرم رقاؤه إلى الدرجات، وإلا أوقفه وطرد، وكان عليه السلام يقول: لا يعصي أحدكم ربه عز وجل، ويمر على الهوام الضعيفة إلا وتود أن الله تعالى يعطيها قوة لتبتطش به غيرة على جناب الحق تعالى، ولا يمر على الطيور والوحوش إلا ويستعيذون بالله تعالى من رؤيته، ولا يرد ماء إلا ويود أن لا يشربه، ولا يمر في الهواء إلا ويود أن لا يكون مر به^(٢).

وكان يقول: كيف تطلبون أن الله تعالى ينبت لكم الزرع أو يدر لكم الضرع، وأنتم تسلون السيوف على أحد من هذه الأمة المحمدية، وتلطخون الحراب من دمائهم؟ وكان يقول: إذا صدق الفقير في الإقبال على الله تعالى انقلبت له

(١) وهم الأولياء الذين يكتبون أعمالهم بأيديهم كل يوم، فيجلس أحدهم في نهاية كل يوم ويحاسب نفسه بنفسه فلا يترك فرصة لملك السيئات أن يكتب عنه سيئة، وهكذا كل يوم بيوم يسلمه ملك الحسنات فكانه هو الذي يكتب حسناته ويمحو عن نفسه السيئات فيرد القيامة وليس عليه شيء سوى ما رتبته بنفسه من عمله الصالح، وأول من أنشأ هذه الطريقة من الصوفية واشتهر بها هو الحارث المحاسبى.

(٢) وذلك لأن الأعيان قائمة في الطاعة الأصلية للحق عز وجل، بحكم التسخير العام، حتى أن ذرات جسد الكافر والعاصي إذا أصبح تقول له كما ورد في الحديث: اتق الله فينا.

الأضداد^(١) فعاد من كان يبغضه يحبه، ومن كان يقاطعه بواصله، ومن كان لا يشتهي به يثي عليه، ولا يصير يكرهه إلا مجرم أو منافق، وكان يقول: ما قطع مرید ورده يوماً إلا قطع الله عنه الإمداد ذلك اليوم^(٢)، واعلم يا ولدي أن طريقتنا هذه طريق تحقيق، وتصديق، وجهد، وعمل، وتنزه، وغض بصر وطهارة يد، وفرج، ولسان فمن خالف شيئاً من أفعالها رفضته الطريق طوعاً أو كرهاً، وكان ﷺ يقول: يا حامل القرآن لا تفرح بحمله حتى تنظر هل عملت به أم لا فإن الله عز وجل يقول: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً"، ولا تخرج عن كونك حماراً إلا إن عملت بجميع ما فيه، ولم يكن منه حرف واحد يشهد عليك، وكان يقول: يا أولادي كم غروركم لهوكم لعبكم غيكم هوىكم افتراءكم نكدكم غدركم سروركم نسيانكم غفلةكم زلةكم إجرامكم زوركم فتوركم وعظفكم تسمعون، ولا تتعظون ما أنتم إلا كالأموات، وكان يقول: لو فتح الحق تعالى عن قلوبكم أقفال السدد لاطلعت على ما في القرآن من العجائب، والحكم، والمعاني، والعلوم، واستغنيتم عن النظر في سواه فإن فيه جميع ما رقم في صفحات الوجود قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٢٨) ومن فهمه الله تعالى في كتابه أعطاه تأويل كل حرف منه، وما هو، وما معناه، وما سبب كل حرف، وما صفة كل حرف؟ وعلم المكتوب من الحروف في العلوي، والسفلي، والعرش، والكرسي، والسماء، والماء، والفلك، والهواء، والأرض، والثرى، وكان يقول: إذا كان المقتدي بالشرائع والكتاب واقفاً بين الأمر، والنهي كان فتحه حقيقياً حتى يفك به كل مشكل، ويحل به كل طلسم، ويعرف به كل مبهم، وأما إذا كان فتحه حفظ كلام، وترتيب، وصف مقامات فذلك ليس بفتح إنما هو حجاب له عن إدراك الإدراك، وعن مشاهدة علوم الحق وليس من وصف كمن عرف، وحمل، ونطق بلسان العرفان، وكم من حملته العناية حتى شاهد، ومع ذلك فلو سئل عن وصف المقامات ما وصفها، ومقصودي لجميع

(١) كما قال أحد السلف: إنى لأعرف خلقى من خلق زوجتى وحمارى.

(٢) لأن إمداد المرید يكون فى ورده، فعلى قدر اعتناؤه به بصيبيه مدده.

أولادي أن يكونوا ذائقين لا واصفين، وأن يأخذوا العلوم من معادنها الريانية لا من الصدور، والطروس فإن القوم إنما تكلموا عما ذاقوا وقلوبهم كانت ملائمة بعباء الله تعالى ومواهبه ففاضت منها قطرات من ماء الحياة التي فيها فانفجرت علومهم عن عين عين عين عن حاصل ماء الحياة، وأما الوصاف فإنما هو حاك عن حاك غيره، وعند التخلق، والفائدة لا يجد نقطة، ولا ذرة من ذوق القوم، وينادي عليه هذا الذي قنع بالقشور في دار الغرور، ولقد أدركنا رجالاً، وأحدهم يستحي أن يذكر مقاماً لم يصل إليه، ولو نشر بالمناشير ما وصفه فيا جميع أولادي إذا سألكم أحد عن التصوف مثلاً أو عن المعرفة، والمحبة فلا تجيبوه قط بلسان قالكم حتى يبرز لكم من صدق معاملتكم ما برز للقوم فيكون كلامكم عن حاصل، وعن محصول فإذا قام أحدكم بالأوامر الدينية، وصدق في العمل ترجم لسانه بالفوائد التي أثمرت من صدقه، وكل من ادعى الصدق، والإخلاص، ولم يحصل عنده ثمرة الأدب، والتواضع فهو كاذب، وعمله رياء، وسمعة لا يثمر له إلا الكبر، والعجب، والنفاق، وسوء الأخلاق شاء أم أبى.

وكان يقول: ليس التصوف لبس الصوف إنما الصوف من بعض شعار التصوف فإن دقيق التصوف رقيق صفاته، ورونق بهجة ترقيه لا يحصل إلا بالتدرج فإذا وصل الصوفي إلى حقيقة التصوف المعنوي لا يرضى بلبس ما خشن لأنه وصل إلى مقامات اللطافة^(١)، وخرج عن مقامات الرعونة، وعاد ظاهره الحسي في باطنه الألي^(٢)، واجتمع بعد فرقة، وقذف فيه جذوة نار الاحتراق فعاد الماء يحرقه، والثلج والبرد يقوي ضرامه، والقميص الرقيق لا يستطيع حمله للطفة سره، وزوال كثافته بخلاف المرید في بدايته يلبس الخشن، ويأكل الخشن ليؤدب نفسه وتخضع لمولاه، ويحصل لصاحبها تمهيد للمقامات التي يترقى إليها فكلما رق الحجاب ثقلت الثياب، وكان عليه السلام يقول: يا ولد قلبي

(١) ولذلك قيل: أن الكامل أرق من النسيم إذا سرى تؤذيه لسعة الشمس ونسمة الهواء البارد ولا يتحمل شدة الشوك وهذا لما رققه من المقامات الذوقية والشهودية (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين).

(٢) صحتها باطنه الأولى وهو أفيد للمنى.

اجمع همة العزم لتعرف معنى الطريق بالإدراك لا بالوصف، وكل مقام، وقفت فيه حجبك عن مولاك، وكل ما دون الله تعالى ورسوله ﷺ، الصحابة، والتابعين، وكتابه العزيز باطل، وذلك لأن الأغراض تورث الإعراض، وكان ﷺ يقول: يا ولد قلبي تجرد من قالبك إلى قلبك، والرم الصمت عن الاشتغال بما لا فائدة لك فيه من الجدال، والنقل، وزخرف القول، وصمم العزم، واركب جواد الطريق، واحتم حمية قبل الشرية تكون باطناً، ولا تشرب إلا شرباً يكون فيه محو، وسكر آه آه ما أحلى هذه الطريق ما أسناها ما أمرها ما أقتلها ما أجلاها ما أحيها ما أصعبها ما أكبدها ما أكثر مصايدها ما أصعب مواردها ما أعجب واردها ما أعمق بحرها ما أكثر أسدها ما أكثر مددها ما أكثر عقاربها، وحياتها فبالله با أولادي لا تتفرقوا، واجتمعوا يحكمكم الله تعالى من الآفات ببركة أستاذكم، وكان ﷺ يقول: كيف تطلب ليلي^(١) وأنت ليلا، ونهاراً مع عدالها، ولوامها، والمنكرين على أهل حضرتها، والمعترضين عليهم، والخائنين لعهودهم إنما تبرز ليلي لمن تهتك فيها، ولم يقبل عدل عدالها، ولم يسمع لكلام المنكرين على أهل حضرتها، ويلي لا تحب من يحب سواها أو يخطر في سره محبة لسواها إنما تحب من كان بشرابها ثملان، ولهان ذهلان غرقان بشوان هيمن حتى لو اجتمع الثقلان على أن يلوا قلبه عنها، وأن يحلوا عقدة عهدتها معه ما استطاعوا فانظر حالك يا ولي، وكان يقول: يا أولاد قلبي لا تجالسوا أرباب المحال، وزخرف الأقوال، ولقلقة اللسان، وجالسوا من هو مقبل على ربه حتى أخذت منه الطريق، ودقه التمزيق، وتفرق عنه كل صديق حتى عاد كالخلال، وذاب جسمه من تجرع شراب سموم^(٢) الطريق، وصار نومه أفضل من عبادة غيره لأنه في نومه في حضرة ربه، وربما كان العابد في عبادته مع نفسه.

وكان ﷺ يقول: عليكم بتصديق القوم في كل ما يدعون فقد أفلح

(١) يقصد بيلي الذات الإلهية كما سبق شرحه وقد اصطاح القوم على ذلك.

(٢) وكان شيخنا أحمد بن عمر المعروف بالشريف التجاني ﷺ يقول لى كثيراً: الطريق يا ولدى ملأى بالثمايين والحيات والعقارب والنمور والأسود، وإنما يقصد الأولياء المتشبهين بهذه الصفة، وكان سيدي على الخواص يقول عن حبيب المجدوب: حبيب حية رقطاء، حبيب كله أذى.

المصدقون، وخاب المستهزئون فإن الله تعالى يتذف في سر خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مقرب، ولا نبي^(١) مرسل، ولا بدل ولا صديق، ولا ولي ما أنا قلت هذا من عندي إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى فما للعاقل إلا التسليم، وإلا فاتوه وفاتهم، وحرم فوائدهم، وخسر الدارين، وكان ﷺ يقول: علامة المرید الصادق أن يكون سائراً في الطريق ليلاً، ونهاراً غدواً، وأبكاراً لا مقيل له ولا هدو. وجواده قد فرغ من اللحم، وامتلأ من الشجاعة والهم قد شف مطيته السرى، وأسقمها البرى لا يقيد همته مقيد، ولا يهوله مهلك، ولا توجهه ضربات الصوارم، ولا يشغله شيطان غوى، ولا مارد جنى كل من خاصمه في محبوبه عاد مخصوماً لا يهدأ، ولا ينام، ولا يصحو بل الدهر كله له سرى حتى يدخل خيام ليلى، ويضع خده على أطناب الخيام فإذا سمع الخطاب بالترحيب من الأحباب انتعش، وطاب، وسمع الخطاب بالترحيب من قاب قوسين هناك استراح يا طالما قطعت براري، وقفار، وجبال، وبحار وظلام، ونار يا طول ما تعبت، وتعنيت، ويا طول ما رجع غيرك من الطريق، وجئت فأكرم الله تعالى مثواك، ولا خيب مسعاك أنت اليوم ضيف عندنا، ويومنا لا انقضاء له أبد الأبدین، ودهر الداهرين.

وكان ﷺ يقول: والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة ودخلوا تحت الأوامر لاستغنوا عن الأشياخ ولكن جاءوا إلى الطريق بعلى، وأمراض فاحتاجوا إلى حكيم^(٢)، وكان إذا أخذ العهد على فقير يقول له: يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام واتباع جميع الأوامر المشروعة، والأخبار المرضية والاشتغال بطاعة الله تعالى قولاً وفعلاً، واعتقاداً، ولا تنظر يا ولدي

(١) ما عدا رسول الله ﷺ فإن الكل مستمدون منه، فإن علوم الأكابر كلها تفيض عن ذاته الأقدس، وهو يمد الوجود فكيف تنيب عنه علوم الأولياء؟

(٢) اعلم أن قلة من العارفين من يصل بغير شيخ كابى يزيد ﷺ وشيخنا سيدى أحمد التجانى ﷺ، وذلك لعدم صفاء الجوهر فى غالب المریدین وعدم خلوه من العلل التى تحتاج إلى شيخ عارف بأدواء القلوب فيأويها.

إلى زخارف الدنيا، ومطاياها، وملابسها، وقماشها، ورياشها، وحظوظها، واتبع نبيك محمداً ﷺ في أخلاقه فإن لم تستطع فاتبع خلق شيخك فإن نزلت عن ذلك هلكت يا ولدي، واعلم أن التوبة ما هي بكتابة درج ورق، ولا هي كلام من غير عمل، إنما التوبة العزم على ارتكاب ما الموت دونه، صف أقدامك يا ولدي في حندس الليل البهيم، ولا تكن ممن يشتغل بالبطالة، ويزعم أنه من أهل الطريقة، ومن استهزأ بالأشياء استهزأت به، والسلام.

وجاء فقير يطلب أن يلبس الخرقة من الشيخ فنظر إليه وقال: يا ولدي التلبس في الأمور ما هو جيد، لا يصلح لبس الخرقة إلا لمن درسته الأيام، وقطعته الطريق بجهداها، وأخلص في معاملته، وقرأ معاني رموز القوم ونظر في أخبارهم، وعرف مقصودهم في سائر حركاتهم، وسكناتهم، وأسفارهم، وخلواتهم، وجلواتهم، فإن كنت صادقاً فلا تكن مجاناً ولا لعاباً ولا صبي العقل، فما الأمر بقول العبد تبت إلى الله تعالى باللفظ دون القلب، ولا بكتابة الورق والدرج، وإنما الأمر توبة العبد عن أن يلحظ الأكوان بعيني قلبه، أو يراعي غير مولاه، فإذا صح للفقير هذا الأمر فهناك يصلح للرقى، وكان يقول: كيف يدعي أحدكم أنه مرید طريق الله تعالى، وهو ينام وقت الفنائم، ووقت فتوح الخزائن ووقت نشر العلوم، وإشهار الرقوم، ووقت تجلي الحي القيوم، يا كذابون ما تستحيون من الدعاوى الكاذبة، وهممكم راقدة، وعزائمكم خامدة، ما هكذا درج أهل الطريق فالله تعالى يلهم جميع أولادي طريق الفلاح آمين. وكان يقول: ليس الزهد خروج العبد عن الشيء إنما الزهد أن يكون داخلًا في إمارته أو صنعته، وقلبه خارج حائل ذاكر فاطر مجاهد مرابط مخمول الذكر مشتغل بذكر الله عز وجل، وكان ﷺ يقول: يا أولادي قلبي عليكم بشراب القهوة القرقفية واستعمالها فوعزته وجلاله من صدق منكم وأخلص، لا يمس أحداً إلا نبعت فيه الحكمة، وحصل عنده الشراب، والسكر عن هذه الدار، يا أولادي الدنيا كحلقة بين أعين أهل التمكين، قوم يمشون إلى الأقطاب، وقوم تأتي إليهم الأقطاب، لا أحب من أولادي إلا من أراه يترقى في كل ساعة من مقام إلى مقام فهناك تقرر

- يني، وهناك يصير ينتفع به يا ولدي إن أردت أن يسح دعاؤك فاحفظ لسانك عن الكلام في الناس وعن تناول الشبهات يا ولدي إن شككت في قولي فاعمل بما أقول لك، وجرب نفسك شيئاً بعد شيء تعرف صدق قولي فمن ثبت نيت، ومن أطاع أطيع فإذا أطعت مولاك أطاع لك الماء، والنار، والهواء والخلوة، والإنس، والجن.

وكان عليه السلام يقول: لا تفيد الخلوة إلا إن كانت بإشارة شيخ، وإلا ففسادها أكثر من صلاحها^(١)، وكان يقول: لا يحق لك أن تأمر غيرك إلا إن كانت الشريعة تزكيك بوقوفك على حدودها، وكان يقول: الجسد ثلاثة أقسام قلب، ولسان، وأعضاء فاللسان، والأعضاء، وكل بهما ملائكة، والقلب تولاه الله تعالى، وجاءه رجل فقال: أريد أن أسلك طريق الحقيقة فقال يا ولدي الزم أولاً طريق النسك على كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله المرضية الزاهرة الباهرة التي نورها جلا الظلم، وأثار بطاح مكة، والمدينة والشام ومصر والعراق واليمن والمشرق والمغرب والأفق العلوي والسفلي، فإذا عملت بها انقذ لك منها علم الحقائق، والأسرار فاسلك يا أخي كما قلت لك على التدرج شيئاً بعد شيء، والله يحفظك إن صدقت، وكان عليه السلام يقول: ما ثم عمل أزكى ولا أنور، ولا أكثر فائدة من علم أهل الله عز وجل فإن الذرة منه ترجع على جبال من عمل غيرهم لخلوه من العلل^(٢)، وأيضاً فإن عمل القوم بقلوبهم، وأبدانهم، وعمل غيرهم بأبدانهم دون قلوبهم ولذلك لا يزدادون بكثرة الطاعات إلا كبراً وعجباً، وكان يقول: لو خشع قلبك يا ولدي في صلاتك لاختلط عقلك، وذهب لبيك، ولم تقدر أن تقرأ سورة واحدة من كتاب الله تعالى في تلك الحضرة فإن موسى عليه السلام خر صعقاً يتخبط كالطير المذبوح حين تجلى له مقدار جزء واحد من تسعة

(١) قلت: وذلك لأن روح الشيخ هي التي تديرها، وتحمل المرید أبان وجوده فيها من كل ضرر، وأما من دخلها بغير شيخ فقد أضر نفسه، إلا إن كان كاملاً فلا يحتاج إلى شيخ، وكثيراً ما يتعرض الشيطان لمن يدخلها بغير شيخ ويفسد عليه خلوته.

(٢) قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: «إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً، قيل كان يرفع له من العمل بقدر عمل أهل الأرض جميعاً، لأنه كان النائب عن الحق عز وجل».

وتسعين جزءاً من سم الخياط.

وهذا التجلي واقع لكل مصل لو عقل كما عقل موسى عليه السلام، وكان يقول: أهل الشريعة يبطلون الصلاة باللحن الفاحش، وأهل الحقيقة يبطلون الصلاة بالخلق الفاحش فإذا كان في باطنه حقد أو حسد أو سوء ظن بأحد أو محبة للدنيا فصلاته باطلة لأن أهل هذه الأخلاق في حجاب عن شهود عظمة الله تعالى في الصلاة، ومن كان قلبه محجوباً فما صلى لأن الصلاة صلة بالله تعالى. وكان عليه السلام يقول: يا ولد قلبي تجنب معاشرة أولي الأقوال، والجدال، ولا تتخذ أحداً منهم صاحباً، وجالس من جمع بين الشريعة، والحقيقة فإنه أعون لك على سلوكك، وكان عليه السلام يقول: إن كنت ولدي حقاً، ومتبعي صدقاً فأخلص الرق لله تعالى، واجعل وعظك من قلبك، وكن عمالاً، ولا تلمس لأحد درهماً فإن هذه طريقي، ومن أحبني سلك معي فيها فإن الفقير الصادق هو الذي يطعم، ولا يطعم، ويعطي ولا يعطي، ولا يلمس الدنيا، ولا شيئاً من عروضها فإن الرشا في الطريق حرام، وشيخكم قد بايع الله تعالى أن لا يأخذ لأحد فلساً، ولا درهماً وإنما أمركم بذلك لله لا لغرض ولا لأمر دنيوي ولا لأثاث، وليس دعوى إنما المراد سلامة الذمة من الخلل في نصح الإخوان.

وكان عليه السلام يقول: كم من علم يسمعه من لا يفهمه فيتلفه، ولذلك أخذت العهود على العلماء أن لا يودعوا العلم إلا عند من له عقل عاقل، وفهم ثاقب، وكان يقول: الصحيح من قول العلماء أن العقل في القلب⁽¹⁾ لحديث إن في الجسد مضغة، ولكن إذا فكرت في كنه العقل، وجدت الرأس يدبر أمر الدنيا، ووجدت القلب يدبر أمر الآخرة فمن جاهد شاهد، ومن رقد تباعد، وكان يقول: ليس أحد يقدم في الطريق بكبر سنه، وتقدم عهده إنما يقدم بفتحه، ومع هذا فمن فتح عليه منكم فلا يرى نفسه على من لم يفتح عليه، وتأمل يا ولدي إبليس

(1) مقصوده أن فكر الشخص نابع من صلاح قلبه أو فساد، فلاشك أن لصلاح القلوب وفسادها قوة على مدى تفكير العقل، وأما أن العقل - أي المخ - هو نفس القلب من حيث التشريح الطبى فلا أظنه أنه يقصد هذا.

للآعين لما رأى نفسه على آدم ﷺ، وقال: أنا أقدم منه، وأكثر عبادة ونوراً كيف لعنه الله تعالى، وطرده، وكان يقول: يجب على حامل القرآن أن لا يملأ جوفه حراماً ولا يلبس حراماً فإن فعل ذلك لعنه القرآن من جوفه، وقال: لعنة الله على من لم يجز كلام الله تعالى وكان يقول: من أحب أن يكون ولدي فليحبس نفسه في قمقم الشريعة، وليختم عليها بخاتم الحقيقة وليقتلها بسيف المجاهدة، وتجزع المرارات، ومن رأى أن له عملاً سقط من عين ربه، وحرّم من ملاحظته وكان يقول: العارف يرى حسناته ذنباً، ولو آخذه الله تعالى بتقصيره فيها لكان عدلاً، وكان يقول: يا أولادي اطلبوا العلم ولا تقفوا، ولا تسأموا فإن الله تعالى قال لسيد المرسلين: "وقل رب زدني علماً" فكيف بنا، ونحن مساكين في أضعف حال، وفي آخر زمان، وسبب طلب الزيادة من العلم إنما هي للأدب يعني اطلب الزيادة من العلم لتزداد معي أدباً على أدبك، وما قدروا الله حق قدره، وكان ﷺ يقول: إذا ألبس مريداً الخرقة اعلم يا ولدي أن صحة هذه الطريق، وقاعدتها، ومجلاها، ومحكمها الجوع فإن أردت السعادة فعليك بالجوع، ولا تأكل إلا على فاقة فإن الجوع يفسل من الجسد موضع إبليس فيا ولدي تريد شربة بلا حمية هذا لا يكون وكان يقول: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بواطنكم بنور الله تعالى فيجد فيها ما يسخط الله تعالى فإن أحببت يا ولدي أن تسمع وتبصر وتعقل فع⁽¹⁾ في باطنك الفوائد، فلا تقنع بيوس اليد، ولا بالرياسة، ولا يكمل الفقير إلا إن تكلم بمعاني الحقيقة ذوقاً لا نقلاً وفعلاً لا قولاً، وتحلى في باطنه بحلية الاصطفاء بالسر، والمعنى فتمغنى، وتكلم بالحكم، ونطق بالمعجم، وبالسر المكتوم، واطلع، وحقق فما ينطق إلا صدقاً، ولا يتكلم إلا حقاً، وعند ذلك يصح له أن يدعو الخلق إلى الله تعالى وكان ﷺ يقول: يا ولد قلبي كن على حذر من الدخلاء والدخيل السوء، وإن عاينت من أخيك عنفاً أو حسداً فعاشره بالمعروف.

واحفظ نفسك عنه، وأما صديقك فإن صدقك فاحفظه، وما للمرء يا ولدي

(1) قلت: هكذا في المخطوطة وأكثر النسخ القديمة المطبوعة ولعلها وتفتع ولعله خطأ من الناسخ.

إلا أن يكون على حذر من جميع البشر فإننا في آخر زمان، وقد قل النصح حتى لا تكاد تنظر ناصحاً، وعاد من توليه سروراً يوليك نكداً وشروراً، ومن ترفعه يسعى أن يضعك، ومن لم تحسن إليه يسيء إليك بل ثم من تحسن إليه يسيء إليك ومن تشفق عليه يود لو على الرماح رماك، أو على الشوك داسك، ومن تنفعه يضرك، ومن توليه معروفاً يوليك جفاءً، ومن تصله يقطعك ومن تطعمه يحرمك، ومن تقدمه إن استطاع أخرك، ومن تربيته يقول: أنا الذي رببتك، ومن تخلص له يفشك، ومن تهش له يكش، فوا عجباً للعالم، ولأهلها، وإذا كان النفاق داخلًا في أيام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف يخلو في قرن سابع؟ فاستعمل يا ولدي الوحدة عن أهل السوء والكسب من أهل الخير، وإن استطعت أن لا تصحب من تتعب في صحبته فافعل فإنك إن صحبته ندمت على صحبته، وقد نصحتك يا ولدي، وأما أهل التمكين في هذا الزمان فقد تركوا أخلاق الأراذل من الناس، وغفروا لهم أفعالهم، وغضوا أبصارهم عن نقائصهم، ووصموا آذانهم عن سماع أقوالهم، وتركوا الكل لله وطلبوا من الله تعالى لأهل هذا الزمان عفواً شاملاً، وقابلوا سيئاتهم بالحسنات، ومضراتهم بالمسرات والمبرات.

قلت: ويشهد لأهل التمكين قوله ﷺ "ومن لا يمالئكم فيبعوه ولا تعذبوا خلق الله". وفيما فعله أهل التمكين دليل لغلغلة باب السلوك في هذا الزمان من باب أولى لأن معالجة أهله تشغل الفقير عن مهمات نفسه من غير ثمرة كما هو مشاهد، والله أعلم، وكان ﷺ يقول: المرید مع شیخه علی صورة المیت لا حركة ولا كلام، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه، ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة في الزاوية أو غير ذلك، هكذا كانت طريق السلف والخلف مع أشياخهم فإن الشيخ هو والد السر، ويجب على الولد عدم العقوق لوالده، ولا نعرف للعقوق ضابطاً نضبطه به إنما الأمر عام في سائر الأحوال وما جعلوه إلا كالميت بين يدي الفاسل، فعليك يا ولدي بطاعة والدك، وقدمه على والد الجسم فإن والد السر أنفع من والد الظهر لأنه يأخذ الولد قطعة حديد جامد فيسبكه،

ويذبيته، ويقطره، ويلقي عليه من سر الصنعة^(١) سراً فيجعله ذهباً إبريزاً فاسمع يا ولدي تنتفع، وكثير من الفقراء صحبوا أشياخهم حتى ماتوا، ولم ينتفعوا لعدم الأدب، وبعضهم مقتوا، آه من صدود الرجال، ومن صحبة الأضداد، ومن سماع المرید للمحال، وكان ﷺ يقول: أنا موسى ﷺ في مناجاته، أنا علي ﷺ في حملاته، أنا كل ولي في الأرض خلعت بيدي ألبس منهم من شئت، أنا في السماء شاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار غلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس، واعلم يا ولدي أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله، وما كان ولي متصلاً بالله تعالى إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى ﷺ يناجي ربه^(٢)، وما من ولي إلا ويحمل^(٣) على الكفار كما كان علي بن أبي طالب ﷺ يحمل، وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخاً في الأزل بين يدي قديم الأزل، وبين يدي رسول الله ﷺ، وإن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ، وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي، فخلعت عليهم بيدي، وقال لي رسول الله ﷺ يا إبراهيم أنت نقيب عليهم فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلقي، وابن الرضا علي خلف عبد القادر ثم التفت إلى رسول الله ﷺ وقال لي: يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له: يفلق النيران، وسر إلى رضوان وقل له: يفتح الجنان ففعل مالك ما أمر به ورضوان ما أمر به وأطال في معاني هذا الكلام ثم قال ﷺ وما يعلم ما قلته إلا من انخلع من كثافة حجبته، وصار مروحناً^(٤) كالملائكة. قلت: وهذا الكلام من مقام الاستطالة تعطي الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح والسلام.

(١) أي يورث المرید الصادق سره الإلهي بحكم الإرادة له.

(٢) مناجاة على قدره وعلى قدر مقامه، وليست كمناجاة الأنبياء، فمناجاة الأولياء من خلف الحجاب الذي يتكلم منه أهل النبوة، ولو تكلم الولي من مكان مخاطبة الأنبياء لذاب واحترق.

(٣) أي إلا ويحمل باطنياً ويقاوم من باب الباطن كما رمى أحدهم حذاه وقت الجهاد فانتصر المسلمون.

(٤) أي صار بلا نفس وهو الكامل من الرجال.

وهو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد بن أبي النجاء بن زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد بن أبي الطيب بن عبد الله الكاتم بن عبد الخالق بن أبي القاسم بن جعفر الزكي بن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي الزاهد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي رضي الله عنه أجمعين.

تفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ثم اقتفى آثار السادة الصوفية، وجلس في مرتبة الشيخوخية وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثاً وأربعين سنة، ولم يغفل قط عن المجاهدة للنفس، والهوى، والشيطان حتى مات سنة ست وسبعين وستمائة رضي الله عنه. ومن نظمه (١) رضي الله عنه:

سقاني محبوبي بكأس المحبة فتهدت عن المشاق سكرًا بخلوتي
 ولاح لنا نور الجلالة لو أضأ لصم الجبال الراسيات لدكت
 وكنت أنا الساقى لمن كان حاضرا أطوف عليهم كرة بعد كرة
 ونادمني سرًا بسر وحكمة وإن رسول الله شيخني وقديوتي
 وعاهدني عهداً حفظت لعهدہ وعشت وثيقاً صادقاً بمحبتتي
 وحكمني في سائر الأرض كلها وفي الجن والأشباح والمرية
 وفي أرض صين الصين، والشرق كلها لأقصى بلاد الله صحت ولايتي وكل
 أنا الحرف لا أقرأ لكل مناظر الورى من أمر ربي رعييتي
 وكم عالم قد جانا، وهو منكر فصار بفضل الله من أهل خرقتي
 وما قلت هذا القول فخراً وإنما أتى الإذن كي لا يجهلون طريقتي

وله أيضاً عفا الله عنا به:

(١) ذكرت هذه التائية في كتابي «الجامع لتأثيرات الصوفية».

تجلى لي المحبوب في كل وجهة فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائري فقال أتدري من أنا قلت منيتي
فأنت مناي بل أنا أنت دائماً إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتي
فقال: كذاك الأمر لكنه إذا تعينت الأشياء كنت كنسختي
فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته بغير حلول بل بتحقيق نسبتي
فصرت فناء في بقاء مؤيد لذات بلديمومة سر منية
وغيبني عني فأصبحت سائلاً لذاتي عن ذاتي لشغلي بغيبتي
وأنظر في مرآة ذاتي مشاهداً لذاتي بذاتي وهي غاية بغيثي
فأغدوا وأمري بين أمرين واقف علمي تمحوني، ووهمي مثبتتي
خبأت له في جنة القلب منزلاً ترفع عن دعء وهند وعلوة
أنا ذلك القطب المبارك أمره فإن مدار الكل من حول ذروتي
أنا شمس إشراق العقول، ولم أفل ولا غابت إلا عن قلوب عمية
يروني في المرآة، وهي صنية وليس يروني بالمرآة الصقيلة
وبي قامت الأنبياء في كل أمة بمختلف الآراء والكل أممي
ولا جامع إلا ولي فيه منبر وفي حضرة المختار فزت ببغيتي
وما شهدت عيني سوى عين ذاتها وإن سواها لا يلم بفكرتي
بذاتي تقوم الذات في كل ذروة أجدد فيها حلة بعد حلة
فليلى وهند والرياب وزينب وعلوى وسلمى بمسها وبثينة
عبارات أسماء بغير حقيقة وما لوحوا بالقصد إلا لصورتي
نعم نشأتني في الحب من قبل آدم وسرى في الأكوان من قبل نشأتني

أنا كنت في العلياء مع نور أحمد على الدرة البيضاء في خلوتي
أنا كنت في رؤيا النبيح فداه بلطف عنايات، وعين حقيقة
أنت كنت مع إدريس لما أتى الملا رأسكن في الفردوس أنعم بقمة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقاً وأعطيت داوداً حلوة نغمة
قلت: وجميع ما فيه استطالة^(١) من هذه الأبيات إنما هو بلسان الأرواح، ولا
يعرفه إلا من شهد صدور الأرواح من أين جاءت، وإلى أين تذهب، وكونها
كالعضو الواحد من المؤمن إذا اشتكى فيه ألماً تداعى له سائر الجسد، وذلك
خاص بالكامل المحمدي لا يعرفه غيره. وقد كان سهل بن عبد الله التستري
رضي الله عنه يقول: أعرف تلامذتي من يوم الست بريكم، وأعرف من كان في ذلك
الموقف عن يميني ومن كان عن شمالي، ولم أزل من ذلك اليوم أربي تلامذتي،
وهم في الأصلاب لم يحجبوا عني إلى وقتي هذا، ونقله ابن العربي رضي الله عنه في
الفتوحات. وكان رضي الله عنه يقول: أشهدني الله تعالى ما في العلى، وأنا ابن ست
سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ، وأنا ابن ثمان سنين، وفككت طلسم السماء،
وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني حرفاً معجماً حار فيه الجن
والإنس، ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته، وحركت ما سكن، وسكنت ما
تحرك بإذن الله تعالى وأنا ابن أربع عشرة سنة^(٢)، والحمد لله رب العالمين.

هذا ما لخصته من كتاب الجواهر له رضي الله عنه، وهو مجلد ضخمة.

ومنهم السيد الحسين النسيب

أبو العباس سيدي أحمد البدوي الشريف رضي الله عنه

وشهرته في جميع أقطار الأرض تفني عن تعريفه، ولكن نذكر جملة من
أحواله تبركاً به فنقول وبالله التوفيق: مولده رضي الله عنه بمدينة فاس بالمغرب لأن
(١) راجع ما كتبه عن الشطح في كتابنا معجم شطحات الصوفية وهو مطبوع في بيروت.
(٢) قلت: كل ما سبق من باب قوله رضي الله عنه: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد».

أجداده انتقلوا أيام الحجاج إليها حين أكثر القتل في الشرفاء فلما بلغ سبع سنين سمع أبوه قائلاً يقول له في منامه : يا علي انتقل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة فإن لنا في ذلك شأنًا، وكان ذلك سنة ثلاث، وستمائة قال: الشريف حسن أخو سيدي أحمد عليه السلام فما زلنا ننزل على عرب ونرحل عن عرب فيتلقوننا بالترحيب، والإكرام حتى وصلنا إلى مكة المشرفة في أربع سنين فتلقانا شرفاء مكة كلهم، وأكرمونا، ومكثنا عندهم في أرغد عيش حتى توفي والدنا سنة سبع، وعشرين وستمائة، ودفن بباب المعلاة، وقبره هناك ظاهر يزار في زاوية قال الشريف حسن : فأقمت أنا، وأخوتي وكان أحمد أصغرنا سنًا، وأشجعنا قلبًا، وكان من كثرة ما يتلثم⁽¹⁾ لقبناه بالبدوي فأقرأته القرآن في المكتب مع ولدي الحسين، ولم يكن في فرسان مكة أشجع منه، وكانوا يسمونه في مكة العطاب فلما حدث عليه حادث الوله تغيرت أحواله، واعتزل عن الناس، ولازم الصمت فكان لا يكلم الناس إلا بالإشارة، وكان بعض العارفين عليه السلام يقول: إنه عليه السلام حصلت له جمعية على الحق تعالى فاستغفرته إلى الأبد، ولم يزل حاله يتزايد إلى عصرنا هذا ثم إنه في شوال سنة ثلاث، وثلاثين وستمائة رأى في منامه ثلاث مرات قائلاً يقول: له قم، واطلب مطلع الشمس فإذا وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس، وسر إلى طنندا فإن بها مقامك أيها الفتى فقام من منامه، وشاور أهله وسافر إلى العراق فتلقاه أشياخها منهم سيدي عبد القادر، وسيدي أحمد بن الرفاعي فقالا: يا أحمد مفاتيح العراق، والهند، واليمن، والروم، والمشرق، والمغرب بأيدينا فاختر أي مفتاح شئت منها فقال لهما سيدي أحمد عليه السلام لا حاجة لي بمفاتيحكما ما آخذ المفتاح إلا من الفتاح قال:

(1) حقيقة اللثام عند العارفين لزيادة نور التجلي على وجوههم، فربما حدث صعق لمن يرى وجوههم، كما حدث لسيدي عبد المجيد لما طلب أن يرى وجه سيدي أحمد البدوي فقال له سيدي أحمد: يا عبد المجيد كل نظرة برجل، فكشف له اللثام الفوقاني فمات، ويحكى عن أبي يزيد عليه السلام أنه كان ملتئمًا وطلب مرید له أن يرى وجهه فلما كشف له اللثام مات فسئل عن سبب صعقه فقال: إنه رأى معنى من معاني الربوبية لم يكن رآه من قبل.

سيدي حسن: فلما فرغ سيدي أحمد من زيارة أضرحة أولياء العراق كالشيخ عدي بن مسافر، والحلاج^(١)، وأضرابهما خرجنا قاصدين إلى ناحية طندتا فأحرق بنا الرجال من سائر الأقطار يعاندوننا، ويعارضوننا، ويثاقلوننا فأوما سيدي أحمد رحمته الله إليهم بيده فوقعوا أجمعين فقالوا له: يا أحمد أنت أبو الفتيان فانكبوا مهزومين راجعين، ومضينا إلى أم عبيدة فرجع سيدي حسن إلى مكة وذهب سيدي أحمد رحمته الله إلى فاطمة بنت بري وكانت امرأة لها حال عظيم، وجمال بديع، وكانت تسلب الرجال أحوالهم^(٢) فسلمها سيدي أحمد رحمته الله حالها، وتابت على يديه أنها لا تتعرض لأحد بعد ذلك اليوم، وتفرقت القبائل الذين كانوا اجتمعوا على بنت بري إلى أماكنهم، وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء، ثم إن سيدي أحمد رحمته الله رأى الهاتف في منامه يقول له: يا أحمد سر إلى طندتا فإنك تقيم بها، وتربي بها رجالا وأبطلا عبد العال، وعبد الوهاب، وعبد المجيد، وعبد المحسن، وعبد الرحمن رحمته الله، وكان ذلك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة، فدخل رحمته الله مصر ثم قصد طندتا فدخل على الحال مسرعاً دار شخص من مشايخ البلد اسمه ابن شحيط فصعد إلى سطح غرفته وكان طول نهاره وليله قائماً شاخصاً يبصره إلى السماء، وقد انقلب سواد عينيه حمرة تتوقد كالجمر وكان يمكث الأربعين يوماً وأكثر لا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام ثم نزل من السطح، وخرج إلى ناحية فيشا المنارة فتبعه الأطفال فكان منهم عبد العال، وعبد المجيد فورمت عين سيدي أحمد رحمته الله فطلب من سيدي عبد العال بيضة يعملها على عينه فقال: وتعطيني الجريدة الخضراء التي معك فقال سيدي أحمد رحمته الله له: نعم فأعطاها له فذهب إلى أمه فقال هنا بدوي عينه توجهه فطلب مني بيضة وأعطاني هذه الجريدة فقالت: ما عندي شيء فرجع فأخبر سيدي أحمد رحمته الله فقال: اذهب فأنتي بواحدة من الصومعة فذهب

(١) قلت: فيه دلالة على علو مقام الحلاج بين الأولياء وأنه كان من خواص خواص الأمة.

(٢) كما هو مقدر لهم ذلك في العلم الإلهي على يديها.

سيدي عبد العال فوجد الصومعة قد ملئت بيضاً فأخذ له واحدة منها، وخرج بها إليه ثم إن سيدي عبد العال تبع سيدي أحمد عليه السلام من ذلك الوقت ولم تقدر أمه على تخليصه منه فكانت تقول: يا بدوي الشوم علينا فكان سيدي أحمد عليه السلام إذا بلغه ذلك يقول: لو قالت: يا بدوي الخير كانت أصدق ثم أرسل لها يقول: إنه ولدي من يوم قرن الثور، وكانت أم عبد العال قد وضعت في ملف الثور، وهو رضيع فطاطماً الثور ليأكل فدخل قرنه في القماط^(١) فشال عبد العال على قرنيه فهاج الثور فلم يقدر أحد على تخليصه منه فمد سيدي أحمد عليه السلام يده، وهو بالعراق فخلصه من القرن فتذكرت أم عبد العال الواقعة، واعتقدته من ذلك اليوم فلم يزل سيدي أحمد على السطوح^(٢) مدة اثنتي عشرة سنة، وكان سيدي عبد العال عليه السلام يأتي إليه بالرجل أو الطفل فيطاطم من السطوح فينظر إليه نظرة واحدة فيملاً مدداً ويقول لعبد العال اذهب به إلى بلد كذا، أو موضع كذا فكانوا يسمون أصحاب السطح وكان عليه السلام لم يزل متلثماً بلثامين فاشتتهى سيدي عبد المجيد عليه السلام يوماً رؤية وجه سيدي أحمد عليه السلام فقال: يا سيدي أريد أن أرى وجهك أعرفه فقال: يا عبد المجيد كل نظرة برجل فقال: يا سيدي أرني؛ ولو مت فكشف له اللثام فوقاني فصعق، ومات في الحال^(٣).

وكان في طندنا سيدي حسن الصائغ الإخنائي، وسيدي سالم المغربي فلما قرب سيدي أحمد عليه السلام من مصر أول مجيئه من العراق قال سيدي حسن عليه السلام: ما بقي لنا إقامة صاحب البلاد قد جاءها فخرج إلى ناحية إخنا، وضريجه بها

(١) القماط: ما يلف به الطفل الرضيع من القماش.

(٢) ولذلك قيل لأصحابه السطوحية نسبة إلى السطح.

(٣) وهم أولياء النظرة ويخفونها عن الخلق باللثام، وهي أنوار قهرية جلالية، كما مات مرید أبي يزيد لما نظر إلى وجهه قال سبحانه: «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً قلت: وأما الأكمل من هؤلاء كلهم هو نبينا محمد عليه السلام فقلبت أنوار كماله وجماله أنوار قهره فلم يتأذى أحد بأنواره.

مشهور إلى الآن ومكث سيدي سالم رحمته الله فسلم سيدي أحمد رحمته الله، ولم يتعرض له فأقره سيدي أحمد رحمته الله، وقبره في طنندا مشهور، وأنكر عليه بعضهم فسلب، وانطفاً اسمه وذكره، ومنهم صاحب الإيوان العظيم بطنندا المسمى بوجه القمر كان ولياً عظيماً فثار عنده الحسد ولم يسلم الأمر لقدرة الله تعالى فسلب وموضعه الآن بطنندا مأوى للكلاب ليس فيه رائحة صلاح ولا مدد، وكان الخطباء بطنندا انتصروا له، وعملوا له وقفاً، وأنفقوا عليه أموالاً، وبنوا لزاويته مئذنة عظيمة فرفضها سيدي عبد العال رحمته الله برجله ففارت إلى وقتنا هذا، وكان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات يمتقد في سيدي أحمد رحمته الله اعتقاداً عظيماً، وكان ينزل لزيارته، ولما قدم من العراق خرج هو، وعسكره من مصر فتلقوه، وكرموا غاية الإكرام. وكان رحمته الله غليظ الساقين طويل الذراعين كبير الوجه أكحل العينين طويل القامة قمحي^(١) اللون، وكان في وجهه ثلاث نقط من أثر جذري في خده اليمين واحدة، وفي الأيسر ثنتان أقتى الأنف على أنفه شامتان من كل ناحية شامة سوداء أصفر من العدس، وكان بين عينيه جرح موسى جرحه ولد أخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة، ولم يزل من حين كان صغيراً باللثامين، والغرزتين، ولما حفظ القرآن العظيم اشتغل بالعلم مدة على مذهب الإمام الشافعي رحمته الله حتى حدث له حادث الوله فترك ذلك الحال، وكان إذا لبس ثوباً، أو عمامة لا يخلعها لغسل، ولا لغيره حتى تذوب فيبدلونها له بغيرها^(٢)، والعمامة التي يلبسها الخليفة كل سنة في المولد هي عمامة الشيخ بيده، وأما البشت الصوف الأحمر فهو من لباس سيدي عبد العال رحمته الله، وكان رحمته الله يقول: وعزة ربي سواقي تدور على البحر المحيط لو نفذ ماء سواقي الدنيا كلها لما نفذ ماء سواقي.

مات رحمته الله سنة خمس وسبعين وستمائة، واستخلف بعده على الفقراء سيدي

(١) مصطلح عامي قديم لا يزال يستعمل يشير إلى درجة البشرية التي بين السمرة والبياض.

(٢) قلت: أخذ عنه المجاذيب بعده هذا الحال، فكان كثير منهم من لا يبدل ثوبه إذا ذاب عليه.

(١) عبد العال، وسار سيرة حسنة، وعمر المقام، والمنارات، ورتب الطعام للفقراء وأرياب الشعائر، وأمر بتصغير الخبز على الحال الذي هو عليه اليوم، وأمر الفقراء الذين صحت لهم الأحوال بالإقامة في الأماكن التي كان يعينها لهم فلم يستطع أحد أن يخالفه فأمر سيدي يوسف أبا سيدي إسماعيل الإنبائي أن يقيم بإنبابة، وسيدي أحمد أبا طرطور أن يقيم تجاه إنبابة في البرية، وسيدي عبد الله الجيزي أن يقيم في البرية تجاه الجيزة، وأمر سيدي وهيباً، بالإقامة في برشوم الكبرى، فأما سيدي يوسف عليه السلام، فأقبلت عليه الأمراء، والأكابر من أهل مصر، وصار سباطه في الأطعمة لا يقدر عليه غالب الأمراء، فقال الشيخ أحمد أبو طرطور يوماً لأصحابه: اذهبوا بنا إلى أخينا يوسف ننظر حاله، فمضوا إليه فقال لهم: كلوا من هذه الماوردية، واغسلوا الغش الذي في بطونكم من العدس، والبسلة لسيدي أحمد فغضب الشيخ أبو طرطور من ذلك الكلام، وقال: ما هو إلا كذا يا يوسف فقال: هذه مباسطة فقال أبو طرطور: ما هو إلا محاربة بالسهم، فمضى أبو طرطور إلى سيدي عبد العال عليه السلام، وأخبره الخبر فقال: لا تتشوش يا أبا طرطور نزعنا ما كان معه، وأطفأنا اسمه وجعلنا الاسم لولده إسماعيل، فمن ذلك اليوم انطفأ اسم سيدي يوسف إلى يومنا هذا، وأجرى الله على يدي سيدي إسماعيل الكرامات، وكلمته البهائم، وكان يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ، ويقول: يقع كذا، وكذا لفلان فيجيء الأمر كما قال: فأنكر عليه شخص من علماء المالكية، وأفتى بتعزيره فبلغ ذلك سيدي إسماعيل، فقال: ومما رأيت في اللوح المحفوظ أن هذا القاضي يفرق في بحر الفرات فأرسله ملك مصر إلى ملك الإفرنج ليجادل القسيسين عندهم، فإنه، وعد بإسلامهم إن قطعهم عالم المسلمين بالحجة فلم يجدوا في مصر أكثر كلاماً، ولا جدلاً من هذا القاضي فأرسلوه ففرق في بحر الفرات. وأما ترتيب الأشاير المشهورة في بيت سيدي أحمد عليه السلام إلى الآن من أولاد الفران، وأولاد الراعي، وأولاد المعلوف، وأولاد الكناس، وغيرهم فرتبهم كذلك سيدي عبد العال عليه السلام، ولم يكن أحد من (١) اسم عبد العال هو عبد العال في الحقيقة أخذوه من اسمه تعالى الأعلى قال سبحانه: «سبح اسم ربك الأعلى».

أولاد الأشاير يدخل راكباً حوش الخليفة بلا إذن إلا أولاد المملوك لما كانوا يعلمون من حب سيدي أحمد رحمته الله لهم.

وكان سيدي عبد الوهاب الجوهرى رحمته الله المدفون قريباً من محلة مرحوم إذا جاءه شخص يريد الصحبة يقول له دق هذا الوتد في هذه الحائط فإن ثبت الوتد في الحائط أخذ عليه العهد، وإن خار ولم يثبت يقول له: اذهب ليس لك عندنا نصيب، وقد دخلت الخلوة، ورأيت الحائط غالبها شقوق، وما ثبت فيها إلا بعض أوتاد، وكان الشيخ رحمته الله يعلم من هو من أولاده بالكشف، وإنما كان يفعل ذلك إقامة حجة على المرید ليقضي بذلك على نفسه^(١)، ولا تقوم نفسه من الشيخ. وأما أمر سيدي الشيخ محمد المسمى بقمر الدولة فلم يصحب سيدي أحمد زماناً إنما جاء من سفر في وقت حر شديد فطلع يستريح في طننتا، فسمع بأن سيدي أحمد رحمته الله ضعيف فدخل عليه يزوره، وكان سيدي عبد العال وغيره غائبين فوجد سيدي أحمد قد شرب ماء بطيخة، وتقايأه^(٢) ثانياً فيها، فأخذه سيدي محمد المذكور وشربه فقال له سيدي أحمد: أنت قمر دولة أصحابي فسمع بذلك سيدي عبد العال والجماعة فخرجوا لمعارضته^(٣)، وقتله بالحال^(٤) فرمخ فرسه في البئر التي بالقرب من كوم التربة النفاضة فطلع من البئر التي بناحية نفيا فانتظروه عند البئر التي نزل فيها زماناً فجاء الخبر أنه طلع من تلك البئر التي قرب نفيا فرجعوا عنه، فأقام بنفيا إلى أن مات لم يطلع طننتا من سيدي عبد العال. وكان رحمته الله من أجناد السلطان محمد بن قلاوون، وعمامته، وثوبه، وقوسه، وجعبته، وسيفه معلقات في ضريحه بنفيا رحمته الله. قلت: وسبب حضورى مولده كل سنة أن شيخى العارف بالله تعالى محمد الشناوى

(١) أى أنه كان يترجم ذلك من لغة الباطن إلى لغة الحس من باب التصريف حتى يقيم الحجة.

(٢) القى عبارة عن نصيبه من إراثه الباطنية له.

(٣) أى أرادوا التصرف فيه غير ما قاله فى حقه سيدي أحمد البدوى رحمته الله.

(٤) قلت: هذه الغيرة لا تقع للكمل من الرجال لكون النفس نزع منهم فلا يغار الكامل من مقام غيره ولما قسم الحق سبحانه للتصرف فى الوجود بين أبى السعود بن الشبل وبين محمد بن قائد قال له ابن شبل: خذ سهمى تركنا الحق سبحانه يتصرف لنا.

ﷺ أحد أعيان بيته رحمه الله قد كان أخذ علي العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد ﷺ وسلمني إليه بيده فخرجت اليد الشريفة من الضريح وقبضت على يدي.

وقال: سيدي يكون خاطرك عليه، واجعله تحت نظرك فسمعت سيدي أحمد ﷺ من القبر يقول: نعم ثم إنني رأيته بمصر مرة أخرى هو، وسيدي عبد العال وهو يقول: زرنا بطندتا، ونحن نطبخ لك ملوخية ضيافتك، فسافرت، فأضافني غالب أهلها، وجماعة المقام ذلك اليوم كلهم بطبخ الملوخية^(١)، ثم رأيته بعد ذلك، وقد أوقفني على جسر قحافة تجاه طندتا فوجدته سوراً محيطاً، وقال: قف هنا ادخل على من شئت وامنع من شئت، ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءني، وأخذني، وهي معي، وفرش لي فرشاً فوق ركن القبة التي على يسار الداخل، وطبخ لي حلوى، ودعا الأحياء، والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها^(٢) هنا، فكان الأمر تلك الليلة، وتخلفت عن ميعاد حضوري للمولد سنة ثمان، وأربعين، وتسعمائة وكان هناك بعض الأولياء فأخبرني أن سيدي أحمد ﷺ كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول: أبطأ عبد الوهاب ما جاء، وأردت التخلف سنة من السنين فرأيت سيدي أحمد ﷺ، ومعه جريدة خضراء، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار، والناس خلفه، ويمينه، وشماله أمم وخالق لا يحصون فمر علي، وأنا بمصر، فقال: أما تذهب فقلت بي وجع فقال: الوجع لا يمنع المحب ثم أراني خلقاً كثيراً من الأولياء، وغيرهم الأحياء، والأموات من الشيوخ والزمنى بكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد ثم أراني جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الإفرنج مقيدين مغلولين يزحفون على مقاعدهم، فقال: انظر إلى هؤلاء في هذا الحال، ولا

(١) أي انصبغ الكل بما قاله الولي، لأن قول الولي المتصرف حياً وميتاً تفذه له القدرة، وهو كالأحكام المقررة في الوجود، وإلا لما طبخوا له كلهم ملوخية.

(٢) قلت: حقيقة الأمر أنه مجرد أمر له بإزالة بكاره زوجته، لأنه قد يكون رأى أنه قد أطل المدة بمدم مجامعتها لمدة خمسة أشهر وهو مخالف للشرع والسنة، وليس كما يوحى ظاهر النص بأنه أزال بكارتها فوق ركن القبة لاستحالة ذلك.

يتخلفون فقوي عزمي على الحضور فقلت له إن شاء الله تعالى نحضر فقال: لا بد من الترسيم عليك فرسم على سبعين عظيمين أسودين كالأفيال، وقال: لا تفارقاه حتى تحضرا به، فأخبرت بذلك سيدي الشيخ محمد الشناوي رحمته الله فقال: سائر الأولياء يدعون الناس بقصدهم، وسيدي أحمد رحمته الله يدعو الناس بنفسه إلى الحضور ثم قال: إن سيدي الشيخ محمد السروي رحمته الله شيخني تخلف سنة عن الحضور فعاتبه سيدي أحمد رحمته الله، وقال: موضع يحضر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه، وأصحابهم، والأولياء رحمهم الله ما تحضره، فخرج الشيخ محمد رحمته الله إلى المولد فوجد الناس راجعين، وفات الاجتماع فكان يلمس ثيابهم، ويمر بها على وجهه انتهى، وقد اجتمعت مرة أنا، وأخي أبو العباس الحريشي رحمه الله تعالى بولي من أولياء الهند بمصر المحروسة فقال رحمته الله: ضيفوني فإني غريب وكان معه عشرة أنفس فصنعت له فطيراً وعسلأ فآكل فقلت له: من أي البلاد؟ فقال: من الهند فقلت: ما حاجتك في مصر؟ فقال: حضرنا مولد سيدي أحمد رحمته الله فقلت له: متى خرجت من الهند؟ فقال: خرجنا يوم الثلاثاء فتمنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، وليلة الخميس عند الشيخ عبد القادر بيفداد، وليلة الجمعة عند سيدي أحمد رحمته الله بطندنا فتعجبنا من ذلك فقال: الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله عز وجل واجتمعنا به يوم السبت انفضاض المولد طلعة الشمس فقلنا لهم: من عرفكم بسيدي أحمد رحمته الله في بلاد الهند فقالوا: يا لله العجب أطفالنا الصغار لا يحلفون إلا ببركة سيدي أحمد رحمته الله، وهو من أعظم أيمانهم، وهل أحد يجهل سيدي أحمد رحمته الله؟ إن أولياء ما وراء البحر المحيط، وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده (١) رحمته الله، وأخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمته الله أن شخصاً أنكر حضور مولده، فسلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام (٢)، فاستغاث بسيدي أحمد رحمته الله فقال: بشرط أن لا تعود فقال: نعم فرد عليه ثوب إيمانه ثم قال له:

(١) أي بطريق الانتقال الروحي.

(٢) قلت: وهذا الوصف ينطبق على الوهابية الآن بسبب إنكارهم على الأولياء، فإنه ليست فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام وحب رسول الله صلى الله عليه وآله بل تجدهم جفاة غلاظ القلوب، يخرج الرجل =

وماذا تتكر علينا ؟ قال اختلاط الرجال والنساء فقال له سيدي أحمد رضي الله عنه: ذلك واقع في الطواف^(١)، ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب، وحسنت توبته، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار، وأحميهم من بعضهم بعضاً أفيعجزني الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدي، وحكى لي شيخنا أيضاً أن سيدي الشيخ أبا الغيث بن كتيلة أحد العلماء بالملحة الكبرى، وأحد الصالحين، لما كان بمصر فجاء إلى بولاق، فوجد الناس، مهتمين بأمر الولد، والنزول في المراكب، فأنكر ذلك، وقال: هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم ﷺ مثل اهتمامهم بأحمد البدوي فقال له شخص: سيدي أحمد ولي عظيم فقال: ثم في هذا المجلس من هو أعلى منه مقاماً، فعزم عليه شخص، فأطعمه سمكاً فدخلت حلقة شوكة تصلبت، فلم يقدرُوا على نزولها بدهن غطاس، ولا بحيلة من الحيل وورمت رقبته حتى صارت كخلاية النحل تسعة شهور، وهو لا يلتذ بطعام، ولا شرب، ولا منام، وأنساه الله تعالى السبب، فبعد التسعة شهور ذكره الله بالسبب، فقال: احملوني إلى قبة سيدي أحمد رضي الله عنه، فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس^(٢) فعطس عطسة شديدة، فخرجت الشوكة مغمسة دماً فقال: تبت إلى الله تعالى يا سيدي أحمد، وذهب الوجع، والورم من ساعته، وأنكر ابن الشيخ خليفة بناحية إبيار بالفريية حضور أهل بلده إلى المولد فوعظه شيخنا الشيخ محمد الشناوي، فلم يرجع فاشتكاه لسيدي أحمد فقال: ستطلع له حبة ترعى فمه، ولسانه فطلعت من يومه ذلك، وأتلفت وجهه، ومات بها، ووقع ابن اللبان في حق سيدي أحمد رضي الله عنه

= منهم الصلاة على النبي ﷺ من تحت ضرسه بفتور، وقد يتكبر أحدهم أن ينطق بالصلاة على النبي ﷺ، ويقعون في حق الأولياء والصالحين وينكرون عليهم ومن هنا أصابهم السهم.

(١) قلت: حجته هذه دالة على عظيم فقهه في الدين واجتهاده.

(٢) قلت: وقد حدث لي وأنا شاب صغير أنه كانت لدى شنطة بالأرقام فأغلقتها عند رقم معين وأنسانيه الله ثم حاولت فتحها لعدة أيام بدون جدوى حتى تورمت أطراف أصابعي من كثرة البحث فعلم بذلك والدي فابتدأ بقراءة سورة يس فما أستتم قراءة بعض آيات منها إلا وقد فتحت فتمعجت وعددت ذلك من كراماته.

فلسب القرآن، والعلم، والإيمان، فلم يزل يستغيث بالأولياء فلم يقدر أحد أن يدخل في أمره فدلوه على سيدي ياقوت^(١) العرشي فمضى إلى سيدي أحمد رضي الله عنه وكلمه في القبر، وأجابه، وقال له: أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رساله فقال: بشرط التوبة فتاب ورد عليه رساله، وهذا كان سبب اعتقاد ابن اللبان في سيدي ياقوت رضي الله عنه، وقد زوجه سيدي ياقوت ابنته، ودفن تحت رجليها^(٢) بالقرافة رحمه الله تعالى، وواقعة ابن دقيق العيد، وامتحانه لسيدي أحمد رضي الله عنه مشهورة، وهو أن الشيخ تقي الدين أرسل إلى سيدي عبد العزيز الدريني رضي الله عنه، وقال له: امتحن لي هذا الرجل الذي اشتغل الناس بأمره عن هذه المسائل، فإن أجابك عنها فهو ولي الله تعالى، فمضى إليه سيدي عبد العزيز^(٣)، وسأله عنها، فأجاب عنها بأحسن جواب، وقال: هذا الجواب مسطر في كتاب الشجرة فوجدوه في الكتاب كما قال وكان سيدي عبد العزيز إذا سئل عن سيدي أحمد رضي الله عنه يقول: هو بحر لا يدرك له قرار، وأخباره، ومجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج، وإغاثة الناس من قطاع الطريق، وحيلولته بينهم وبينهم، وبين من استجد به لا تحويها الدفاتر رضي الله عنه.

قلت: وقد شاهدت أنا بعيني سنة خمس وأربعين وتسعمائة أسيراً على منارة سيدي عبد العال رضي الله عنه مقيداً مغلولاً وهو مخبط العقل، فسألته عن ذلك ؟ فقال: بينا أنا في بلاد الإفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدي أحمد فإذا أنا به، فأخذني وطار بي في الهواء فوضعتني هنا، فمكث يومين، ورأسه دائر عليه من شدة الخطفة رضي الله عنه.

(١) قلت: لأن سيدي ياقوت رضي الله عنه كان الخليفة في ذلك الوقت - أي القطب - فكان أحق الناس بحل هذه المشكلة.

(٢) انظر إلى تأدب الأولياء مع بنات مشايخهم اللاتي أصبحن زوجاتهم، ولم تمنعهم القوامة والمعاشرة الجنسية على التعالى عليهن رضی اللہ تعالی عنہم.

(٣) قلت: يفضب بفضب الأولياء من امتحان الناس له وقد يتصرف فيه ويهلكه، إلا أن سيدي أحمد رضي الله عنه لما رأى علو مقام سيدي عبد العزيز وقوة صدقه أجابه بأحسن جواب، وذلك لأن الأولياء يعرفون بعضهم البعض وإلا كان تصرف فيه كمن تصرف فيهم.

ومنهم الشيخ العارف الكامل المحقق المدقق أحد أكابر العارفين بالله سيدي محيي الدين ابن العربي (١) رحمته الله

بالتعريف كما رأيت به بخطه في كتاب نسب الخرقه رحمته الله، أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على جلالته في سائر العلوم كما يشهد لذلك كتبه، وما أنكر من أنكر عليه إلا لدقة كلامه لا غير فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها لا يهتدى لتأويلها على مراد الشيخ، وقد ترجمه الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور، وغيره بالولاية الكبرى، والصلاح، والعرفان، والعلم، فقال: هو الشيخ الإمام المحقق رأس أجلاء العارفين والمقربين صاحب الإشارات الملكوتية، والنفحات القدسية، والأنفاس الروحانية، والفتح المونق، والكشف المشرق، والبصائر الخارقة، والسرائر الصادقة، والمعارف الباهرة، والحقائق الزاهرة، له المحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس، والمورد العذب في مناهل الوصل، والطول الأعلى من معارج الدنو، والقدم الراسخ في التمكين من أحوال النهاية، والباع الطويل في التصرف في أحكام الولاية، وهو أحد أركان هذه الطريق رحمته الله.

وكذلك ترجمه الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن أسعد اليافعي رحمته الله، وذكره بالعرفان، والولاية، ولقبه الشيخ أبو مدين رحمته الله بسلطان العارفين (٢)، وكلام الرجل أدل دليل على مقامه الباطن، وكتبه مشهورة بين الناس لا سيما بأرض الروم فإنه ذكر في بعض كتبه (٣) صفة السلطان جد السلطان سليمان بن عثمان الأول، وفتح القسطنطينية في الوقت الفلاني، فجاء الأمر كما قال

(١) قلت: الصحيح أنه بإسقاط (ال) التعريف كما هو مشهور ومتعارف عليه بين العلماء، وذلك للفرقة بينه وبين أبي بكر بن العربي المالكي تلميذ الغزالي وقد ترجمته في كتابي المسمى «طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصفوا».

(٢) وقيل بل لقبه بلقب الشيخ الأكبر.

(٣) وهو كتاب الشجرة النعمانية.

وبينه، وبين السلطان نحو مائتي سنة، وقد بنى عليه قبة عظيمة، وتكية شريفة بالشام فيها طعام، وخيرات، واحتاج إلى الحضور عنده من كان ينكر عليه من القاصرين بعد أن كانوا يبولون على قبره (١) رحمته، وأخبرني أخي الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبي أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشيخ محيي الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ، فحسف به دون القبر بتسعة أذرع، فغاب في الأرض، وأنا أنظر ففقدته أهله من تلك الليلة، فأخبرتهم بالقصة، فجاءوا، وحضروا، فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل، وغار في الأرض إلى أن عجزوا، وردموا عليه التراب، وكان رحمته أولاً يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب، ثم تزهد، وتعبد، وساح، ودخل مصر، والشام، والحجاز، والروم، وله في كل بلد دخلها مؤلفات، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر المحروسة يحط عليه كثيراً، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي رحمته، وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية، والعرفان، والقطبية، مات رحمته سنة ثمان وثلاثين، وستمائة، وقد سطرنا الكلام على علومه، وأحواله في كتابنا تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء، فراجعه، والله تعالى أعلم.

ومنهم الشيخ داود الكبير بن ماخلا (٢) رحمته

شيخ سيدي محمد وفا الشاذلي رحمته، كان رحمته شرطياً (٣) في بيت الوالي بالإسكندرية، وكان يجلس تجاه الوالي، وبينهما إشارة يفهم منها وقوع المتهم (٤)، أو براءته، فإن أشار إلي أنه بريء عمل بإشارته، أو أنه فعل ما اتهم به عمل بذلك، وكانت إشارته أنه إن قبض على لحيته، وجذبها إلى صدره علم أنه وقع، وإن جذبها إلى فوق علم أنه بريء، وله كلام عال في الطريق، وكان أمياً لا يكتب

(١) قلت: وهذا دوماً شأن الأكابر بيبتليهم الحق سبحانه وتعالى أحياناً وامواتاً.

(٢) وبعض الناس يقولون باخلا بالباء.

(٣) وقد ذكرته في كتابي «طبقات الملوك والأعيان الذين تركوا الملك وتصوفوا».

(٤) أي المتهم.

ولا يقرأ، ومن كلامه عليه السلام في كتابه المسمى بعيون الحقائق في قوله: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"، على قدر ارتقاء همتك في نيتك يكون ارتقاء درجتك عند عالم سريرتك، وكان عليه السلام يقول: إنما كانت العلل، والأسباب لوجود البعد، والحجاب، ومن استتار قلبه علم أن الخضوع لرب الأرباب حتم لازم للعبد من غير العلل.

وكان يقول: إقبال القلب على الله حسنة يرجى أن لا يضر معها ذنب، وإعراض القلب عن الله سيئة لا يكاد ينفع معها حسنة، وكان عليه السلام يقول: شهود الغافل سم قاتل، وكان يقول: إذا أكرم الله عز وجل عبداً هوى عنه شهود خصوصيته، وأقامه في تحقيق عبوديته، فالعبد إذا كان غائباً عن مراعاة حقوق عبوديته خيف عليه من الشطح، والانبساط، وتعدى عن حدود الأدب، والعدول عن سواء الصراط^(١) وكان يقول: النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤمر والولي يلهم وكان عليه السلام يقول: قلوب المؤمنين تحت ظل قلوب الأولياء، وقلوب الأولياء تحت ظل قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقلوب الأنبياء تحت ظل أنوار العناية، والإمداد تنزل، فيما بين ذلك، ويتلوها الشاهد منه، وكان يقول: ليس الشأن الخفاء في الخفاء إنما الشأن الخفاء في الظهور، وكان يقول: من أعظم أبواب الفتح يقظة العبد من غفلته، وكان يقول: احذروا هذه النفوس، فإن لها في الطاعات غوائل، وآفات، وكان يقول: من نظر إلى الأكوان نظر^(٢) قلب عوقب بالحجاب، أو بالحساب أو بالعذاب، وكان يقول: بنور النبوات يتضح الإيمان، وتثقل الأعمال، وبنور الولاية تزكو العبادات، وتثمر الأحوال، وكان عليه السلام يقول: إذا لم يكن ابن آدم عمالاً في مصالح الدنيا، والآخرة، فهو كالجماد في ذلك الوقت، وإن اشتغل بالمعصية، والشر، فهو كالشيطان، وإن اشتغل بأمر الدنيا، والآخرة، فهو كالحيوان، وإن اشتغل بفكره فيما هو لله تعالى، فهو كذلك، فانظر رحمك الله تعالى إلى درجة من تريد أن تلحق، وكان يقول: من الأولياء من يتكلم من خزانة

(١) يعنى افن عن شهود خصوصيتك فى شهود عبوديتك.

(٢) أى نظرة حجاب.

قلبه، ومنهم من يتكلم من خزانة غيبه فالتكلم من خزانة قلبه محصور، والتكلم من خزانة غيبه غير محصور.

وكان ﷺ يقول: ألح على الكرام في السؤال، وإن لم تكن أهلاً للعطاء، فإن لهم أخلاقاً جميلة، وكان ﷺ يقول: ما ذل قلب قط لبارئه إلا أفاده نوراً، وخيراً وكان ﷺ يقول: ما وقفت همة مرید في سيرها إلى الله تعالى عند كون لكون قط إلا ناداه منادي التحقيق أثبت وجود ما أنت واقف معه، وكان يقول: لا تجعل مستند إيمانك نتائج الفكرة البشرية بل فر من ذلك إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، واستعن بالله منه، واطلب ذلك من مدد الله عز وجل.

وفي رواية أخرى عنه إن أردت سلوك المحجة البيضاء، والوصول إلى ذروة أهل التقى، والاقترداء بأهل الرتبة الأولى، فإياك أن تجعل دينك وإيمانك من نتائج العقول، والأفكار، أو مستنداً إلى أدلة النظائر بل عرج إلى المحل الأعلى، والمنزل الأعز الأحمى^(١)، واستمد البركات، والأنوار من رسول الله ﷺ وأسأل الله تعالى أن يمن عليك بمدد من عنده يفتيك به عن كل شيء سواه، ويهديك بنوره إليه حتى، لا تشهد في ذلك إلا إياه وقل رب إني أعوذ بك أن يكون إيماني بك، وبما أنزلت، وبمن أرسلت مستفاداً من فكرة مشوبة بالأوصاف النفسية، أو مستنداً إلى عقل ممزوج بأمشاج الطينة البشرية بل من نورك المبين، ومددك الأعلى، ونور نبيك.

وكان يقول: ليس الرجل من يصف لك دواء تستعمله إنما الرجل من داواك في حضرته^(٢)، وكان يقول: أعلى النور ما غاص في القلوب والأسرار، ولم يظهر

(١) وهو محل اللا عقل، أي اخرج من العقل إلى اللا عقل، وأخرج نفسك من عالم الشهادة إلى عالم الملكوت.

(٢) وهم أولياء التصريف بالهمة والنظرة في الحال، ومنهم الولي الكامل الذي يغيرك من نحاس قد صداً إلى ذهب إبريز، فالكل يصف لك الدواء، ولكن أين الذي يغير فطرتك في الحال؟ وكان الكفار ينظرون إلى النبي ﷺ فيتغيرون في الحال، حتى اتهم الكفار النبي ﷺ بالسحر لأجل هذا السر الذي يغير به فطرة من ينظر إليه فيتحول من الكفر إلى الإيمان في الحال.

إلى انقضاء هذه الدار، وذلك لأنه أثبت وأقوى وأرفع، وأعلى مما يسرع ظهوره، وتأمل حبات النباتات البطيء ظهوره تجدها أثبت وأقوى وأرقى وأرفع مما ليس كذلك.

وكان يقول: يقول الحق تعالى لبني آدم ما لآتم الأرض طولاً وعرضاً، ولم يأتكم منكم إلا القليل^(١)، وكان يقول: ما سكت عارف قط ولو نفساً إلا عقوبة لأهل زمانه، وما تكلم قط كلمة إلا انتفع بها كل من سمعها وكان عليه السلام يقول: من غفلة العبد، وعمى قلبه نسبته الأشياء لغير ربه، وكان يقول: لن تستطيع أن تسلم من الشيطان الملتصق بذات وجودك، الملتصم بأذن قلبك، الجاري منك مجرى الدم إلا برجوعك إلى من هو أقرب إليك منه وهو الله تعالى، وكان يقول: سيئات الظواهر في طريق المعاملات في معرض العفو لكونها مخالفة للأوامر السمعية الواردة على الخلق من وراء الحجاب، بخلاف أنوار القلوب والأسرار إذا حصل فيها خلل، فلا مغفرة لسيئاتها، ولا عوض من فواتها، قيل لبعضهم حين كان عنده خلل:

كل ذنب لك مغفون
رسوى الإعراض عنا

فقد غفرنا لك ما فات
ت بقي ما فات منا

وكان يقول: لو نطق العارف بلسان حقيقته لم يسع الكون الشهادي كلمة^(٢) من كلماته، وكان يقول: كان الحق تعالى يقول: يا من طلب مني خذ، ويا من طلبني قف^(٣)، وكان يقول: من مزج لك كأساً من التذكرة بذرة من بشريته فقد آذاك، وكان يقول: لو خير العارف بين مائة ألف خصوصية أو كشف حجاب لا اختار أن يكشف له ذرة من حجاب.

(١) أي إلا القليل الذين عرفونا حق المعرفة.

(٢) لأن هذه الكلمة من الأسماء الإلهية المنزهة عن الحدث والكون كله حدث، فكيف تقارن الحدث بغير الحدث؟

(٣) أي قف عن الأخذ حتى لا تشغل به عنا.

وكان يقول: لا يعرف الولي حتى يعرف الله تعالى لأنه عنده فلا يعرف إلا بعد معرفته^(١)، ولو عرف قبل معرفته لكان حجاباً عن الله تعالى، وكان يقول: للعلم بالله تعالى في هذه الدار طريقتان العلم الإلهامي للأولياء، والوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان يقول: منذ حصر الأدميون في قوالب البشريات، وسجنوا في سجون المظاهر الحسيات، لم يأتهم نفس العالم الغيبي، ولا شيء من شعاع أنوار المحل الكوني، ولا علم حقيقي جديد إلا على أيدي الأنبياء والمرسلين ثم بوسائط أتباعهم من الأولياء، والصديقين، والعلماء العارفين، وليس مع أحد منهم زيادة على ذلك إلا ما أوتوه في أوائل فطرتهم فليس لهم علوم جديدة طرية إلا من تلك المنابع العلية القدسية، وكان يقول: من عرف العارف تعب به العارف لأنه يصير حامل أثقاله في جميع تقلباته، ومن جهل العارف استراح به العارف، وكلما قويت معرفة العارف زاد افتقاره، وإفلاسه^(٢)، وذلك لأنه كلما ازداد معرفة ازداد قريباً، وعند القرب تزول النسب، إذ وجود النسب والأسباب لا يكون إلا مع البعد وإرخاء الحجاب وكان يقول: لولا روح الحقائق ماتت الخلائق، وكان يقول: لو علمت قدرك قبل أبيك آدم لندمت إلى الممات، وكان يقول: لا تقنع قط بسمعت ورويت بل شهدت ورأيت^(٣)، وكان يقول: يتكلم العارف مائة ألف سنة، ثم إنه لا يقدم على الله تعالى إلا بوصف السكوت^(٤) قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾
 (المائدة: ١٥٩) وكان يقول: لا بد للعارف من التنزل من على همته إلى درجة مريده

(١) ولذلك قال أبو يزيد: معرفة الولي أصعب من معرفة الله عز وجل.

(٢) لكونه يبقى بلا نفس.

(٣) أي لا تقنع بالعلم الظاهر دون أن تتحقق بالعلم الباطني فتكون كالحمار يحمل أسفاراً.

(٤) وذلك لكونه تكلم عن تجل عرفه في هذه الدار، وأما تجليات الآخرة فلا يعرف العارف عنها شيئاً، وذلك لكون الحق سبحانه لا يتجلى بتجليين متشابهين أبداً فافهم، قال سبحانه: «ويدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»

ليربيه، وكان يقول: الرجل الكامل يرى بالدائرتين بالأبوة والأمومة، وكان يقول: لو لم يصبح واحد الزمان يتوجه في أمر الخلائق من البشر لفجأهم أمر الله عز وجل، فأهلكهم^(١)، وكان يقول: لأن تبيت وأنت في فضل الله طامع خير لك من أن تبيت، وأنت ساجد راجع، وكان يقول: إنما كان العبد يدخله الوسواس في الصلاة، ولا يدخله إذا سمع كلام عارف، وهو بين يديه لأن المصلي يناجي ربه، والمستمع للعارف يناجي ربه^(٢)، وكان يقول: من أعظم منن الله تعالى على العباد أن يظهر بينهم عارفاً، وإن لم يعرفوه، ولم يروه وكان يقول: إذا عرفت الله، فلا تظن شراً، فما هناك بعد معرفته شر.

وكان يقول: إذا نفخ في الصور قال المرید الصادق : سمعت هذا منذ زمان، وكان يقول: معاصي أهل السعادة كالأوهام^(٣)، ومعاصي أهل الشقاوة تحقيق، وكان يقول: سماعك من العارف كلمة أدب في لحظة أفضل من أدب أبيك لك، ومعلمك في الأمر الظاهر عشرين سنة لأن العارف يؤدب روحك وغيره يؤدب نفسك.

وكان يقول: ما أعز طريق القوم، وما أعز من يطلبها وما أعز من يجدها، وما أعز من ثبت عليها بعد وجودها، وكان يقول: إذا حضر المرید الصادق مجلس العارف سمع كلامه من جهاته^(٤) الست، وكان عليه السلام يقول: لا يزال الوجود يمحو ما هو لوح قلبك والنور يكتب فيه.

(١) يشير هنا بواحد الزمان إلى القطب.

(٢) وذلك لأن صاحب هذا المشهد محبوب، إذ لو كان كاملاً لذاب من رؤية ربه في حضرة الصلاة، أكثر من رؤيته لأي ولي، وذلك لأن حضرة الصلاة لا تمدلها أي حضرة في جمعية العبد مع ربه وأما أهل البدايات فرؤية الشيخ أهم بالنسبة لهم في التلقى لكون الشيخ واجه بوجهه حضرة الحق عز وجل، وهو أمر يفقده المرید، ولا يصله إلا عن طريق شيخ واجه الحضرة ولهذا قال أبو يزيد لمريده: إنك إن ترائني مرة خير لك من أن ترى ريك ألف مرة.

(٣) لأنها تمر عليهم كالخطرات والخفقات ولا يشويها إصرار.

(٤) وذلك لأن المرید المفتوح عليه بالفتح الأكبر يبرى بكل ذرة في جسده قال عليه السلام: (اعتدلوا فإنني أراكم من خلفي) وحقى سيدي عبد العزيز الدباغ عليه السلام في الإبريز أنه لما جاء الفتح الأكبر صار جسده كله عيوناً يبصر بها.

وكان يقول: مراد العارف أن يخرج المرید من الضيق إلى السعة في عالم الغيب، وإن لم يشعر المرید بذلك، وكان يقول: العارفون يتكلمون مع الخلق، وهم بالحق مع الحق^(١) كما حكى عن أبي القاسم الجنید رحمته الله أنه قال: لي ثلاثون سنة أتكلم مع الله تعالى، والناس يظنون أنني أتكلم معهم، وكان يقول: إن لله عبادة لا يستطيع مرید أن يدخل تحت حكمهم لما هم عليه من الأعمال، ولو أنهم حطوا عليه عبثاً من أعبائهم لذاب كما يذوب الرصاص، وكان يقول: لا يوزن عمل عبد إلا إذا تعرى من أنوار التجليات، فإن لبس أنوار التجليات لم يسع عمله الميزان.

وكان يقول: أعظم من الحجاب الحجاب عن الحجاب وكان يقول: لو صاح العارف ما وسع الكون صوته^(٢)، وكان يقول: إن الله قضى أن لا يصل إلى العلم الحقيقي إلا من أخذ قلبه عن شهود الأكوان.

وكان يقول: من تكلم على الغيب من حيث هو^(٣) هو لم يصح لأحد أن يأخذ عنه إلا القوي من الرجال، ومن تكلم على القلوب من حيث هي هي صح عنه أخذ المریدين وتدريب السالكين.

وكان يقول: العارف يتلون في اليوم والليلة مائة مرة^(٤)، والعابد يقيم على حالة واحدة كذا، وكذا سنة، وذلك لأن العارف مائل إلى دائرة التصريف، والعابد مائل إلى دائرة التكليف.

(١) كما حكى سيدى أبى العباس المرسى رحمته الله أنه كان يقول: ربما الالعاب أحد أولادى وروحي تحوم عند العرش.

(٢) وهو كما قال سيدى ابن عطاء الله السكندرى رحمته الله: الرجل الكبير يملأ جسده الكون.

(٣) وذلك لكون الغيب الصرف لا مناسبة بينه وبين أهل البدايات وأما أهل النهايات المتمكنين الأقوياء فلا حرج عليهم من معرفة ذلك الغيب.

(٤) وهو من المقامات المكربة قال تعالى: «بل الله أسرع مكراً» وكان شيخنا الشريف التجانى يقول: إن الطريق ملآن بالأسود والتمور والصقور والحيات والثعابين وهى صفات مكربة رداثية، من رداء المكر الإلهى فافهم.

ومنهم العارف بالله تعالى

الشيخ محمد بن عبد الجبار النضري رحمه الله

كان من أهل القرن الرابع هـ، ولكن هكذا وقع لنا ذكره، وإن كنا لم نلتزم ذكرهم على ترتيب الزمان. وكان له رحمته كلام عال في طريق القوم، وهو صاحب المواقف نقل عنه الشيخ محي الدين بن العربي رحمته وغيره، وكان إماماً بارعاً في كل العلوم. ومن كلامه رحمته في المواقف يقول الله عز وجل: كيف لا تحزن قلوب العارفين، وهي تراني أنظر إلى العمل، فأقول: لسيئه كن صورة تلقى بها عاملك، وأقول لحسنه كن صورة تلقى بها عاملك، وكان يقول: قلوب العارفين تخرج إلى العلوم بسطوات الإدراك، وذلك كفرها، وهو الذي ينهاها الله عنه، وكان يقول: كأن الحق تعالى يقول: إذا تعلق العارف بالمعرفة، وادعى أنه تعلق بي هرب من المعرفة كما هرب من النكرة، وكان يقول: كأن الحق تعالى يقول لقلوب العارفين: أنصتوا واصمتوا لا لتعرفوا، وإن ادعيتم الوصول إلي فأنتم في حجاب بدعواكم، ووزن معرفتكم كوزن ندمكم، فإن عيونكم ترى المواقيت، وقلوبكم ترى الأبد، فإن لم تستطيعوا أن تكونوا من وراء الأقدار، فكونوا من وراء الأفكار، وكان يقول: التقطوا الحكمة من أفواه الغافلين عنها كما تلتقطونها من أفواه العامدين لها، فإنكم ترون الله وحده في حكمة الغافلين لا في حكمة العامدين.

وكان يقول: حق المعرفة أن تشهد العرش وحملته، وما حواه من كل ذي معرفة يقول بحقائق إيمانه: ليس كمثله شيء، وهو أي العرش في حجاب عن ربه، فلو رفع حجابيه لاحترق العالم بأسره في لمح البصر أو أقرب، وكان يقول: لا تفارق مقامك يميد بك كل شيء، وليس مقامك إلا رؤيته تعالى، فإذا دمت على رؤيته رأيت الأبد بلا عبارة، إذ الأبد لا عبارة فيه لأنه وصف من أوصاف الله عز وجل لكن لما سبح الأبد خلق الله من تسبيحه الليل والنهار، وكان يقول: إذا اصطفت أختاً فكن معه فيما أظهر، ولا تكن معه فيما أسر، فإن ذلك له من دونك سر، فإن أشار إليه فأشِر إليه، وإن أفصح به فأفصح عنه، وكان يقول:

كأن الحق تعالى يقول: اسمي وأسمائي عندك ودائعي لا تخرجها، فأخرج من قلبك، فإذا خرجت من قلبك عبد ذلك القلب غيري، وأنكرني بعد المعرفة وجحدني بعد الإقرار، فلا تخبر باسمي، ولا بمعلوم اسمي، ولا تحدث من يعلم اسمي، ولا بأنك رأيت من يعرف اسمي، وإن حدثك محدث عن اسمي، فاسمع منه، ولا تخبره أنت، وكان يقول: علامة الذنب الذي يغضب الله عز وجل أن يعقب صاحبه الرغبة في الدنيا، ومن رغب فيها فقد فتح باباً إلى الكفر بالله عز وجل لأن المعاصي بريد الكفر، وكل من دخل ذلك الباب أخذ من الكفر بقدر ما دخل^(١)، والله تعالى أعلم، وقد ذكرنا جملة صالحة من كلامه في مختصر الموافق^(٢)، والله تعالى أعلم.

ومنهم الشيخ أبو الفتح الواسطي^(٣) رحمته الله

شيخ مشايخ بلاد الغربية بأرض مصر المحروسة، وكان من أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي، فأشار إليه بالسفر إلى مدينة الإسكندرية فسافر إليها، وأخذ عنه خلائق لا يحصون منهم الشيخ عبد السلام القليبي، والشيخ عبد الله البلتاجي، والشيخ بهرام الدميري، والشيخ جامع الفضلين الدنوشري، والشيخ علي المليجي، والشيخ جمال الدين النحاري، والشيخ عبد الوهاب بن خلف، والشيخ عبد العزيز الدريني، وأضرابهم، وكان مبتلى بالإنكار عليه، وعقدوا له المجالس بالإسكندرية، وهو يقطعهم بالحجة، وكان خطيب جامع العطارين من أشدهم عليه فبينما هو يوماً فوق المنبر والأذان بين يديه تذكر أنه جنب، فمد له الشيخ أبو الفتح كفه فوجده زقاقاً فدخله، فرأى فيه ماء ومطهرة، فاغتسل وخرج، فجلس على المنبر فلما ستره الشيخ هذه السترة اعتقده، وصار من أجل أصحابه رحمته الله. مات في نحو الثمانين والخمسمائة، ودفن بالإسكندرية، وقبره بها ظاهر يزار رحمته الله.

(١) قلت: وكان سيدي أحمد التجاني رحمته الله يقول: المصر على المعصية لا يموت إلا كافراً.

(٢) قلت: الظاهر من كلام الشعرائي أن له كتاباً في مختصر الموافق.

(٣) وهو الذي رد الشاذلي لما جاء إلى العراق يسأل عن القطب فقال له: جئت تسأل عن القطب وقد تركته في بلادك.

ومنهم الشيخ علي المليجي رحمته الله

أحد أصحاب سيدي الشيخ أبي الفتح المذكور آنفاً. كان رحمته الله معاصراً لسيدي أحمد البدوي رحمته الله، وكان سيدي أحمد رحمته الله إذا أرسل سيدي عبد المال له في حاجة يقول له: إذا وصلت إلى جمزور، فاخلع نعلك فإن هناك خيام (١) المليجي، وكان عند سيدي أحمد رجل بناء يبني عنده، فطلبه سيدي علي ورغبه بزيادة أجره، فخرج إلى ناحية مليج، فلما دخلها وقعت يد البناء، فأخذها سيدي علي، وبصق عليها ولصقها فالتصقت وأرسل يقول لسيدي أحمد: أنت تقطع ونحن نوصل ببساطه في الكلام رحمته الله ومولده كل سنة يعمل قبل مولد سيدي أحمد بجمعة، ويحصل فيه جمعية كبيرة، وتتفريق سلع الناس ومدد كبير رحمته الله.

ومنهم سيدي عبد العزيز الدريني رحمته الله

هو الشيخ العابد الزاهد القدوة، ذو الحالات الفاخرة، والأحوال الشريفة، والكرامات المشهورة، والمصنفات الكثيرة في التفسير، والفقه واللغة، والتصوف، وغير ذلك، وله نظم كثير شائع، صحبه جماعة كثيرة من العلماء، وانتفعوا بصحبته وكان مقامه ببلاد الريف من أرض مصر، وكان الناس يقصدونه للتبرك من سائر الأقطار، ويرسلون له من مصر مشكلات المسائل، فيجيب عنها بأحسن جواب، وكان يزور سيدي علياً المليجي كثيراً فذبح له سيدي علي يوماً فرخاً فأكله وقال لسيدي علي: لا بد أن أكافئك، فاستضافه يوماً فذبح لسيدي علي فرخة، فتشوشت امرأته عليها، فلما حضرت قال لها سيدي علي: هش، فقامت الفرخة تجري، وقال: يكفيني المرق، ولا تتشوشي، وطلب جماعة من الفقراء كرامة من سيدي عبد العزيز فقال لهم سيدي عبد العزيز: يا أولادي وهل ثم كرامة أعظم من أن الله تعالى يمسك بنا الأرض، ولم يخسفها، وقد استحقينا الخسف.

مات رحمته الله سنة سبع وتسعين، وستمائة، وقبره بديرين ظاهر يزار إلى عصرنا هذا رحمته الله.

(١) أي منطقة دركه وتصرفه، وهو نوع من تأدب الأكابر مع الأصاغر.

ومنهم الشيخ

عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي المرسي رحمته الله

الإمام القدوة الرياني رحمته الله قدم مصر، وله زاوية بخط جامع المقسم، وكان ذا تمسك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم وحالة، وجمعية على العبادة، وشهرة كبيرة بالإخلاص، والاستعداد للموت، والفرار من الناس، وانجماع عنهم إلا في الجمع، وابتلى بالإنكار عليه حين قال: إنه يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة، ويشافهه^(١)، وقام عليه بغض الناس، فانقطع في بيته إلى أن مات سنة خمس و سبعين و ستمائة.

قلت: ولهم ابن أبي جمرة آخر اسمه أحمد، حفظ المدونة على مذهب الإمام مالك رحمته الله ومات سنة تسع وتسعين، وخمسائة بمرسية رحمته الله.

ومنهم الشيخ

عبد الله بن محمد العرشي المرجاني رحمته الله

هو الإمام القدوة الواعظ المفسر أحد الأعلام في الفقه، والتصوف قدم مصر، ووعظ بها، واشتهر في البلاد ومات رحمته الله بتونس سنة تسع، وستين، وستمائة، وامتنح، وأفتى العلماء بتكفيره، ولم يؤثروا فيه، فعملوا عليه الحيلة، وقتلوه رحمته الله.

ومنهم الشيخ

عبد الحق بن سبعين^(٢) المرسي رحمته الله

قطب الدين كان من المشايخ الأكابر. مات بمكة سنة سبع وستين وستمائة عن خمس وخمسين سنة.

(١) ذكرته في كتابي «معجم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم واليقظة»، وهو مطبوع.

(٢) قد قمنا بشرح رسائله وسمينا الشرح: «الإحاطة والتمكين في شرح رسائل ابن سبعين»، وهو مطبوع.

ومنهم الشيخ محمد القنوي الصوفي رحمته الله

صاحب ابن العربي، له تفسير الفاتحة في مجلد (١) وله مؤلفات أخر، عاش نيافاً وستين سنة، ومات سنة اثنتين وسبعين وستمائة بقونية، وأوصى أن ينقل تابوته إلى دمشق يدفن عند الشيخ محي الدين بن العربي شيخه، فلم يتفق، وكان مبتلى بالإنكار عليه إلى أن مات رحمته الله.

ومنهم الشيخ محمد العبدري رحمته الله

الفاسي، ثم المصري المالكي المعروف بابن الحاج. كان رحمته الله عالماً صالحاً يقتدى به، وهو أحد أصحاب أبي عبد الله بن أبي جمرة السابق أنفأ، وهو صاحب كتاب المدخل في الحوادث والبدع. عاش بضعاً وثمانين سنة، ومات سنة سبع وثلاثين وسبعمائة رحمته الله.

ومنهم الشيخ إبراهيم الجعبري رحمته الله

ابن معضاد بن شداد الزاهد العابد ذو الأحوال الفريية، والمكاشفات العجيبة، وكان مجلس، وعظه يطرب السامعين، ويستجلب العاصين، أخبر بموته قبل وفاته، ونظر إلى موضع قبره، وقال: يا قبير جاءك دبير، وكان يضحك أهل مجلسه إذا شاء في حال بكائهم، ويبكيهم إذا شاء في وسط ضحكهم، وكان يعظ، وهو يمشي بين أهل مجلسه يسدي، وينير وكان له مريدة تسمع وعظه، وهو بمصر، وهي بأرض أسوان من أقصى الصعيد فيبينما هو يعظ الناس وهم يبيكون أنشد:

قاعدة في الطائفة والكلب يأكل في العجين

يا كلب كل وتهنى ما للعجين أصحاب

فالتفتت المريدة، فإذا الكلب يأكل في عجينها، وأرخوا الحكاية، فجاء الخبر بذلك، وكان من أصحابه الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر، وقبره بالصعيد (١) وقد طبع في الهند قديماً وعندى منه نسخة ثم طبع بمصر وله أيضاً «الفكوك في شرح الفصوص».

بزار، وكان يوماً يعظ، والناس يبكون، فقال لهم: قولوا معي شقح بقع بالله يقع، فجاء الخبر أن القاضي المالكي نزل من باب الدرج من قلعة مصر، فوقع، فانكسرت رقبته فجاء الخبر أنهم عقدوا للشيخ عقد مجلس في منعه من الوعظ، وقالوا: إنه يلحن في القرآن وفي الحديث، فامتنع القضاة الثلاثة، وأفتى المالكي بمنعه، فجاء القضاة الثلاثة، وقبلوا رجل الشيخ، وقالوا كلنا كنا هالكين لو أفتينا فيك بشيء، فقال الشيخ: نحن لا نلحن إنما سمعكم هو الذي يلحن، ويسمع الزور، والباطل^(١)، وكان يكاذب السلطان: من إبراهيم الجعبري إلى الكلب الزويري، فكان السلطان يقول: من أطلع هذا على اسمي في بلادي إنه والله اسمي في بلادنا قبل أن أجيء، فعمد العلماء له مجلساً وأفتوا بتعزير الشيخ، فحبس الشيخ بولهم، وبول السلطان، فعجزوا عن إطلاقه بكل حيلة، فنزلوا إليه واستغفروا، فأمرهم بالاستتجاء من إبريقه، فأطلق بولهم، وشوش نصراني الطور على جماعة من أصحابه فأرسل إليه، وقال: أقسم بالله إن عدت إلى أذاهم لأقطن هذا القلم، فقال النصراني بقلبه: وما تقطه^(٢)؟ فقط القلم، فسقطت رأس النصراني، وكان ناراً موقدة على الظلمة، والولاة أماراً بالمعروف وله نظم، وسجع كثير، وتصوف، وشطح.

مات في الحرم سنة سبع وثمانين وستمائة، ودفن بزاويته خارج باب النصر، وقبره بها ظاهر بزار رحمته الله أمين.



(١) أقام سبحانه الأكوان للأولياء كعالم للاختبارات، فينطق الولي نطقاً صحيحاً فلا يسمع هذا النطق صحيحاً سوى من تطهر باطنه من علل الأكوان والفسح وسماع الزور والبهتان، وهم أصحاب القلوب فيسمعون نطق الولي صحيحاً كاملاً بلا لحن، وهم وأما أصحاب العلل فيلحن سمعهم فيسمعون الكلام غير مستقيم وذلك لعدم استقامة ظاهرهم.

(٢) قلم القلم أي براه، ومقصوده أن يسقط عنه رأسه وهي لغة لاتزال تستعمل بين العامة في العراق وقد شاهدنا أهل العراق ينطقون بها.

فهرس المحتويات

obeikandi.com

- 3 مقدمة الشيخ محيي الدين الطعمي
- 5 خطبة الكتاب
- 7 مقدمة في بيان أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة
- 37 فأولهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه
- 38 ومنهم الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- 40 ومنهم الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه
- 40 ومنهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 44 ومنهم الإمام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه
- 44 ومنهم الإمام الزبير بن العوام رضي الله عنه
- 45 ومنهم الإمام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
- 45 ومنهم الإمام سعيد بن زيد رضي الله عنه
- 45 ومنهم الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه
- 46 ومنهم الإمام أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه
- 46 ومنهم الإمام الإمام عبدالله بن مسعود رضي الله عنه
- 49 ومنهم الإمام خباب بن الأرت رضي الله عنه

- 49 ————— ومنهم أبي بن كعب رضي الله عنه
- 49 ————— ومنهم سلمان الفارسي رضي الله عنه
- 50 ————— ومنهم تميم الداري رضي الله عنه
- 51 ————— ومنهم أبو الدرداء عويمر بن زيد رضي الله عنه
- 52 ————— ومنهم عبدالله بن عمر رضي الله عنه
- 52 ————— ومنهم أبو ذر رضي الله عنه
- 53 ————— ومنهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه
- 53 ————— ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه
- 54 ————— ومنهم عبدالله بن عباس رضي الله عنه
- 54 ————— ومنهم عبدالله بن الزبير رضي الله عنه
- 55 ————— ومنهم الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 56 ————— ومنهم الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 57 ————— ومنهم رجال من سادات التابعين أولهم أويس القرني رضي الله عنه
- 59 ————— ومنهم عامر بن عبدالله بن قيس رضي الله عنه
- 60 ————— ومنهم مسروق بن عبدالرحيم رضي الله عنه
- 60 ————— ومنهم علقمة بن قيس رضي الله عنه
- 60 ————— ومنهم الأسود بن يزيد النخعي رضي الله عنه

- 60 ومنهم الربيع بن خيثم رضي الله عنه
- 61 ومنهم هرم بن حيان رضي الله عنه
- 61 ومنهم أبو مسلم الخولاني رضي الله عنه
- 61 ومنهم أبو سعيد الحسن البصري رضي الله عنه
- 63 ومنهم سعيد بن المسيب رضي الله عنه
- 64 ومنهم عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنه
- 65 ومنهم محمد بن الحنفية ابن الإمام علي رضي الله عنه
- 65 ومنهم علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 67 ومنهم أبو جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 68 ومنهم أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه
- 69 ومنهم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- 71 ومنهم مطرف بن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه
- 73 ومنهم العلاء بن الشخير أخوه رضي الله عنه
- 73 ومنهم صفوان بن محرز المازني رضي الله عنه
- 73 ومنهم أبو العالية رضي الله عنه
- 74 ومنهم بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه
- 74 ومنهم صلة بن أشيم العدوي رضي الله عنه
- 74 ومنهم العلاء بن زياد رضي الله عنه

- 75 ومنهم أبو حازم رضي الله عنه
- 75 ومنهم محمد بن سيرين رضي الله عنه
- 76 ومنهم ثابت بن أسد البناني رضي الله عنه
- 76 ومنهم يونس بن عبيد رضي الله عنه
- 76 ومنهم فرقد السبخي رضي الله عنه
- 77 ومنهم محمد بن واسع رضي الله عنه
- 77 ومنهم سليمان التيمي رضي الله عنه
- 77 ومنهم أبو يحيى مالك بن دينار رضي الله عنه
- 79 ومنهم محمد بن المنكدر رضي الله عنه
- 79 ومنهم صفوان بن سليم رضي الله عنه
- 79 ومنهم موسى الكاظم رضي الله عنه
- 80 ومنهم محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه
- 81 ومنهم عبدة بن عمير رضي الله عنه
- 81 ومنهم مجاهد بن حنين رضي الله عنه
- 82 ومنهم عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه
- 83 ومنهم عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه
- 83 ومنهم طاوس بن كيسان اليماني رضي الله عنه
- 83 ومنهم أبو عبد الله وهب بن منبه رضي الله عنه

- 85 ومنهم ميمون بن مهران رضي الله عنه
- 86 ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة رضي الله عنه
- 86 ومنهم إبراهيم التيمي رضي الله عنه
- 87 ومنهم إبراهيم بن يزيد النخعي رضي الله عنه
- 88 ومنهم عون بن عبد الله بن عتبة رضي الله عنه
- 89 ومنهم سعيد بن جبير رضي الله عنه
- 90 ومنهم عامر بن شراحيل الشعبي رضي الله عنه
- 91 ومنهم ماهان بن قيس رضي الله عنه
- 91 ومنهم ربيع بن خراش رضي الله عنه
- 91 ومنهم طلحة بن مصرف رضي الله عنه
- 92 ومنهم زيد القائي رضي الله عنه
- 92 ومنهم منصور بن المعتمر رضي الله عنه
- 93 ومنهم سليمان بن مهران الأعمش رضي الله عنه
- 94 ومنهم أويس الخولاني رضي الله عنه
- 94 ومنهم مكحول الدمشقي رضي الله عنه
- 94 ومنهم يزيد بن ميسرة رضي الله عنه
- 95 ومنهم كعب الأحبار رضي الله عنه
- 96 ومنهم عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رضي الله عنه

- 96 ومنهم حسان بن عطية رضي الله عنه
- 97 ومنهم عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه
- 97 ومنهم أبو بشر صالح المري رضي الله عنه
- 97 ومنهم أبو المهاجر بن عمرو القبسي رضي الله عنه
- 98 ومنهم عطاء السلمي رضي الله عنه
- 98 ومنهم عتبة بن أبان الفلام رضي الله عنه
- 99 ومنهم سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه
- 105 ومنهم إمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه
- 110 ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه
- 112 ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه
- 114 ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه
- 118 ومنهم أبو محمد سفيان بن عيينة رضي الله عنه
- 119 ومنهم شعبة بن الحجاج رضي الله عنه
- 120 ومنهم مسعر بن كدام بكسر الكاف رضي الله عنه
- 122 ومنهم علي والحسين ابنا صالح بن حي رضي الله عنه
- 123 ومنهم عبد الله بن المبارك رضي الله عنه
- 127 ومنهم عبد العزيز بن أبي رواد رضي الله عنه
- 128 ومنهم أبو عبد الرحمن محمد بن النضر الحارثي رضي الله عنه

- 128 ومنهم محمد بن يوسف الأصفهاني رضي الله عنه
- 129 ومنهم يوسف بن أسباط رضي الله عنه
- 129 ومنهم حذيفة المرعشي رضي الله عنه
- 130 ومنهم اليمان بن معاوية الأسود رضي الله عنه
- 130 ومنهم مسلم بن ميمون الخواص رضي الله عنه
- 131 ومنهم أبو عبدة الخواص رضي الله عنه
- 131 ومنهم أبو بكر بن عياش رضي الله عنه
- 131 ومنهم أبو علي الحسين بن يحيى النخشي رضي الله عنه
- 132 ومنهم وكيع بن الجراح رضي الله عنه
- 132 ومنهم عبد الرحمن بن مهدي رضي الله عنه
- 133 ومنهم محمد بن أسلم الطوسي رضي الله عنه
- 133 ومنهم محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه
- 134 ومنهم يزيد بن هارون الواسطي رضي الله عنه
- 134 ومنهم يونس بن عبيد رضي الله عنه
- 135 ومنهم عبد الله بن عون رضي الله عنه
- 136 ومنهم عبد الله الصوري رضي الله عنه
- 136 ومنهم عبد الله بن عبد العزيز العمري رضي الله عنه
- 136 ومنهم أبو إسحاق إبراهيم الهروي رضي الله عنه

- 137 ————— ومنهم أبو نعيم الأصفهاني رضي الله عنه
- 138 ————— فصل في ذكر جماعة من عباد النساء
- 138 ————— ومنهن معاذة العدوية رضيها
- 138 ————— ومنهن رابعة العدوية رضيها
- 138 ————— ومنهن ماجدة القرشية رضيها
- 139 ————— ومنهن السيدة عائشة بنت جعفر الصادق رحمها الله
- 139 ————— ومنهن امرأة رياح القيسي رضيها
- 139 ————— ومنهن فاطمة النيسابورية رضيها
- 140 ————— ومنهن رابعة بنت إسماعيل رضيها
- 140 ————— ومنهن أم هارون رضيها
- 141 ————— ومنهن عمرة امرأة حبيب رضيها
- 141 ————— ومنهن أمة الجليل رضيها
- 141 ————— ومنهن عبيدة بنت أبي كلاب رضيها
- 141 ————— ومنهن عفيرة العابدة رضيها
- 142 ————— ومنهن شعوانة رضيها
- 142 ————— ومنهن آمنة الرملية رضيها
- 142 ————— ومنهن منفوسة بنت زيد بن أبي الفوارس رضيها
- 143 ————— ومنهن السيدة نفيسة ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضيها

- 143 ومنهم سعدون المجنون رضي الله عنه
- 143 ومنهم بهلول المجنون رضي الله عنه
- 144 ومنهم أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه
- 146 ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور رضي الله عنه
- 147 ومنهم أبو الفيض ذو النون المصري رضي الله عنه
- 152 ومنهم أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي رضي الله عنه
- 152 ومنهم أبو نصر بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه
- 156 ومنهم أبو الحسن السري بن المغلس السقطي رضي الله عنه
- 157 ومنهم أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه
- 159 ومنهم أبو سليمان داود بن نصير الطائي رضي الله عنه
- 160 ومنهم أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي رضي الله عنه
- 161 ومنهم أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي رضي الله عنه
- 163 ومنهم أبو محمد سهل بن عبد الله رضي الله عنه
- 167 ومنهم أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني رضي الله عنه
- 168 ومنهم أبو محمد الفتح بن سعيد الموصللي رضي الله عنه
- 169 ومنهم أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم رضي الله عنه
- 170 ومنهم أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الواعظ الرازي رضي الله عنه
- 172 ومنهم أبو حامد أحمد بن حضرويه البلخي رضي الله عنه

- 172 ————— ومنهم أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري رحمته الله
- 173 ————— ومنهم أبو حفص عمر بن سالم الحداد النيسابوري رحمته الله
- 174 ————— ومنهم أبو تراب عسكر بن الحسين النخشي رحمته الله
- 175 ————— ومنهم أبو محمد عبدالله بن حنيف الأنطاكي رحمته الله
- 175 ————— ومنهم أبو علي أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمته الله
- 176 ————— ومنهم منصور بن عمار الواعظ رحمته الله
- 176 ————— ومنهم حمدون بن أحمد الصار النيسابوري رحمته الله
- 177 ————— ومنهم أبو الحسن المقرئ رحمته الله
- ومنهم السيد عبدالله من أولاد إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن
 177 ————— علي بن أي طالب رحمته الله
- 177 ————— ومنهم سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد رحمته الله
- 182 ————— ومنهم أبو عثمان الحيري النيسابوري رحمته الله
- 183 ————— ومنهم أبو الحسين أحمد بن محمد النوري رحمته الله
- 184 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن يحيى بن الجلاء رحمته الله
- 185 ————— ومنهم أبو محمد رويم بن أحمد رحمته الله
- 186 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن الفضل البلخي رحمته الله
- 186 ————— ومنهم أبو بكر نصر بن أحمد بن نصر الدقاق الكبير رحمته الله
- 187 ————— ومنهم أبو عبدالله عمرو بن عثمان المكي رحمته الله

- 187 ————— ومنهم أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص رضي الله عنه
- 188 ————— ومنهم أبو عبيد البصري رضي الله عنه
- 188 ————— ومنهم أبو علي الحسين بن علي الجوزجاني رضي الله عنه
- 189 ————— ومنهم أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى رضي الله عنه
- 190 ————— ومنهم أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه
- 191 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسين الترمذي الحكيم رضي الله عنه
- 192 ————— ومنهم أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق رضي الله عنه
- 193 ————— ومنهم أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز رضي الله عنه
- 195 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن إسماعيل المغربي رضي الله عنه
- 196 ————— ومنهم أبو العباس أحمد بن مسروق رضي الله عنه
- 197 ————— ومنهم أبو الحسن علي بن سهل الأصفهاني رضي الله عنه
- 198 ————— ومنهم أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري رضي الله عنه
- 199 ————— ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي رضي الله عنه
- 203 ————— ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الخواص رضي الله عنه
- 206 ————— ومنهم أبو محمد عبدالله بن محمد الخراز رضي الله عنه
- 206 ————— ومنهم أبو الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الجمال رضي الله عنه
- 207 ————— ومنهم محمد وأحمد ابنا أبي الورد رضي الله عنه
- 208 ————— ومنهم أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي البزار رضي الله عنه

- 209 ————— ومنهم أبو بكر محمد بن موسى الواسطي رحمته الله
- 210 ————— ومنهم أبو عبدالله الشجري رحمته الله
- 211 ————— ومنهم محفوظ بن محمود النيسابوري رحمته الله
- 211 ————— ومنهم طاهر المقدسي رحمته الله
- 212 ————— ومنهم أبو عمرو الدمشقي رحمته الله
- 212 ————— ومنهم أبو بكر بن محمد حامد الترمذي رحمته الله
- 213 ————— ومنهم أبو الحسن محمد بن سعيد الوراق رحمته الله
- 214 ————— ومنهم أبو الحسن علي بن سهل الصائغ الدينوري رحمته الله
- 215 ————— ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن داود القصار الرقي رحمته الله
- 215 ————— ومنهم ممشاد الدينوري رحمته الله
- 216 ————— ومنهم أبو الحسين خير النساج رحمته الله
- 216 ————— ومنهم أبو حمزة الخراساني رحمته الله
- 217 ————— ومنهم أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن أبي بكر الصنجي رحمته الله
- 218 ————— ومنهم أبو جعفر أحمد بن حمدان بن علي بن سنان رحمته الله
- 218 ————— ومنهم أبو بكر بن جحدر الشبلي رحمته الله
- 224 ————— ومنهم أبو محمد عبدالله بن محمد المرتعش النيسابوري رحمته الله
- 225 ————— ومنهم أبو علي الروذباري رحمته الله
- 227 ————— ومنهم أبو علي محمد بن عبدالوهاب الثقفي رحمته الله
- 227 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن منازل النيسابوري رحمته الله

- 228 ومنهم أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج رحمته الله
- 231 ومنهم أبو الخير الأقطع التيناتي رحمته الله
- 233 ومنهم أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني رحمته الله
- 235 ومنهم أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري رحمته الله
- 236 ومنهم علي بن محمد المزين رحمته الله
- 237 ومنهم أبو علي الحسين بن أحمد الكاتب رحمته الله
- 238 ومنهم أبو الحسين بن حبان الجمال رحمته الله
- 239 ومنهم أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري رحمته الله
- 239 ومنهم مظفر القرميسيني رحمته الله
- 240 ومنهم أبو الحسين علي بن هند القرشي الفارسي رحمته الله
- 241 ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني رحمته الله
- 241 ومنهم أبو بكر الحسين بن علي بن بزديار رحمته الله
- 245 ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن المولد رحمته الله
- 247 ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم البصري رحمته الله
- 247 ومنهم محمد بن عليان النسوي رحمته الله
- 248 ومنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن سعدان رحمته الله
- 249 ومنهم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد رحمته الله
- 250 ومنهم أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي رحمته الله

- 251 ————— ومنهم جعفر بن محمد بن نصير الخواص رحمته الله
- 253 ————— ومنهم أبو العباس بن القاسم بن مهدي رحمته الله
- 254 ————— ومنهم أبو بكر بن داود الدينوري الرقي رحمته الله
- 255 ————— ومنهم أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الرازي رحمته الله
- 255 ————— ومنهم أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن سالم بن خالد السلمي رحمته الله
- 256 ————— ومنهم أبو الحسن بن أحمد بن سهل البوسنجي رحمته الله
- 256 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن خفيف الضبي رحمته الله
- 257 ————— ومنهم أبو الحسين بNDAR بن الحسين الشيرازي رحمته الله
- 258 ————— ومنهم أبو بكر الطمستاني رحمته الله
- 259 ————— ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري رحمته الله
- 259 ————— ومنهم أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي رحمته الله
- 260 ————— ومنهم أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمومة النصراباذي رحمته الله
- 262 ————— ومنهم أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري رحمته الله
- 262 ————— ومنهم أبو عبدالله أحمد بن عطاء بن أحمد الروذباري رحمته الله
- 263 ————— ومنهم أبو عبدالله محمد بن محمد بن الحسن الروغندي رحمته الله
- 264 ————— ومنهم أبو الحسن علي بن بNDAR بن الحسين الصوفي رحمته الله
- 265 ————— ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر النيسابوري رحمته الله

- 265 ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمدون القراد رحمته الله
- 266 ومنهم أبو عبد الله وأبو القاسم ابنا أحمد بن محمد المقري رحمته الله
- 267 ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد الراسبي رحمته الله
- 268 ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الخالق الدينوري رحمته الله
- 268 ومنهم أبو صالح سيدي عبد القادر الجيلي رحمته الله
- 282 ومنهم أبو بكر بن هوار البطائحي رحمته الله
- 283 ومنهم الشيخ أبو محمد الشنبكي رحمته الله
- 283 ومنهم الشيخ عزاز بن مستودع البطائحي رحمته الله
- 284 ومنهم الشيخ منصور البطائحي رحمته الله
- 286 ومنهم الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء رحمته الله
- 287 ومنهم الشيخ حماد بن مسلم الدباس رحمته الله
- 287 ومنهم الشيخ أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني رحمته الله
- 289 ومنهم الشيخ عقيل المنبجي رحمته الله
- 290 ومنهم الشيخ أبو يعزى المغربي رحمته الله
- 291 ومنهم الشيخ عدي بن مسافر الأموي رحمته الله
- 293 ومنهم الشيخ علي بن وهب السنجاري رحمته الله
- 294 ومنهم الشيخ موسى بن ماهين الزولي رحمته الله
- 296 ومنهم الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي رحمته الله

- 297 ————— ومنهم الشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رحمته الله
- 306 ————— ومنهم الشيخ علي بن الهيثي رحمته الله
- 307 ————— ومنهم الشيخ عبدالرحمن الطفسونجي رحمته الله
- 309 ————— ومنهم الشيخ بقاء بن بطو رحمته الله
- 310 ————— ومنهم الشيخ أبو سعيد القلوري رحمته الله
- 311 ————— ومنهم الشيخ مطر الباذراني رحمته الله
- 312 ————— ومنهم الشيخ أبو محمد ماجد الكردي رحمته الله
- 313 ————— ومنهم الشيخ جاكير الكردي رحمته الله
- 315 ————— ومنهم الشيخ أبو محمد القاسم بن عبدالله البصري رحمته الله
- 316 ————— ومنهم الشيخ أبو عمرو عثمان بن مرزوق القرشي رحمته الله
- 319 ————— ومنهم الشيخ سويد السنجاري رحمته الله
- 322 ————— ومنهم الشيخ حياة بن قيس الحراني رحمته الله
- 323 ————— ومنهم الشيخ رسلان الدمشقي رحمته الله
- 324 ————— ومنهم الشيخ أبو مدين المغربي رحمته الله
- 328 ————— ومنهم الشيخ محمد عبدالرحمن المغربي القناوي رحمته الله
- 330 ————— ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد المثلث رحمته الله
- 331 ————— ومنهم الشيخ أبو الحجاج الأقصري رحمته الله
- 334 ————— ومنهم الشيخ كمال الدين بن عبدالظاهر رحمته الله

- 334 ومنهم الشيخ قطب الدين القسطلاني رحمته الله
- 334 ومنهم الشيخ أبو عبد الله القرشي رحمته الله
- 335 ومنهم الشيخ محمد بن أبي جمرة رحمته الله
- 338 ومنهم الشيخ عبد الغفار القوصي رحمته الله
- 340 ومنهم الشيخ أبو الحسن بن الصائغ السكندري رحمته الله
- 341 ومنهم الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر رحمته الله
- ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى سيدي إبراهيم الدسوقي
- 349 القرشي رحمته الله
- ومنهم السيد الحسين النسيب أبو العباس سيدي أحمد البدوي
- 372 الشريف رحمته الله
- ومنهم الشيخ العارف الكامل المحقق المدقق أحد أكابر العارفين
- 383 بالله سيدي محيي الدين ابن العربي رحمته الله
- 384 ومنهم الشيخ داود الكبير بن ماخلا رحمته الله
- ومنهم العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن عبد الجبار النفري
- 391 رحمه الله
- 392 ومنهم الشيخ أبو الفتح الواسطي رحمته الله
- 393 ومنهم الشيخ علي المليجي رحمته الله
- 393 ومنهم سيدي عبد العزيز الدريني رحمته الله
- 394 ومنهم الشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي المرسي رحمته الله

ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد العرشي المرجاني رحمته الله

ومنهم الشيخ عبد الحق بن سبعين المرسى رحمته الله

395 ومنهم الشيخ محمد القونوي الصوفي رحمته الله

395 ومنهم الشيخ محمد العبدري رحمته الله

395 ومنهم الشيخ إبراهيم الجعبري رحمته الله

دار المطابع الحديثة
٣٢٩٥ - أبو الظاهر بومسعود الأندلسي